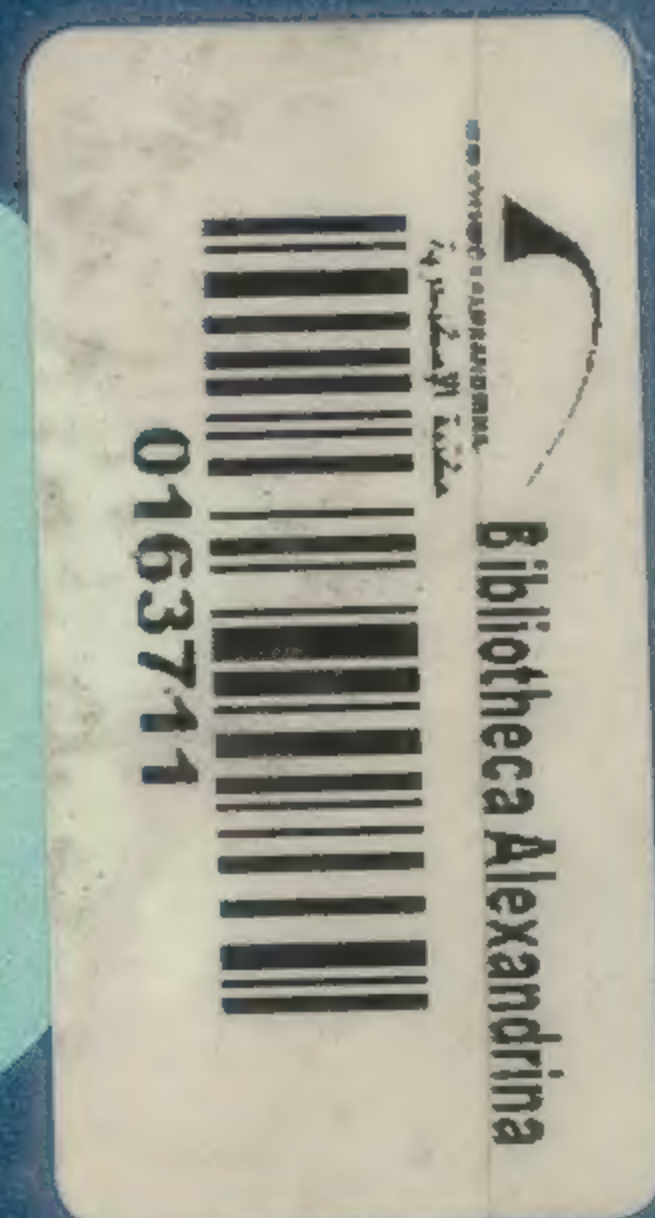


١

سلسلة
دراسات
إفريقية

الشعوب والسلالات الإفريقية

تأليف الدكتور محمد عوض محمد



دار المصرية للتأليف والترجمة

الشعوب والسلالات الإفريقية

تأليف

الدكتور محمد عوض محمد

دار المصنف للتأليف والترجمة

الفهرس

الصفحة

٣	تقديم بقلم السيد الدكتور عبد القادر حاتم
٩	مقدمة
٢٩	الفصل الأول : البشمن والهونتوت والأقزام
٤٦	الفصل الثاني : الزنجى الصريح
٧١	الفصل الثالث : شعوب البانتو - ١ -
٨٦	الفصل الرابع : شعوب البانتو - ٢ -
١٠٣	الفصل الخامس : النيلون الحاميون - ١ -
١٢٠	الفصل السادس : النيلون الحاميون - ٢ -
١٢٧	الفصل السابع : النيلون - ١ - الدنكا
١٧٧	الفصل الثامن : السلالات النيلية - ٢ - الشلك
١٨٨	الفصل التاسع : بعض شعوب السودان الجنوبي
٢٠٠	الفصل العاشر : شعب النوبا
٢٣٢	الفصل الحادى عشر : السلالات القوقازية
٢٤٦	الفصل الثانى عشر : البجه
٢٨٤	الفصل الثالث عشر : النوبيون
٣٠٨	الفصل الرابع عشر : القبائل العربية فى السودان
٣٢٦	الفصل الخامس عشر : الشعب المصرى
٣٣٧	الفصل السادس عشر : الأقطار المغربية
٣٤٥	الفصل السابع عشر : سكان الصحراء

الخرائط والرسوم

الصفحة	رقم الشكل	
٧	١	خريطة سياسية لإفريقية
٢٢	٢	اللغات في إفريقية
٢٣	٣	المجموعات اللغوية في القارة الإفريقية
٢٦	٤	خريطة إفريقية توضح حدود البانتو
٤٧	٥	صورة زنجي وقزم
١٠٧	٦	توزيع النيلين الحاميين
١١٣	٧	كوخ الماساي
١١٣	٨	نوعان من الماشية
١١٤	٩	وعاء من اليقطين
١٢٣	١٠	المجموعة الشمالية من النيلين الحاميين
١٤٣	١١	قبر صانع المطر
١٤٩	١٢	الدنكا وجيرانهم من النيلين
١٥٢	١٣	قبائل وجماعات الدنكا
١٩٢	١٤	الزاندى والقبائل المجاورة
٢٤٦	١٥	اللغات في الإمبراطورية الأثيوبية
٢٥١	١٦	الأقسام الرئيسية للبحر
٣٠٢	١٧	توزيع المجموعات النوبية
٣٢٣	١٨	المجموعات الرئيسية لسكان السودان الشمالى
٣٣٦	١٩	مراحل الاستقرار في ج . ع . م

الشعوب والسلالات الإفريقية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم

الدكتور عبد القادر حاتم

نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومى

إن إصدار سلسلة من الكتب فى الدراسات الإفريقية مشروع تفرضه أحداث هذا العصر الذى شهد تطوراً ضخماً فى شئون القارة الإفريقية ليس له نظير فى أى عصر وفى أية قارة .

ولقد كان العرب على صلة عميقة بالجنود بإفريقية منذ القدم عن طريق التجارة والهجرة وخاصة إلى السواحل الشرقية من القارة ، ولا تزال آثارهم شاهداً على ذلك .

وظلت إفريقية من بعد تسترعى اهتمام الشعوب العربية التى تستوطن الآن جزءاً كبيراً من مساحة القارة ، وكانت لها بها صلات وثيقة ، وطالما أحست بالعطف على شعوبها وأشفقت عليها من الاستعمار ووحوشه الضارية التى أنشبت مخالبها فى القارة ، واتخذت من ديارها « ممتلكات » تستغلها وتسطو على ثروتها ، وتسخر شعوبها لخدمة أغراضها ومطامعها .

ومرّ بالشعوب العربية أيضاً حين من الدهر كانت فيه منهمكة فى مكافحة الاستعمار تناضل من أجل حقها المقتصب فى الحرية والاستقلال . . إلى أن كانت ساعة الفجر ، وأخذت الغياهب تنجاب عن القارة وشعوبها .

كانت أول دولة نالت حريتها فى إفريقية المدارية هى دولة غانا ، وكان ذلك فى عام ١٩٥٧ بعد هزيمة العلوان فى السويس بعام واحد ! وبعد

هذه القطرة أخذت القطرات تتوالى حتى أصبحت غيثاً ، بل طوفاناً غمر القارة كلها بسيل متدفق من التحرر والنهوض ، ولم يلبث أن اكتسح تياره صروح الاستعمار حتى كاد أن يفنيه من الوجود .

وفي سنة ١٩٦٠ وما بعدها أخذت مقاعد الأمم المتحدة وهيئاتها المتخصصة تمتلئ بتلك الوجوه السمر الوسيمة ، حتى زاد عدد الأعضاء الإفريقيين في كل منها على الخمس والثلاثين دولة ، وارتفع صوتهم في تأييد الحق ، ونصرة العدل ، والدفاع عن كل قضية شريفة . ثم وحلوا صفوفهم وجعلوا من أنفسهم منظمة إفريقية موحدة ، تعمل لتحرير الشعوب ، وتنتصر لكل مبدأ إنساني نبيل .

هنالك أخذت الدول الاستعمارية تحسب للدول القارة الإفريقية حسابها ، وتحاول جاهدة أن تستميلها ، كما حاولت أن تستبقى شيئاً من نفوذها الغابر تحفظ به مصالحها ، وأخذت تمارس سياسة جديدة يصفها الناس بأنها « الاستعمار الجديد » ، ذلك الشيء الكريه الذي نراه اليوم ممثلاً أقبح تمثيل في الكونغو ، والذي يمجته كل إفريقي ، ويحذره كل مخلص للحياة الدولية الحرة الكريمة .

* * *

إن معركة السويس وهزيمة العدوان على مصر في سنة ١٩٥٦ وانتصار إرادة الشعب العربي في مصر على دول العدوان الثلاثي ، ترددت أصدائها في أنحاء القارة ، وانعكست آثاره على حركات التحرر في أقطارها . ولم تكن نهضة إفريقية محض صدفة ؛ إن علوان السويس الفاشل كان نتيجة لإحساس الاستعمار بأن الأرض تنهار من تحت أقدامه ، لقد هاله أن رأى جنوده تجلو مرعمة عن وادي النيل ، وقناة السويس تعود شئونها لأصحابها الشرعيين ، فخيّل له أن يتشبث بالأرض قبل أن يكتسحه موج الحرية القاهر . فلم تكن حرب

السويس موجهة إلى قطر بعينه ، بل كانت حرباً يشعلها الاستعمار على تحرر الشعوب بعامة ، والشعوب الإفريقية بخاصة .

وقد خرج الاستعمار من معركة السويس مذموماً مدحوراً ، وأدرك دعائه أن عهد الطغيان قد ولى إلى غير رجعة ، وأن شمس الحرية لا بد لها أن تبدد عهد الظلم والظلام ، وتنشر الضوء والنور في جميع الأرجاء .

إن المثال الذى ضربته الجمهورية العربية المتحدة بقيادة زعيمنا الملهم الرئيس جمال عبد الناصر ، والقلوة الصالحة التى قلمتها ، كان لها بلا شك أثرهما فى النهضة الإفريقية ، وهذا أمر نعتبط له كل الاغتراب ، ولكنه أمر يزيدنا قرباً وتآلفاً مع سكان القارة وشعوبها ويفرض علينا مزيداً من العناية بتفهم شئون هذه القارة ، والإلمام بمختلف أحوالها ، ومشكلات السكان فى كل قطر من أقطارها ، وقضايا التنمية فيه ، تعويضاً لمراحل التخلف فى ظل الاستعمار .

وما دامت الجمهورية العربية المتحدة تضطلع بهذا الواجب المقدس فلا بد لنا أن نقدم لأبناء الأمة العربية دراسات علمية إفريقية لكى نخلق وعياً إفريقياً لدى الرأى العام فى البلاد العربية ، فإن السياسة الحكيمة لكل دولة يجب أن تستند إلى قاعدة شعبية مستنيرة ، حتى تكون الشعوب وقادتها قوة متفاهمة متعاونة .

وبعد ، فإن الاهتمام بإفريقية ظاهرة نلمسها فى كل بلد من بلاد العالم حتى فى البلاد التى لا تربطها بإفريقية تلك الروابط التى تجمعنا وترجع إلى عصور عريقة فى القدم . ولا وجه للغرابة فى أن تلقى إفريقية هذا الاهتمام ، لأن الأسرة البشرية قد أدهشها أن ترى أعضاءها يزدادون هذه الزيادة الهائلة ، فكثرت التأليف عن القارة وسكانها ، ولغاتها وثقافتها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، حتى تكونت فى السنوات العشر الأخيرة مكتبة إفريقية ضخمة ، وهى كل يوم فى ازدياد .

وطبيعى أن تهتم الدار المصرية للتأليف والترجمة بهذا الموضوع الجليل
فتؤلف لجنة من المتخصصين فى الدراسات الإفريقية للإشراف على هذه
السلسلة التى تجمع بين التأليف والترجمة ٥

* * *

ويسرنى اليوم أن أقدم هذه السلسلة إلى قراء العربية ، كما يسرنى أن
يفتحها الدكتور محمد عوض محمد بكتاب عن « الشعوب والسلالات
الإفريقية » ٥

والله سبحانه ولى التوفيق ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
«سورة الحجرات»

• • •

في هذه الصفحات أضع بين يدي القارئ العربي ، فصولا عن السلالات والشعوب في إفريقية ، توخيت فيها السهولة واليسر بقدر الطاقة ، حتى لا أشق على القارئ العربي ، غير المتخصص ، بالإسراف في إيراد المصطلحات الفنية. وأردت في الوقت نفسه ، أن يكون الكتاب مفيداً للطلاب ، الذين يدرسون السلالات والأجناس .

ولم يكن بد ، ونحن نحاول رسم صورة واضحة وضوحاً كافياً ، للسلالات والشعوب ، أن نتجنب الإفراط في ذكر كل قبيلة إفريقية ، مهما كانت قليلة الخطر ، مع تركيز البحث في المجموعات الكبيرة ، والوحدات ذات الأثر الهام في تطور القارة . . . غير أننا رأينا من الواجب أن نولى شعوب وادي النيل والأقطار التي اتصلت بالعالم العربي عناية خاصة .

ولم يكن متاحاً لنا ، ونحن نود إخراج الكتاب في أقرب وقت ممكن ، أن نزوده بطائفة كبيرة من الصور والرسوم ، مما يفيد في التعرف على مظاهر الناس ، وبيئاتهم ، ولعل الحظ أن يسعدنا بتدارك هذا النقص في طبعة تالية . على أننا لم نقصر في تزويد الكتاب بطائفة من الخرائط النافعة ، التي رسم أكثرها خصيصاً لهذا الكتاب :

• • •

أما بعد فإن هذا السفر هو الحلقة الأولى من « سلسلة الدراسات الإفريقية »
التي تشرف عليها لجنة خاصة أنشأتها « الدار المصرية للتأليف والترجمة » ،
وبوصفى مقررأ لهذه اللجنة ، اتجهت الرغبة إلى أن أفتح هذه السلسلة ، وأن
أقوم بتأليف الحلقة الأولى .

وهذا تقدير كريم ، أحمد عليه اللجنة والدار ، كما أنى أتقدم بوافر
الشكر للسيد نائب رئيس الوزراء للشئون الثقافية والارشاد ، الدكتور
عبد القادر حاتم ، على تأييده وتشجيعه للعاملين فى هذا الميدان ، كدأبه فى
سائر الميادين الثقافية .

والله سبحانه وتعالى يهديننا سبيل الرشاد :

محمد عوض محمد

الجيزة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٥



(شکل رقم ۱)

مقدمة

كثيراً ما توصف إفريقيا بأنها منزل ذو ثلاثة أبواب : قارة ضخمة منعزلة عما يجاورها من القارات . ولكن هنالك ثلاثة مواضع تقربها من جارتها أوروبا وآسيا . هذه الأبواب الثلاثة : جبل طارق وبرزخ السويس وباب المندب ، ليست كلها ذات أهمية متشابهة في حركة المواصلات بين إفريقيا وما يجاورها . ومن المفيد أن ننعم النظر في كل باب من تلك الأبواب الثلاثة :

(أ) بوغاز جبل طارق طريق ضيق لا يكاد يتجاوز عشرة الأميال ، وليس عبوره من إحدى القارتين إلى القارة الأخرى أمراً شاقاً حتى لدى الشعوب البدائية . إن أكثر ما يهمنى من هذه الأبواب ونحن ندرس شعوب القارة ولسلاتها ، أن ننظر هل دخل الإنسان إلى هذه القارة منها أو من بعضها . وأرجح الآراء أن الإنسان في عهوده الأولى لم يدخل القارة الإفريقية من باب جبل طارق . فإن السلالات التي ظهرت في أوروبا في العصور الحجرية لم تكن مشابهة للسلالات التي تسود إفريقيا . ولم تكن هنالك حركة انتقال من أوروبا إلى إفريقيا . بل العكس هو الصحيح وهو أن الإنسان في عهوده الأولى قد تنقل وهاجر من إفريقيا إلى أوروبا ، وبذلك كان طريق جبل طارق مخرجاً للجماعات البشرية من شمال إفريقيا ولم يكن مدخلاً .

(ب) طريق باب المندب ، هو أيضاً طريق ضيق جداً ، وتكتنفه الجزر ، وأكبر الظن أنه كان في العهود البشرية الأولى أصغر مساحة ،

والقارتان أشد تقارباً . . . ولم يكن هذا الباب يوماً مشكلة جدية تعوق انتقال الجماعات الأولى من إفريقية إلى آسيا أو من جنوب الجزيرة العربية إلى الجانب الغربي للبوغاز . فهل دخل الإنسان قارة إفريقية من هذا الباب ؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تزال موضع جدل وبحث . . . إن الانتقال البشرى من آسيا لإفريقية عبر باب المندب ظاهرة ترى آثارها اليوم رأى العين ولا سبيل إلى إنكارها . فإن الآثار الثقافية الآتية من آسيا واضحة تماماً في الأقاليم الإفريقية المتاخمة للبوغاز وفي الأقاليم التي تليها . ومن أهم ما ترتب على هذه الظاهرة ما نراه في هضبة إثيوبيا ، من آثار ثقافية من جنوب جزيرة العرب . وما نشاهده من آثار عربية أخرى في شرق إفريقية .

هذا وليس يعرف أن هناك هجرة بشرية خطيرة حدثت في الاتجاه المضاد ، أى من إفريقية إلى آسيا . وغيرت الأوضاع الثقافية في الجزيرة العربية . صحيح إن ملوك إثيوبيا قد غزوا اليمن والحجاز . ولكنها كانت غزوة من الطراز الحربى ، ولم تترك على كل حال أثراً يستحق الذكر سواء من الوجهة السلافية أو الثقافية .

فطريق باب المندب إذن هو باب لدخول السلالات والثقافات أى الموجات البشرية المتتالية عبر القرون ، منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا . والتي لها أثر واضح في التكوين الجنى فى شرق إفريقية ، والجهات التى تليه ، حتى أواسط القارة على أرجح الأقوال .

(ج) برزخ السويس هو الطريق الثالث ، الذى ظهرت آثاره واضحة فى وادى النيل وشمال إفريقية . وبعض هذه الآثار وقعت فى وضوح العصور التاريخية . ولا سبيل إلى جحودها أو نكرانها . ولكن لا شك أيضاً أن هذه الظاهرة ترجع إلى عصور قديمة تسبق التاريخ المسجل بآلاف السنين .

إن جزيرة العرب كانت دائماً مستودعاً بشرياً عظيماً . ومُنْبَعثاً لموجات بشرية تتدافع في تيارات متتالية على مدى العصور والأجيال . كانت من قبل أكثر مطراً وأغزر عشباً ، ثم أخذت رطوبة الجو تناقص ، بعد انتهاء الزمن الذى أطلق عليه الباحثون اسم العصر المطير ، منذ نحو عشرة آلاف من السنين . فتعاقبت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية ، مندفعة نحو الأقطار المجاورة وقد غمرت هذه الموجات سهول الرافدين دجلة والفرات ، والهلال الخصيب الذى يحف بشرق البحر المتوسط ، ثم وادى النيل وشمال إفريقيا . وكان من أهم هذه الموجات وأسبقها في الزمان الموجات المتجهة صوب القارة الأفريقية عن طريق باب المندب أولاً . ثم طرق البحر الأحمر كلها ، وفي وسعنا أن نعتبر برزخ السويس وسواحل البحر الأحمر وبوغاز باب المندب طريقاً واحداً عريضاً ، تسلكه الجماعات البشرية المتتالية ، في مسالك متعددة ، متقاربة أو متباعدة ، تبعاً للمصدر الذى ترجع إليه كل جماعة وافدة من مواطنها الأصلية .

ولا شك أن هذه الحركات البشرية الآتية من آسيا قد كان لها أثر عظيم في تعمير القارة الإفريقية بالسلالات البشرية ، وبضروب متنوعة من الثقافات . وهذا التيار الشرقى المتجه نحو إفريقيا قد امتدت آثاره إلى الجنوب الشرقى للقارة ، حيث نجد في المحيط الهندي جزيرة مدغشقر ، التى هاجرت إليها في موجات متتالية جماعات من جنوب شرق آسيا ، فتسربت بذلك سلالات من جنس الملايو . وحملت معها الثقافات الخاصة بها .

— ١ —

إن إفريقيا موزعة — بالتساوى تقريباً — بين السلالات القوقازية في الشمال والشمال الشرقى ، والسلالات الزنجية في الجنوب والغرب ، ومن المألوف أن يتساءل المرء عن مصدر السلالات ومن أين أتت . كان الرأى القديم السائد أن النوع البشرى نفسه قد نشأ في قارة آسيا ، وعلى الأرجح في الشطر الغربى

منها . . . ثم نزلت الجماعات بالتدريج ، وتطورت وتنوعت في أوطانها الجديدة ، تبعاً لتجمعها في بيئات جديدة متنوعة ، ومنفصلة نوعاً بعضها عن بعض . وطبقاً لهذه النظرية كان الرأى متجهاً إلى اعتبار القارة الإفريقية قد نزلت إليها الجماعات من الأقطار الملاصقة لها . وأن انتشار السكان والعمران الكامل قد تم على مدى مئات الآلاف من السنين .

كانت هذه النظرية تشمل السلالات الزنجية والقوقازية . وإن كانت الأولى أقدم بكثير من الأخرى وقد ظلت القارة الإفريقية وطناً للجنس الزنجي ، منفرداً بالحياة والانتشار في أرجائها الفسيحة . ومكتسباً في هذا العهد الطويل جداً تلك الصفات الجسدية التي تميزه عن سائر الأجناس ، والتي تلائم البيئات الإفريقية كل الملاءمة . . . وأخيراً أخذت السلالات القوقازية تتدفق ، فكان بعضها يتحد مع السلالات الزنجية ويؤثر فيها ثقافياً واجتماعياً . وبعضها يحتفظ بكيانه كجنس مستقل كما نشاهده اليوم في السلالات الحالية .

تلك هي النظرية القديمة التي لا يزال بعض العلماء « المحافظين » متمسكين بها . أى أنهم يعتبرون أن قارة إفريقيا لم تنشأ فيها الشعوب والسلالات التي تعيش فيها الآن . بل إنها تُحمرت بالسكان تدريجياً على مدى آلاف السنين ، والذين نزلوا بها واتخذوها وطناً . . . جاءوا كلهم من الشرق أو الشمال الشرقي .

على الرغم من أن هذه النظرية ظلت سائدة حيناً من الدهر فإنها لم تكن تخلو من بعض نقط ضعف أهمها أنها لم تفسر بطريقة مرضية كيف تكون الأقاليم الآسيوية المتاخمة خالية من الجنس الزنجي . مع أنه لا بد أن انتقل منها — إذا صحت النظرية — إلى القارة الإفريقية ، فليس في غرب آسيا المثل على إفريقية قطر أو إقليم يمكن أن يعد وطناً من أوطان الزنج الأصلية . . . وكل الزوج الذين نزلوا غرب آسيا — على قلتهم — دخلوها في العصور التاريخية الحديثة .

وعلى هذا الاعتراض يرد أصحاب النظرية ، أن السلالة الزنجية ، قد انتقلت كلها من وطنها الأصلي على مدى عشرات من آلاف السنين حتى نخلت منها أوطانها الأصلية (والمفروض أنها في جنوب الجزيرة العربية) . . فلا يحق لنا أن نتوقع أن نجد لها بقية في تلك الجهات بعد هذا الزمن الطويل ، وبعد أن أقبلت سلالات أخرى وطاردتها — أو طردت البقية الباقية منها — ومن الجائر بالطبع أن يكشف البحث العلمى فى مكان ما عن بقايا بشرية تنتمى إلى السلالة الزنجية ؛ فى غرب القارة الآسيوية . . .

وبعض العلماء يذهب إلى أبعد من هذا ، ويزعم أن المحيط الهندى الشمالى حديث التكوين ، كما يبدو من تشابه الحياة الحيوانية فى الهند وفى غابات إفريقيا . . كتشابه الفيلة فى القارتين . ولم يكن من الممكن أن تنتقل هذه الحيوانات الضخمة بأية وسيلة سوى الاتصال البرى المباشر بين القارتين فى الإقليم المدارى . لهذا يرى البعض أن الوطن الزنجى القديم كان إلى الجنوب من جزيرة العرب ، ثم غمرته مياه المحيط الهندى تدريجياً .

ويبدو أن بعض الباحثين لم يجدوا فى هذه التفسيرات ما يشفى الغلة . . ولم يجدوا مفرأ من أن يقرروا أن الجنس الزنجى نشأ فى القارة الإفريقية ، وأنه انحدر من سلالة قدماء استوطنت القارة ، وتطورت واكتسبت الصفات الزنجية من خلال الإقامة فى بيئة حارة رطبة . وذهب بعضهم إلى أن هذا الوطن الزنجى القديم كان فى الهضبة الوسطى ، فى الإقليم الشمالى من حوض نهر الكونغو .

وقد قبل كثير من الكتاب فى السنوات الأخيرة هذه النظرية . . اعتماداً على ما وجد فى هضاب كينيا من بقايا وأدوات . لا بد أن تكون من صنع الإنسان . أى أنهم اعتمدوا على ما وقفوا للعثور عليه فى باطن الأرض بعد البحث والتنقيب . وبالطبع ليست القارة الإفريقية من الجهات التى قتلت بحثاً وتنقيباً ومن الجائر أن تتمخض الحفائر الأثرية عن كل جديد وعجيب :

ومع ذلك لا بد لنا أن نذكر أن مسألة نشأة الجنس الزنجي في مكان ما بإفريقية . تثير بعض المسائل . . أهمها أن الجنس الزنجي ممثل في إقليم آخر في شرق آسيا ، بعيداً أقصى البعد عن إفريقية . إن الجنس الزنجي له وطن آخر في جزيرة غينيا الجديدة وما يليها من جزر ميلانيزيا^(١).

وإلى جانب هذا التوزيع المتباعد لجنس الزنج . هناك مسألة أخرى شبيهة به ، وهي توزيع سلالة الأقزام ، وهي كما نرى سلالة تمت للجنس الزنجي بأواصر القرابة ، وللأقزام توزيع يلفت النظر . فهناك الشعبة الأفريقية ، التي تعيش مبعثرة وسط غابات الكونغو وأواسط أفريقيا . . وهناك أقزام من نفس الطراز في آسيا . وهم الأندامان في الجزيرة المسماة باسمهم في المحيط الهندي . والسيانج في شبه جزيرة الملايو ، والآيتا في جزر الفلبين ، والتابيرو Tapiro في غينيا الجديدة (القسم الاندونيسي) . وليس من السهل أن نتصور كون هذا التوزيع المترامي الأطراف منشؤه القارة الأفريقية . . ومنها انتشر حتى بلغ جزر الفلبين .

ولعل المشكلة لا تزال تفتقر إلى مزيد من دراسة وبحث وكشوف جديدة ، ولا يلام المرء إذا احتفظ برأيه الأخير في هذه القضية ، حتى يتمخض البحث عن شيء يسهل التسليم بصحته .

— ٢ —

على أن اختلاف الرأي حول نشأة السلالات الإفريقية ، لا يضرنا كثيراً فيما نحن بصدده هنا من دراسة وتمحيص للسلالات الموجودة في القارة اليوم ، وصفاتها التي تميزها بعضها عن بعض ونظمها الاجتماعية وثقافتها

(١) راجع كتاب الأجناس البشرية Races of Man تأليف A.C. Haddon وما ورد به من تقسيم السلالات . كما يجد القارئ في ختام ذلك الكتاب آراء هادن في نشأة الإنسان حيث يقرر في صراحة أنه مؤمن أن تطور النوع البشري كان في جهة من آسيا Somewhere in Asia . ويجد القارئ فصلاً وافياً في الموضوع في كتاب سكان هذا الحوكب ، لمؤلف هذا الكتاب .

واقصادهما ونحو ذلك ، فلنمض إذن على بركة الله في معالجة موضوعنا هذا في الصفحات التالية .

ولا بد لنا قبل أن ندخل في صلب الموضوع أن نلفت النظر إلى أننا مضطرون في دراستنا هذه لأن نلجأ إلى بعض المصطلحات الأنثروبولوجية ، دون أن يكون في ذلك إسراف يتعذر معه متابعة هذه الدراسة ، على غير المتخصصين .

فلنذكر أولاً أن تمييز السلالات البشرية يقوم في الأغلب على دراسة صفاتها الطبيعية وسنورد فيما بعد الصفات الدامة التي استخدمها العلماء في تمييز جنس عن جنس وسلالة عن سلالة . وتقسم النوع البشرى إلى أجناس أمر قد فكر فيه الإنسان منذ زمان . والمذهب الحديث الذي أخذ به العلماء هو أن الأجناس البشرية ثلاثة :

الأول : الجنس المغولى ، المنتشر في شمال وشرق آسيا ، وفي الأمريكتين الشمالية والجنوبية إذ ليس ما يسمى الهنود الحمر سوى فرع من الجنس المغولى .

الثانى : الجنس الزنجى ، المنتشر أكثره في إفريقية جنوب الصحراء ، ومنه شعبة صغيرة في غرب المحيط الهادى . بقطع النظر عن الذين استوطنوا القارة الأمريكية وجزرها .

الثالث : الجنس القوقازى ، وهذا الاسم اصطلاحى بحث فإنه ليس جنساً خاصاً ببلاد القوقاز ، وهو منتشر في غرب آسيا ومعظم أوروبا والنصف الشمالى والشمال الشرقى من إفريقية .

هذه هى الأجناس الرئيسية للنوع البشرى ، وكل جنس ينقسم إلى سلالات .

وأهم صفة طبيعية لجأ إليها العلماء حديثاً في تمييز الأجناس الثلاثة هى شكل الشعر : فالجنس المغولى شعره مسترسل مستقيم خشن نوعاً كأنه شعر

الفرس وإذا قطعت الشعرة بدا قطاعها تحت العدسة المكبرة مستديراً . ويغلب على الشعر المغولي السواد .

أما الجنس الزنجي فيمتاز بشعر لولبي أو مجعد شديد التجعيد . بحيث تلتوى كل شعرة على نفسها أو تلتف عدة شعرات بعضها على بعض ، تاركة فراغاً بين كل مجموعة والتي تليها ، وهذا ما يسميه العرب الشعر المفلفل ، ولشدة التواء بعضه على بعض قلما يكون طويلاً . وتكاد النساء ألا يختلفن في هذا عن الرجال . والشعرة الواحدة يبدو قطاعها تحت العدسة في صورة شريط .

أما الجنس القوقازي فيمتاز بشعر مموج . فإذا أمسكنا شعرة في اليد نرى أنها ليست مستقيمة كالشعر المغولي ، ولا تتخذ صورة لولبية مثل الشعر الزنجي ، بل تبدو منحنية انحناءة يسيرة . وتحت العدسة يبدو قطاعها بيضياً . ومن الجائز أن يتخذ الشعر شكل الشعر المجعد وهذا يقربه نوعاً من الطراز الزنجي . ولكن بدرجة يسيرة ؛ فإذا كان التجعيد بصورة مبالغ فيها . فقد يكون ذلك بسبب اختلاط قديم أو حديث بسلالة زنجية .

والجنس القوقازي هو الجنس الوحيد الذي يتخذ الشعر في سلالاته ألواناً متعددة أحياناً فيظهر فيه السواد والشقرة والصهوبة واللون العسلي والبني والكستنائي والكتاني . وإن كان اللون الأسود هو الغالب على كل حال .

فتميز الأجناس إذن يعتمد قبل كل شيء على شكل الشعر . وهناك صفات أخرى لتمييز السلالات نذكرها باختصار فيما يلي :

القامة :

معظم النوع البشري متوسط القامة ، ودرجة التوسط في الرجال البالغين هي حسب الاصطلاح الشائع ١٦٥ سنتيمتراً . . وأكثر السلالات يقترّب من هذا الرقم . ويكون الشخص قصير القامة أو يميل إلى القصر في المصطلح الأنثروبولوجي . إذا كانت قامته تراوح بين ١٤٥ و ١٦٥ سنتيمتراً .

أما إذا انخفضت القامة عن الحد الأدنى للقصر ، عدت السلالات من الأقزام . ولا يقصد بالأقزام في دراسة الأجناس أولئك الأفراد الذين قد يوللون وسط جماعات متوسطة القامة ويكون قصر القامة هنا مجرد ظاهرة شاذة تسمى القماءة . أما الأقزام الحقيقيون فإن قصر قامتهم صفة عامة في السلالة كلها .

وهناك سلالات تمتاز بالقامة الطويلة . أى أن متوسط القامة في السلالة كلها يزيد على ١٧٥ سم (للرجال البالغين) . . ولا عبرة بوجود أفراد طوال القامة في جماعة أو سلالة . بل يجب أن يكون متوسط طول القامة مرتفعاً . ومعلوم بالطبع أن قامة المرأة في المتوسط أقل من قامة الرجل . وفي مقارنة السلالات لا بد من مراعاة ذلك .

لون البشرة :

كان أكثر اعتماد القدماء في تمييز السلالات على لون البشرة . وعلى الرغم مما يذهب إليه دعاة التفرقة العنصرية ، فإن اللون كميز جنسى فقد كثيراً من أهميته . ويرجع اختلاف اللون إلى وجود غدد تحت الجلد تفرز مادة ملونة لوقاية ما يلي الجلد من أنسجة حساسة من تأثير أشعة الشمس . وكلما زاد إفراز هذه الغدد زادت سمرة البشرة . والذين حرموا من هذه الإفرازات ، يكون هذا نتيجة حالة مرضية ، وهى البرص (بالإنجليزية Albism) وتكون الغدد أكثر إفرازاً في سكان الأقاليم التى تتعرض كثيراً لأشعة الشمس . وعلى مضي القرون وآلاف السنين يثبت اللون الداكن أو الأسمر ، فيصبح صفة جنسية . فإذا انتقلت جماعة سمراء البشرة إلى إقليم آخر أقل تعرضاً للأشعة فإن لونها لا يتحول عن الطبيعة التى اكتسبها في البيئة الأولى .

وجميع السلالات — مهما كانت تلبو بيضاء البشرة — فإن بشرتها تحمل قدرأً من المادة الملونة . . وتفاوت الألوان يرجع إلى تفاوت درجة الإفراز ونشاط الغدد .

واللون من الصفات الأساسية في قارة مثل إفريقية معرضة أكثر من سواها للأشعة ، وكلها أو جلها واقع في المنطقة المدارية أكثر من سائر القارات . فلا بد أن يحسب العلماء حساباً لهذه الصفة ، وإن لم يذهبوا مذهب القلماء في الاعتماد عليها كل الاعتماد في تمييز الأجناس ، لأن سواد البشرة أو شدة السمرة قد تبدو في غير الزنوج من السلالات ، التي تعيش في نفس البيئة ولأن اللون صفة تعوزها الدقة لأن مراتب السمرة والسواد والبياض يصعب تحديدها تحديداً علمياً .

شكل الرأس والنسبة الرأسية :

من الصفات التي يعتمد عليها الباحثون شكل الرأس : لأن بعض الرعوس طويل إذا نظرنا إليه من فوق أو عريض أو متوسط . . . وتختلف الرعوس في هذه الصفة من سلالة إلى سلالة . وقد اصطلح العلماء على تعبير حسابي لشكل الرأس بأن جعلوا نسبة العرض إلى الطول . . نسبة حسابية يكون فيها الطول ١٠٠ دائماً ، ويكون العرض وحده رقماً مختلفاً حسب الشخص الذي تعمل نسبته الرأسية وكأننا أمام كسر اعتيادي فيه العرض هو البسط والطول هو المقام فإذا كان شخص ما طول رأسه ٢٠ سم ، والعرض ١٥ أمكننا أن نوضح ذلك في شكل الكسور الآتية :

$$\frac{75}{100} = \frac{15}{20} = \frac{\text{العرض}}{\text{الطول}}$$

ونظراً لأن رقم ١٠٠ سيظل ثابتاً فإننا لا نحتاج إلى ذكره ونقول إن النسبة الرأسية لهذا الشخص هي ٧٥ .

وبناء على هذا اصطلح الكتاب على تقسيم الناس بحسب النسبة الرأسية كما يلي :

- طوال الرعوس Dolichocephalic النسبة ٧٥ فأقل
- متوسط الرعوس Mesocephalic النسبة من ٧٥ إلى ٨٠
- عريض الرعوس Brachycephalic النسبة من ٨٠ فأكثر

ومع ذلك فإن النسبة الرأسية ليست عظيمة الأهمية في القارة الإفريقية لأن أكثر السكان طوال الرعوس سواء في ذلك الزوج والقوقازيون . ولكن لها أهمية بالنسبة للأقزام وفي بعض جهات محدودة .

شكل الأنف :

لشكل الأنف أهمية خاصة في تمييز السلالات . والأنف قد يكون بارزاً أو متوسط البروز أو أفطس . . وهناك أيضاً اختلاف آخر حيث يكون الأنف عريضاً أو متوسطاً أو ضيقاً . وقد عملت لهذه الخاصية نسبة أنفية على نسق النسبة الرأسية ، فجعلنا الطول مقاماً والعرض بسطاً والنسبة هي نسبة العرض إلى الطول ، وكما رأينا في النسبة الرأسية اصطلاح على نسبة أنفية من ثلاث مراتب :

أنف ضيق	نسبته ٧٠ فأقل
أنف متوسط	٧١ - ٨٥
أنف عريض	أكثر من ٨٥

بروز الفكين ؛ وشكل الشفتين :

لا بأس في أن نأخذ هاتين الصفتين معاً . فبروز الفك معناه أننا إذا نظرنا إلى الوجه نظرة جانبية (بروفيل) نجد الفك بارزاً أكثر من المألوف . أو قليل البروز ؛ وهذه صفة شائعة في الجنس الزنجي الذي لم يتأثر بسلالات قوقازية . كذلك الشفاه تكون في الجنس الزنجي ممتلئة جداً ، وقد تكون الشفة مقلوبة ، فتبدو بذلك أكثر غلظاً ، ومع أن مثل هذه الصفة قد يوجد في جماعة من الجماعات ، فإنها كثيرة في الجنس الزنجي النقي الذي لم يختلط بسلالة أخرى .

أما السلالات الزنجية التي تأثرت بالجماعات القوقازية ، فإن اختلاطها هذا يكون له أثره في تلطيف الصفات الزنجية الأصلية من ناحية شكل الأنف

والفك والشفتين . ويكون له أثر في اللون أحياناً . ولكن لا يكاد يكون له أثر في شكل الشعر ؛ فإن توارث صفات الشعر الزنجي أقوى وأكثر وضوحاً عند اختلاط السلالتين الزنجية والقوقازية ؛ أما اللون فلا يتغير كثيراً إلا بعد مصاهرات واختلاطات طويلة الأمد .

هذه هي أهم الصفات الجسدية أو الطبيعية التي يلجأ إليها علماء الأجناس في تمييز السلالات ، وهناك صفات أقل أهمية ربما جاء ذكرها في الفصول التالية . وهناك أيضاً صفة لم تحقق كل ما كان يرجى منها من فائدة ، وهي تمييز السلالات بحسب مجموعة الدم . ونظراً لأن هذه الظاهرة لم يلجأ إليها كثير من العلماء ، فإننا نكتفي بالإشارة إليها ، دون أن نأخذها في دراستنا هذه بعين الاعتبار .

— ٣ —

من هذا يتبين لنا أن تمييز الأجناس والسلالات يجب أن يعتمد فيه على الصفات الطبيعية . غير أن الإلمام بالصفات الطبيعية يستدعي مجهوداً متصلاً في كل ركن وكل إقليم من أقاليم القارة ، وبعض تلك الصفات يتطلب استخدام آلات لقياس الرأس والأعضاء . وليس ذلك بالأمر السهل ويحتاج إلى زمن طويل ، ولا يزال الجزء الأكبر من القارة الأفريقية لم يلق العناية الواجبة في هذا الصدد ، من أجل ذلك اضطر الباحثون إلى الاعتماد في كثير من الأحيان على اللغة كوسيلة للتمييز بين السلالات . ومع أن من المسلم به أن اللغة ليست من الصفات الطبيعية ، بل هي من المميزات الثقافية . ويكثر فيها أن تقتبس جماعة أو سلالة لغة سلالة أخرى . فإنها مع ذلك لا غنى عنها للباحث في شؤون القارة الإفريقية ، وتقسيم سكانها إلى سلالات وشعوب ، حيث تكون اللغة هي الظاهرة الوحيدة التي ترشدنا إلى ما بين السلالات من نسب أو قرابة ، كما تدلنا أحياناً على الهجرات والانتقالات ، التي ابتعدت ببعض السلالات عن مواطنها الأصلية وسنجد حين ندرس الجماعات الإفريقية

أمثلة متعددة أخرى لظواهرات بشرية ، اهتدينا إلى فهمها بدراسة توزيع اللغات .

وتوصف القارة الإفريقية بأن ظاهرة اللغات فيها معقدة إلى أبعد الحدود . ويقول غير واحد من علماء اللغات إن ما بإفريقية من الألسن لا يمكن أن يقل عن ثمانمائة لغة^(١) وقد تعب علماء اللغات في تصنيف لغات إفريقية ، وأعيد التصنيف غير مرة ، وقد استقر التصنيف المبني على بحوث الأستاذين مينهوف ووسترمان Meinhof and Westermann فترة من الوقت وارتضاه الأستاذ سلجمان وجمهور العلماء . وهذا التقسيم على الصورة الآتية^(٢):

- | | |
|--------------------|-------------|
| ١ - اللغات السامية | ٢ - الحامية |
| ٣ - الهوتنتوت | ٤ - البانتو |
| ٥ - السودانية | ٦ - البشمن |

ويقصد باللغة السامية العربية ولغات إثيوبيا وبعض لغات أو لهجات في منطقة بحيرة تشاد والحامية يراد بها لغات البربر في إفريقية الشمالية ، ولغات الجلا والبجه ونحو ذلك .

أما لغة الهوتنتوت فإنها شقيقة لغة البشمن ، ولكن هناك فرقاً بينهما لأن عناصر حامية دخلت لغة الهوتنتوت فأثرت فيها . أما لغة البانتو فمجموعة كبيرة متشابهة جداً يتكلم بها زنوج أفريقية في الثلث الجنوبي من القارة المنحصر بين المحيطين الأطلسي والهندي .

أما اللغات « السودانية » فهي لغات عديدة جداً ، يتكلم بها عدد هائل من القبائل الزنجية في غرب إفريقية من نهر السنغال إلى نهاية خليج غانا .. وفي

(١) انظر Gresnberg (١٩٦٢) ص ١٥ وما بعدها .

(٢) راجع ص ٧ من كتاب سلجمان أجناس أفريقية (١٩٥٧) ، والخريطة الإيضاحية في نفس الصفحة .

إقليم السفانا الممتد في شمال الغابات الاستوائية . وكذلك تطلق على كثير من لغات نيجيريا وأعلى النيل وجبال النوبة ودارفور وجنوب أرض الجزيرة .



عن سلجمان ٧٥٥

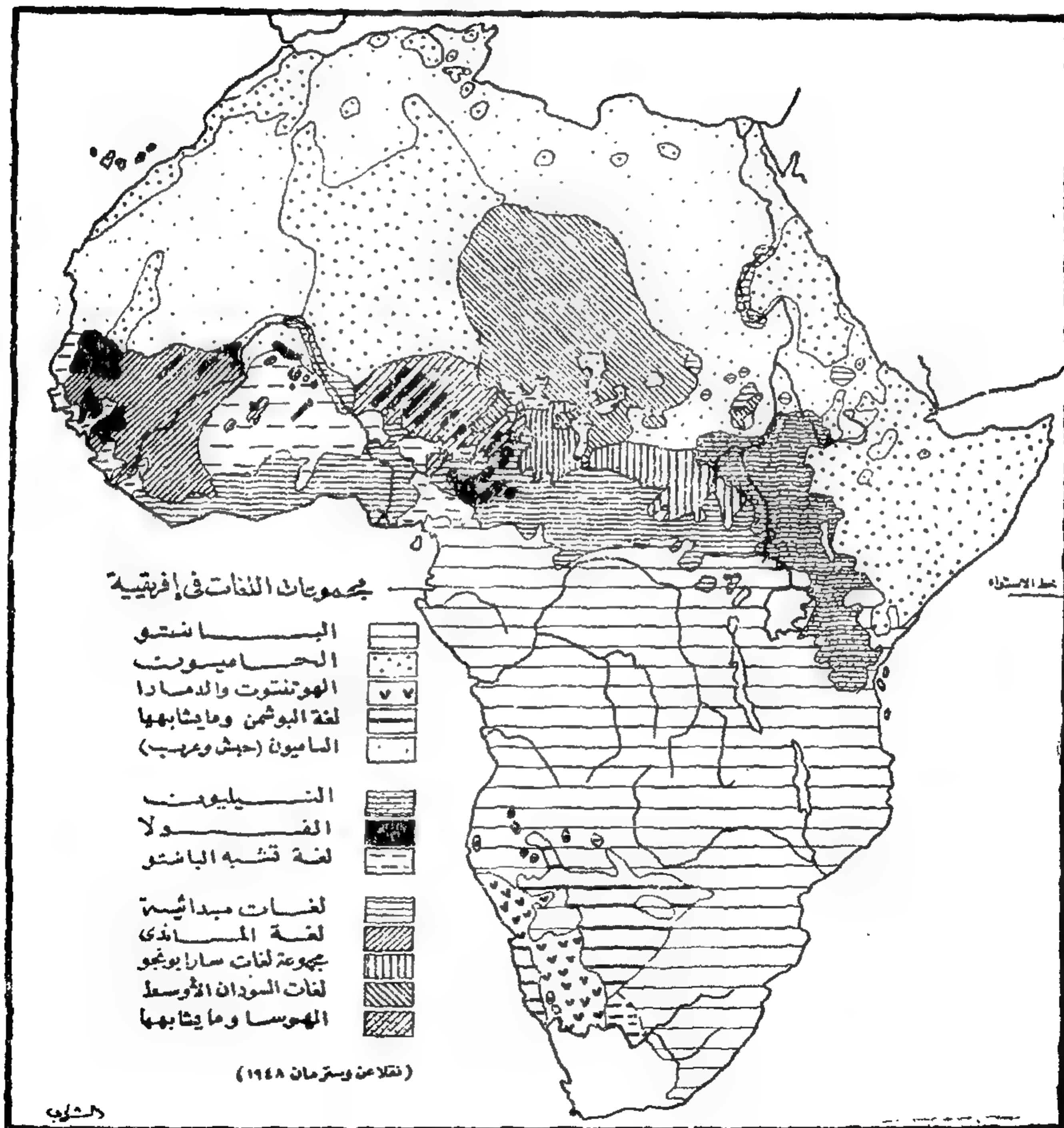
(شكل رقم ٢)

وهذا التنوع اللغوي الشديد الذي يبدو في اللغات « السودانية » يقابله ذلك الاتفاق الواضح بين لغات البانتو . وسنعود إلى ذكر هذه الظاهرة وما قيل في تحليلها عند الكلام على شعبة البانتو .

وهذا التقسيم للغات إفريقية إلى ست مجموعات على الصورة الموضحة قبلا . لم يعجب الأستاذ جرينبرج الذي رأى أن يقسم اللغات الإفريقية إلى خمس مجموعات كبيرة واسعة الانتشار وسبع مجموعات صغيرة تخص سبع

قبائل لم يستطع أن يحشرها في خمس المجموعات الكبيرة : وحسبنا هنا أن نذكر المجموعات الخمس الكبيرة ، وقد أطلق عليها الأسماء الآتية :

- ١ - مجموعة النيجر والكونغو وهي تشمل بضع مئات من اللغات .
- ٢ - الإفريقية الآسيوية ، ويقصد بها ما يدعى عادة اللغات السامية والحامية .
- ٣ - السودانية العليا : في أعالي النيل والكونغو :



(شكل رقم ٣)

٤ - مجموعة أواسط الصحراء : ويتبعها عدد محدود من اللغات موزعة في مساحة كبيرة .

٥ - لغات النبرات : التي تضم لغات الهوتنتوت والبشمن والسنداوى ونحوها .

هذه الأقسام الخمسة تعتبرها تقسيمات أخرى ، ولا محل للخوض في هذا كله ، لأننا سنعالج كثيراً من المسائل التي أثرت حول اللغات الإفريقية عند الكلام على القبائل الهامة التي تحتل أرجاء القارة .

- ٤ -

السلالات الإفريقية :

سبق لنا أن ذكرنا أن سلالات إفريقية تنقسم بوجه عام إلى قسمين كبيرين :

المجموعة الزنجية في الجنوب ، والمجموعة القوقازية في الشمال ، ومن الممكن رسم خط تقريبي ، نحاول فيه أن نفصل ما بين أوطان كل من المجموعتين .

يبدأ مثل هذا الخط من مصب نهر السنغال في غرب إفريقية ، ويلتزم مجرى النهر إلى نحو منتصفه . ثم يتجه الخط شرقاً إلى منحنى نهر النيجر إلى الجنوب من بلدة تمبكتو . ثم يمتد من هنا إلى بحيرة تشاد ويدور من جنوبها ، ويتجه شرقاً بانحدار إلى الجنوب حتى يصل إلى مجرى نهر بحر العرب . ويتبعه بالقرب من خط ٩° من درجات العرض . وعندما يقترب الخط من جبال النوبا ، يتجه نحو الشمال ويدور حول الجبال حتى يصل إلى نهر النيل الأبيض فيخترقه عند خط عرض ١٢° . ويمتد عبر الجزيرة في اتجاه غربي شرقي ، حتى يبلغ سفوح الهضبة الحبشية . وهناك يتجه نحو الجنوب في اتجاه رأسى تقريباً حتى يصل إلى المحيط الهندي بالقرب من نهاية نهر تانا ، ويصل

إلى المحيط الهندي في نقطة تقع جنوب الخط الثالث من درجات العرض الجنوبية .

وليس معنى هذا أن مثل ذلك الخط بمثابة خط فاصل قاطع مانع ، بين القوقازيين إلى الشمال منه ، والزنج إلى الجنوب ، بل إنه كما ذكرنا خط تقريبي وهو في كثير من أجزائه منطقة اختلاط بين الجنسين . وكل ما يمكن أن يقال في هذا الخط إن الأقاليم الواقعة شماله تغلب فيها السلالات القوقازية . والأقاليم الواقعة جنوبه تسودها السلالات الزنجية . . هذا مع تجاهل الآثار الاستعمارية الأوروبية ، التي لا يأخذها علم الأنثروبولوجيا بعين الاعتبار .

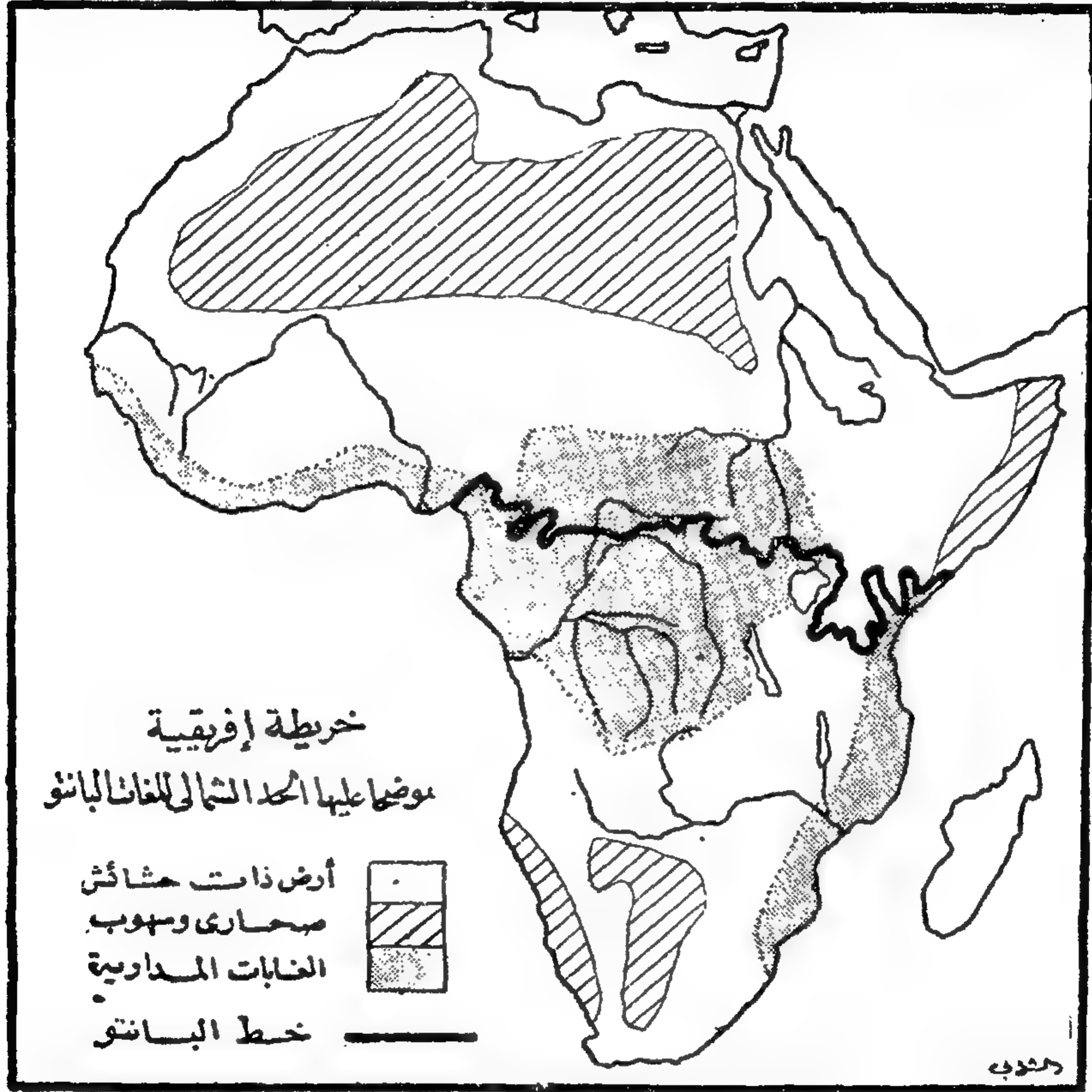
وهكذا نرى أن التقسيم الأساسي للسلالات في إفريقية ، هو انقسام سكانها إلى زنوج وقوقازيين . ويضاف إلى هذا أن الزنوج ينقسمون إلى قسمين : سلالات البانتو المتشابهة اللغات ، والسلالات السودانية المتعددة اللغات ، وهنالك خط واضح يفصل المجموعتين ، لعله أدق من الخط الفاصل بين القوقازيين والزنوج عامة . . وهذا الخط الذي يفصل بين البانتو وغيرهم يمتد من خليج بيافرا في الغرب ويخترق حوض الكونغو إلى بحيرة البرت ويدور حول البحيرات إلى أن ينتهي إلى مصب نهر تانا .

وبذلك تنقسم السلالات الزنجية إلى هذين القسمين الكبيرين . أما السلالات القوقازية فمن الممكن تقسيمها إلى قسمين : سلالات حامية ، وأخرى سامية ، والأولى وهي التي تحتل منطقة قرن إفريقية وبعض الجهات الواقعة إلى الغرب من البحر الأحمر . وبعض جهات إفريقية الشمالية . ويميز الكتاب بين الحاميين الشرقيين والحاميين الشماليين أو الليبيين . أما السلالات السامية فتجاور الحاميين في الشرق من إفريقية والشمال ، وتحتل معظم الهضبة الحبشية وحوض النيل وشمال إفريقية . ويذهب أكثر الكتاب إلى أن اللغات هي الفارق الرئيسي بين الحاميين والساميين .

والآن وقد ذكرنا هذه الأقسام المبدئية للقوقازيين والزنوج ، فإننا بهذا

نكون قد ذكرنا القسم الأعظم من سكان القارة الذى يزيد عدداً على تسعة أعشار السكان ولكن لا بد لنا مع ذلك من الإشارة إلى أمرين :

أولهما أن هناك سلالتين فى أقصى الجنوب الغربى تختلفان عن الجنس الزنجى ، ولا يمكن أن نعدهما فرعاً منه وهما سلالة البشمن والهوتنتوت .



(شكل رقم ٤)

ولا بد أن نذكر معهما سلالة أخرى أطلق عليها العلماء اسم الأقزام ويعيش معظمها مبعثراً فى غابات الكونغو وغابة إيتورى . هذه السلالات الثلاث لا بد لنا أن نضيفها حتى نكمل الصورة العامة للجغرافيا الجنسية الإفريقية .

الأمر الثاني الذى يجب الإشارة إليه : هنالك مجموعة من السلالات لها صفات مشتقة من عنصر قوقازى ، مثل ضيق الأنف ، والرقبة النسبية للشفتين ، والسمرة الملطفة . ولكن فيها من الزنج ، صفة الشعر اللولبي . . ولا شك أن هذه السلالات مكونة من خليط من السلالتين على مدى قرون عديدة . . ويؤيد هذا رأى الأوطان التى تعيش فيها تلك السلالات فى الشرق من إفريقية . . وهى موزعة ما بين شمال تنجانيقا ، وكينيا وأوغندا وصوماليا والطرف الجنوبي الشرقى من السودان، ومنها قبائل مشهورة مثل الماساى والسوك والتركانا وغيرها . ويطلق عليها اسم النيليين الحاميين .

وهكذا يمكننا وقد تناولنا بالتحليل سلالات إفريقية أن نلخص ما هدانا إليه التحليل من تقسيمها إلى الأقسام الآتية :

- ١ - البشمن والهوتنتوت والأقزام .
- ٢ - الزنوج من سودانيين وبانتو .
- ٣ - القوقازيون من حاميين وساميين .
- ٤ - أنصاف الحاميين ؛ أو كما يسمون الآن : النيليين الحاميين .

الفصل الأول

البشمن والهوتنتوت والاقزام

إذا تناولنا هذه السلالات في فصل واحد فإن ذلك لا يرجع إلى أنها متقاربة النسب أو متشابهة ، بل لأن عددها القليل لا يبرر إطالة الكلام عنها ، ومع ذلك لا بد أن نتحدث عن كل منها على حدة :

البشمن^(١)

قد لا يزيد عدد البشمن في أوطانهم الحالية على ٥٠,٠٠٠ ، ويوجدون موزعين في وسط وشمال صحراء كلها رى في الجنوب الغربي من إفريقيا ، وموقعهم الجغرافي هذا يعتبر من جهات الالتجاء التي تحتوى بها الجماعات ، ابتعاداً عن عدو يطاردهم أو يزحف من ورائهم .

والبقايا الأثرية ، تشير إلى أنهم جاءوا من الشمال حيث كانوا منتشرين في مساحة كبيرة في الأقاليم المدارية شمال وجنوب خط الاستواء ، ويؤيد هذا الرأي ما وجد من تصوير في الصخور في تنجانيقا بأسلوب يحاكي أسلوب البشمن في أوطانهم الحالية . . وربما وجدت أمثلة من هذا التصوير في جنوب إثيوبيا .

(١) إن هذا الاسم مشتق من الكلمتين الإنجليزيتين Bush-men ومعناها رجال الأحرار . ولم نشأ استعمال الترجمة العربية ، لأن الاسم الشائع الإنجليزى الأصل قد أصبح علماً .

وهناك أيضاً ضرب من الكرات الحجرية المثقوبة التي يستعملها البشمن ليقبلوا بها عصا الحفر التي يستخدمونها في استخراج الجذور من الأرض . وقد وجدت أمثالها في أوغندا وفي جنوب السودان . ويذهب الكثير إلى أن البشمن كانوا إلى وقت غير بعيد منتشرين في كثير من أنحاء الجزء الجنوبي لإفريقية . ومن المحتمل أن انتشار البانتو منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين كان سبباً - أو واحداً من الأسباب - في تراجع البشمن إلى أوطانهم الحالية ، كما تدل على ذلك آثارهم في التصوير على الصخر ، أو بعض العظام البشرية أو أسماء بعض المواضع .

وقد اضطروا إذن تحت ضغط شعوب أكثر عدداً إلى التراجع تدريجياً ، حتى أن بعضهم قد وصل إلى الساحل الجنوبي الغربي في إفريقية ، حيث وجدهم البوير يعيشون على صيد السمك والتغذى بما تلفظه الأمواج من السمك والحيتان الضخمة وكان البوير يطلقون عليهم اسم مرتادى الشواطئ Strandloopers وقد انقرضوا - أو معظمهم - في العصر الحديث .

أما الصفات الطبيعية للبشمن فإن تمييزها سهل بالنسبة لسائر الإفريقيين ما عدا الهوتنتوت . الشعر لولبي جداً تتجمع فيه الشعرات تاركة مسافات من جلدة الرأس ، وهذا هو الطراز الذي يوصف بأنه مفلقل . والقامة أقرب إلى القصر أى نحو ١٥٨ سنتيمتراً ، وهذا الطول يبعدهم عن الأقزام ، والأطراف نحيلة والأيدى والأرجل صغيرة والنسبة الرأسية تقرب من ٧٥ : والرأس قليل الارتفاع ، ولون البشرة يميل إلى الاصفرار ، والجلد يتجدد بسهولة . الوجه قليل البروز ، مستعرض صغير ، بارز عظام الخدين والجهة منتفخة نوعاً ، والعيون ضيقة ، والجفون يعتريها التجعد . والأذن شكلها مربع وتكاد تخلو من الشحمة .

ومن الصفات التي اشتهر بها البشمن ما يعتري الجزء الأسفل من العمود الفقري من التقوس للأمام . وذلك بسبب بروز العجيزة بشكل واضح ٥

وفي النساء يتراكم الشحم بكثرة في هذه المنطقة ، وهذه الصفة أطلق عليها العلماء اسم استيتوبيجيا Steatopygia وتكثر هذه الصفة عند البشمن والهوتنتوت . وقد تظهر نادرة في جهات أخرى .

ويتكلم البشمن لغة خاصة ، رأى جرينبرج أن يجعل منها ومن عدد قليل آخر مجموعة منفصلة أو أسرة لغوية منفردة . وسماها أسرة الطقات The Click Family أى الأصوات ، التى تختلف عن جميع أصوات الحروف الأبجدية في جميع اللغات ، وبالطبع إن هذه اللغات لا تتألف كل ألفاظها من طقات ، بل ترد الطقة في بعض الكلمات ، ونظراً لأن هذه الطقطقة لا نظير لها في لغة أخرى جعلها الأستاذ جرينبرج أسرة فريدة ، وتجيء هذه الطقات في لغة الهوتنتوت وفي لغات البشمن ، كما أنها تجيء أيضاً في لغة السنداوى والهاتسا في تنجانيقا ، مما يشير إلى احتمال انتشارها قديماً في جهات أخرى في النصف الجنوبي من القارة .

على الرغم من التشابه بين لغات البشمن ، فإن لهم السنة تختلف من مجموعة إلى أخرى . ولذلك نرى لهم ثلاث مجموعات لغوية : في الشمال والوسط والجنوب . وكل واحدة من هذه المجموعات الثلاث تنقسم إلى أقسام . كل قسم منها خاص بقبيلة من القبائل ، أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم قبيلة على سبيل التجاوز ، مع أنها ينقصها أى نوع من التنظيم القبلى .

يتسمى كلٌّ من هذه « القبائل » باسم خاص ، لعله مشتق من اسم جد قديم تزعم الانتساب إليه . وليس هنالك أى نوع من السلطة المركزية تستطيع أن تفرض أى نوع من القرارات أو الأوامر على القبيلة كلها ، كما أنها لا تقوم بأى عمل مشترك لمصلحة القبيلة كلها وربما كان البشمن كلهم يشتملون على نحو مائة من هذه القبائل .

وتنقسم القبيلة إلى « عشائر » ، وكل عشيرة تتألف من بضع عشرة أسرة ويسمى أكثر الكتاب « عصابات » Bands . تزعم أنها ترجع إلى جد

واحد وتمتلك مساحة من الأرض تلتزمها ولا تكاد تخرج عنها . ولها في حدود أرضها نوع من الاستقلال ، وتفصل ما بين أرض كل عشيرة وما يليها حدود أو معالم واضحة كبعض الأحراج أو الأودية . ولا يجوز عبور هذه الحدود المحايدة ، إلا من أجل الزيارة النادرة . وإلا اعتبر اجتياز الحدود نوعاً من العدوان . والظاهر أن علاقة العشائر المتجاورة ليست دائماً ودية . لأنهم أحياناً يخشون جيرانهم ، ولا يجازفون بعبور أرضهم حتى ولو كان يصحبهم بعض رجال السلطة من الأوربيين .

ومع ذلك فقد يحدث بعض التعاون بين العشائر المتجاورة ، وربما استنجد الضعيف بجاره القوي ، ولكن هذا ليس كثير الحدوث ، ولا يدوم زمناً طويلاً ، بل ينتهي بمجرد زوال الأسباب التي دعت إليه .

هذا التعاون بالطبع - إذا حدث - لا يكون إلا بين المتجاورين ، أما العصابات المتباعدة فلا يكاد يعرف بعضها بعضاً ، وليس بينها صلة .

ولكل عشيرة رئيس ليس له صفة الزعامة الدائمة ، ولا تجب له الطاعة في الأمور العادية ، ولكن له بعض النفوذ « التقليدي » ، وله وظائف تقليدية لا بد أن يتولاها ، فإن العشيرة تنظر إليه بأنه المتصرف في شئون الأرض وما بها من موارد غذائية وماء ونار .

ونظراً لأن الزواج من النوع الاغتراقي ، والزوجة تعيش في عشيرة زوجها ، فإنه على مضي الزمن تكون العشيرة مؤلفة من أقرباء الزعيم وزوجاتهم ولعل هذا أيضاً مما يوجد ضرباً من الصلة بين العشيرة والعشيرة التي تتبادل معها الزواج ، ولا تكاد هذه الصلة أن تعدو ما يتطلبه الزواج من اتصالات وقتية .

وتعيش العشيرة في شبه معسكر كبير . له خطة ورسم خاص ، بحيث تكون أكواخ المتزوجين منفصلة بعضها عن بعض بنحو ٧ أو ٨ أمتار ، في شكل دائرة كبيرة قطرها ٧٠ أو ٨٠ متراً ، ويكون كوخ الزعيم عند

بعض القبائل فى الجانب الشرقى من القرية وبعيداً عن الدائرة بيضعة أمتار ،
وفى وسط المعسكر شجرة تكون مجتمعاً للرجال وتقام حولها الحفلات :

ويعيش الأولاد والبنات فى كوخ صغير بقرب كوخ الأبوين ، حتى
إذا تجاوزوا الرابعة وضع كل من الأولاد والبنات فى كوخ خاص . وعند
بعض العشائر ربما نام الأولاد بالقرب من الشجرة . أما البنات فيعمل لهن
كوخ خاص يعشن فيه تحت رعاية امرأة ناضجة تتولى تربيتهن وتثقيفهن ،
أما الصبية فيتبعون آباءهم الذين يلقنونهم أساليب الصيد والرماية ، وبعد أن
يوفق الصبي لصيد أول غزال يسمح له باستعمال السهام المسممة .

وتختلف الأكواخ فى الحجم والشكل من عشيرة إلى أخرى ، وهى فى
أبسط أشكالها عبارة عن مأوى ارتفاعه متر ونصف المتر . مكون من فروع
شجرة مغروسة فى الأرض بنظام نصف دائرى ومغطاة بالحشائش
والحطب :

ولكل عشيرة معسكر أو قرية دائمة ، هى التى يقضون فيها معظم السنة .
وقد يضطرون للانتقال منها إلى جهة أخرى دون الخروج عن حدود
منطقتهم . ويقود الحركة الزعيم . . حتى إذا وصل إلى المكان المناسب اختار
موضعاً لكوخه . وتبعه باقى العشيرة كل أسرة فى مكانها الخاص ، وتقوم
النساء وحدهن ببناء الأكواخ ، ويقوم الزعيم بإشعال نار مستخدماً لذلك
حطب الإيقاد . ولا يجوز أن يوثى بالنار من المعسكر الأول ، بل توقد النار
الجديدة وتأخذ منها كل أسرة ما تحتاجه :

والعنصر الهام فى حياة البشمن هو البحث عن الطعام ، وهو الشغل
الشاغل للعشيرة . . وهم لا يزرعون ، ولا يربون ماشية بل يأخذون حاجتهم
من الطبيعة رأساً ، ويختلف طعامهم حسب البيئة التى يعيشون فيها ، وحسب
موسم السنة ولذلك يكون الطعام أحياناً معظمه من الصيد وأحياناً يكون
أكثره نباتاً وأشياء أخرى تجمع أو تلتقط . ومقداره يقل أو يكثر حسب

الظروف المناخية والنباتية . وبعض الجهات أغنى نسيباً من غيرها ، والجهات الشمالية أوفر صيداً ونبثاً ، من الجهات الوسطى .

وأهم حيوانات الصيد أنواع من الوعول والغزلان والأرانب . والصيد حرفة الرجل أما الجمع والالتقاط فمن حرفة النساء ، وأهم ما تجمعونه النسوة من نبات ثمار الأشجار الوحشية والدرنات والجذور والنبات الصالح للأكل . وهذه تكون متوفرة جداً بعد سقوط المطر ، كذلك تقوم النساء بجمع مقادير من الحشرات مثل الجراد والنمل والعقرب والنحل والضفادع والعضاه والثعابين ونحوها . ويقال إنهم يتناولون لحم جميع ضروب الحيوان ما عدا الضبع والخلد (الأول لأنه يأكل اللحم البشري ، والآخر لأن من عاداته ادخار الحبوب التي يشتهيها البشمن) .

وطريقة قنص الحيوان تتنوع بتنوع الفريسة وبحسب حالة الموسم ، وسقوط المطر ونحو ذلك ، فهم ينصبون الفخاخ للطير في فصل الجفاف ، لكي يصطادوا طيوراً مثل دجاج الوادي والحبارى والنعام والحيوانات الصغيرة . وبعض الأرانب والثعابين وبوجه عام الحيوانات التي تعيش في داخل جحورها تصاد بوساطة الدبوس أو بعضاً طويلة في آخرها سنارة .

والمطاردة من الوسائل المتبعة كثيراً ، فيجري الرجل وراء الفريسة حتى يعيها ثم يضربها بمطرقة . . وهو يطارد بعضها شتاء حيث يعوقها الوحل عن العدو . ويطارد بعضها صيفاً لأن حرارة التربة تحرق نعالها . وإذا ظهر قطع انبرى له رجلان أو ثلاثة ، فيعدون وراءه حتى يبلغ بالحيوان الإعياء فيقتله بالرمح أو بالحربة . . وقد يلجأ الصياد إلى استخدام القوس والسهم وهو يصنع من خشب وفي طرفه حديدة أو قطعة عظم مدببة .

والسهم تُسمَّم للصيد، إما بسم حيوان كالثعبان أو بعض الحشرات وإما بعصير نبات سام ، وإذا أصيب الحيوان ، أخذ الصائد في مطاردته حتى يسقط من شدة الإعياء ، فإذا جن عليه الليل دون أن يظفر بالفريسة ،

عاد ومعه زملاؤه في الصباح المبكر ، فيحاصرون المنطقة حتى يعثروا على ضالّتهم . لأن السم يكون قد أحدث مفعوله في أثناء الليل . ويكون معهم زعيمهم ليشرف على العمل الباقي .

ومتى وجلّوا فريستهم أجهزوا عليها ، ثم سلّخواها ، واستخرجوا منها الكبد ، وهذه هي أول شيء يأكله الصيادون قبل أن يرحلوا مكانهم ؛ بعد ذلك يستخرجون المعدة ، ويجعلون منها وعاء يحتفظون فيه بالدم ، ثم يقطعون الفريسة ويحملونها على أفرع شجر . . . إلى أن يصلوا بها إلى القرية . ويدعى الزعيم لكى يذوق أول قطعة من الفريسة ويحكم بمصالحها للأكل .

ويتولى الزعيم بعد ذلك توزيع الفريسة ، مع مراعاة نصيب الصائد الذي اصطادها ، وذلك طبقاً لعرف محدد صارم .

وهذا النظام الصارم لا يطبق إلا إذا كانت الفريسة حيواناً كبير الحجم ، أما ما يقنصونه بمفردهم من الحيوانات الصغيرة كالآرانب والغزلان ، فيكون من نصيب الأسرة ؛ بخلاف الزراف ونحوها فإنه يكون من نصيب العشيرة كلها .

وينتفع البشمن بكل جزء من الفريسة ، حتى العظام تحطم ويطهى ما بداخلها مع اللحم . ويستعمل جلد الحيوان الحديث السن في الملابس ، أو صنع حقائب لحمل الطعام والتبغ ، أما الجلود الكبيرة الحجم فتصنع منها الأغطية والنعال والسيور ، وأوتار القسي . . . وبعض العشائر الميسورة نسبياً تحتفظ ببعض الكلاب لتستعين بها على الصيد . والتعامل بين الجماعات يكون بالمبادلة ، إذ يختص كل منها بشيء يبادل به مثل المصنوعات الجلدية أو بيض النعام وما يصنع منه من عقود ، وكذلك المواد التي تتخذ لتسميم السهام ونحو ذلك .

ومهما كانت حياة الصيد مجتهدة مضنية ، وغير محمودة العاقبة دائماً ، فإنها هي الحياة التي يمارسها البشمن . ولا يخطر لهم ببال أبداً أن يلجأوا إلى الزراعة أو إلى تربية الماشية صغيرة أو كبيرة . وقد اكتسبوا بتجارهم مهارة

فى الصيد ، وفى معرفة طبائع الحيوانات ، وتتبع آثارها فى الصيد . ولهم قدرة على احتمال الجهد والمشقة والجوع . . واستخراج كل شىء تشتمل عليه البيئة ، حتى الماء الذى فى بطن الثرى قد يمدون فى الرمل أو التراب بوصاً ، ويمتصون به ما فى الثرى من الماء .

وربما تخفى الواحد منهم بريش النعام وحمل عصا ذات طرف منحني فى شكل العنق والمنقار ، ويتحرك مقلداً حركات النعام ، لكى يستطيع أن يقترب من سرب النعام ، حتى يصبح فى وسعه أن يرمى إحدى النعامات بالسهم .

وبمثل هذه الأساليب والحيل أمكن للبشمن أن يبقى على مدى الآلاف ، بل وعشرات الآلاف من السنين ، دون أن يلجأ إلى صناعة أخرى غير عمله المحبب وهو الصيد والقنص .

* * *

وللبشمن ديانة ولكن علمنا بتفاصيلها قليل ، فهم جميعاً يصلون للقمر ولبعض الأجرام السماوية . ولهم أساطير وخرافات تتصل بتلك الأجرام ، ولهم أيضاً اعتقاد فى كائنات خرافية ، تسيطر أو لها صلة ببعض الظواهر الطبيعية ، وأهمها الكائنات التى تؤثر فى سقوط المطر ، وكثيراً ما يتهلون لتلك الكائنات .

وقد كان للبشمن — إلى وقت قريب — فن جميل يمارسونه بالنقش على الصخر فى الكهوف والأركان ، ولا تزال صور عديدة من صنعهم موجودة فى جهات مختلفة ، والرسوم عادة عبارة عن صور متعددة الألوان ، تحكى أسلوب الحياة وأحداثها ، فبعضها يحكى غارة على قطع من الوحش أو حفلة رقص ، أو مناظر دينية سحرية يبدو فيها رجال لهم رعوس الدواب ، ولكن أكثر ما تمثله تلك الرسوم هو حياة الناس والحيوانات التى يعيشون من صيدها . ولقد كانت هذه المهارة الفنية قائمة إلى وقت قريب ، وبعض

آثارها حديث الصنع ، ولكنهم لا يمارسون هذه الفنون الآن والنقوش الوحيدة التي يرسمونها اليوم هي ما يحلون به بيض النعام الذي يجعلون منه وعاء لحفظ الماء .

هذا ويميل الكتاب إلى اعتبار البشمن أقدم الأجناس في القارة الإفريقية . وليس له مثل في أية قارة أخرى ، ولا شك أنه كان أوسع انتشاراً من الوطن المحدود الذي يعيش فيه اليوم . في بيئة ليست أفضل البيئات لحياة الصيد .

الهوتنتوت

على الرغم من أن الهوتنتوت يقترن اسمهم دائماً باسم البشمن ، ويشابهونهم شكلاً وثقافة ، فقد تأثروا بعناصر ودماء غريبة . إن حياة الصيد التي يحياها البشمن والتقاليد التي يلتزمونها ، والعزلة التي فصلتهم عن غيرهم ، وحالت دون اختلاطهم ، قد ساعدت على بقاء السلالة دون أن تتسرب إليها دماء أجنبية .

والهوتنتوت قامتهم أطول نوعاً ، والصفات الزنجية أكثر ظهوراً مما هي عند البشمن والرأس أكثر استطالة .

ولا شك أنه قد حدث بعض الاختلاط بالبانتو ، الذين جاؤروهم زمناً طويلاً ، ولا يزالون مجاورونهم اليوم . ويرى سلجمان أن الهوتنتوت قد اختلطوا في « الوطن الأصلي » بعناصر حامية . وكان لهذا الاختلاط أثره الثقافي أيضاً في اكتساب لغة الهوتنتوت خصائص مشتقة من لغات الحاميين ، وإن بقيت اللغة من أسرة لغات البشمن ذات الطبقات ، وعند سلجمان أن ذلك الوطن الأصلي واقع في منطقة البحيرات .

ويبدو أن هجرة الهوتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البشمن وقد التزموا طريقاً أبعد إلى الغرب فاخترقوا أعالي نهر زمبيزي حتى

وصلوا إلى الساحل الغربي ، ثم انحدروا جنوباً إلى منطقة الرأس . وكانوا أول الوطنيين الذين صادفهم المستعمرون الأوروبيون عندما نزلوا بتلك المنطقة .

إن التوزيع القديم للهوتنتوت كان يشمل الأطراف الجنوبية الغربية من مصب نهر كونيكي Kunene شمالاً إلى شبه جزيرة الكاب جنوباً ، ويمتد شرقاً إلى نهر كاي . أما في الوقت الحاضر فإنه قد يكون هنالك بقايا موزعة في جوانب هذا الوطن الكبير ، أما الجماعات المنظمة نوعاً ، ولها نوع من الحياة المشتركة ، فإنها منحصرة في إقليم محدود من إفريقية الجنوبية الغربية ، إلى الشمال من نهر أورنج . وهذا يدل على ما كان للهجرة الأوروبية من أثر في التضييق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم .

وقد كانت لهم من قبل قبائل عديدة منظمة ، وكل قبيلة تتكلم واحدة من اللهجات الأربع التي كانت سائدة . وترتب على هذه اللهجات تقسيم الهوتنتوت إلى أربع مجموعات : النامان والكورانا ، والجوناكوا ، وسكان منطقة الرأس والذين يعيشون اليوم في الجنوب الغربي من إفريقية كلهم من مجموعة نامان . ولعلمهم لا يتجاوز عددهم اليوم ٢٥,٠٠٠ . أما المجموعات الأخرى فقد هلك منها الكثير ، واندمج الكثير في أثناء اختلاطهم بالمهاجرين الأوروبيين وعبيدهم الذين صاحبوهم وجاءوا من جزر الهند الغربية ، وأطلقوا على هؤلاء المولدين اسم ملوئي منطقة الكاب Cape Coloured وغير ذلك من الأسماء ، وهؤلاء المولدون تبدو بالطبع فيهم صفات العناصر الداخلة في تكوينهم .

لا شك أن كثيراً من الهوتنتوت الذين انقرضوا قد جاءهم الانقراض عن طريق الاندماج ، لا في عناصر المهاجرين وحدها ، بل وفي السكان الآخرين من البانتو . . . ولهذا يرى سلجمان أن الهوتنتوت سلالة مشرقة على الانقراض . والباقون منهم (النامان) ينقسمون إلى بضع قبائل أو جماعات تشبه القبائل . كل منها تدعى ملكية الماء والمرعى في بقعة من الأرض .

وكل قبيلة تتألف من عشائر أبوية النسب ، اغترابية في زواجها . وفي كل

قبيلة عشيرة تتركز فيها رئاسة القبيلة . ولكن هذا الرئيس يشاور دائماً زعماء العشائر الأخرى في معظم شئون القبيلة ، وقد تتجمع القبيلة في بعض المواسم في مكان واحد ، ولكن في معظم السنة تعيش كل عشيرة بمفردها .

* * *

وأكبر ما يختلف فيه الهوتنتوت عن البشمن أنهم رعاة يربون البقر ذات القرون الطويلة والغنم ذات الأذنان السمينة . ويمارسون صنع الحديد ، ويتخذون منه أدوات ورماحاً وسهاماً ، ويصنعون من الخشب مواعين وصحوناً ، ومن البوص والخطب يصنعون الأسفاط وينسجون الحصر . ومن الجلود يتخذون قرباً للماء وأوعية لحفظ اللبن . وفي هذا كله ما يميزهم على البشمن . غير أنه لا يبدو أنهم كانوا يوماً ذوى براعة في نحت الصخور ونقشها ، وهو ما امتاز به البشمن .

والغذاء الرئيسى للهوتنتوت هو اللبن ، الذى يحفظونه في أوعية من الخشب أو الجلد . ويتناولونه بعد أن يختمر قليلاً . وعلى خلاف ما يفعل البانتو وغيرهم تقوم النساء لا الرجال بحلب الماشية وإلى جانب اللبن يتعاطون أنواعاً مختلفة من الخضراوات ، ولحوم الحيوانات التى يصيدونها ، وأساليبهم في الصيد لا تكاد تختلف عن أساليب البشمن ، غير أنهم يتفنون في صناعة الشراك ، ولا يستخدمون القوس والسهم . ولا يذبحون الماشية من أجل الطعام إلا في بعض الحفلات الدينية أو الاجتماعية الهامة .

في الأزمنة الحديثة نقصت مواردهم من الماشية ، حتى اضطر بعضهم إلى القيام ببعض الزراعة الأولية . وهذه لا تتم إلا في أضيق الحدود لاضطرارهم إلى الانتقال في بعض المواسم سعياً وراء الماء والمرعى ، ولكن انتقالاتهم محدودة فلا يتنقلون على نطاق واسع مثل البوشمن . ولذلك كانت أكوأخهم أكثر بقاء ، وأمتن بناءً .

والمستعمرة التي يعيشون فيها يحيط بها سياج دائري من العوسج له بابان واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ومنازل الأسر موزعة في أطراف الدائرة وفي الوسط حظيرة كبيرة للماشية . فيها أمكنة محجوزة للعجول والحملان . ولكل أسرة عدد من الأكواخ . . وهي تبنى بشيء كثير من العناية على شكل خلية النحل ؛ ويبنى الكوخ بأعواد من الخشب ، تغرس في الأرض ، وتوصل أطرافها العليا بقطع من الخشب بحيث يبدو الكوخ في شكل نصف كرة . . ويغطي الكوخ بطبقات من القش والحطب . وترصف الأرض داخل الكوخ بالطين . وينام الناس داخل الأكواخ على فرش من الحصى . . وعند الانتقال الموسمي ، يترك الكوخ وتحمل الأجزاء والأمتعة على ظهور الثيرة إلى المكان الجديد .

والملبس في الوقت الحاضر أوربي الطراز ولكنه فيما مضى كان من الجلد الناعم بعد أن يدعك جيداً حتى يزداد نعومة . فيتخذ منه إزار ورداء . . وكثيراً ما تتخذ نعال من الجلد أيضاً . . ويلبس النساء والرجال أنواعاً من الحلي أكثرها من النحاس وتتخذ النساء سيوراً من الجلد حول الأرجل . ويضع الرجال حول العضد والمعصم أسورة من العاج أو النحاس .

واحترام المرأة من التقاليد المرعية . وهذا يظهر بوجه خاص في احترام الرجل لحماته ، بحيث يتجنب الرجل النظر إليها . وكذلك في احترام الأخ لأخته ، حتى لا يكاد يخاطبها إلا بوساطة شخص ثالث : وقد تتولى الأخت الكبيرة عقاب أخيها إذا صدرت منه أعمال تنافي الاحترام الواجب . وكذلك تحترم العمة . أما الحال فإن الأطفال يعاملونه بحرية تامة .

* * *

ومحور الديانة والشعائر الدينية عند الهوتنتوت اعتقادهم في أبطال — آلهة : يرجع أكثرهم إلى تصورات وثنية . أو إلى تمثيلهم للقوى الطبيعية وبوجه خاص القوى التي ترسل المطر . ولعل أهمها تسوي جوا ب Tsui Goab وهو الذي

يقصد في المللات ويرتجى حين يمتنع المطر . . وهو يمثل قوة الخير ، وكثيراً ما يتعرض لقوة الشر المدمرة المتمثلة في جونا ب Gounab الذى من دأبه معارضة قوة الخير ، حتى يمحوها من الوجود . ثم تعود بعد ذلك إلى الحياة والازدهار ، وهذا يذكرنا بالعراك الدائم بين أوزريس وست .

وهناك بطل خرافى عظيم يؤمن به الهوتنتوت واسمه Heitsi-Eibib يتحدث الناس عن أعماله العظيمة . وعودته إلى الأرض من آن لآن ثم يموت ويعود مرة أخرى . وكان يصنع المعجزات . و « قبوره » منتشرة في صورة أكوام من الحجارة . ولا يكاد يمر أحد من الهوتنتوت بقبر دون أن يهمس ببعض الكلمات ويضيف حجراً أو قطعة من الخشب إلى « الضريح » .

هذا وقد كان للهوتنتوت عبادة للقمر ، أسوة بما نجده عند البشمن . ولكن ليس هناك دليل على أنهم لا يزالون محتفظين بهذه العبادة .

الأقزام

هذه مجموعة أو سلالة أخرى قليل عددها ، ولكن لها خصائص وصفات تلفت النظر ، وتسترعى الاهتمام ، وأول ما تجب ملاحظته ما أشرنا إليه في المقدمة من أن سلالة الأقزام ليست مقصورة على القارة الإفريقية ، بل تمتد انتشارها شرقاً إلى المحيط الهادى ، منتشرة بهذه الصورة أوسع الانتشار ولكن بأقل الأعداد . والعلماء يفرقون بين المجموعة الإفريقية والآسيوية بأن يسموها في إفريقية نجرللو Negrillo مستخدمين صيغة التصغير باللغة الإيطالية . وأما المجموعة الآسيوية فيدعونها Negrito مستخدمين صيغة التصغير في اللغة الأسبانية . وفي كلا الحالتين معنى العبارة الزنجرى الصغير ، وقلة عددهم حيثما وجدوا يرجع إلى اشتغالهم بالصيد والجمع والتقاط الغذاء ، مع العجز عن العمل المنتج . فيحتاجون إلى وطن عظيم واسع ، حتى يجدوا فيه الغذاء لأنفسهم وللحيوانات التى يصيدونها . وكانت هذه الحال ممكنة في العهود الإنسانية

القدمة ، وبعد ذلك تراحم السكان ، واحتلوا الأقطار واشتغلوا بالرعى وبالزراعة ، فلم يكن بد من أن يكتفى الأقزام بأجزاء محدودة من أوطانهم وأن يراحمهم فيها أناس اقتصادهم أكثر تعقيداً وأكثر إنتاجاً . ولهذا لا نجد الأقزام يعيشون وحدهم في إقليم واحد فيما عدا جزر الأندمان في وسط المحيط الهندي . وهذه أيضاً أفسدها الحكم الاستعماري بأن جعلها منفى لبعض الجماعات من المجرمين .

فالأقزام في إفريقية يحترفون الصيد والقنص والجمع . ولا شك أن أوطانهم فيما مضى كانت أعظم اتساعاً مما هي اليوم ، وكانت في الغالب تشمل منطقة بحر الغزال والبحيرات الكبرى ، والغابات والأدغال المنتشرة في حوض الكونغو ، إلى بلاد الكامبيون وسواحل غانا . وأكبر الظن أنهم كانوا يرحلون في هذه المساحات كلها قبل انتشار الزنوج فيها . أما اليوم فإنهم يعتصمون بأشد الغابات كثافة في أواسط إفريقية ، في حوض الكونغو ، وغابات إبتورى ونحوها . لا يكادون يتجاوزون الدائرة الرابعة شمال وجنوب خط الاستواء .

ويرجع استيطان الأقزام في إفريقية إلى زمن قديم ، ولا نستطيع أن نقدر قدمه . ونحن نعرف على كل حال أنهم كانوا معروفين لأهل مصر في عهد بناء الأهرام ، فقد كان حكام مصر يرسلون بعثات نحو الجنوب فيحملون سلعاً وذخائر إفريقية . وأحياناً كانوا يعودون معهم أحد الأقزام ، فقد كان الجالس على عرش الفراعنة يرى أن القزم المرح الذي يجيد الرقص واللعب وإثارة الضحك بحركاته ، هو أثمن شيء يأتي من الجنوب ، وقد خلف المصريون القدماء فيما تركوه من نقوش وكتابات رسوماً لغير واحد من هذه الأقزام .

ومن المؤكد أن البعثات المصرية في ذلك الوقت لم تكن تذهب إلى غابات الكونغو ، بل كانت تجد بغيتها في جهات أقرب بكثير من الأوطان الحالية .

والأقزام - إذا لم يختلط بهم دم غريب - قصار القامة جداً بحيث لا يتجاوز ارتفاع الواحد ١٣٥ سنتيمتراً ، والأذرع طويلة جداً بالنسبة للأرجل . وقصر الأرجل هو السبب الأكبر في قصر القامة ، ولون البشرة محمر داكن غالباً ، وقد يكون أسمر باصفار ، والجسم يغطيه شعر خفيف مثل الزغب .

والنسبة الرأسية إما متوسطة أو عريضة قليلاً (٧٩ إلى ٨١) . وهذا من أهم خصائصهم ، ونظراً لأنهم يعيشون وسط جماعات منخفضة نسبة الرأس فيهم ، فإننا إذا صادفنا ارتفاعاً في النسبة الرأسية في أى جماعة إفريقية ، فإن هذا في الغالب يكون نتيجة اختلاط بالأقزام . والأنف عريض جداً ، بين الفطس والعيون كبيرة وفيها بروز . والوجه قصير ، والفك بارز ، والشفاه غليظة . أما شعر الرأس فهو بالطبع من الطراز المفلفل جداً .

والأقزام يعيشون في جماعات صغيرة متباعدة ، وهذا ما تفرضه حرفة الصيد والجمع . وتقيم كل جماعة أكوأخها الصغيرة في مكان منزل من الغابة .

وهم يصيدون بالقسي والسهام المسمومة . . ويستطيعون التغلب حتى على الحيوانات الكبيرة . . . ولا ندرى ماذا كان شعور هؤلاء الأقزام ، حينما بدأ ينزل في أوطانهم الجماعات العديدة من البانتو . لكنهم اليوم على كل حال يعيشون في وفاق ووثام مع من يحيط بهم من البانتو . . وأصبحوا يتكلمون بلغاتهم ويبادلونهم السلع فيعطونهم من نتاج الصيد يأخذون منتجات زراعية مثل الموز والذرة .

ومن أمثلة الاختلاط ما روى عن الأقزام البامبوتى في غابات إيتورى ، من أنهم يشتركون في حفلات الختان مع جيرانهم من البانتو . فحين يحىء الوقت لإجراء هذه العملية في جهة من الجهات يشترك الأبناء من الأقزام وجيرانهم ، ويمارسون الطقوس اللازمة لهذه المرحلة الخطيرة في حياة الغلمان

الذين يصبحون بعدها أعضاء في المجتمع ، وينتقلون من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب .

وهناك أمران ليس من السهل القاطع فيهما برأى ، وهما لغة الأقزام وديانتهم .

ويجب أن نذكر ونحن نتحدث عن هذين الأمرين أن الأقزام يعيشون جماعات متفرقة في بيئة واسعة ، وكل فرقة تختلط وتعامل أناساً تجاورهم وتتصل بهم من آن لآن . فضرورة التعامل تقضى بأن نتحدث كل جماعة إلى الذين حولهم . وتتعلم كل مجموعة قزمية لغة جيرانهم من البانتو أو غيرهم . . ولذلك لا يكاد يعرف أن لهم لساناً خاصاً بهم ، أو أن هنالك بقية من لسان كان سائداً بين جموعهم .

أما العقيدة الدينية فلعل فيما يسود الأقزام من عقائد، مما يشتمل على عناصر أصلية خاصة بهم إلى جانب ما اقتبسوه أو تأثروا به من معتقدات جيرانهم من البانتو .

وليس يبدو أن عبادة السلف المنتشرة بين جميع البانتو ، لها مكان خطير في ديانة الأقزام. وأهم ركن في ديانتهم تمجيد قوة ينسبون لها إلى السماء . وبعضهم يراها متصلة بخلق الكون . وأحياناً يسمون هذا الكائن السماوى رب العواصف والبرق والرعد والمطر . وبعض الجماعات تذكر له اسماً خاصاً . والبعض يدعوه الجدد . ويقدمون إليه بعض القرابين مثل جزء من قلب الفريسة عندما يذبح ، أو قسط من عسل .

ومجموعة إيفى Efé التى تعيش في غابات إيتورى تدعو هذا الكائن باسم تورى . ويقولون عنه إنه خلق كل شيء . وإليه يؤول كل شيء ، وقبل انطلاقهم للصيد يتهللون إليه : « هبنا الطعام يا تورى ! » وهم يرون أن تورى هو الذى تعود إليه الموتى . وهو الذى يقتل بصواعقه الشريرين .

هذا وليس للأقزام قبائل ، وإن كانت لهم عشائر صغيرة . ومع ذلك فإن

بعض مجموعاتهم تسمى باسم واحد مثل الأكا Akka في غابات الكونغو
والبامبوتى والإيفى في غابات إيتورى . والباتوا في أوغندا .

* * *

تلك إذن السلالات الثلاث : البشمن والهوتنتوت والأقزام ، القليلة
العدد ، السائر بعضها إلى الانقراض ، ولكنها تمثل — على قلة عدد أفرادها —
ظاهرة خطيرة في القارة الإفريقية . وهى ظاهرة تعمير القارة على مدى
الآلاف وعشرات الآلاف من السنين ، ويشهد بقدم هذه السلالات أوطانها
المنعزلة ، التى اضطرت أن تلجأ إليها حين بدأت موجات المغيرين والمهاجرين
تزحف من الشمال والشرق ، فاعتصم البشمن وأقرباؤهم بالطرف النهائى
للقارة . واعتصم الأقزام بالغابات الشديدة الكثافة .

وقد زاحم الأوروبيون البشمن والهوتنتوت في أوطانهم ، وضيقوا سبل
العيش في وجوههم ، فلم يبق منهم إلا عدد يسير لا يتجاوز الستين أو
السبعين ألفاً . . . أما الأقزام فكانوا أوفر حظاً ، إذ نزلوا جهات أكثر
اتساعاً . وأوفر صيداً ولا يجاورهم البيض بل الزنوج ، وأكثرهم من البانتو .
ولذلك لا بد أن يكون عيشهم أرغد ، وعددهم أكبر ، وإن كنا لا نعرف
عددهم حتى ولا على وجه التقريب .

والسلالات الثلاث ، على كل حال عددها تافه إذا ما قورن بسكان القارة
الذين يقرب عددهم اليوم من ثلثمائة مليون نسمة .

الفصل الثاني

الزنجى الصريح

الزنجى الصريح النسب هو الذى يحمل دماء زنجية خالصة لم تختلط بدم قوقازى أو بضمن أو قزم . ويرى كثير من علماء الأجناس أن العثور على سلالات زنجية نقية يوشك أن يكون مطلباً عسيراً جداً . فقد انتشرت الجماعات الزنجية فى القارة ، وكان قد سبقها إليها جماعات أخرى . فخالطوهم وعاشروهم ثم جاء العهد الذى ظهر فيه القوقازيون الذين يطلق عليهم اسم الحاميين ، وأخذوا يتدافعون إلى القارة فى موجات متعاقبة ، واشتد امتزاجهم بالسلالات الزنجية امتزاجاً شديداً ، ظهرت آثاره فى كثير من الوحدات الزنجية سواء فى الصور والأشكال أو فى بعض النواحي الثقافية . ويزعم البعض أن تاريخ إفريقية الجنسى هو تاريخ هذا الامتزاج بالتدريج على مدى القرون .

أين إذن نجد الجنس الزنجى الصريح ؟ لعل المسألة مسألة نسبية ، وأن درجة الاختلاط تختلف وتتفاوت من إقليم إلى إقليم ؛ وأن السلالات الزنجية الصريحة ، هى التى احتفظت بالنصيب الأوفر من دمائها وتقاليدها ، وأكثرها لم يتعرض لغارات أو هجرات جديدة من قبل الجماعات القوقازية ، بسبب التجائها إلى أقاليم تحميها بعض الظواهر الطبيعية . ولذلك رأى سلجمان وغيره أن السلالات الزنجية الصريحة توجد بوجه خاص فى إفريقية الغربية فيما بين نهر السنجال ، إلى الحدود الشرقية لنيجيريا ، وقد يكون منها جزء فى الكونغو ، وهى على كل حال تمتد على طول خليج غينيا ، وتشمل الأقاليم

الساحلية التي تتمثل في جمهورية السنغال ومالي وغمبيا وغينيا « البرتغالية » ،
وغينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وغانا وتوجو وداهومى . ونيجيريا ،
ومن الممكن أن تضم إليها جمهورية أعالي فولتا .



(شكل رقم ٥) زنجى وقزم

ومع أن الزنوج الذين يقطنون هذه الأراضى ليسوا كلهم ممن يمكن
تسميتهم « صرحاء » فإنه لا بد لنا من أن نعرض للدراسة الإقليم الغربى كله
الممتد من نهر السنغال إلى بحيرة تشاد ، وينتهى جنوباً بشواطئ المحيط
الأطلسى .

والصفات الطبيعية التي تميز السلالات الزنجية هي اللون الشديد السمرة ،
والشعر اللولبى والقامة الطويلة (١٧٣ سم) والرأس طويل باعتدال (النسبة

الرأسية ٧٤-٧٥) وبروز الفك وغلظ الشفتين ، مع نسبة أنف عالية (أكبر من ٩٠ في الرجال) .

وتتأثر القامة بالاختلاط بالحاميين فتطول ، وإذا قصرت كان ذلك راجعاً إلى امتصاص عناصر قزمية ، كما أن هذه العناصر ترفع النسبة الرأسية إلى ٨٠ أو أكثر ويبدو التأثير القوقازي أيضاً في شكل الوجه والفم والشفتين . ولكن يظل الشعر لولبياً دائماً . والشعر على كل حال قصير جداً في الرجال والنساء .

وهناك خصائص اجتماعية وثقافية لا بد من الإشارة إليها في صدر الحديث عن الجنس الزنجي . لقد نشأت في الجهات الزنجية ممالك يسيطر عليها ملوك يتوارثون العرش ، وتشتمل المملكة على قبائل . وقد يوجد النظام القبلي دون أن يكون داخلاً في مملكة . . . وتنقسم القبيلة إلى عشائر ، والعشيرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع ، ومن لوازم كل عشيرة عادة أن يكون لها « طوطم » Totem وهو بمثابة شعار للعشيرة ويكون عادة عبارة عن حيوان من غير الحيوانات الأليفة ، وقد يكون من حيوان الأرض أو الماء ، ومن الجائز أن يكون نباتاً أو صخراً ، ولكن المألوف أن يكون من الحيوانات . والطوطم يرمز للعشيرة ، التي تزعم أحياناً أنه جدّها ، أو أنه ظهر هو والجد الأكبر في وقت واحد ، في أثناء زوبعة أو عاصفة ، أو أية ظاهرة من ظواهر الطبيعة العنيفة .

ويتبع الطوطمية نظام الاغتراب Exogamy فلا يتزوج الرجل امرأة من عشيرته ، ولو حدث ذلك لكان كارثة للعشيرة كلها ، وبعضهم يتجنب عشيرة أمه أيضاً علاوة على عشيرته الأصلية . وهكذا يسود الاغتراب المجتمع الزنجي كله سواء في وطنه الغربي الذي نحن بصددده هنا أو في جميع أوطانه الأخرى .

ومن الخصائص الأخرى التي للسلاسل الزنجية الغربية . أنها تبني كوخاً مستطيلاً ، وأسلحتها التقليدية تشمل القوس المدببة الأطراف ، أوتارها من

النبات ، كما يستخدمون السيوف والترس المنسوجة ولكنهم لا يستعملون
الهرادة أو المقلاع ... وملابسهم من نسيج من لحاء الشجر ، وليف النخيل ؛
ولا يتخذون من الجلد لباساً .

وقد انتشرت بينهم « الجمعيات السرية » وسنصفها فيما بعد . ويتخذون
طبولاً من الخشب ، وقد يقرعونها أحياناً في حفلاتهم الموسيقية ، ولكنها أحياناً
تستخدم وسيلة للتفاهم ، حتى قال بعضهم بوجود « لغة الطبل » "a drum
language" ويتخذون أقنعة ، ولهم مهارة في عملها ، وفي نحت الخشب
لمحاكاة الصورة البشرية .

والخيل والماشية نادرة جداً في الأقاليم الساحلية بسبب انتشار مرض النوم ،
والحيوانات التي يربونها مقصورة على الماعز والضأن والدجاج والكلاب :
أما الغذاء النباتي فقد كان في الأصل مقصوراً على الفاصوليا والقرع الكبير
والموز وبعض الفول السوداني ، وبسبب الاتصال بالبرتغال أدخلت زراعة
اليام وهو يشبه البطاطا والكسافا والذرة الشامية .

ومن أهم ما يمتاز به زنوج غرب إفريقيا البراعة الفنية ، وبخاصة في مسائل
النحت والفن التشكيلي ، ولا يكاد يضارعهم في ذلك جماعة في أي جزء من
إفريقية جنوب الصحراء . وقمة البراعة الفنية تتمثل في إقليم بنن Bennis
وأيفي IFE وما حولها من الجهات في الإقليم الجنوبي الغربي من نيجيريا . فقد
برع السكان هنا منذ قرون عديدة في النحت الفني للعاج وصناعة الأقنعة ،
وتماثيل البرنز . وعندما استولى الإنجليز على مدينة بنن سنة ١٨٩٧ وجدوا فيها
مجموعات ثمينة من روائع الفن ونقلوا منها إلى المتحف البريطاني في لندن ،
أنياباً منحوتة كاملة من العاج وتماثيل من البرنز في غاية الروعة والإتقان
الفني ؛ ولم تلبث التحف الإفريقية أن ملأت كثيراً من المتاحف في أوروبا
 وأمريكا .

ومعظم جهات إفريقية الزنجية لا يخلو من آثار فنية على هذا النسق ، ولكن
غرب إفريقية أكثرها عناية بإنتاج التحف الجميلة ، وفي غرب إفريقية

لا شك أن أهم الأقطار إنتاجاً وأكثرها ثروة فنية نيجيريا بعامة وجنوبها الغربي بخاصة .

* * *

أما الجمعيات السرية فمنتشرة في أقاليم غرب إفريقيا ، وهي تنظيمات ذات أشكال متعددة ووظيفتها قد تختلف من مكان إلى مكان ، وفي بعض الأحوال قد لا يكون عنصر السرية متوفراً ، ويستطيع كل شخص أن ينضم إليها بعد دفع الرسوم المقررة . وفي بعض الجمعيات قد يكون الالتحاق بها خاضعاً لشروط صارمة ، وقد تكون لها لغة خاصة بها وبعضها قد يرتكب أعمالاً تضايق رجال الحكم وقد تؤذى طائفة من طوائف المجتمع ، ولكن هذا النوع نادر . وأكثر الجمعيات السرية هيئات لا تتصرف إلا في حدود ما يهم المجتمع . وتحرص على مراعاة الصالح العام . . ومن أشهر هذه الجمعيات جمعية أجبوني عند اليوروبا وفي داهومي جمعية تدعى ييوى Yewe تلزم طقوساً دينية خاصة ، وعند قبائل إمبييو في الجزء الجنوبي الشرقي من نيجيريا جمعية إجبو ذات نفوذ كبير ، وأعضاؤها مرتبون في نحو ست إلى عشر طبقات . . . وبعض هذه الطبقات قد يلبس أفرادها أقنعة خاصة عندما يجتمعون . وبعض هذه الجمعيات السرية قد يتسمى باسم حرفة كأنه جزء من نقابة ومن أشهرها جمعية الحدادين .

وسنخصص هنا بالذكر جمعية تدعى بورو Poro وهي من أشهر الجمعيات وأوسعها نفوذاً . ونفوذها يشمل قبائل سيراليون وليبيريا . وهذه الجمعية تسعى دائماً لحفظ كيان المجتمع ، والمحافظة على تقاليد ولها أربع وظائف أساسية :

- (أ) تربية النشء من أبناء وبنات .
- (ب) المحافظة على الآداب الجنسية .
- (ج) السهر على استقامة الأمور السياسية والاقتصادية .
- (د) الاهتمام بتوفير الخدمات الاجتماعية والطبية والرياضية .

(أ) وهى تحقق رسالتها التربوية بوساطة «مدارس» أو ما يشبه الفصول المدرسية فى داخل الأحراج حيث تتولى تهذيب الأولاد والبنات (منفصلين) ويقوم المؤدبون من الرجال بتعهد فصول الصبية، وتتولى النساء تثقيف الفتيات، والغرض الذى ترمى إليه أن تنشئ كل صبي أو فتاة، بحيث يكون له ولها إلمام بشئون القبيلة وتقاليدها. وبالجملية يتحول «التلاميذ» من نشء جاهل إلى شباب وفتيات أعدوا الإعداد اللازم ليكونوا أعضاء نافعين فى المجتمع.

(ب) أما المحافظة على الآداب الجنسية فإن لها جمعية فرعية تسمى الهيموى Humoi رئيستها امرأة. ويحتل المناصب الرئيسية فيها أفراد من بعض أسر معروفة. وتسعى هذه الجمعية إلى المحافظة على قواعد الزواج، بحيث لا يسمح بالزواج إلا لمن كان زواجهم مطابقاً لتلك القواعد. وإلى جانب تحريم الزواج أو الاتصالات الجنسية بين الشديدى القرابة مثل أولاد الأخ أو أولاد الأخت يحرم زواج الرجل بأخت زوجته، أو بأية واحدة من قريباتها وهى على قيد الحياة. أو بأى امرأة كانت يوماً ما زوجاً لأخيه، أو بأمه أو أخته من الرضاعة.

وهناك قواعد أخرى عديدة تتصل بالمعاشرة الزوجية تحرمها الجمعية. ولا بد للناس أن يخضعوا لتعاليمها.

(ج) السهر على الحياة السياسية والاقتصادية: بحيث لا يتولى أى منصب خطر إلا من ترضى عنه الجمعية أو من يكون عضواً هاماً فيها. وتتولى الجمعية محاكمة أى شخص وجهت إليه تهمة خطيرة، فتختار لمحاكمته هيئة قضائية، يبقى اسم رئيسها مجهولاً. وتم المحاكمة فى جلسة سرية.

ولجمعية البورو Poro علامات خاصة : فإذا وضعت تلك العلامات في مكان خاص كان ذلك نذيراً للأفراد بأن يمتنعوا عن عمل بعينه . مثل صيد السمك حينما تجف الأنهار ، ويخشى أن ينقرض السمك إذا أفرط الناس في صيده من المياه شبه الراكدة . أو مثل البدء في حصد ثمر البطاطا قبل أن يتم نضجها . . . ولهم مشروعات اقتصادية عديدة ذات فائدة مؤكدة للمجتمع :

(د) أما الخدمات الاجتماعية ، فأهمها بلا شك العناية بالمرضى ، ويعنى بهذه الناحية جمعية فرعية أخرى أفرادها من أسر محدودة : هـ وهناك خدمات أخرى لتنظيم الحفلات الهامة في المناسبات التي تعنى المجتمع كله . وتنظم ما يتصل بها من غناء ورقص (١) :

لا شك أن مثل هذه الجمعية نفعا أكثر من ضررها : وإذا اصطدمت مع الحكومات فإنما يرجع ذلك إلى أنها تعمل في نفس الصعيد الذي تعمل فيه الهيئات الحكومية . وقد لا تتفق الآراء دائماً حول بعض المسائل :

وهذه الجمعيات كما ذكرنا من أهم خصائص الحياة في إفريقية الغربية ، ولكن لها وجود في بعض جهات الكرون والكونغو . وفي أعالي الكونغو وفي أعالي بحر الغزال عند الزاندي وإن كانت أقل خطراً . والراجح أن جمعية ماو ماو التي أسسها الكيكويو ودونخت الحكومة في كينيا ، لا بد أن تأثرت في إنشائها وأساليبها بمثل تلك التقاليد السائدة في إفريقية الغربية ، على الرغم مما يقال عن خلو إفريقية الشرقية من ظاهرة الجمعيات السرية :

* * *

ننتقل الآن إلى الحديث عن القبائل والشعوب التي تعيش في هذا الوطن الزنجي العظيم مبتدئين بالقبائل المتاخمة لنهر السنغال والممتدة نحو الشرق إلى بحيرة

(١) راجع مقالة K. L. Little عن الجمعيات السرية ص ١٩٩ وما بعدها من كتاب Cultures and Societies of Africa ١٩٦٠ تأليف أوتنبرج .

نشاد ، هم نعود إلى القبائل المتاخمة لساحل المحيط من جنوب السنجال إلى الكمرون :

وأول قبيلة - ولعل الأوفق أن ندعوهم شعباً - في جنوب نهر السنجال هم الولوف Wolof ويقال إن نهر السنجال في مجراه الأسفل يمثل حداً يفصل ما بين القوقازيين في شماله والزنوج الصرحاء في جنوبه. وهذا لا يخلو من الغلو . لأن الاستعمار الفرنسي قد أقام في هذا الإقليم مركزاً سياسياً وتجارياً هاماً في مدينة دكاكار وما حولها وانجذب إلى هذا الإقليم عدد كبير من الفولا وغيرهم ممن تغلب عليهم الصفات القوقازية .

أما الولوف فشعب يبلغ تعدادُه نحو سبعمائة ألف نسمة منهم ٦٥٠,٠٠٠ نسمة في جمهورية السنجال وخمسون ألفاً في غينيا . وأكثرهم مسلمون ، والسحنة والتقاطيع زنجية واللون شديد السمرة . قوام حياتهم الزراعة ، أما اقتناء الماشية فيكاد يكون مقصوراً على الطبقة الميسورة وأهم زراعاتهم الذرة الرفيعة ، وهذه الزراعة يقوم بها الرجال ، كما يقومون أيضاً بزراعة الفول السوداني وهو الغلة الرئيسية ، التي تأتيهم بما يحتاجونه من نقد . وعناية الشباب بزراعة الفول السوداني عناية فائقة ، ولو أدى ذلك إلى نقص في محصول الذرة لأنهم يستطيعون أن يستوردوه ويدفعوا ثمنه من إيرادات الفول السوداني .

أما الحرف فأهمها صناعة المنسوجات . يعاون فيها الرجال بزراعة القطن ، والنساء بغزله ثم يقوم بنسجه الرجال من طبقة النساجين ، وهناك طبقات أخرى من الصناع لحرفة دباغة الجلود ، والحدادة ونحوها .

ومن أهم خواص مجتمع الولف تعدد طبقاته ، وبعضها أرقى من بعض ، ولا يجوز لرجل أن يتزوج إلا من طبقته . . وأعلى الطبقات الأحرار المنحدرون من أحرار . تليهم طبقة أتباعهم الذين أصبحوا أحراراً ، ويأتي بعد ذلك في المرتبة الثالثة أصحاب الحرف مثل الحدادين ودباغى الجلود ، ثم طبقة المنشدين والمغنين ، ثم العبيد المتحررين أو نسلهم .

ومما يؤثر عن مجتمع الولوف أنهم كثيراً ما يؤلفون جماعات تعمل معاً ، وتتألف كل جماعة من نحو بضعة عشر فرداً . . وللشباب جماعتهم ، وكذلك للفتيات قبل الزواج ، أو بعد الزواج وقبل أن يلدن أطفالاً . وكل جماعة تقوم بالعمل مجتمعين ومتنافسين ، وأخص ما يقومون به أعمال الزراعة من إعداد للأرض وتطهيرها من الأعشاب ثم البذر والحصاد . وهم يرون أن عملهم مجتمعين يجعل العمل مثمراً ومحبيباً إلى نفوسهم . ومن واجب الشخص الذي يستخدمهم أن يوفر لهم حاجتهم من الطعام والشراب ، ويذبح لهم ثوراً أو ذبيحة مناسبة بعد انتهاء العمل . الذي يتنافسون فيه دائماً . وفي أكثر الأحيان تمنح مكافأة سخية من طعام ودراهم لمن يثبت له التفوق على زملائه .

وإلى الجنوب من الولوف شعب السرر Serer وهم يشابهونهم شكلاً وثقافة . ويقال إنهم أطول قامة (ومتوسط قامتهم يقرب من ١٧٥ سنتيمتراً) . ويجاورهم أيضاً شعب توكولور Tokolor . وكان الثلاثة داخلين في مملكة الولوف وقت ازدهارها .

* * *

وإلى الشرق من هذا الإقليم ، بل ويحتل جزءاً منه شعب كبير وهو شعب الماندنغو أو الماندى . . وهو منتشر ما بين المحيط الأطلسي غرباً إلى منحني نهر النيجر شرقاً . ويمتد جنوباً إلى قرب خط العرض التاسع ؛ وهو لا يحتل وحده كل هذه المساحة ، ولكنه بلا شك له النصيب الأوفر منها ، وهي الإقليم الكبير الذي يوصف بالسودان الغربي أو الفرنسي أيام كان لفرنسا النفوذ التام فيه . والوحدات السياسية التي ظهرت أخيراً في هذا الإقليم مثل جمهورية السنجال ، ومالي وغمبيا وغينيا لا تخلو من بعض قبائل تنتمي إلى شعب الماندنغو ، وإن كان ميدانه الأكبر في الجزء الأوسط الممتد من أواسط نهر السنغال إلى منحني نهر النيجر في إقليم تمبكتو . والدولة التي يتمثل فيها الماندنغو أكثر من سواها هي جمهورية مالي .

ويشتمل الماندنغو على عدة قبائل تحمل أسماء مختلفة مثل ديولا وكاسنكي وجالنكي وبمبارا وسوننكي ومالنكي وغيرها ، ويوصف الماندنغو شكلاً بأنه طويل نحيل ، تقاطيعه تقربه من السحنة القوقازية ، وغزير شعر اللحية إذا قورن بسائر الزنوج ، والبشرة خفيفة السمرة .

وقد نشأت في العصور الوسطى في الإقليم الذي يحتله اليوم الماندنغو دولتان الأولى دولة غانا القديمة ، وكانت عاصمتها كمبي صالح الواقعة بين نهري سنجال والنيجر ، أما الأخرى فهي مملكة مالي ، وعاصمتها لم تكن بعيدة عن باماكو عاصمة دولة مالي الحديثة .

وقد ازدهرت دولة مالي في العصور الوسطى وزارها الرحالة ابن بطوطة في القرن الرابع عشر في عهد الملك منسى سليمان : « وكلمة المنسى معناها السلطان » وقد ظلت هذه المملكة قائمة إلى أن استولى على الإقليم ملك الصنغاي عمر أسقيا . . وأقام في هذه الجهات دولة جديدة في أوائل القرن السادس عشر .

والماندنغو زراع مهرة يدين معظمهم بالإسلام . . ولهم نشاط في بعض الصناعات . والنظام الإقليمي يسوده النظام القبلي في جهات الريف . وفي بعض البلدان يسود نظام النقابات المهنية ، للمشتغلين بحرفة بعينها مثل الحدادة أو صيد السمك أو نحو ذلك .

أما الصنغاي ، الذين استتب لهم الأمر في إقليم منحني نهر النيجر ، فإن عددهم اليوم يزيد على المليونين . . وقد اختلطوا ببعض السكان الوافدين من الشمال ، مثل الطوارق والفولا ، ولكنهم مع ذلك شعب زنجي ظل محتفظاً بسيطرته على الإقليم برغم بعض الإغارات المغربية في آخر القرن السادس عشر ، وبرغم الاحتلال الفرنسي لمدينة تمبكتو العاصمة في القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أنهم شعب زنجي صميم ، فإن صفاتهم الطبيعية يبدو فيها أثر اختلاطهم بالعناصر الشمالية . واعتناقهم الإسلام قد قرب بينهم وبين

جيرانهم : ويمتازون بالقامة الطويلة ، والنسبة الأنفية المعتدلة والسمة المخففة ،
والشعر بالطبع لولبي كما هي الحال في الماندينجو وسائر السلالات الزنجية .
ولا شك أننا في إقليم أعالي السنجال والنيجر قد خرجنا عن الجهات التي تسودها
الدماء الزنجية الصريحة ، وأصبحنا في جهات يظهر فيها تأثير سكان أقاليم
السفانا والصحراء ، وكلما توغلنا شمالاً أو شرقاً ازداد هذا التأثير وضوحاً .

وقبل أن نذهب شرقاً في طريقنا إلى بحيرة تشاد لا بد لنا أن نلقى نظرة
على البلاد الواقعة إلى الجنوب من مملكة الصنغاي . إننا بذلك نقرب من وطن
السلالات الزنجية الصريحة ونرى في هذه الجهات وفي أعالي نهر فولتا ، شعباً
يسمى المصّي Mossi والقبائل الأخرى المتفرعة منه ، إن نهر الفلتا يعد من
أهم الأنهار التي تصب في خليج غينيا ومصبه في الحدود الشرقية لدولة غانا .
وقد أنشئت حديثاً دولة أعالي الفلتا إلى الشمال من غانا ومن ساحل العاج ،
والعنصر السائد فيها هم المصّي . وهم شعب زراعي ، وقوام الزراعة هنا الذرة .
ولم بعض الماشية وخيل جيدة ، وكثير من الحمير ، ولم ينتشر الإسلام كثيراً
في البلاد التي كانت ، قبل خضوعها للنفوذ الفرنسي ، تؤلف مملكة وطنية
عاصمتها في واجادوجو . وهي العاصمة الحالية للجمهورية . وعلى الرغم من
وجود المبشرين لا تزال الوثنية سائدة في هذه الجهات . وتتمثل في تمجيد
الشمس والأرض والأجداد .

وإذا اتجهنا بعد ذلك شرقاً نحو بحيرة تشاد وجدنا أثر الإسلام قوياً ، من
الناحية الثقافية . كما أن أثره كبير في الصفات الطبيعية كما رأينا في الصنغاي ،
وكما نجد أيضاً حول بحيرة تشاد في شعوب كانم وباجرمي وبرنو . وهكذا
تصل إلى شمال نيجيريا ، ونظراً لأننا سنخصص نيجيريا بالذكر في نهاية هذا
الفصل ، فإننا نتوقف في جولتنا هذه عند بحيرة تشاد ، ونعود إلى الجانب
الآخر من الغرب الإفريقي الممتد على سواحل المحيط الأطلسي وخليج غينيا .

إذا ابتعدنا عن جمهورية السنجال متجهين نحو الجنوب كان أهم الأقطار التي نصادفها جمهورية غينيا التي اشتهرت في إفريقية الحديثة ، بل وفي العالم ، بأنها الدولة التي آثرت الاستقلال التام مع الضنك على الاستقلال مع البقاء في الوحدة الفرنسية . . والسلالة السائدة لا تزال هي سلالات الماندنغو ، والزعيم سيكوتوري نفسه أمه من المالنكي وأبوه من السوسو ، وكلاهما من قبائل الماندنغو . وعلى الرغم من أن هذا الشعب يسود الإقليم ، فإن هنالك عناصر أخرى . وقد رأى الزعيم سيكوتوري أن النزعة والعصية القبلية قد تعوق الوحدة ، فاتجه في سياسته إلى إنماج القبائل بوساطة انتشار نظام نقابات العمال . وبذلك يجمع أبناء القبائل في اتحادات مهنية . وبذلك تنتقل عصية القبيلة إلى الروابط الوطنية التي تربط بين أبناء الوطن الواحد .

إلى الجنوب من غينيا نجد سيراليون ثم ليبيريا ، وإلى جانب سكانهما الأصليين مثل مندى وتمنى (ويعزى إلى التمنى إنشاء جمعية بورو السرية) وأمثالهم نزل في هذه البلاد عنصر جديد في المائة سنة الأخيرة ، وهو يتألف من العبيد الذين نالوا حريتهم سواء في بلاد خاضعة للحكم البريطاني أو الأمريكي ، وآثروا أن يعودوا إلى إفريقية ويسرت لهم إنجلترا العودة إلى سيراليون والولايات المتحدة سهلت عودتهم إلى ليبيريا وهؤلاء بالطبع جزء يسير ممن نال حريته . والكثرة العظمى بقيت في الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية . وأكبر الظن أن الذين أعادتهم إنجلترا إلى سيراليون هم العبيد الذين كانوا في إنجلترا نفسها .

مهما يكن من أمر فإن في كل من سيراليون وليبيريا عناصر جديدة تتكلم الإنجليزية . وبتأثيرهم انتقلت اللغة الإنجليزية إلى هذه البلاد وصارت هي اللغة السائدة في لهجة خاصة يتكلمها عامة الناس تدعى پدجن إنجلش Pidjin English . وهذه العناصر أكثر في ليبيريا ، وتسيطر على الإدارة والأعمال . وقد نزلت بالبلاد شركة مطاط أمريكية . ولها نفوذ كبير في البلاد . وهذا التنوع في السكان بين المهاجرين والوطنيين قد عاق التقدم والوحدة نوعاً ما في

ليبريا . ولكن أثره في سيراليون ضعيف بسبب غلبة العناصر الأصلية ووجود قادة وطنيين ممتازين :

وفي ليبيريا في الأقاليم الساحلية الممتدة إلى ساحل العاج المجاور سلاله تسمى شعب الكرو Kru ، مؤلف من عدة قبائل ، ويبلغ تعدادهم نحو ربع مليون نسمة . لهم لغتهم الخاصة بهم ، وصفاتهم الزنجية الخالصة توحى بأنهم لم يتأثروا بهجرة من الشمال ، بل لعل نزولهم بهذه الشواطئ يرجع إلى زمن قديم لأن لفهم لهذه البيئة البحرية واضح في تقاليدهم ونشاطهم فإن لهم مهارة عظيمة في الملاحة وفي صيد السمك ، وأمكنهم أن يتدربوا على العمل في البواخر ، فلا تكاد توجد سفينة تمر على موانئ غرب إفريقيا إلا وفيها عدد من البحارة من الكرو . كما أن لهم نشاطهم البري أيضاً ، إذ يشتغلون بزراعة الغلات الغذائية الخاصة بهذه الأقاليم . والتنظيم السياسي لمجتمعهم يشمل تقسيم الشعب إلى أقسام ، كل قسم له رئيسه الوراثة . ونظام مجموعات السن منتشر بينهم . ولهم أيضاً جمعيات « سرية » لها وظائف قضائية ودينية ، يستطيع أن يلتحق بها جميع الذكور من أبناء القبيلة ، ما عدا الأطفال .

* * *

ويسود الأقطار الحافة بخليج غينيا مجموعة لغوية عظيمة تشتمل على عدد كبير من اللغات ، وتدعى المجموعة باسم كوا KWA ويرى جرينبرج أنها أسرة لغوية قائمة بذاتها وتشتمل على لغات الكرو السابق ذكرهم ، ولغات مجموعة توي Twi المنتشرة في ساحل العاج ، وفي غانا ولدى شعب أشانتي وفانتى : وهي تدعى هنا لغة الآكان Akan ويلها المجموعة المسماة ايوي Ewe وتشتمل على بعض لغات توجولند وداهومي . وإلى الشرق منها المجموعة الكبيرة - ولعلها أكبر مجموعة من لغات KWA ، وهي التي تسمى يوروبا Yoruba المنتشرة في الجنوب الغربي من نيجيريا لدى الشعب الذي يسمى بنفس الاسم ، كما أن بعض شعوب نيجيريا الوسطى مثل نوبه

Nupé ، وسكان الإقليم الجنوبي الشرقي مثل إيبو IBO يتكلمون لغات قريبة من مجموعة KWA .

ويمتاز هذا الإقليم الساحلى الكبير ، بأنه كان مسرحاً لتكوين ممالك مستقرة ، بعضها لم يتزعزع كيانه إلا بعد إغارات بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الغربية . وقد ترتب على قيام تلك الدول الوطنية تكوين شعوب منظمة : مثل شعب الأشانتى وداهومى ، ويوروبا ونوبى وبنن ، الذى يعيش كل فى مملكة تحمل اسمه . وبعض هذه الممالك ، بل جلها كان قائماً قبل قدوم البرتغاليين فى القرن الخامس عشر .

ويتحدث غير واحد من السياح الذين زاروا هذه الأقطار عما شاهدوه فيها من مظاهر الآبهة والفخامة وبخاصة فى بلاط الملك . كما تحدثوا عما رأوه أو سمعوه من عادة تقديم الضحايا البشرية العديدة فى حفلات الحصاد السنوية . وبخاصة فى أشانتى وداهومى وبنن .

ولكن هذه التقاليد البادية الفظاعة ، ليست المقياس الذى يقاس به ما بلغته البلاد من التقدم السياسى والدينى والثقافى . فإن شعوب هذا الإقليم قد وصلوا إلى مكانة عالية من التقدم فى الاقتصاد والتجارة والحكم ، كما أنهم أبدوا استعداداً كبيراً للإلمام بالعلوم الحديثة ، حينما أتاحت لهم الفرصة .

وقد نشأت دولة الأشانتى فى القرن السابع عشر ، وظلت قائمة إلى وقت الاستيلاء البريطانى سنة ١٨٩٦ . وقد تألفت عندما تعرضت لعدوان عدو جنوبى من دولة تدعى دولة دنكيرا . وكان الأشانتى أقساماً مستقلة ، لا يستطيع قسم منها أن يقاوم ذلك العدوان وبعضها كان يدفع الشر بدفع الجزية . فلما طال الأمد تعلم الأشانتى استخدام الأسلحة النارية ، ووجدوا صفوفهم وهزموا الدنكيريين ، وكونوا دولة اتحادية . . يحتفظ فيها كل شعبة باستقلالها المحلى . وكل شعبة تختار زعيمها . ويكون الشخص الذى يختار زعيماً لإقليم كوماسى ، رئيساً للاتحاد وملكاً للأشانتى فمملكة الأشانتى أشبه

بالاتحاد الفيدرالى ، وهى مثال للممالك الأخرى التى نشأت بين شعوب الآكان فى غرب إفريقيا .

وأساس النظام الاجتماعى عند الأشانى أنه يقوم على قاعدة الوراثة عن طريق الأم ؛ وكل فرد من الأفراد - أياً كانت قبيلته - ينتمى إلى واحدة من ثمانى عشائر ، يسود نظام الأم كل عشيرة ؛ ولكل منها طوطم وتتصل نشأته فى عرفهم بظهور الأم الجلدة على وجه الأرض . ومع أن أمر هذه الطواطم يحيط به بعض الغموض ، غير أن الأطفال يتعلمون منذ الحداثة أن يكرموها ويحترموها ، وكل عشيرة لا بد لها أن تتجنب الزواج من عشيرة لها نفس الطوطم .

وكل ما له صلة بما يرثه الإنسان من منصب أو ممتلكات يتم دائماً عن طريق الأم ، ومع ذلك فإن للأشانى اهتماماً بالنظام البطركى أو الأبوى أيضاً . فإن الآباء ينقسمون أيضاً إلى أقسام يقال لها نطُورو NTORO . . وهذه الأقسام عددها اثنا عشر . ولكل منها أيضاً حيوانه أو طوطمه ، ولا يجوز الزواج بين الأفراد من هذه الأقسام ، وهكذا يكون كل شخص من الأشانى ينتمى إلى مجموعة من ناحية أمه ومجموعة أخرى من ناحية أبيه . ويعتقد الأشانى أن المرء يرث جسمه ودمه من أمه ، ويرث من أبيه روحه وشخصيته والمفروض أن كل مجموعة أبوية تمتاز بصفات مثل الجرأة أو الرأفة أو نحو ذلك . وهكذا استطاع الأشانى أن يفسروا انتماءهم للنظام الأموى والأبوى فى آن واحد .

ولا بد لنا أن نذكر أن هذه الأقسام الأموية والأبوية لها أثرها فى الحياة الاجتماعية ، ولكن لا أثر لها فى الحياة السياسية ، التى تعتمد على تقسيم المملكة إلى أقسام كالمديريات ، لكل منها رئيس يتبعه مراكز لكل منها رئيس يحىء فى المرتبة الثانية . وهكذا حتى نصل إلى العشيرة والأسرة ورئيسها هو أكبر أفرادها سناً . هذه الأقسام يتمتع كل منها باستقلال محلى ، والزعماء الكبار هم الذين يبايعون الملك ، الذى مقره مدينة خوماسى . . فهذا النظام العسكرى

الذى ولده الجهاد المشترك هو أهم المظاهر السياسية في المملكة ومن أهم أسباب الاستقرار فيها .

ولا يتم الكلام على الأشانتي دون إشارة إلى مسألة « الكرسي الذهبي » Golden Stool وهو رمز السلطان والرياسة فيهم . وقد ظهر هذا الكرسي لأول مرة في عهد الملك أوساي توتو Osai-Tutu الذى تولى الملك من عام ١٧٠٠ إلى عام ١٧٣٠ م . وهو الملك الرابع بعد تأسيس الدولة . كان في عهده « قسيس » محنتك يدعى أنتشى .. مثل بين يدي الملك وأعلن أنه جاءته رسالة من إله السماء بأن يجعل من الأشانتي شعباً عظيماً قوياً . والتمس من الملك أن يجمع الناس في خماسى ، فاحتشد خلق كثير في ساحة المدينة ، ولم يلبثوا أن رأوا السماء تكفهر وتتلبد بالغمام ، وتهب العواصف تحمل الغبار الذى يملأ الفضاء ويوشك أن يخفى ضياء النهار ، ثم اشتد قصف الرعد ودوت الصواعق وفي وسط هذا الإعصار الشديد ، والرياح العنيفة ، مدّ القسيس ذراعه إلى السماء ، فإذا هى تحمل كرسيّاً خشبياً بعضه يكسوه الذهب ، ولم يسقط هذا الكرسي إلى الأرض ، بل استقر على حجر الملك أوساي توتو . هنالك أعلن القسيس أن هذا الكرسي يحتوى روح أمة الأشانتي .. وأن عزهم ومجدهم ورخاءهم وقوتهم وسعادتهم تكن في هذا الكرسي . فإذا ناله عطب أو تلف كان ذلك نذيراً بالويل والشبور للأمة وإيداناً بزوال عزها وسلطانها .

وهكذا أصبح لأمة الأشانتي هذا الرمز المقدس شعار عزها ووحدتها ؛ وهذا الكرسي يجب ألا يمس الأرض ، ولم يجلس عليه آدمى قط ، وعندما ينقل مرة في العام إلى ميدان الحفل السنوى .. يتم نقله بعناية فائقة نظالة مظلمته الخاصة ، وتحيط به طائفة من الأتباع . وبعد وفاة الملك يودع كرسيه في المستودع الخاص بكراسى الملوك .. وفي هذه الدار تقام الحفلات في الظروف الهامة وتقدم القرابين لأرواح السلف ، لكن يظلوا على رعايتهم وتأبيد لهم لأمتهم ، وقد بات مألوفاً بعد ذلك أن يكون لرؤساء الأقاليم أيضاً كراسى ، ولها بيتها الذى تودع فيه . ولكن لا تكون بالطبع لهذه الكراسى « المحلية »

نفس الأهمية التي تنسب لكرسى الملك . فهذا رمز للوطن كله ، وتلك ترمز للإقليم الذى توجد فيه .

والمعتقدات الدينية للأشانتى - بقطع النظر عن تحول إلى ديانة أخرى - تشمل ثلاثة عناصر : إله الأرض أو روح الأرض Earth Spirit ، والإله الأسمى وهو كائن فى السموات العلى ، بعيد عن إدراك الناس ، وليس له دور خطير فى حياتهم اليومية . أما محور الحياة الروحية فهو الابتهاال إلى السلف عامة : وملوك الأشانتى السالفين على وجه الخصوص ، الذين تعقد لأرواحهم الحفلات وتقدم القرابين : وأهم هذه الحفلات وأشهرها حفلة أرواح السلف السنوية . وهى تعقد فى موسم الحصاد . وكانت فيما مضى يتقرب فيها بالضحايا البشرية^(١) لأرواح السلف ويقدم فيها النبيذ وبعض الغلة الجديدة ، بوساطة الملك نفسه مصحوبة بالكلمات الآتية :

لقد دارت السنون دورتها . وهأنذا أضع بين يديكم قرابين من الضأن .
ومقداراً من الأيام الجديدة لكى تأكلوا .

الحياة لى ولشعبى هذا الأشانتى .
إذا قامت النساء بزراعة الحقول : فساعدوهن .
حتى تجيء الغلة وافرة غزيرة :
ولا تدعوا مرضاً يحل بديارنا^(٢) :

ولا يجوز للملك ولا للشعب أن يأكل من المحصول الجديد ، إلا بعد أن يقرب للأرواح فى ذلك الحفل السنوى . ولم يعد هذا الحفل يعقد الآن . وقد وصفه غير واحد من الكتاب ، وكان أهم ما لفت نظرهم ما يسفك فيه من الدماء ، وما يشرب فيه من الخمر : ولكن بعضهم لم يفته ما للحفل من

(١) يرى بعض الباحثين أن الضحايا البشرية عادة تتألف من المجرمين الذين صدر حكم بإعدامهم وأرجى التنفيذ .

(٢) نقلاً عن سلجمان (١٩٥٧) ص ٦٣ اعتماداً على كتاب الأستاذ R. S. Rattray وعنوانه Ashanti (١٩٢٣) .

الأهمية في ربط ماضى الأشانتي بحاضرهم : وفي جمع الرؤساء من سائر البلدان ، والتأثير فيهم ، وتأكيدهم ولائهم وإخلاصهم ، حرصاً على وحدة الأمة ، وضماناً لتقدمها ، وتقوية للروابط بين جميع طبقات الشعب .

وطبيعى ألا تكون هناك حاجة الآن لعقد مثل هذا الحفل ، بعد أن أسست الدولة الجديدة ووضع لها دستور جديد واتحدت البلاد كلها بما فيها الأشانتي . وأصبح المهم أن يلتف شعب غانا كله حول حكومته ورؤسائه الشرعيين :

وقد قامت في داهومى في نفس الوقت تقريباً مملكة تشابه مملكة الأشانتي : وتختلف عنها في بعض التفاصيل . فالحكومة المركزية أكثر تسلطاً على المديرات وحفلاتها السنوية من نفس النوع ، وموت الملك تصحبه التضحية بكثير من الجنود والأتباع والنساء والعبيد ، حتى لا تترك روحه بمفردها . ومن معانى الحفل السنوى أنه يتيح الفرصة لإرسال عدد آخر من الأرواح لكى يكبر بذلك الأتباع لدى روح الملك الراحل .

ويذكر سلجمان ما اشتهرت به مملكة داهومى من وجود فرقة حرس من النساء أطلق الكتاب عليها اسم الأمازونات : . ويرى بعضهم أن السبب في تكوين هذه الفرقة التى يقدر عددها بنحو ٢٥٠٠ امرأة ، يرجع إلى ما رزقته المرأة في داهومى من قوة الجسم وفخامة المظهر ، ولا نعلم تماماً متى حلت تلك الفرقة . ولكنها كانت موجودة إلى نحو عام ١٨٧٠ ، وفى الغالب أنها تلاشت على أثر الاحتلال الفرنسى :

إذا اتجهنا من داهومى شرقاً وصلنا إلى حدود نيجيريا . ولعل من المفيد، نظراً لما لنيجيريا من الأهمية كوحدة من أكبر الوحدات السياسية ، أن نتكلم عنها كلها مرة واحدة ، على الرغم من اختلاف السلالات فيها ، وتنوعها : وهذا الاختلاف يفرضه اتساع رقعة البلاد ، وامتدادها من الشواطئ الجنوبية إلى بحيرة تشاد ، أى أنها من منطقة الغابات الجنوبية ، تمتد تدريجياً إلى أقاليم

السفانا الغنية ثم إلى السفانا الفقيرة . ولذلك كان لها من ناحية السكان والقبائل والسلالات خصائص لا نجدها في أية وحدة سياسية أخرى في الأقاليم الإفريقية الغربية ؛ ومن ميزات الطبيعة أنها يجري فيها نهر النيجر ورافده البنيو Benue ولا يخفى ما للأنهار من الأثر في الاتصالات ، وفي تحديد الأوطان ونحو ذلك .

وبدیهی أن يكون هناك تنوع كبير في السكان ، واختلاف ثقافي بين الشمال والجنوب وأن اختلاف ظروف الأقاليم ، ستعكس في نوع المؤثرات التي تعرض لها كل منها، ومع ذلك فإن هناك ظروفاً تساعد هذه القبائل والشعوب كلها على أن تتعاون وترتبط سياسياً ، وهو أن ليس هنالك تضاريس تعوق المواصلات ، بل تغلب السهولة على معظم جهات نيجيريا . وذلك يسر التجارة والاتصال في جميع العصور .

وقد تكونت دولة نيجيريا الحديثة ، فقضت الظروف أن تتألف من وحدات سياسية ثلاث ، يجمعها الحكم الفيدرالي . ومع أن الاختلاف الأكبر هو بين الشمال والجنوب ، فإن الشمال كان إحدى الوحدات السياسية ، أما الجنوب فقد قسم إلى وحدتين سياسيتين : واحدة في الغرب والأخرى في الشرق . . وهناك ثلاثة شعوب ، ظاهرة القوة في الأقاليم الثلاثة ألا وهي الحوسة في الشمال ، والإبو في الشرق واليوروبا في الغرب . هذه هي السلالات الكبيرة ، وفي نيجيريا ما يقرب من ٢٥٠ جماعة أو سلالة تتكلم كل منها لغتها الخاصة .

وتبعاً للخطة التي سرنا عليها في تتبع سكان الأقاليم الساحلية من الغرب إلى الشرق فإن أول ما يصادفنا حينما نخترق حدود نيجيريا الغربية هو شعب اليوروبا Yoruba .

إن أوطان اليوروبا تقع غرب مصب نهر النيجر . . ويدخل في أوطانهم الشريط الساحلي المطل على مياه المحيط .. غير أن شعب اليوروبا يعيش في

الداخل وليس له نشاط ساحلى ، ومدنه الشهيرة مثل إبادان كلها فى الداخل (العاصمة لاجوس مدينة حديثة ، بنيت فى عهد الاستعمار) وآخر مدن اليوروبا فى الشمال إيلورين Ilorin تبعد عن الشاطئ بنحو ٢٠٠ من الأميال .

وللإسلام أثره فى مدن اليوروبا الشمالية . وهناك تبشير واسع الانتشار ، لمختلف المذاهب المسيحية . غير أن بقايا العبادات القديمة (عبادة السلف ونحوها) لا تزال منتشرة . . كما أن هناك تمجيداً لإله سماوى يدعوونه أولرون Olorun كما أن هناك آلهة أخرى أقل خطراً .

ويعتبر اليوروبا فى طليعة الشعوب الإفريقية وأكثرها تقدماً . والحياة الاقتصادية تنسم بالجد والنشاط وتتناول الزراعة والمهن اليدوية والنجارة . . . وجميع هذا النشاط على اختلاف أنواعه مركز حول المدن ، التى طالما كانت أيضاً مركزاً للنشاط السياسى .

وقد اشتهر اليوروبا بإنشاء المدن المستقرة ذات الحجم الكبير . ومن أشهرها :

اسم المدينة	عدد السكان (حوالى سنة ١٩٥٥)
إبادان Ibadan	٥٠٠,٠٠٠
أيفى Ife	١٥٠,٠٠٠
أويو Oyo	٧٥,٠٠٠
إيلورن Ilorin	٥٠,٠٠٠

وهذا خلاف مدينة لاجوس العاصمة ، التى نمت فى عهد الاستعمار ويبلغ سكانها ٢٨٠,٠٠٠ نسمة أى أنها ليست أكبر مدينة فى الإقليم ، بل تفوقها إبادان وهى مدينة يوروية خالصة . . . وكل مدينة يوروية مقسمة إلى أقسام أو أخطاط . ويسكن كل خط فى العادة أناس من بطن واحد ، أو شعبة قبيلة واحدة ، أى أنه بين سكان الخط قرابة نسب ، ولهم مجلس يسهر على مصالح الخط وله رئيس تدين له الجماعة كلها . وهذا من أهم عناصر الاستقرار :

ولعل المدن والبلاد المتوسطة تشتمل على نصف السكان في إقليم اليوروبا كله : وبالطبع هناك عدد من البلدان الصغيرة والكبيرة .

ومما يلفت النظر أن المشتغلين بالزراعة يسكنون المدن في معظم السنة ، ويمارسون مهنتهم في الأراضي التي تحيط بالمدينة . فيذهب الزارع كل يوم إلى مزرعته ليقوم بما تتطلبه الزراعة من عمل ثم يعود إلى بيته آخر النهار . . وإذا كان موسم الزراعة يتطلب البقاء بجانب المزرعة أياماً فإنه يبني مسكناً صغيراً أو مأوى مؤقتاً يبيت فيه الليالي اللازمة ، ثم يعود إلى مسكنه الدائم في المدينة إثر ذلك . والمساحة التي تزرع حول المدينة تحيط بها من كل جهة إلى بعد يصل إلى ١٥ ميلاً . فالمدينة في هذه الحالة عبارة عن قرية عظيمة .

وهذه الظاهرة تكون أكثر وضوحاً في المدن الصغيرة أو المتوسطة ، فقد أوضح غير واحد من الباحثين أن المدينة التي سكانها من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ يكون نسبة اليوروبا فيهم ٨٠٪ أكثرهم حرفته الزراعة .

أما المدن الكبيرة التي تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ نسمة فإنها تشتمل على اليوروبا بنسبة ٢٠٪ ، لأن مثل تلك المدن تزدهم بأنواع النشاط التجاري والصناعي والفني ، إلى جانب رجال الإدارة والوافدين عليها من الخارج^(١).

ولا يؤخذ من هذا الكلام أن سكنى اليوروبا مقصورة على المدن ، بل هناك ما يقرب من النصف يعيشون في قرى كبيرة أو صغيرة ، ملتزمين النظام السائد في كل خط في المدن : أن يكون معظم سكان القرية أو كلهم من عشيرة واحدة .. ولهم مجلسهم ورئيسهم الذي يأترون بأمره .

ومع التسليم بأن النشاط الزراعي له المكان الأول عند اليوروبا ، غير أن هناك حرفاً عديدة يقوم بها المتخصصون مثل النسيج ، والصباغة ، والحداة ، وصب النحاس ، ونحت الخشب والعاج والقرع ، وصناعة العقود ،

(١) راجع مقالة الأستاذ : باسكوم Bascom في كتاب Ottenberg ١٩٦٠

والصناعات الجلدية ، وعمل الحلي والتماثيل ، وغير ذلك من الصناعات الدقيقة التي ينهض بها عدد محدود من المتخصصين .

وقد اشتهرت بنن Benin وإيفي العاصمة الدينية بما اشتملت عليه من ذخائر فنية ومن تماثيل منحوتة من الخشب ، أو مصنوعة من القرميد ، ومن الحديد والبرنز . وقد نقل كثير من التحف إلى خارج البلاد حتى امتلأت بها المتاحف في أوروبا وأمريكا . وكان الملوك والرؤساء يشجعون هذه الصناعات ويرعون هذه البراعات الفنية ، إلى أن جاء الغزو البريطاني ، وغلب الرؤساء على أمرهم ، وفُسرَّ الفنانون إلى الغابات هرباً من المغيرين . وبعد نحو عشرين عاماً تنبه رجال الإدارة إلى أن فقدت هذه الفنون خسارة كبيرة . فأخذوا يحرضون من بقي من الفنانين على العودة ، وعادت هذه المهارات إلى الانتعاش . إن البراعة الفنية منتشرة في كثير من جهات إفريقية الاستوائية ، ولكنها بلغت الغاية في إقليم اليوروبا خاصة وفي بلاد سواحل غينيا بوجه عام^(١)

والتجارة عند اليوروبا تحتل مكاناً خطيراً في حياتهم الاقتصادية . ومن الظاهرات التي تلفت النظر أن النساء هن اللاتي ينهضن بعبء تجارة التجزئة . ويقول الأستاذ لاندر Lander إن أحد ملوك Oyo كانت له مائة زوجة يرسلهن لبيع الغلات الزراعية . . وقد زار لاندر البلاد سنة ١٨٣٠ .

* * *

إذا عبرنا نهر النيجر وجدنا إلى الشرق شعب « ابو Ibo » يحتل معظم الإقليم ، ومعه شعب إيبو Ibibo وإفيك Efik . وهي تتكلم لغات من نفس الأسرة اللغوية السائدة عند اليوروبا .

يعيش الإبو والشعوب المتاخمة لهم في الجنوب الغربي من نيجيريا ، حيث يمثلون وحدة من الوحدات المستقلة داخل النظام الفيدرالي . وهم شعب مجد ،

(١) راجع مقالة الفن الإفريقي في كتاب

1959 Bascom & Herskovitz : African Cultures

نال قسطاً وافراً من التعليم ، لعله أكثر مما أصابه سائر الشعوب في نيجيريا .
غير أن أساس حياتهم الاقتصادية هو الزراعة ، وهم يمارسون في زراعتهم
أسلوباً خاصاً : وهو أن يزرع المزارع أرضه سنة أو سنتين ، ثم يتركها بوراً
أربع أو خمس سنين ، ثم يعود إليها . . أى أنه لا ينتظر حتى يظهر الضعف
على الأرض وينقص المحصول نقصاً كبيراً . بل يبادر بتغيير الأرض قبل أن تستنفد
قوتها وهى طريقة لها فوائدها ما دامت الأرض الزراعية متوفرة ، كما أنها
تساعد على اكتساب أرض جديدة للزراعة بتطهيرها من الغابات .

إن الشعوب التى تتكلم لغة الإبو يتجاوز عددها خمسة ملايين ، وهى
تعيش فى مجموعات مستقلة تدبر كل منها شئونها بنفسها ، فى قرى يتراوح
سكان كل قرية منها بين ١٢٥ و ٣٠٠٠ نسمة . وعلى الرغم من التشابه فى
اللغة والنظم الاجتماعية ، لم يحاول الإبو أن يكونوا شعباً متحداً ، إلا فى الأعوام
الحديثة . وقد أصبح واحد منهم رئيساً للدولة نيجيريا الفيدرالية . . وتغلب
الصفات الزنجية الصحيحة على السكان ، كما هى الحال عند اليوروبا . ولو أن
هؤلاء يدعون بعض الاتصالات الشمالية .

إذا اتجهنا شمالاً من بلاد الإبو نمر بديار قبيلة تختلف نوعاً عن الإبو وهى
قبيلة تيف Tiv التى يبلغ تعدادها ما يقرب من مليون نسمة ، وربما جاز لنا
أن ندعوها شعباً . وهى أيضاً مجموعة زنجية صميمة تصل أوطانها إلى نهر
بنو ، الرافد الأكبر لنهر النيجر ، ولها لغة خاصة فيها شبه بلغة البانتو .

وفى هذا الإقليم الأوسط الذى يلتقى فيه النيجر بالبنو ، قبائل وشعوب
كثيرة بعضها تأثر بالإسلام مثل شعب نوپه Nupe . فى مقابلهم شرقاً إلى
الشمال شعب جوكون Jukon ، المحافظ على ديانة أسلافه . ووصف
نسلجيان هذه القبيلة بأنها تتميز بوجود عادة الملك المقدس Semi-Divine King
الذى لا يمس الأرض برجليه (عاريتين) حتى تبقى الحصوبة فى الأرض .
وكان فيما مضى يقتل فى حفل كبير ، على النحو الذى يشابه ما كان سائداً

عند الشك وغيرهم . . : والملك يعاونه عادة امرأتان : أخت الملك الراحل وأولى زوجاته .

وقد اصطلح الكتاب على تقسيم نيجيريا إلى قسمين جنوبي وشمالى ، وجعلوا الجزء الجنوبي مشتملا على اليوروبا ومن حولهم غرب النهر : وعلى الإبو ومن معهم فى الشرق . فإن كلا من الجوكون والنويه يعدون من نيجيريا الشمالية ، غير أن الشعب الذى يسود الشمال هو بلا شك شعب الهوصه Hausa (١) على الرغم من وجود سلالات عديدة مختلفة موزعة فى أركان الإقليم . إن عدد الهوصه يتجاوز عشرة ملايين ، ويشتمل على مراكز الإمارة فى كل من سكوتو وكسينا وكانو وزاريا وغيرها . وهذه الإمارات متصلة الثقافة والرياسة فيها لأمير سكوتو ، ومع أن الأمراء ينحدرون من سلالة الفولا . فإن الهوصه هم العنصر الغالب الذى تتألف منه الكثرة العظمى من سكان تلك المدن ، كما أنه السائد فى غير تلك المدن من البلدان والقرى . وهم المسيطرون على الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، بل إن نشاطهم التجارى يمتد إلى الجنوب أيضاً ، وهم بارعون فى زراعتهم ، ويحسنون تربية الماشية . وعلى الرغم من أنهم مسالمون ، فإن بلاءهم فيما يشجر من حروب يشهد لهم بالبسالة . والهوصه يدينون جميعاً بالإسلام ، والزعيم الدينى الأكبر أمير سكوتو . وهناك مجموعات صغيرة تتكلم لغة الهوصه ولكنها لا تدين بالإسلام ، كما أن فى الإقليم بعض إمارات عربية مثل البورنو جنوب بحيرة تشاد ، وهى بالطبع ليست من الهوصه . . أما لغة الهوصه فتوصف عند علماء اللغات بأنها « حامية » وإن كان الأستاذ جرينبرج يفضل أن يجعلها فرعاً من اللغات التى أطلق عليها اسم « إفريقية أسيوية » .

وعلى الرغم من أن الهوصه شعب زنجى ، ويغلب فيه أن تكون البشرة سمراء جداً ، فإنه يوصف بأن الأنف أكثر اعتدالاً وبروز الفك أقل مما نجده

(١) يكتب بالسين أو بالصاد ، وبالحاء عادة ، وإن كان الكتاب العرب يكتبونها أحياناً بالحاء (الحوصة) وإن كان هذا لا يتفق مع لغة الهوصه .

لدى الزنوج الصرحاء . ومن المعقول أن يكون هنا مجال لاختلاط السلالات الزنجية والقوقازية الوافدة من الصحراء ، ويبدو أن هذا حدث على مدى زمن طويل جداً ، لأن الهوصه عنصر متحد مندمج .

والفولا الذين يعيشون في نيجيريا هم شعبة من سلالة الفولا الكبيرة ، التي تعيش موزعة في الأقاليم الممتدة من السنجال إلى أعلى النيجر . وهم في نيجيريا إما أن يشتغلوا بالوظائف الحكومية في المدن ، أو يحترفوا رعى الماشية ، وهم يعيشون حياة قريبة من البداوة . . وهناك آخرون يجمعون بين الزراعة وتربية الماشية . . والفولا لا يتجاوز عددهم السبعة أو الثمانية ملايين نسمة في كل الأقاليم التي يحتلونها . . وهم بلا شك شعب قوقازي أصلاً . وإن كان المستقرون منه قد امتصوا مقداراً متفاوتاً من الدماء الزنجية :

الفصل الثالث

شعوب البانتو

— ١ —

لئن كانت السلالات الزنجية في الجانب الغربي من القارة تمتاز بتعدد اللغات إلى درجة كبيرة بحيث تتجاوز الخمسمائة على أقل تقدير ، فإن البانتو بخلاف ذلك لهم « أسرة لغوية واحدة ». وليس معنى ذلك أن المتكلم في الجزء الجنوبي من القارة ، يستطيع أن يفهم ما يقوله واحد من سكان الجانب الشرقي أو الغربي ، بل معناه أن اللغات التي يتحدث بها الناس في جميع الأوطان البانتوية ، متشابهة تشابهاً كبيراً كما تتشابه مثلاً لغات الفرنسيين والأسبان والاطليان ، بوصفها فروعاً من اللغة اللاتينية .

إلى جانب هذا نلاحظ أن أوطان البانتو متلاصقة متجاورة في مساحة تعادل ثلث القارة الإفريقية . . ولا يشوب انتشارها هذا إلا وجود سلالة ضئيلة العدد مثل البشمن والهوتنتوت ، لا تحتل قطراً من الأقطار ، بل تعيش إلى جانب السلالات السائدة من البانتو ، كذلك لا ينبغي أن يحسب حساب العناصر الدخيلة من الاستعماريين في الأطراف الجنوبية ، فإن هذه ظاهرة سياسية أكثر مما هي ظاهرة جنسية . وفيما عدا ذلك نرى البانتو مستأثرين بأوطانهم في هذا المجال الفسيح : تجمعهم أسرة لغوية واحدة .

وأوطان البانتو كما أشرنا من قبل تبدأ في الغرب ، على خليج بيافرا عند الحدود الشرقية لنيجيريا . ويمتد الحد بعد ذلك في اتجاه شرقي مع تعرجات

عديدة إلى الشمال ثم الجنوب ؛ ولا فائدة من وصف هذه التعرجات ، ولا بد للقارئ أن يتبينها على الخريطة . وعندما يصل الخط إلى منطقة بحيرات أعالي النيل يدور حول شمال بحيرة فكتوريا ، ثم ينتهي إلى المحيط الهندي شمال خط الاستواء بقليل :

أى أن الخط يمتد من الغرب إلى الشرق في اتجاه مطرد تقريباً ، والظاهرة الوحيدة الشاذة التي يراها من يطلع على امتداد هذا الخط . هو اتجاهه بشدة نحو الجنوب شرقى بحيرة فكتوريا حتى يصل إلى خط العرض الرابع جنوب خط الاستواء ثم يعود فيتجه شمالاً بشرق إلى أن ينتهي إلى المحيط الهندي . وسبب ذلك أن سلاسل أخرى توغلت آتية طبعاً من الشمال فيما بين بحيرة فكتوريا والمحيط الهندي ، وقد استطاعت هذه السلاسل (وهى من النيلين الحاميين) أن تحتل منطقة الوسط هذه . وتدفع حدود البانتو إلى الجنوب في تلك المنطقة بمقدار نحو ثلثمائة من الأميال .

وإذا كانت حدود أوطان البانتو الشمالية ممتدة على النحو الذى رأيناه ، فإن سائر الحدود عبارة عن شواطئ القارة الإفريقية ، المطلة على المحيط الهندي شرقاً وعلى المحيط الأطلسي غرباً .

إن ظاهرة اتساع أوطان البانتو ، وتجاورها بحيث تكون كتلة ضخمة من السلاسل الزنجية متشابهة اللغات ، ظاهرة تفتقر إلى التأويل والتفسير . . وقد تناولها العلماء بالبحث وتشعبت في تفسيرها آراؤهم . . إن وجود أسرة لغوية منتشرة في أوطان متباعدة مثل لغات البانتو ، يدعو إلى احتمال أن يكون هناك قطر واحد ، انتقلت منه اللغة تدريجياً في موجات متتالية حتى عمت المساحة كلها . ولذلك اتجه تفكير الباحثين إلى تحديد هذا الوطن الأصلي ، الذى انتشرت منه تلك اللغات . واتجه الرأي الأول الذى ظل سائداً زمناً طويلاً إلى أن الوطن الأصلي لها شرق إفريقيا : في منطقة البحيرات النيلية ، أو إلى الشرق منها . وأكبر الظن أن القائلين بهذا الرأي تأثروا بعدة ظاهرات :

١ - منها أن البانتو تظهر في الكثير منهم بعض الصفات القوقازية المعروفة مثل اعتدال في النسبة الأنفية وفي الشفتين ، بل وفي لون البشرة خصوصاً بين الطبقات « الأرستقراطية » ، وذهب غير واحد من الكتاب إلى الزعم بأن كل فرد من البانتو يحمل في تكوينه بعض الدماء القوقازية .

٢ - إذا قبلنا هذه الحجة ، فإن الجهة التي جاءت منها السلالات القوقازية ، وتوغلت منها في القارة الإفريقية هي الجهات الشرقية فيما يسمى قرن إفريقية .

٣ - إن التوزيع الجغرافي للسلالات يوحي بأن السلالات الزنجية قد زحزحت عن أوطانها ، وأصبح القوقازيون يستأثرون بجزء كبير من إفريقية الشرقية

والصورة التي تخيلها هؤلاء الكتاب أن الموجات الأولى لهجرة « الحاميين » اختلطت بالزنوج الساكنين في شرق إفريقية ، وكونوا منها شعباً كبيراً ظلت له السيادة زمناً طويلاً ، حتى أقبلت موجات أخرى زحزحته نحو الجنوب ونحو الغرب . . . وهكذا تعاقبت الموجات ، وانتشرت لغة البانتو في جميع الأوطان التي تحتلها .

ونزل المتكلمون بلغات البانتو أوطاناً متعددة ؛ وفي هذه الأوطان الجديدة تطورت اللغات ودخلها بعض تجديدات ، كما يحدث دائماً حين تنتشر لغة انتشاراً واسعاً . ويقول أصحاب هذا الرأي إن اللغات التي يتكلم بها بعض الجماعات المنعزلة في منطقة البحيرات الاستوائية هي التي تظهر فيها الخصائص « البدائية » أي ما يدل على أنها لم تتطور ، بسبب عزلتها وانقطاعها . وهذا في نظرهم دليل على أن لغة البانتو الأولى كانت في منطقة البحيرات ، ومنها انتشرت إلى الأقاليم الأخرى .

سادت هذه النظرية زمناً وقال بها علماء مثل ماينهوف ووسترمان Meinhof Westermann وغيرهم ، ثم ظهرت النظرية الحديثة التي نادى بها جرينبرج ،

وتبعه كثير من الكتاب . وقد بنى هذه النظرية ، على دراسة اللغات الإفريقية دراسة دقيقة ، حاول أن يظهر فيها وجوه الشبه الحقيقية فيما بينها . وقد هداه البحث إلى أن المجموعة اللغوية الإفريقية الكبرى هي التي سماها لغات النيجر والكونغو . . والفرع « الأوسط » من هذه المجموعة يتركز في حوض نهر النيجر . وفيه لغات عديدة ، بعضها مشابه للغات البانتو . ومن أكثرها شهاً بلغات البانتو لغة شعب تيف Tiv وجماعات أخرى صغيرة في الركن الشرقي من نيجيريا والغربي من الكمرون . . . لهذا قرر جرينبرج أنه لا معنى للبحث في أطراف القارة الإفريقية عن أصل لغة للبانتو ، مع وجود قرابة شديدة لها في صميم القارة . . وهو لذلك يرجع أصول لغة البانتو إلى منطقة نهر بنو Benue وأن انتشارها كان من هناك شرقاً إلى حوض الكونغو وإلى شرق وجنوب القارة الإفريقية في جهات كان يسكنها أناس مثل الأقزام والبشمن . ونظراً للتشابه القوي بين لغات البانتو ، فإنه يرى أن اللغة الأصلية بدأ انتشارها من وطنها الأصلي منذ نحو ٢٥٠٠ عام .

وقد اتبع جرينبرج (١) كثير من الكتاب . ومثل أوليفر وفاج (٢) : وهما يعلنان انتشار البانتو « السريع » بأنه يرجع إلى أن حرفة الزراعة وصلت إلى منطقة السفانا قبيل الميلاد . وساعد على التكاثر السريع ، وتعمير تلك الأوطان المتباعدة .

هذه خلاصة مقتضبة للنظريتين ، اللتين تعالج كل منهما مشكلة تحديد الوطن الأصلي للغات البانتو ، ولا يحاول أحد أن يجعل كلا منها أكثر من مجرد نظرية قابلة للتعديل أو التغيير على ضوء ما قد يجد من البحوث . . ولا بد أن نلاحظ مع ذلك أنه ليس مما ينقض نظرية جرينبرج وجود دماء قوقازية

(١) شرح جرينبرج ما أراده شرحاً وافياً في كتابه

Studies in African Linguistic Classification (1955).

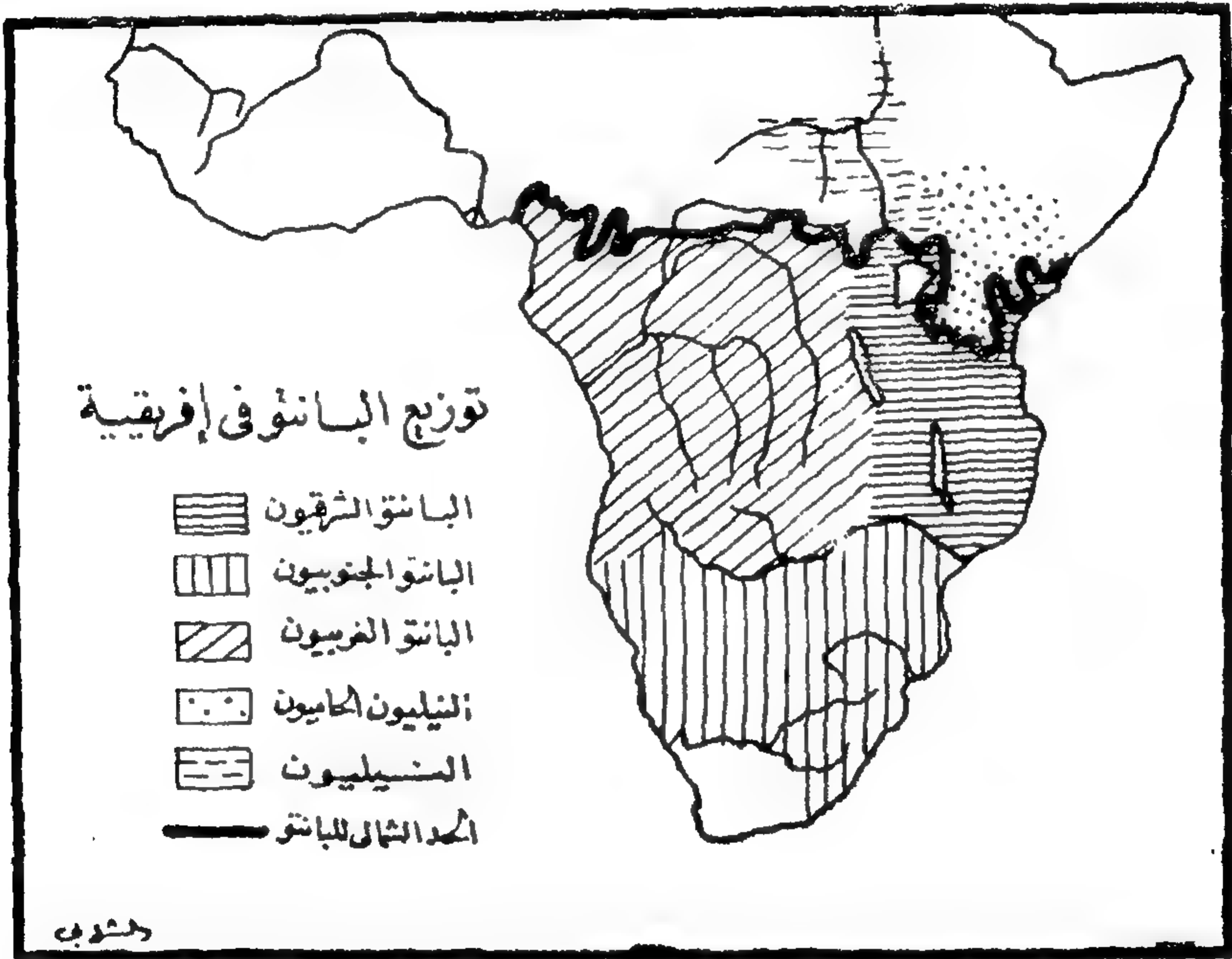
Oliver & Fage (1962).

(٢)

في تكوين البانتو ، لأن هذه الصفات القوقازية واضحة في الجهات الشرقية ، وأقل وضوحاً في الجانب الغربي من أوطان البانتو .

* * *

على الرغم من اتساع الأوطان فإن البانتو هم قبل كل شيء أحد القسمين الكبار للجنس الزنجي في القارة الإفريقية . والصفات الزنجية سائدة في كل مكان ، معدلة أحياناً ببعض الصفات القوقازية في شكل الوجه ، ولكن



(شكل رقم ٥)

الشعر المفلفل موجود دائماً ، مهما اعتدلت النسبة الأنفية أو كانت الشفاه والفك أقرب إلى الصفات القوقازية . . وهذا الاستثناء يقل إذا اتجهنا غرباً ، وفي أقاليم الغاب الغربية بوجه خاص ربما وجدنا ارتفاعاً ملحوظاً في النسبة الرأسية دليل تأثير بعض الأقزام . . ومن الملاحظ أيضاً أن القامة في الغرب أقصر منها في الشرق ،

ونظراً لأن أوطان البانتو تحكى شكل مثلث ، وأنها عريضة في الشمال وضيقة نسبياً في الجنوب ، نرى أن الكتاب لهذا السبب وربما لأسباب ثقافية وجغرافية أخرى يقسمون البانتو إلى ثلاثة أقسام :

١ - شرقى .

٢ - جنوبى .

٣ - غربى .

على الصورة الموضحة بالخريطة ، وفيها نرى أن القسم الجنوبي هو وحده الذى يطل على المحيطين الأطلسي والهندي ، كما أن له شواطئه الجنوبية ، التي تصل بين المحيطين . والتي تمر منها السفن التي تدور حول رأس الرجاء الصالح أما القسم الشرقي فيطل على المحيط الهندي . والغربي يطل على المحيط الأطلسي ويفصل بين الاثنين الخط الأخدودي المار ببحيرات إدوارد وكيفو وتنجانيقا ، ومن الطرف الجنوبي لبحيرة تنجانيقا يتجه جنوباً حتى نهر زامبيزي ...

وستناول بالكلام القسم الجنوبي أولاً ، ثم القسم الغربي ، ثم الشرقي . ولكننا قبل أن نمضي في الحديث عنها لا بد لنا أن نذكر خصائص بعض الأسماء مما يتصل بطبيعة لغات البانتو ، فمن أهم خصائص هذه اللغات أنها مقطعية : أى أن المعنى يكمل أو يغير بإضافة مقطع أو استبدال مقطع بمقطع ، وعلى سبيل المثال نذكر أن شعب جنده يدعى الناس فيه باجنده ، لأن المقطع « با » يفيد معنى الناس . والشخص من الجنده يسمى « موجنده » . والوطن الذي يعيش فيه الجنده يسمى بوجنده . واللسان الذي يتكلمون به يسمى لوجنده .

وهذه المقاطع قد تختلف قليلاً في الجنوب عن الشمال الشرقي أو الغربي . بحيث يستعمل بدلاً من المقطع « با » مقطع آخر مثل « وا » أو « آما » كما هي الحال في آمازولو ، غير أن المبدأ واحد . وهو النظام المقطعي الذي تمتاز به لغة البانتو .

البانتو الجنوبيون : يتفوقون عدداً على جميع سكان إفريقيا الجنوبية وأوطان البانتو الجنوبيين تمتد من مصب نهر الزمبيزي وتبلغ مجراه ، ثم تتبع نهر كونيبي Kunene إلى مصبه في المحيط الأطلسي . وبذلك تشمل النصف الجنوبي من موزمبيق ثم روديسيا الجنوبية ، واتحاد إفريقية الجنوبية ، (ما يسمى الآن جمهورية إفريقيا الجنوبية) وإقليم إفريقيا الجنوبية الغربية ... ويضاف إلى ذلك الثلاث ولايات المشمولة بالحماية البريطانية مع وجودها وسط أراضي جمهورية إفريقيا الجنوبية . وهي سوازيلند ، وباسوتولند . وبتشوانالند :

هذه المساحة الكبيرة يسودها شعوب البانتو على الرغم من نزلائها الأوروبيين . ويمكن أن نلخص صورة التكوين البشري للجنوب الإفريقي على النحو التالي :

العنصر الأوربي يقرب من	٣,٠٠٠,٠٠٠ (منهم ١,٨٠٠,٠٠٠ بويري و ١,٢٠٠,٠٠٠ بريطاني)
البانتو في جمهورية إفريقيا الجنوبية	١٠,٠٠٠,٠٠٠
ملونون	١,٥٠٠,٠٠٠ مزيج من البانتو وغيرهم
هنود	٥٠٠,٠٠٠
البانتو في الولايات المحمية	١,٥٠٠,٠٠٠
البانتو في موزمبيق الجنوبية	٢,٠٠٠,٠٠٠
البانتو في الإقليم الغربي	١,٥٠٠,٠٠٠

وهكذا تكون جملة البيض لا تتجاوز ٣ ملايين وجملة البانتو والعناصر الملونة ١٧ مليوناً ، وهؤلاء البانتو الجنوبيون ينقسمون إلى عدد كبير جداً من القبائل والوحدات القبلية ، وكل وحدة لها اسمها ، وقلم نجد اسمها يشمل عدداً كبيراً من القبائل المتجاورة أو المتحالفة . ومع أن بين البانتو الجنوبيين تشابهاً كبيراً في أسلوب المعيشة والتنظيم الاجتماعي ، والمعتقدات الدينية . فإن بينهم فروقاً في بعض المسائل الخاصة بالتطورات التاريخية والفروق اللغوية ،

وبعض الخصائص الثقافية ، وهذه الفروق تسمح بتقسيم البانتو الجنوبيين إلى أربعة أقسام :

١ - القسم الشمالى ويشمل شعوب شونا Shona المنتشرين فى روديسيا الجنوبية وفى موزمبيق جنوب نهر الزمبىزى . وهم عبارة عن قبائل عديدة ، ثقافتها متشابهة . وقد اشتهر هذا الإقليم بآثار لمبان ضخمة حجرية ، وبخاصة تلك المباني التى تدعى خرائب زمبابوى Zimbabwe وإن كنا لا نعرف الشئ الكثير عن بناء تلك الحضارة ، فإن رأى الراجح أنها آثار لحضارة زنجية ، وليست من عمل عنصر دخيل . بل لعلها من صنع أجداد بعض قبائل الشونا ، الذين أقاموا مملكة فى حوض نهر الزمبىزى منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى .

٢ - القسم الثانى من البانتو الجنوبيين تقع أوطانه الرئيسية إلى الشرق من جبال دراكنسبرج ، وتبدأ فى الشمال من نهر سابى فى جنوب موزمبيق ، وتمتد إلى الشواطئ الجنوبية الشرقية . ويشتمل هذا القسم على مجموعتين من أكبر وأهم مجموعات البانتو الجنوبيين وهما مجموعة Nguni ومجموعة Tsonga ولعل النجوفى أكبر الشعبين ومنهم طائفة هاجرت للشمال . ومنهم أيضاً شعب سوازى الذى يعيش فى البلاد المسماة باسمه Swaziland ، وهى من الأقطار المشمولة بالحماية البريطانية . ومنهم الشعب الشهير Zulu ومنهم قسم فى روديسيا يدعى Ndbele وتسمى الجماعة منهم Amandbele .

وقد اشتهر الزولو أكثر من غيرهم من سكان الجنوب الإفريقى ؛ لأنهم فى مبتدأ القرن التاسع عشر ظهر فيهم زعيم محارب نابغ يدعى شاكا ، الذى استطاع أن يغزو البلاد المجاورة ، وأن يوسع الوطن ويجعل من الزولو أمة قوية مرهوبة الجانب . . وقد دامت سيطرة الزولو على البلاد إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، حين بدأ البوير ينازعونهم السلطة فى الإقليم الواقع شرقى جبال دراكنسبرج ، ولا يزال الزولو يعيشون فى إقليمهم ، وإن كانت دولتهم تفككت على أثر الاحتلال الأجنبى .

أما مجموعة تسنجا ، فيعيش معظم أبنائها في موزمبيق ، ومنهم فرع يسكن الترنسفال . وتشتمل المجموعة على ثلاثة شعوب وهي تسنجا ورنجا Ronga وتسوا Tswa .

٣ - القسم الثالث من البانتو الجنوبيين : هو القسم الأوسط ويعيش في الهضبة الوسطى إلى الغرب والشمال الغربي من جبال دراكنسبرج ؛ وهذه الهضبة الواقعة إلى الغرب من الجبال أقل مطراً ونباتاً من الإقليم الساحلي ، ولعلها لهذا السبب أقل ازدهاراً بالسكان فيما عدا جهات التعدين الواقعة في الشمال الشرقي المركزة حول مدينة جوهانسبرج ، وعاصمة إفريقيا الجنوبية بريتوريا .

وأهم المجموعات في الهضبة الوسطى هم مجموعة فندا Venda في الإقليم الشمالي الشرقي منها . والمجموعة الثانية هي مجموعة سوتو Sotho التي تعيش إلى الغرب مباشرة من جبال دراكنسبرج . وهي التي أمكنها تكوين دولة Basutoland ، الواقعة تحت الحماية البريطانية . . وهي في طريقها الآن إلى الاستقلال ، ويبلغ شعب سوتو داخل حدود الحماية ما يزيد على المليون نسمة ويتمتع بتقدم اجتماعي واقتصادي ملحوظ .

ومن مجموعة سوتو أيضاً القبائل التي تعيش في الحماية المسماة Bechwanaland وهي تمثل حيزاً كبيراً في الشمال الغربي من الهضبة ، ومن أشهر قبائل بتشوانالند قبيلة نجاتو ، ثم قبيلة تسوانا Tswana وهي التي حُرِّف اسمها وأطلق على الحماية كلها .

٤ - القسم الرابع والأخير من مجموعة البانتو الجنوبيين هو القسم الغربي ، وأهم فروعها قبائل هريرو Herero وأمبر . وهم يعيشون في إفريقيا الجنوبية الغربية . هذا الإقليم الذي كان تابعاً لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم آل إلى حكومة إفريقيا الجنوبية عن طريق الانتداب وقبائل هريرو كانت موحدة تحت رئاسة زعيم واحد ، وقت سيطرة الألمان على البلاد . ثم

فقدت وحدتها تحت الانتداب من الدرجة الثالثة الذى منيت به البلاد منذ عام ١٩٢٠ .

* * *

هذا التقسيم للبانتو الجنوبيين ، يبدو لأول وهلة أنه تقسيم يعتمد على اختلاف مواقع كل قسم : فى الشمال والشرق والوسط والغرب ، ولكنه يشتمل أيضاً على بعض اختلافات ثقافية ، واختلاف فى اللهجات .

والصفات السائدة زنجية ، وهناك اختلافات محلية بقدر ما استوعبت السلالة من عناصر قوقازية (حامية) وبخاصة فى الشرق الأوسط ؛ وعناصر هوتنتوت فى الغرب والقامة مع ذلك متوسطة أو فوق المتوسط قليلاً (١٦٨ سم) وربما كان لها ارتفاع محسوس فى الشرق .

اللون يتراوح بين السواد الذى يتمثل فى سوازيلند ، واللون البنى الفاتح عند الهريرو . والشعر مفلقل دائماً قليل جداً على الجسم والوجه ، ولا يبدأ ظهوره على الوجه إلا فى الحلقة الثالثة من العمر . ويظهر الأثر القوقازي فى اعتدال النسبة الأنفية والفك القليل البروز والشفيتين . ويزعم سلجمان أن هذا يتفق عادة مع ازدياد طول القامة . كما هو ملاحظ بين جماعات زولو وتسنجا وبالعكس ربما ظهرت بعض صفات البشمن فى الشعبة الغربية والرءوس بوجه عام طويلة ، ويستوى فى ذلك الشرق والغرب .

وعادة الختان منتشرة فى الجهات الشرقية ، وإن كان بعض العشائر قد أفلح عنها . كذلك يظن أن ختان البنات موجود عند البعض ، وإن لم يكن أمر هذه العادة معروفاً تماماً .

وفى كثير من القبائل عادة تشويه الأسنان الأمامية لتبدو مدببة ، وخلع القواطع ، وسرى فيما بعد أن هذه العادة منتشرة فى حوض بحر الغزال وبحر الجبل ، وعادة عمل الشلوخ والتدويب فى الوجه فى الإقليم الشرقى والغربى .

كذلك توجد لدى بعض عشائر الزولو عادة بتر بعض أطراف الأصابع ولعلها عادة انتقلت إليهم من البشمن أو الهوتنتوت .

* * *

أما من الناحية الاجتماعية فتتألف هذه المجموعة من البانتو من عدة قبائل ، ولكل قبيلة زعيمها ، ولها رقعة من الأرض تتبعها ، بقدر ما تستطيع الذود عنها ؛ وإذا ضعفت وتمزقت تلاشت بالاندماج ، كل جزء يندمج في القبيلة التي تسوقه الظروف إليها ، فالمدار في تكوين القبيلة ليس على القرابة وصلة النسب ، بل إلى التجميع والتنظيم . فزري سوتو مثلاً يتألفون من قطع وبقايا بتأثير الزعيم موشيش Moshesh ، الذي استطاع أن يضيف ويزيد في أتباعه حتى جعل منهم شعب سوتو في باسوتولند . وقد رأينا مثلاً آخر في حالة الزولو إذ جعل منهم زعيمهم شاكا أمة كبيرة بفضل غزواته . وإن كانت وقعت تحت سلطة حكومة إفريقية الجنوبية . بينما استغاث الزعيم موشيش بالملكة فكتوريا لكي تجعل بريطانيا بلاده تحت حمايتها . . . وبذلك نجت باسوتولند من مخالب تلك الحكومة . وفيها اليوم حركة وطنية تنشد الحرية الكاملة والاستقلال .

وهكذا تختلف ظروف تكوين كل قبيلة . ولذلك كان كثير منها صغيراً نسبياً يتراوح بين ألف وألفي نسمة ولكن ظاهرة التوسع وتجميع أشتات القبائل نتج عنه تكوين عدد كبير من القبائل الكبيرة . التي نستطيع أن نسميها شعوباً ، مثل السوتو سالفى الذكر ، ومثل سوازي ، وعددهم ٢٠٠,٠٠٠ وبامانجواتو ويزيدون على ١٥٠,٠٠٠ .

والمسكن الذي يسكنه البانتو الجنوبيون عبارة عن وحدة سكنية تدعى كروال Kraal بحيث تعيش كل أسرة في وحدة سكنية خاصة بها : وفي الإقليم الشمالى والشرقى والغربى نرى هذه الوحدات السكنية مبعثرة من غير نظام خاص . . أما في الإقليم الأوسط فإن الوحدات السكنية متقاربة بعضها

من بعض بحيث تكون قرى تشتمل الواحدة منها على ١٠ إلى خمسين وحدة سكنية (كروول) وهذا هو النظام السائد في باسوتولند . ولكن هذه الوحدات ربما تجاوزت حتى تؤلف بلداناً سكانها يقربون من عشرين إلى ثلاثين ألفاً ، وذلك في بتشوانالند .

والكروول سواء أكان في قرية أم بلدة ، أم كان قائماً بمفرده ، فإنه يتفق في خصائصه ونظامه ؛ ويشتمل الجزء الأوسط من الكروول على حظيرة للماشية الثقيلة والدقيقة ويحيط بها سياج من العوسج ، وإليها تأوى الماشية في الليل . . . ومن حول الحظيرة وعلى بعد بضعة أمتار منها تقام الأكواخ التي يعيش فيها أهل الكروول . وكل كوخ له حوش صغير للطبخ ، وشكل الكوخ يشبه خلية النحل عند الهريرو وعند معظم القبائل الشرقية أيضاً . أما عند القبائل الوسطى والشمالية فيكون الكوخ مستديراً وسقفه مخروطي الشكل وفي الكروول فناء محجوز حوله سياج ليجلس فيه الرجال ، ومن حول الكروول كله سياج غليظ من الحطب والعوسج ، مستدير أو بيضى . . ولا يخلو أى كروول من شجرة خاصة أو حجر أو كتلة خشب منصوبة ذات فرعين : وهذه تكون بمثابة مذبح تقدم فيه القرابين وتقام عادة أمام باب كوخ الزعيم .

وتنقسم القبيلة كالعادة إلى عشائر ، والعشيرة هي الوحدة التي تجمعها صلة قرابة أو نسب وعند العشائر الشرقية عادة خاصة وهي أن كل عشيرة لها إيسوبونجو Isobongo أى لها اسم خاص يمكن أن ندعوه اسم تكريم أو تشریف أو اسم النسب ، أى اسم الجلد الذي تنتسب إليه العشيرة . وإذا أريد مخاطبة شخص بصورة تكريمية فلا بد أن ندعوه باسم التشریف . وإذا كان من عشيرة تنتسب إلى جد يدعى تشيزى Tschesi مثلاً . كان من التكريم لأبناء العشيرة أن تدعوهم Ama Tschesi . وبدلاً من أن تدعو أى إنسان باسمه الخاص ، يكون تكريماً له أن ندعوه باسم الجلد .

ولا يجوز للإنسان أن يتزوج من أسرة لها نفس الإيسوبنجو : وهذا نظام لا يكاد يختلف عن نظام الاغتراب المعروف . ولكنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك فلا يجوز مثلاً لرجل أن يشرب اللبن إلا مع أفراد لهم نفس اسم التكريم . وعند الزولو إذا شرب الرجل اللبن مع فرد من عشيرة أخرى ، فإنه يصبح بذلك قد تم له التأخي مع تلك العشيرة ، ولا يجوز له أن يتزوج من واحدة من نساها ؟

ويبدو أن نظام الإيسوبنجو أو اسم التكريم المشتق من أحد الأجداد : هو بمثابة الشعار الذى يجمع كل عشيرة ، وهو بديل من أن يكون لها طوطم خاص بها . فرأت القبائل الشرقية أن يكون شعارها جدها الأكبر ، بدلاً من أن يكون شعارها حيواناً أو نحو ذلك . وعلى كل حال فإننا نجد نظام الطوطمية المعروف موجوداً لدى القبائل الوسطى ، التى تنقسم هى أيضاً إلى عشائر ، وكل عشيرة أيضاً لها اسم خاص يدعى سبوكو Seboko . ولكنه ليس اسماً للجد المشترك ، بل هو اسم لحيوان أو لبعض المعادن مثل الحديد ، أو لظاهرة طبيعية مثل المطر . وبذلك يكون اسم العشيرة - إذا استخدمت المعنى العربى - بنى أسد أو بنى حديد أو بنى مطر .

* * *

والحرفة الغالبة عند البانتو الجنوبيين هى رعى الماشية ، والزراعة البدائية ، وهم يرعون البقر والضأن والماعز ، ويحصلون منها على الغذاء الرئيسى وهو اللبن ، وعلى مادة أولية للصناعة وهى الجلود . ومن النادر أن تقتل الماشية من أجل لحمها . بل تذبح للمناسبات الدينية أو الاجتماعية الهامة . . ومع ذلك يصيرون حاجتهم من اللحم عن طريق الصيد ، وتأتيهم الزراعة بغلات مثل الذرة الشامية والرفيعة وبعض البقول والخضراوات .

والماشية ترعى وتحلب بوساطة الرجال ، أما الزراعة ففى أيدي النساء ؛ وقد حرم عليهن أن يقمن بأى عمل يتصل بالماشية . لا يستثنى من ذلك سوى شعب هريرو ، فإن النساء فيه يقمن بالحلب أيضاً . . وهذا هو المثال الوحيد

الذى نجده يشذ عن المألوف عند جماعات البانتو ، وعن الزنوج المختلطين بالحميين مثل سلالة النيليين .

أما الديانة والعبادة ، فتغلب عليها عبادة السلف . والطقوس التى تؤدى فى هذا الصدد يؤدىها رئيس الأسرة بالنسبة لأسرته ، فيتبهل ويقرب القرابين لأجداده ، وهذا المظهر من أهم العوامل فى تماسك الأسرة ، والرقى بها عن منافسة أخوين ، يثور بينهما أى خلاف فى أى موضوع . إن التماسك الدينى يضطر الأصغر للإذعان والتماس الصفح من الأكبر .

وهذا هو المبدأ المقرر بالنسبة للقبيلة كلها . وكما أن رئيس الأسرة يتبهل إلى أجداده الرؤساء السالفين لكى يحفظوا الأسرة ويدروا عنها الأذى ، كذلك يتبهل زعيم القبيلة إلى أجداده السالفين ، وهو وحده الذى يستطيع أن يسترحمهم وأن يستعطفهم لكى يرفعوا عنها الضر ، ويسبغوا عليها الخير . وهو وحده الذى يقدم إليهم القرابين ، ويتغنى إليهم الوسيلة . . وهذا مما يساعد على توحيد القبيلة ، وتقوية مركز الزعيم ؟

ويحس البانتو فى حياتهم دائماً بأن أجدادهم على اتصال مستمر بهم ؟ ولا تغيب ذكراهم عن أذهانهم . فلا تقام حفلة تشرب فيها الجعة ، إلا قربوا لهم بعض الشراب . وإذا قسم الطعام كان للسلف أيضاً نصيبهم . . وهناك أيضاً مواسم معينة مخصصة لإحياء ذكرى الأجداد ، وهذه هى التى تقرب فيها .

ومما يتصل بعبادة السلف عند القبائل الغربية ، وجود النار المقدسة عند الهريرو ، حيث لكل أسرة كرول ، فى الجانب الشرقى منه كوخ الزوجة الأولى لرئيس الأسرة . . وأمام هذا الكوخ المذبح وبالقرب منه تشتعل دائماً نار السلف أو النار المقدسة . ويهتمون بالمحافظة عليها ليلاً ونهاراً ، فيحملونها إلى داخل الكوخ ليلاً ، ثم يعيدونها إلى جانب المذبح فى الصباح . وهى دائماً موضع عناية زوجة الزعيم . وبالقرب من هذه النار تذبح الثيران التى تقرب فى الحفلات ، وتبقى جماجمها حول النار ، وربما جلس الرجال عليها . ؟

وبالقرب من المذبح شجرة التين البرية ، التي يرى الهريرو أنها رمز لأرواح السلف . وفي الجزء الشمالى من أوطان الهريرو شجرة تين كبيرة يزعمون أنها مسكن لأرواح السلف ، ولذلك يقدسونها .

وإلى جانب عبادة السلف ، يعتقد البانتو بكائن إلهى ، لم يكن يوماً من البشر . ويختلف تصويرهم لهذا الإله من قبيلة إلى أخرى . وإليه ينسبون الصواعق والمطر والظواهر الطبيعية عامة . وعند قبيلة تسنجا Tsonga يطلق عليه اسم تيلو Tilo وإذا خاطبوه قالوا « مولاي » وعند الزولو يفرقون بين الإله الخالق واسمه أنكلنكلو Unkulunkulu « الواحد الجليل العظيم » وبين إله آخر يدعى انكوزى ، وهو أشبه بالإله تيلو عند التسنجا . .

وهذه الآلهة المتعددة الأسماء ، عند مختلف القبائل ، قليلة التدخل فى حياة الناس وكذلك قلما تدخل فى عباداتهم .

الفصل الرابع

شعوب البانتو

— ٢ —

المنطقة الغربية للبانتو تمتد من مصب نهر كونيبي في الجنوب إلى مصب نهر ري Rey في الشمال في خليج بيافرا وتشمل الكامبيرون، وبلاد الكونغو (ليوبلديفيل) والكونغو برازافيل وجابون وأنجولا وروديسيا الشمالية . والطرف الغربي من موزمبيق . . هذه المساحات الشاسعة ، تشمل أقطاراً فسيحة ، تكتنفها الغابات الكثيفة ، وفي كثير من المواضع فيها تعيش بعض بقايا الأقزام . وهؤلاء الأقزام الذين تكاد أوطانهم اليوم أن تتركز في الغابات الاستوائية الإفريقية ، لا شك أنهم عاشوا في هذه الأوطان دهرًا طويلاً ، وكان في إقامتهم هذا الزمان الطويل ما يكفل لهم الامتزاج والاختلاط بالزنج الذين جلهم من البانتو الغربيين ، بل قد لا يكون هناك إسراف إذا قلنا إن الدماء القزمية التي امتصتها الشعبة الزنجية الغربية أكثر من الأقزام الذين احتفظوا بدمائهم نقية صريحة ، ولا بد لمن يدرس السلالات في إفريقية الزنجية أن يذكر ذلك دائماً وإلا تعذر عليه أن يعلل ما يراه من صفات قزمية واضحة لدى بعض البانتو ، وأخصها القامة القصيرة . ونسبة الرأس العالية . فالأستاذ سلجمان يذكر أن سلالة تتيل Tetela في الجزء الجنوبي الأوسط من حوض الكونغو يصل بها متوسط النسبة الرأسية إلى ٨٠ وقد تصل إلى ٨٤ ؛ وفي الجزء الشمالي الأوسط حيث يصب نهر أرويمي في الكونغو نجد شعب سوكو

Soka تتكرر فيهم هذه الظاهرة ، وهم فوق ذلك قصار القامة . مع أنهم من صميم شعوب البانتو .

أما الصفات القوقازية فإنها موجودة لدى بعض البانتو ، ولكن قلة ما لدينا من الإحصاءات والمقاييس ، لا تمكننا من أن نتحدث عن توزيع هذه الظاهرة ، سوى أن نقرر أنها بصفة عامة أقل مما نجده لدى البانتو الجنوبيين وأقل كثيراً مما نجده لدى البانتو الشرقيين .

ولسنا بحاجة بعد هذا الإيضاح أن نطيل الكلام على الصفات الطبيعية عند البانتو الغربيين ، فهم مثل سائر البانتو شعوب تتوافر فيها الصفات الزنجية ، وفي الحدود السالفة الذكر لا يكاد يختلف فيها شعب عن غيره ، كما أن ظهور الصفات القزمية المشار إليها لا يخضع في وجوده لأية قاعدة ، ولا يمكن أن يكون تأثيره كبيراً أو واسع الانتشار ، بل هو في الأرجح مقصور على جهات محدودة . . . وعلينا أن نذكر دائماً أن حوض الكونغو هو أقل الجهات الإفريقية التي أتاحت فيها فرص للبحث الأنثروبولوجي الدقيق ، وبخاصة من ناحية الصفات الطبيعية ، كما أنه لا بد من النص أيضاً على أن حوض الكونغو كان مسرحاً لتكوين « إمبراطوريات » ، أي وحدات سياسية تحتل قسماً كبيراً نسبياً من الحوض . وهذه الوحدات السياسية خليقة أن تندمج فيها السلالات والقبائل ، وتزول معظم الفروق .

والذي يبدو من دراسة العادات والطقوس المتباينة في حوض الكونغو ومنها المتقدم المتطور ، ومنها البدائي العتيق ، أن البانتو لم يكونوا أول من عمر هذا الحوض ، بل سبقتهم جماعات ذات « حضارات » أو ثقافات متعددة . . . ولم يتم البدء في الدراسات العميقة التي ستكشف يوماً عن تاريخ هذه المنطقة الواسعة .

وقد سبق القول بتأسيس دول في جهات عديدة من الحوض : بعضها في الجهات الغربية وبعضها في الجنوب والوسط والشمال . . . وفي الجنوب الأوسط

ازدهرت زمنياً دولة لندا Lunda ولوبا Luba ولا نعرف عنها الشيء الكثير . ومن أهم الدول التي اشتهرت وكانت في غاية الازدهار دولة الكونغو في الجزء الغربي من حوض الكونغو ؛ وهذه الدولة قد قامت كغيرها حول قبيلة أو شعب عظيم ، استطاع أن يؤسس الدولة وينظم شئونها ويوسع رقعتها . وعلى الرغم من زوال دولة الكونغو ، فإنها تركت اسماً عظيماً ، وذكراً لشعبها ، لا يزال له شأنه في الدولة الحديثة ، وقد كانت رقعتها تشمل الحوض الأدنى من الكونغو ونهر كاساي . وعندما زارها البرتغال في أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوها دولة منظمة تحت إمرة ملك ورث عرشه عن آبائه . . ولا نكاد نعرف شيئاً عن تاريخ هذه الدولة ، وازدهارها وأفول نجمها .

وهناك دولة بقيت إلى عهد الاحتلال البلجيكي ، ولعلها أن تكون صورة لدولة الكونغو الأولى . هذه الدولة هي دولة بوشنغو Bushungo وقد أنشأتها قبيلة عظيمة الخطر وهي قبيلة مبالى Mbale ، وهم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم بوشنغو أى رماة الحراب ، ولعلهم رأوا أن هذا الاسم أجدر بشعب كبير يتألف من قبائل مبالى وغيرها .

ألف هؤلاء البوشنغو دولة ذات نظم ثابتة ، وتشتمل على مجلس من الوزراء يشرف عليهم جميعاً الملك . وأهم أعضاء الوزارة رئيسها ، ووزير الحرب ، والرؤساء الأربعة للأقسام الأربعة التي تتألف منها الدولة . وفي الوزارة أيضاً امرأتان وكلتاها ابنة ملك سابق ، وإحدى هاتين المرأتين مكان رسمي ، وهي في وقت السلم تلبس حول عنقها وترأ من أوتار القسي ، فإذا حدث ما يدعو لقيام حرب ، فإنها تنزع هذا الوتر من عنقها وتناوله ، في جد وعزم لوزير الحرب . . وإليها في النهاية المرجع في تقرير الحرب والسلام . ومن بعد هؤلاء تجمي طبقات متتالية من ذوى المناصب ، بعضهم في حاشية الملك ، وبعضهم الممثلون للقبائل وأصحاب الحرف ونحو ذلك . ويقول سلجيان إن من أهم الموظفين ما سماه « مؤرخ الدولة » وهو لا يكون إلا من نسل الملوك

ومقامه فوق مقام سائر الأسرات ، وهو الذى يحفظ تاريخ الدول ويعرف تقاليدها ، ونظمها .

وإذا عقد المجلس الملكى السامى ، فإن الملك يجلس على عرش ومن حوله وزراءه الستة من الرجال ، والاثنان من النساء ، وتجلس بجانبه فى مقعد أعلى ، أمه . ومنزلها تعد أسمى منازل الجميع .

وكثير من الموظفين لهم سلطات قضائية . وهناك أيضاً اثنا عشر قاضياً للبت فى الخصومات ، وعلى الرغم من أن المفروض أن الملك هو الذى يتولى تعيين وزرائه وأعوانه وموظفى الدولة ولكنه فى الواقع لا يخرج - ولعله لا يستطيع أن يخرج - فى تعييناته عن رغبات الهيئات الاستشارية المختلفة .

والواقع أن سلطات الملك فى الشؤون عامة محدودة . وسلطاته فوق معظم القبائل سلطان روحى ، فيما عدا قبيلته هو وهى قبيلة مبالا . فإنه رئيسها السياسى والروحى . وبذلك يكون لكل قبيلة وشعبة فى الدولة نصيب وافر من الاستقلال الذاتى . وهذا ما نجده عند كثير من القبائل الإفريقية وهو من أكبر أسباب استقرار الدولة . . على أن الملك بغم ذلك يتمتع بسلطان روحى خطير ، لأن المفروض أنه تتمثل فيه روح مؤسس القبيلة المسمى بومبا Bumpe ، الذى يوصف بأنه الذى يرسل الغيث ، ويجعل الشمس تسطع فى الكون وهو مصدر الخصوبة والبركة . . ولأن الملك هو الذى تسكن فيه روح هذا المؤسس المؤله ، فإنه يلقي من جميع القبائل كل إكرام وتبجيل . ويرى سلجيان أن مقامه الروحى يشابه مقام الريت ملك الشلك .

ويسود الزعم بأن الملك ينحدر من أجداد عددهم مائة وعشرون . وهناك من يتولى قراءة هذه القائمة الضخمة فى بعض المناسبات . . ومع أن الأسماء الأقل خرافية على الأرجح فإن سلجيان يرى أن واحداً من الأجداد المتأخرين نسبياً لا بد أنه كان شخصاً ممتازاً واسمه شمياً بلنجنجو Bolongongo وهو بمثابة البطل القومى لشعب بوشنجو ، وينسب إليه القيام بأعمال مجيدة . فهو

الذى نظم الحكومة ، وشجع الفنون والصناعات ، وحاول أن يمنع الحروب بتحريم اتخاذ القسى والسهام . وكذلك الملية التى تستخدم فى الرماية ، وهى من أخص أسلحة البوشنجو . وإلى عهده يرجع انتشار التبغ ، وابتكار زيت النخيل . وزراعة الكسافا (نوع من البطاطا) وفن التطريز . وهو فن يفوق فيه البوشنجو جميع شعوب إفريقيا .

إلى الشمال من نهر الكونغو تعيش جماعات أخرى من البانتو فى إقليم جابون ، والقبائل المتحدة التى كونت جمهورية جابون تدعى شعب الفانج Fang . ويقال عن الفانج إنهم نزلوا أوطانهم الحالية من وطنهم الأصلي فى أعالي الكونغو وبحر الغزال . وأنهم لم يزلوا يجوبون الديار حتى حلوا حيث هم الآن . ويقال إن النسبة الرأسية عندهم عالية وهذا مما يؤكد قرابتهم من سكان أعالي الغزال الذين يتميزون بهذه الصفة .

أما بلاد الكامبيون فهى آخر بلاد البانتو الغربيين ، وفيها مزيج من القبائل من بانتو وسودانيين وعدد كبير من الفولا .

* * *

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى منطقة البانتو الشرقيين ، وجدنا منطقة شديدة التعقيد من الناحية الجنسية ، ولئن كان البانتو مستأثرين ، ومتغلبين فى الأقاليم الجنوبية ، لا يكاد ينافسهم فيها سوى بقايا من بشمن وهونتوت ، وأشتات من الأقزام . إنهم هنا فى إفريقية الشرقية فى إقليم تزام فى السلاطات ، وتتعدد الشعوب . . إقليم واقع تحت تأثير المحيط الهندى وخليج عدن ، وما وراء خليج عدن من الأقطار ، فيصطدم إقليم البانتو بجماعات من الرعاة كثيرة الإغارة والتوغل ، ولا تنفك تتقدم وتغير من منطقة قرن إفريقيا وإقليم السفانا .

هذا التأثير الأجنبي فى إقليم البانتو الشرقيين ليس بدرجة واحدة ، وهو أشد ما يكون فى منطقة البحيرات وفيما يليها شرقاً من أقاليم السفانا ، والجهات

الشبه الصحراوية . وامتدادها إلى سواحل المحيط الهندي ، أما الجهات الواقعة إلى الجنوب من بحيرة فكتوريا ، ممتدة إلى بحيرة نياسا فهي خالصة للبانту . ولا تمسها الهجرات الشمالية إلا قليلا بالقرب من سواحل المحيط الهندي من أجل هذه الاختلافات ، التي نصادفها في أقاليم البانту الشرقيين ، لقد رثي تقسيم هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - منطقة البحيرات ، وهي تقع حول بحيرة فكتوريا .
- ٢ - المنطقة الشرقية ، وهي منفصلة عن منطقة البحيرات ، وتقابلها .
- ٣ - النصف الجنوبي ، وهو الذي يراه البعض جديراً بأن يكون هو إقليم البانту الشرقيين حقاً .

إن أهم الاضطرابات البشرية التي تعرض لها هذا الإقليم كله هو إغارات قامت بها جماعات حامية أو شبه حامية أو مختلطة كثيراً بالدم الحامي مثل النيليين . . هذه التيارات عزلت أحياناً جماعات البانту بعضها عن بعض ، أو اختلطت وامتزجت بها ، من أجل ذلك نرى أستاذاً محققاً مثل باومن Baumanu يفضل أن يطلق عليها اسم البانту الحاميين^(١) .

ومنطقة البحيرات التي توصف أحياناً بأنها الوطن الأول للبانту ، كانت من أكثر الجهات تعرضاً للتوغل الحامي في أزمنة مختلفة . وهي مع ذلك منطقة شديدة التجانس من الناحية الثقافية ، ومتشابهة في خصائصها السياسية ، وهي تتألف من عدة شعوب ، متجانسة في تكوينها إلى درجة بعيدة . وقبل أن نتحدث عن هذه الشعوب ، لا بد لنا أن نشير إلى أن منطقة البحيرة تشمل على مجموعتين من البانту : مجموعة صغيرة ومجموعة كبيرة . فأما المجموعة الصغيرة فتتألف من جماعات يعيش كل منها في عزلة ، معتمداً بأوطانه التي التجأ إليها ، كأنه لا يريد أن يندمج في الوحدات الكبيرة . وهذه الجماعات المنعزلة لها خصائص في شكلها تحسن الإشارة إليها . فهي تتمثل فيها الصفات

(١) راجع باومن ووترمن : الترجمة الفرنسية ص ٢١٧ - ١٨٠ .

الزنجية بصورة قوية كأنها لم تتأثر إطلاقاً بالهجرات الحامية ، وقامت متوسطة أو دون المتوسطة ، ترتفع فيها النسبة الرأسية في كثير من الأحيان . . مما يوحى بأن فيها بعض دم الأقزام . وأهم هذه الجماعات :

١ - باجشو Bagishu تعيش في الأحر اج المحيطة بسفوح جبل إلجن Elgon وعددها يقرب من ١٧٥,٠٠٠ نسمة .

٢ - بانيولى Banuli .

٣ - باجوى Bagwi .

٤ - باساميد Bassamid .

وهذه الثلاث قد لا يتجاوز عددها ٢٥,٠٠٠ نسمة وتعيش في إقليم بداما Budama في أوغندا .

٥ - باجنى Bagenyi .

٦ - باليجنى Balegenyi .

وهما أيضاً من سكان إقليم المستنقعات إلى الجنوب من بحيرة كيوجا ولا يتجاوز عدد السكان ٣٠,٠٠٠ .

٧ - باكنجو Baconjo ويعيشون على منحدرات جبال ونزورى ويبلغ عددهم نحو ٢٥,٠٠٠ .

والى جانب أوطانهم المنعزلة تتميز هذه الجماعات بأن لغاتها البنتوية فيها عناصر بدائية في نظر علماء اللغات ، كأنها لعزلتها وانقطاع السكان عن التيارات والتعامل ، لم يدركها نصيب من التطور .

هذه أهم المجموعات الصغيرة ، التى تعيش فى الأركان المنعزلة فى هضبة البحيرات .

أما الأقسام الكبيرة فإنها تكون وحدات سياسية كبيرة ، ذات صفات متشابهة وإن كان بعضها أكثر تطوراً من البعض . . وتشمل بلاد الباجنده ،

وبانيورو ، وبانيانكولى وباتورو وكراجوى وباسوجا ، أى أنها تحتل الجزء الرئيسى من هضبة البحيرات .

تمتاز هذه الشعوب كلها بظاهرة خاصة ألا وهى وجود عنصر حامى ، يكون جزءاً هاماً من السكان . وله اسم خاص يتميز به . هذا العنصر هو « الهما » (بضم الهاء أو كسر ها) . ولا ندرى يقيناً هل كان دخول الهما فى هذه الديار دخولا سلمياً أم غزواً منظماً . ولا شك أن دخوله كان حادثاً غير قديم . ومن الجائز أن هذه ظاهرة تتجدد من آن لآن . ويتكلم الهما بلغة البانتو ، فهل هذه لغتهم التى جاءوا بها أم تراهم نبذوا لغتهم الأصلية لكى يتعلموا لغة البلاد التى نزلوها ، بل لعلهم أن يكونوا فتحوها .

يمتاز الهما مظهراً بquamتهم الطويلة ، وتقاطيعهم القوقازية ، فالأنف ضيق والشفاه معتدلة ، ولا بروز فى الفك ، والعنق طويل ، والأطراف متناسبة . واللون أسمر من غير إفراط . والشعر مجعد جداً إن لم يكن مفلفلاً ، لأن الغزاة من دأبهم أن يتزوجوا من نساء البلاد المغزوة . وهذا فى شعب يميل لتعدد الزوجات سيؤدى حتماً إلى الاختلاط ، وأحق الصفات الجسدية بالظهور على مدى السنين صفة الشعر الزنجى ، تلك الصفة التى ثبت أنها من الصفات الغالبة dominant فى الاصطلاح المندلى .

ولكن حالة الهما ليست واحدة فى « الممالك » التى أشرنا إليها . فإن الباجنده وهم شعب من الزراع المستقرين ونشاطهم يتطلب الأيدى العاملة ، وهم لذلك سرعان ما يمتصون العناصر الوافدة عليهم ، لا نجد هناك تمييزاً بين الهما وغير الهما ، بل قد اندمج الهما فى السكان اندماجاً تاماً فلا تستطيع أن تميز بعضهم عن بعض ، والصفات القوقازية التى دخلت البلاد قد انسابت وسط بحر خضم من الدم الزنجى . ويعيش بين الباجنده اليوم بعض الهما حيث يشتغلون برعى الماشية لأصحابها . ولكن هؤلاء جاءوا حديثاً بوصفهم أجراء لمهارتهم فى تربية الماشية ودرائتهم بشئونها . أما الباجنده بعامة فلا تستطيع أن تميز بينهم باهما من غيرهم .

ولكن الحال بخلاف ذلك عند البانيورو حيث لا يزال الباهما هم طبقة الحكام ، ولهم النفوذ الواضح في البلاد . ولا يزالون يحتفظون بتقاليدهم العسكرية . وهم الذين يتولون رعى الماشية ويتركون الشعب ، ويدعونهم إرو Iru ، مهمة الزراعة الشاقة غير المحببة إلى نفوسهم . . ولا يخلو الأمر من بعض الاختلاط بين الطبقات ؛ ولكن طائفة الهما لا تزال متميزة .

وإذا اتجهنا جنوباً نرى « ممالك » أخرى مثل تورو وانكولى وكراجوى وفي هذه الأقطار نرى التميز واضحاً ، ونرى أن الهما هم طبقة « السادة » والإرو ليسوا عبيداً بالمعنى المألوف ، ولكنهم بمثابة الخدم أو طبقة العامة ، لا يجوز لهم اقتناء الماشية ، بل يمارسون حرفة الزراعة ، ويوفرون لطبقة السادة ما يحتاجونه من غلات الأرض . ولن يكون هناك بالطبع زواج بين امرأة من الهما ورجل من العامة . . ولكن رجل الهما يستطيع أن يتزوج بأى عدد شاء ومن أى جنس شاء . وربما قصرت المرأة من الهما في إنجاب الذرية ؛ بينما ابنة الزنج ولود كثيرة النسل . والغزاة الوافدون من أقطار بعيدة تكون نسبة الرجال فيهم كبيرة ، ونسبة النساء قليلة ، لذلك لا يلبث الغزاة القوقازيون مثل الهما أن يستوعبوا مقداراً من الدم الزنجي يتزايد على مدى الزمن . . ويمضى القرون تزول الفروق فلا يبقى إلا آثارها .

ومما يدل على أن نزول الهما في أوطانهم الحالية شيء حديث نسبياً (لا يزيد على بضع مئات من السنين) أن المجتمع لا تزال تظهر فيه الفروق بين السكان الأصليين وبين الغزاة الوافدين :

ولا تزال تروى في منطقة البحيرات قصة رجل أبيض الوجه يدعى كنتو Kintu ، وفد على البلاد منذ زمن ومعه أتباعه وأنصاره وكلهم من البيض ، ذوى الوجوه السمحة الكريمة ، والأخلاق والشيم العالية ، جاءوا مسلمين وأدخلوا في البلاد تربية الماشية وزراعة اليام والبطاطا، وغير ذلك من الحيرات وعلموا الناس الحضارة والمدنية ، وهدوهم إلى سبيل الرشاد . وظلوا

مقيمين بين الناس في بونيورو وبوجنده وبوسوغا الخ ينشرون بينهم العدل والأمن ، إلى أن فسدت طائفة من هذه الطوائف . فإذا كان راوى القصة من الباجنده ، فيكون الشر مصدره بونيورو . وهلم جرا . . . ومهما يكن من أمر فقد عجز كنتو وصحبه عن مقاومة الشر ، وضاقوا به ذرعاً ، ورحلوا عن البلاد متجهين إلى الجنوب . . . واستقر بهم المطاف في الجهات الجنوبية ، ولا ندرى هل نزلوا رواندا أم برندي أم دياراً أبعد إلى الجنوب . كل ما نعلمه أن بعض الرواة زعموا أنهم رأوهم في الجنوب وسط الغابات ، وقد كللهم الشيب ، والناس من حولهم يمجدونهم ويصدعون بأمرهم ، وقد توافرت الخيرات وانتشرت البركات ، إلى أن شجر الخلاف وعم الشر مرة أخرى ، وأخذ الناس يقتتلون فلم يسع أهل كنتو إلا أن يرحلوا . ولم يعثر لهم بعد ذلك على أثر .

ويرى سلجيان في هذه القصة دليلاً على هجرة حامية نشرت نفوذها في منطقة البحيرات وأدخلت كثيراً من عناصر الحضارة . ولهذا نرى في البلاد مزيجاً من مظاهر التقدم جنباً إلى جنب مع مظاهر الوحشية والهمجية . ويضرب لذلك مثلاً عند الباجندا حيث يرى من جهة كيف كان يذبح المئات من الناس بعد وفاة الملك لكي يدفنوا معه ويصاحبوه في العالم الآخر ؛ ومن جهة أخرى نرى نظاماً سياسياً مستتباً على رأسه الملك (ويدعى كيكبا) ومجلس الدولة ويسمى لوكيكو ، ومن أهم أعضائه رئيس الوزراء (كاتيكورو) ووزير العدل . . . وممثل لكل مديرية من مديريات المملكة .

ولا شك أن أرقى الممالك التي تخلقت عن هجرة الهما هي مملكة بوجنده التي غلب اسمها على حماية بوجنده في العهد البريطاني ، كما أصبح اسمها هو الغالب في الجمهورية الفيدرالية الحديثة ، التي لم يكن بد من أن يكون رئيسها هو الكيكبا زعيم الباجنده . . . امتاز شعب الباجنده ، بأنه شعب زراعى ناجح في مشروعاته الزراعية . والمساكن عنده كبيرة وليست مجرد أكواخ صغيرة كما هي الحال في الجهات الإدارية ، ويظهرون كثيراً من الحشمة في ملابسهم

التي تكسو الجسم من الرأس إلى القدم . ولهم براعة في الحرف المختلفة ،
ومحسنون الأعمال الزراعية ، ولا يهتمون كثيراً بالماشية ويستأجرون لرعيها
أجراء من الهما من الأقطار المجاورة .

وليس في مجتمعهم طبقات ، وعلى الرغم من أن بعض الأسر قد ينتمى إلى
الهما ، فإن هذا ليس له أهمية اجتماعية ، فهم شعب مندمج خال من أى امتياز
طبقى . . . ومن الجائز أن السبب في هذا أن الهما كانوا قليلين لأن البيئة لا تلائم
حياة الرعى ، أو أن الباجنده كانوا كثيرى العدد جداً بالنسبة للوافدين من الهما
فسهل اندماج العناصر بعضها في بعض .

وليس للهما لغة خاصة ، بل يتكلمون لغة البلاد التي يعيشون فيها ،
أى يتكلمون إحدى لغات البانتو ، وبالطبع لا ندرى أهم الذين أتوا بهذه
اللغة ، أم وجدوها في البلاد فتعلموها من سكانها ، أم انها لغات جاءت بها
هجرات أقدم . إن كل هذا مرتبط بنشأة ومصدر لغات البانتو . وهى المشكلة
التي سبقت الإشارة إليها .

✧ هذه المجموعات من شعوب البانتو المجاورة لبحيرة فكتوريا أطلق عليها
اسم شعبة البحيرات Lacustrine وإلى جانب الشعوب التي تقدم ذكرها
يمكننا أن نضيف إليها رواندا وبرندى فى أعالي نهر كاجيرا وإلى الجنوب
الغربى من فكتوريا ، وكذلك نيامويزى إلى الجنوب منها . . . وتمتاز رواندا
وبرندى بأن المجتمع هناك يتألف من سلاتين : الأولى سلالة توتسى Tutsi
وسلالة هوتو Hutu ، وهذا واضح بوجه خاص فى رواندا حيث كان
التنسى يكونون الأرستقراطية التي تحكم البلاد وتهيمن على شئونها وهى
لا تتجاوز ١٠٪ . والهوتو هم سواد الشعب ويمثلون نحو ٨٥٪ من السكان ،
والأولون هم أصحاب الماشية . ويمتازون بالقامة الطويلة وتقاطيع زنجية
ملطفة ، وأما الهوتو فهم من الزنوج الخلتص . وهم أهل البلاد الأصليون .
أما الباتنسى فهم حديثو الهجرة نسبياً . . . وقد سادت البلاد الاضطرابات حديثاً

مع الحركة الاستقلالية ، وثارت العامة على الخاصة وألحقوا بهم أشد الأذى ،
وشردوهم في البلاد وفي الأقطار المجاورة .

* * *

إذا اتجهنا من بحيرة فكتوريا شرقاً ، لا نجد من جماعات البانتو إلا القليل ،
لأن هذا الإقليم الأوسط بين البحيرة والمحيط الهندي قد نزله كثير من
السلالات أحدث هجرة : مثل سلالة لولو Luo وهم من النيلين ، وسلالات
أخرى من النيلين الحاميين . فحال وجودها دون امتداد البانتو إلى الشرق من
فكتوريا ، إلا في أقصى الشرق حيث نلتقى مرة أخرى بشعوب من البانتو
أشهرها بلا شك كيكويو Kikuyu وكامبا Kamba . وهما — على الرغم
من تأثرهما ببعض السلالات النيلية الحامية — فإنهما من صميم البانتو ؛ ويطلق
على مجموعتهم الشعبة الشمالية الشرقية .

والكامبا من أكبر القبائل في شرق إفريقيا يعيشون على المنحدرات الشرقية
من أفريقيا الشرقية ما بين أعالي نهر تانا ومسكة حديد يوجنده ، بجاورهم
الكيكويو من الغرب والشمال الغربي . ومن الجنوب جماعات النيلين الحاميين ،
الذين لا يبادلونهم حباً كثيراً . وتسود بين الكامبا النسبة الرأسية الأقل من
المتوسط (٧٦) والقامة ١٦٥ سم . وينقسمون إلى عدد من العشائر الطوطمية
تنسب كل عشيرة إلى جدها المزعوم أو إلى الطوتم الذي اتخذته شعاراً .
وتسود بينهم فكرة أن كل عشيرة تشابه طوطهما في طباعه ، فإذا كان
طوطهما الأسد اشتهرت بالشجاعة وإذا كان شعارها الضبع غلب عليها الجشع
وهلم جرا . وشئون الحكم في أيدي مجلس من الشيوخ . وسلطانه مقصور على
إقليم محدود ، وليس هنالك سلطة عامة على البلاد كلها .

والأفراد مقسمون إلى مجموعات بحسب السن . والشيوخ الذين لهم حق
الاشتراك في المجلس وتصريف شئون العشيرة هم الذين تجاوزوا الأربعين .
ولرجل الطب مكان محترم . فهو يمارس الكهانة ، إلى جانب المعالجة ،

وربما تنبأ بما سيجرى ، ويرجع إلى رأيه فى الشئون الهامة ، وله حق التوجيه فى الطقوس الدينية والتضحية لأرواح السلف .

وقد كان الكامبا فيما مضى عراة ، واليوم يلبسون ما يشبه البطاطين رجالاً ونساء من صنع أوربا ، وأهم أسلحتهم القوس والسهم المسمم والخنجر ، ولم يتخذوا الرمح ولا الترس فى حروبهم ، وقد تعلموا بالطبع مثل غيرهم استخدام الأسلحة النارية .

والكامبا زراعيون ، وتقوم النساء بمعظم العمل الزراعى ، ويستخدمن فى خدمة الأرض فأساً من الخشب وعصاً . . ولا يتخذن أبداً أدوات من الحديد لكيلا يحول ذلك دون سقوط المطر ولهم ماشية وضأن وماعز يرعاها الفتيان والشباب . ولكن الحلب تتولاها النساء . والكامبا مثل الماساى يحبون الدم ويستخرجونه من الدابة الحية كما يفعل الماساى على النحو الذى سنشرحه فى الفصل التالى .

ودينهم الأصلى يشمل الإيمان بالله خالق أعلى اسمه مولنجو Mulungo مسكنه فى السماء ، وقلما يذكرونه فى عباداتهم ، أو يقربون إليه ، ويقولون حسب ما رواه سلجيان : « إذا كان لا يؤذينا ولا يفعل بنا شراً فلماذا نقرب إليه القرابين ؟ » أما الذين يذكرون دائماً فى كل يوم فى كل مأدبة فى منزل أو وليمة تحيى العشيرة فهم السلف .

* * *

والكيكويو يشابهون الكامبا . ويقولون إنهم أتوا من ديار الأمبا الواقعة جنوب أوطانهم الحالية ، ونزلوا المنطقة المرتفعة التى يعيشون فيها . فوجدوا فيها أناساً يعيشون من الصيد لعلهم من أجداد سلالة واندرابو التى سيجى ذكرها فى الفصل التالى .

ويشتغل الكيكويو بالزراعة ، وتربية البلاد خصبة وأهم غلاتهم اللذرة . ويزرعون أيضاً أنواعاً من البطاطا والموز والفاصوليا وقصب السكر . وعلى

الرغم من أن عددهم يقرب من المليون نفس فإنهم مقسمون إلى عشائر أبوية . ولم يسبق لهم أن اتحدوا وكونوا دولة أو كان لهم رئيس أو زعيم له السلطان الكامل على القبيلة كلها . ومع ذلك فالى الكيكويو يرجع الفضل في إنشاء جمعية الماو ماو التي دوخت الاستعمار البريطاني . وأمكن لهذه الجمعية أن تخلق تعاوناً بينها وبين سلالات أخرى في كينيا ، وإلى جهودها يرجع الفضل الأول في نيل كينيا استقلالها .

والكيكويو يقتنون أيضاً كثيراً من الماشية ، وهي مقياس الثروة في الأوساط الريفية ، ولهم أيضاً كثير من الضأن والماعز ، وقبل انتشار التعامل النقدي كانت المعزة وحدة التعامل ، بحيث تساوى البقرة ١٣ رأساً من الماعز . وترعى الماشية على حافة المزارع ، وتأوى بالليل في حظائر خاصة ، ولكل زوجة عدد من الماعز والضأن ، وهي تؤويها في كوخها .

وللكيكويو - في ديانتهم الأصلية - معبود يدعى « نيجاي » أخذوه عن الماساي . ومقره في أماكن متعددة أهمها جبل كينيا ، وكذلك بعض أشجار التين البري ، التي تعد شجرة مقدسة ، وعندها تقدم القرابين بوساطة كبار القوم ، وهذا الإله يستمع للدعوات ويستجيب لها . أما العلل والأمراض فتنسب عادة للسلف ، ووظيفة رجل الطب أن يبين للناس رغبات السلف ، وما يجب عمله لاسترضائها ، ومن أجل ذلك كان لرجل الطب سلطان ونفوذ . والميت تترك جثته في العراء في الأرض البور ، أو تترك في الكوخ فريسة للضباع . ولا يكون الدفن إلا للشيوخ وذوى الثراء . وفي هذه الحال يقوم أبناء الميت بحفر القبر قريباً من الكوخ ، حيث تدفن الجثة مضطجعة بحيث يكون الرأس متجهاً نحو الغرب . بعد ذلك يهدم الكوخ فوق القبر .

ومن العادات الغريبة عند الكيكويو الولادة الرمزية للمرة الثانية ، ولا بد للصبية من الذكور والإناث أن يتعرضوا لهذه التجربة : في السنة العاشرة من العمر ، وهي تشتمل على مظاهر الولادة ، كأنه تمثيل (ناقص بالطبع)

لما حدث للطفل عنلما ولد ولادته الأولى ، ولا يجوز للأطفال أن تحتن أو ترث ، أو تشترك في الحفلات العامة ، إلا بعد هذه الولادة الثانية ، وإذا كانت أم الطفل ميتة جاز أن تحمل محلها امرأة أخرى وهي تعتبر فيما بعد « أم البنت » (١) .

* * *

إذا اتجهنا جنوباً من بلاد الكامبا ، ألفينا أمامنا شعب تشاجا الذى يعيش إلى جوار منحدرات كليمانجور عند الحدود الشمالية لتجانيقا (تنزانيا) . ويزعم التشاجا أن سلالتهم أسسها رجل مهاجر من كامبا ، منذ بضع مئات من السنين . وهم زراع ، ولهم براعة فى رى أرضهم حين يعوزها المطر . وليست لهم قرى ، بل يتخذ كل رجل داره فى وسط مزرعة الموز . والزراعة وراثية يرثها الابن الأكبر للزوجة الكبرى . . . وهناك نوعان من المساكن : الطراز المخروطى الشكل المعروف ، والنوع المستطيل الذى يتخذ الماساى والختان منتشر فى كلا الجنسين كما هى الحالة عند الكيكويو والكامبا ، والأولاد لا يجوز ختانهم إلا حين يبلغ أحد أبناء الزعماء سن الختان . وفى هذا الوقت تقام حفلة ختان عامة . . . وهذا يعتبر حادثاً خطيراً فى تاريخ القبيلة . والمجموعة التى ختنت معاً تمثل زمرة أو عصابة تعمل معاً إذا كان هناك مجهود حربي . وتكون طبقة حربية واحدة .

والإله الأعلى عند التشاجا يسمى رعا أو روا ، وليس من الضروري أن يكون له صلة بالإله رع عند قلماء المصريين ، على الرغم من أن الكلمة معناها الشمس عند التشاجا . وعندهم أنه لا يشغل نفسه بشئونهم كثيراً ، ولذلك فإن أكثر احتفالهم بأرواح مؤسسى القبيلة .

وهناك قبائل عديدة صغيرة فى المجموعة الشرقية للبانسو ، ولكن يهمنى أن نخص منها بالذكر الشعب السواحلى ، وهذا الشعب كما يدل عليه اسمه

(١) معظم معلوماتنا عن الكيكويو مشتقة من الرسالة التى كتبها جوموكنياتا فى إنجلترا وعنوانها ، Facing Mount Kenya .

يعيش في المنطقة الساحلية الممتدة إلى نحو ٥٠٠ ميل ما بين نهر تانا شمالاً ومصب نهر روفوما جنوباً ، حيث الحدود السياسية بين تنجانيقا وموزمبيق . هذا أهم جزء في أقطار البانتو تعرض للهجرات العربية وللنشاط العربي ، كما تعرض أيضاً لهجرة بعض سكان إقليم فارس من منطقة شيراز ، ولذلك كثيراً ما يطلق عليهم اسم الشيرازيين . وقد كان في الإقليم أيضاً مجال لهجرات من الهند ، وأكثرها من الجهات التي يطلق عليها اليوم اسم باكستان . لكن لا شك أن الأثر العربي كان أطول وأعمق ، ويرجع إلى القرن الثامن الميلادي . وهو يمثل تجارة وانتقالات ثقافية واجتماعية ، مصدرها السواحل العربية من عمان إلى عدن . . وقد نشأت دول في هذا الإقليم ، وكان آخرها دولة زنجبار ، التي اندمجت الآن في تنجانيقا وأصبحت الدولة تدعى تنزانيا .

وبقطع النظر عن المؤثرات الدينية والاقتصادية التي جاءت نتيجة للهجرات العربية ، كان أوضح أثر تركه هذا الاتصال المستمر هو نشوء وتكوين لغة «السواحلي» ، التي أصبحت هي لغة التعامل في شرق أفريقيا لا في الإقليم الساحلي فقط ، بل تمتد كما يقول سلجمان من الكونغو غرباً إلى جزر كومورو شرقاً (إلى الشمال الغربي من مدغشقر) . . . وهكذا استطاع الاتصال العربي أن يوجد أداة لغوية واسعة الانتشار في النصف الشرقي من القارة وتسهل التعامل والتفاهم بين أبنائها؛ من أجل ذلك لم تتردد حكومة تنجانيقا الحديثة عندما استقلت بشئونها أن تجعل لغتها الرسمية هي لغة السواحلي . هذا اللسان السواحلي : في أصله لغة من لغات البانتو . ويظن أنه مبني على أصول لغة قبيلة جرياما Giryama . وهي تعيش إلى الشمال من ممباسا وليس بمستبعد أن يكون الاتصال الأول بالمهاجرين العرب تم في هذا الإقليم . ثم أخذ ينتشر تدريجياً في كل اتجاه . ونظراً لأهمية لغة السواحلي قد ألقت فيها الكتب وعملت لها معاجم ، واضطر المستعمرون لاستعمالها في كثير من الأغراض . وهي من أهم اللغات التي تدرس في المعاهد المخصصة للدراسات الأفريقية .

ولغة السواحلي إذن عبارة عن لغة من لغات البانتو ، لكنها تشتمل على نسبة عالية جداً من الألفاظ والعبارات العربية . ولا شك أنها تكونت في بيئة مختلطة تتكون من عرب وبانتو وإلا لما سميت بهذا الاسم العربي الصريح ؟ والظاهر أنها لغة مرنة لأنها تشتمل أيضاً على ألفاظ من بعض اللغات الأوربية (البرتغالية بوجه خاص) والحامية .

وليس المهم في هذا ما للاتصال العربي من الأثر في ألفاظ اللغة وعباراتها ، ولكن المهم أن الاتصال بالعرب قد أكسب الإقليم لغة قومية ، لها خطرها في المقومات السياسية والاجتماعية . الأمر الذي يفقر إليه كثير من الوحدات الأفريقية الحديثة التي اضطرتها ظروفها لأن تعتمد على اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية .

ولا بد أن يكون من نتائج هذا التأثير العربي بعض الانتشار للدماء العربية ، ممتزجة في الأغلب بدماء البانتو . ومع ذلك فإن في البلاد عدداً ليس بالقليل من العرب الصرحاء . وهم على الأرجح حديثو الهجرة ، ومتمسكون بمظاهر وتقاليد الحياة العربية ، أما سائر السكان فمن المنتظر أن يكون هناك تنوع كثير في الصفات الطبيعية ، سواء في لون البشرة أو طول القامة أو مقدار ونوع الشعر ، ونحو ذلك . كذلك لا بد أنه ستكون هنالك اختلافات في مظاهر الحضارة ، مثل أنواع المساكن والأدوات المنزلية ، والحرف والصناعات والملابس والحلي ؟

وهكذا نرى أننا في متابعتنا لتوزيع البانتو ، قد انتهينا في الأطراف الشرقية إلى إقليم يبدو فيه تأثير السلالات القوقازية بصورة قوية . . وفي الفصول التالية سنرى أمثلة أخرى لهذه المظاهر .

الفصل الخامس

النيليون الحاميون

— ١ —

لقد رأينا ونحن ندرس توزيع البانتو في شرق إفريقيا ظاهرة لفتت نظرنا ، وهي أن توزيع البانتو إلى الشرق من بحيرة فكتوريا ليس مطرداً ، وأن هناك سلالات مختلفة تقطع استمرار التوزيع في سياق مطرد ، كأن كتلة بشرية اندفعت كالإسفين في وسط الإقليم ؛ واحتلت الجهات الوسطى التي كان من قبل يحتلها البانتو ؛ إذ لا يكاد أن يكون هناك شك أن البانتو كانوا من قبل يحتلون هذا الإقليم الأوسط ، وكان توزيعهم مطرداً من منطقة البحيرات الاستوائية إلى المحيط الهندي . ولا يمكن تفسير التوزيع الحالي للبانتو وغير البانتو في شرق إفريقيا إلا على اعتبار أن عناصر متأخرة في الزمن ، اكتسحت الإقليم الأوسط ، تاركة البانتو عند مصب نهر تانا ، والجهات التي تليه جنوباً منفصلين عن أقاربهم حول بحيرة فكتوريا . .

هذه العناصر المتدخلة في إقليم البانتو الشرقيين ، هم أول ما نصادفه في طريقنا من الجنوب إلى الشمال من سلالات من طراز جديد ، يشتمل على نسبة كبيرة نوعاً من الدم الحامى . . وهذه الظاهرة التي نقابلها عند العرض السادس جنوب خط الاستواء تزداد بعد ذلك ظهوراً إلى أن تصل إلى أعالي النيل وبحر الجبل .

لا شك أن هذه العناصر كانت خطة سيرها بصفة عامة من الشمال نحو الجنوب سواء أكانت تحركاتها سلمية أم حربية ، (والثاني أرجح) . وإذا

كان امتدادها إلى الجنوب قد أبلغها إلى خط العرض السادس : فإننا نجد أنها في الشمال قد تجاوزت أوطانها الخط السادس الشمالى ، وليس معنى هذا أنها تحركت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب في اتجاه مطرد . . بل إن منطقة انبعائها كانت في الغالب في منطقة قريبة من الوطن الحامى الكبير في قرن إفريقيا .

هذه هي السلالات التي جرت العادة بتسميتها النيلية الحامية Nilo-Hamites . وقد كانت تدعى من قبل أنصاف الحاميين Half-Hamites . وقد اقترحت أسماء أخرى . ولكن استقر رأى - ولو بصفة مؤقتة - على تسميتها سلالات النيليين الحاميين ، ولا بد أن نخص هذه السلالات بالدراسة لأن لها كيانها المستقل ولها خصائص ثقافية انفردت بها .

وعندما سميت هذه السلالات بأنصاف الحاميين كان الباعث على ذلك أن الدراسات الأولى أوهمت الكتاب أن هذه الجماعات تشتمل على نسبة عالية من الدم القوقازى . ثم تبين أن وصف تلك النسبة وتحديدتها بالنصف فيه مبالغة في حالة بعض السلالات ، التي وجد أنها تشتمل على كثير من الدم الزنجى ، ولذلك فضلوا اسم النيليين الحاميين .

ومع ذلك فإنه لا شك أن هذه المجموعة من الشعوب تشتمل على شيء كثير من الدم القوقازى وصفاتها الطبيعية لا تدع مجالاً للشك في ذلك على الرغم من أن هذه الصفات القوقازية تتفاوت من شعب إلى شعب : كذلك ليس من السهل أن تبين السبل التي سلكتها تلك الهجرات ، ولا كيف حدث الاختلاط الذي أدى إلى تكوين السلالات النيلية الحامية ؛ ولا المكان الذي حدث فيه هذا الاختلاط . وكل ما يقال في هذا الأمر مداره على الظن والترجيح ، لا على اليقين والتأكيد . وإذا جاز أن يدل المرء برأى ، فلعل الأرجح أنه كانت هنالك منطقة تكوين : لكل من النيليين الحاميين من جهة وللنيليين (Nilotes) من جهة أخرى . والمنطقتان منفصلتان ، ولكن غير

متباعدتين ؛ ومع أن ظروف تكوين النيلين الحامين ، والنيلين متشابهة ، غير أن بينهما من الاختلاف فى اللغات والثقافة ، ما يؤكد أن الوطن الأصلى لكل منهما كان منفصلا ، وإن لم يكن بعيداً ، عن الآخر .

كذلك لم تكن تلك الأوطان فى الأرجح بعيدة عن أوطان الحامين ، كما نعرفها اليوم . وهذه الأوطان الحامية تحتل منطقة واسعة جنوب الهضبة الحبشية وتشمل جميع الأراضى التى يطلق عليها اسم قرن أفريقيا . وهذه الأقطار لا تزال يعمرها شعوب حامية عديدة أهمها الجلا والسومال والسيداما .

ونستطيع أن نؤكد بناء على بحوث بعض العلماء أن هذه الجهات قد تأثرت بالجفاف ، وقلت مواردها المائية فى نهاية ما يسمى العصر المطير ، المقابل للعصر الجليدى فى غرب أوروبا. إن ظاهرة نقص المطر كان لها أثرها فى جزيرة العرب ، فى دفع الهجرات إلى أطراف الجزيرة . وكذلك يجوز لنا أن نتصور ظاهرة مماثلة تم على دفعات . فى شرق أفريقية ، تؤدى إلى انتقال رعاة من القوقازيين ، إلى أوطان جديدة ، لعلها أول الأمر كانت حول بحيرة رودلف . . . حيث وجدت سلالات أخرى امتزجت بها . . . ولا بد أن تتابعت هذه الموجات والهجرات ، على مدى العصور الحديثة .

وإذا كان هناك اختلاف فى الصفات الطبيعية بين شعوب النيلين الحامين ، فإن مرد هذا إلى اختلاف الأوطان التى نزلها كل منهم ، والسلالة التى كانت تسكن تلك الأوطان ، والتى كانت تختلف فى العدد والصفات والثقافة . وهذه السلالات التى اختلط بها الحاميون هى فى الأرجح سلالات زنجية ، ولا شك أن درجة الاختلاط كانت مختلفة من مكان إلى مكان ، كما سنرى ذلك عندما نعرض لبعض الشعوب النيلية الحامية .

ومواطن النيلين الحامين اليوم تشمل الجزء الجنوبي الشرقى من السودان ، والجزء الشرقى من أوغندا والغربى من كينيا ، والشمالى من تنجانيقا . . . وجرى

العرف بتقسيم هؤلاء النيليين الحاميين إلى ثلاثة أقسام : وهو تقسيم أقرب إلى أن يكون تقسيمياً عرفياً :

١ - المجموعة الشمالية : تشمل الشعوب التي تعيش في السودان الجنوبي الشرقي ، وحدها الجنوبي هو الحد السياسي بين أوغندا والسودان :

٢ - المجموعة الوسطى وتمتد - على وجه التقريب - ما بين بحيرة كيوجا غرباً إلى بحيرة رودلف شرقاً ، وتشمل الركن الشمالي الشرقي من أوغندا والشمالي الغربي من كينيا .

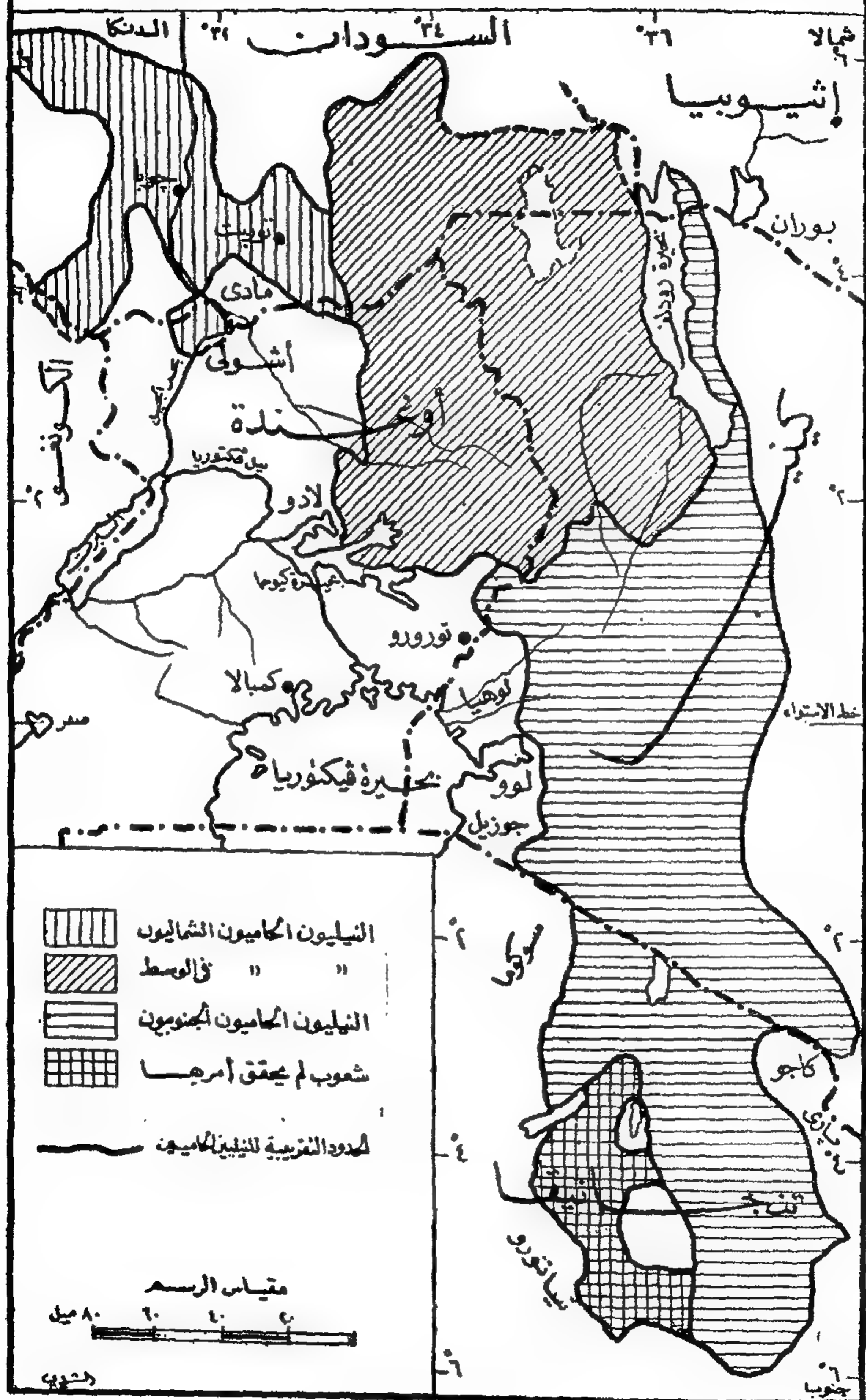
٣ - المجموعة الجنوبية تشمل الجزء الغربي من كينيا ، وتمتد إلى الجزء الشمالي من تنجانيقا . وهذا هو الجزء الذي يحف به البانتو من الشرق ومن الغرب .

وهذه الأقسام كلها تكون مساحة واسعة متصلة أجزاؤها بعضها ببعض . والمجموعة الأولى تمتد من خط عرض ٦ إلى ٣,٣٠ وتشتمل على شعب الباري في جنوب السودان ، وبعض وحدات تتصل به ثقافياً وتاريخياً ، وواقعة على الناحية الغربية من النيل ، وإلى الشرق من الباري نجد شعوب لولوبا Luluba ولوكويا ثم اللاتوكو والقبائل المندمجة فيها ، وفي أقصى الجنوب الشرقي من السودان شعب التبوسا Toposa والديدنجا ، وكلاهما من القبائل التي هاجرت من أوغندا .

أما المجموعة الوسطى فيتمثل كما رأينا معظم الإقليم الشمالي الشرقي من أوغندا ، وهي جهات يغلب عليها الجفاف في معظمها ، وأهم الشعوب فيها لانجو^(١) إلى الجنوب من نهر أسوا . وتيزو إلى الشمال من بحيرة كيوجا وإلى الشمال الشرقي منهم تعيش قبائل كاراموجنج Karamojong وجي Jie ولبوار ودودس Dodos ، وعند بحيرة رودلف شعب تركانا Turkana

(١) أصبح شعب لانجو لشدة اختلاطه بالنيليين يتكلم لغة المجموعة الشلكاوية . ولذلك التبس أمره على بعض الكتاب . وهو في الحقيقة شعب نيل حامي .

شعوب النيلين الحاميين في شرق أفريقيا



(شکل رقم ۶)

والمجموعة الجنوبية تشتمل على شعب ناندى Nandi الذى يعيش فى المرتفعات الغربية لكينيا ، يليه إلى الشرق شعب الماساى الذى ينتشر بعد ذلك جنوباً إلى بلاد تنجانيقا (تنزانيا) وإلى آخر امتداد جنوبى للنيليين الحاميين عند خط العرض السادس جنوب خط الاستواء .

ويعيش إلى جانب النيليين الحاميين فى أوطانهم تلك مجموعات من الصيادين . فعند الشماليين بقايا سلالة تحترف الصيد تدعى « ليجو » Ligo وفى القسم الأوسط بالقرب من أوطان شعب دودس فى الشمال الشرقى من أوغندا جماعة تدعو تيسو Teuso ، وفى القسم الجنوبى فى أوطان الماساى يعيش جماعات الدروبو Drobo .

والجماعات النيلية الحامية كانت أصلاً كلها شعوباً تحترف الرعى . ولا يزال للرعى مكانته الخطيرة فى حياتهم ، وإن انصرف اليوم أكثرهم لممارسة الزراعة بدرجات متفاوتة . وقد سبقت الإشارة أن وحدة هذه الجماعات من الناحية الأتوغرافية تستند إلى أساس لغوى فإن هناك خصائص مشتركة سواء من ناحية معانى الكلمات أو من ناحية بنية اللغة ، وهى خصائص تميز هذه اللغات عن باقى وحدات الأسرة اللغوية الكبيرة التى ينتمى إليها سواهم من النيليين وغيرهم^(١) .

وهكذا نرى أن هناك عناصر ثلاثة تقرب بين هذه الشعوب ، أولها وحدة الأوطان واتصالها ببعضها البعض ، والثانى : الاهتمام برعى الماشية وبخاصة البقر ، والثالث : الوحدة اللغوية .

فإذا نظرنا إلى عناصر ثقافية أو اجتماعية أخرى ، فإننا نجد مظاهر الاختلاف تعادل مظاهر الاتفاق فعادة الختان مثلاً منتشرة عند الجنوبيين وفى الوسط عند قبيلة السوك . ولا نكاد نجد لها وجوداً عند سائر الشعوب ، والرمح منتشر عند الجميع تقريباً ولكنه يختلف فى مظهره بين مجموعة وأخرى

(١) راجع هنتجفرد Huntingford The Northern Nilo-Hametes

أما القوس فلا يوجد إلا عند البعض ، ولا يقتنى السيف سوى المجموعة الجنوبية ، وبعض الجماعات فقط تستخدم الترس ، مع اختلاف في شكله وحجمه وقد أورد هنتنجفورد في كتابه جداول توضيح مواضع الاتفاق والاختلاف في العناصر الثقافية . ومن الممكن للقارئ أن يرجع إليها^(١) .

ومن الأمور التي ذكرها هنتنجفورد ، أن جميع النيليين الحاميين ، لا يقرعون الطبول إلا في أوقات وظروف محدودة ، وهذا الامتناع عن دق الطبل أمر مشترك ، لا تشذ عنه قبيلة . . .

وفي المجموعة الشمالية ، أهم مظهر ثقافي واجتماعي هو « جلب المطر » ، وما يصاحبه من أهمية الزعيم الذي يشرف على ذلك ، ووجود « حجارة الغيث » rain-stones يستخدمها الكاهن المختص . وعند المجموعة الشمالية أيضاً شخصية هامة وهي « زعيم الأرض » ، الذي يعنى بخصوبة الأرض ووفرة غلاتها . . . وزعامة الأرض هذه موجودة لدى الدنكا . ولكن الغريب أن المجموعة الشمالية هي الوحيدة بين النيليين الحاميين التي تعنى بجلب المطر مع أنها تعيش في أوطان مطرها غزير ، بينما الجهات الوسطى القليلة الماء ليس فيها لزعامة المطر أى أثر .

ومن العناصر الهامة في ثقافة المجموعة الوسطى أنها تقتنى ترساً مستطيلة ضيقة ، وسكينة المعصم ، ومكين الإصبع ، ويضع الشخص سداً في الشفة وقرصاً في الأنف ، ويكثر تصفيف الشعر ، ولهم كراسي صغيرة تستخدم أيضاً كوسائد .

والمقتنيات المادية ليس لها ميزات فنية عظيمة ؛ فالفخار الذي يصنعه النيليون الحاميون ليس ممتازاً ، وبعضهم - مثل الماساي - لا يصنع الفخار إطلاقاً ، وإذا كانت هنالك مواهب فنية ، فإن هذه لم تظهر في صناعاتهم

(١) نفس المرجع ص ١٨ ، ١٩ .

على قلتها . وربما كان النتاج الوحيد الذى أبدى فيه النيليون الحاميون تفوقاً من الناحية الفنية والبراعة الصناعية ، هو الرماح المستطيلة ذات السنان الدقيقة البديعة والتي يصنعها الناندى والماساى والتي تجمع بين الجمال والفائدة العملية .

ومن الظاهرات التى كانت سائدة عند جميع النيليين الحاميين ظاهرة خلع القواطع فإن هذه العادة قد ثبت وجودها عند الجميع ، سواء أكانت تعمل كعلامة لبلوغ الرشد أم كانت تعمل لغير ما سبب . غير أن عادة خلع القواطع بعضها أو كلها ليست أمراً انفرادياً بالنيلون الحاميون .

ولكن هناك ظاهرة أخرى وهى طبقات السن . نجدها عند الجميع بدون استثناء ، وهى إن وجدت عند غيرهم ، فليس لها من النظام والأهمية ما نجده عند النيليين الحاميين ،

ومن ناحية الصفات الطبيعية سبقت الإشارة إلى أننا نحق لنا أن نتوقع اختلافاً بين شعب وآخر ، ولكننا سنجد حتماً أن الأثر الحامى موجود لا شك فيه . وهناك أرقام أوردها هنتنجفورد وهى على قلتها تؤيد صحة ما نتوقعه . فإن النسبة الأنفية تنخفض عند الماساى إلى ٧٦ وتصل عند غيرهم إلى ٨٦ وقلما تزيد على ذلك . والنسبة الرأسية تتراوح بين ٧٠ و ٧٦ وفى القامة طول ملحوظ يزيد عما نجده بين السلاطات الزنجية الصريحة أما شكل الشعر فلا يقول عنه الكاتب شيئاً ، ولكن إشارته إلى انتشار عادة تصفيف الشعر بطريقة خاصة ، تدل على أن الاختلاط القوقازى كان له أثره فى استطالة الشعر نوعاً وإن كان مظهر التجعد سائداً بين معظم القبائل .

ونظراً لأن المقام لا يتسع للكلام على كل شعب من الشعوب ، ومع ذلك فمن المفيد أن نستعرض هنا صورة لشعب أو شعبين من النيليين الحاميين ، فإننا نختم هذا الفصل ببيان موجز عن أحد الشعوب الجنوبية وهو الماساى ، وآخر عن أحد الشعوب الشمالية وهو البارى .

الماساى :

يقول الماساى عن أصلهم أنهم جاءوا من الشمال تحت قيادة زعيم يدعى ماسينتا Maasinta . وقد استطاع هذا القائد أن يعلمهم كيف يتسلقون المرتفعات التى تعترض طريقهم ، والى حالت دون تقدمهم نحو الجنوب ، كما علمهم كيف يقومون بوسم ماشيتهم حتى يسهل عليهم التعرف عليها . والإشارة إلى اجتياز المرتفعات تشير بلا شك إلى المرتفعات الممتدة وسط الجنوب من كينيا والشمال من تنجانيقا . وهى مرتفعات وعرة تحف بالأخدود الأفريقى الكبير . . والظاهر أن هذه القصة تحكى - على فرض صحتها - المرحلة الأخيرة من هجرات الماساى التى أبلغتهم أوطانهم الحالية ، لأن بعض العشائر قد أحصت ستة زعماء لها منذ نزلت أوطانها الحالية إلى أواخر القرن التاسع عشر . . فليس بعيد أن احتلال الماساى لأوطانهم الحالية لا يرجع إلى أكثر من قرنين من الزمان ، ولا شك أن انتقالهم وهجرتهم كانت تمليه طبيعة عيشهم كزراعة لا يكفون عن البحث عن مراعى جديدة ، تمكنهم من إقتناء قطعان جديدة . وهذه أمنيته فى العيش .

والماساى فى أوطانهم هذه فى عزلة ، وبخاصة فى عزلة اجتماعية ، ولا يريدون أن يشتغلوا بحرفة أخرى سوى حرفة الرعى . وقد قاسوا أشد العذاب من المستعمرين البيض وبخاصة فى كينيا ، لأنهم لم يقبلوا العمل فى المزارع ، ونحضعوا للسخرة ، وربما كان عددهم يوماً نحو مائة ألف نفس ، وقد نقص الآن إلى أقل من خمس هذا العدد .

* * *

ولعل الماساى أن يكونوا أقرب إلى العنصر الأصلى من النيليين الحاميين بسبب عزلتهم وقلة اختلاطهم ، ويوصف الماساى بالطول والنحول ، الكف والقدم ضيقتان ، والأصابع طويلة ، اللون بنى فاتح نوعاً أو داكن ، الرأس عال مستطيل ، والوجه مستطيل يمتاز بأنف معتدل دقيق ، وشفاه ممثلة ،

ولكنها أقرب إلى الرقة ، والشعر قليل على الوجه ، كثير على الرأس ، ومجدد بدرجة معتدلة .

ويعيش الماساي في مجتمع يتألف من عشائر ذات نظام أبوي ، اغترابية (يتزوج المرء من عشيرة أجنبية) وإذا كبرت العشيرة انقسمت إلى عشائر أصغر Sub-clans . والعشائر وحدات كل وحدة تتصل بصلة القرابة والنسب ، ولكنها ليست وحدات مكانية ، وإن كانت مواطنها متقاربة ، وربما كانت فيما مضى لكل عشيرة أرضها .

ولا يحدث الزواج إلا بعد أن يكبر الشبان ، ويتموا فترة المحاربين ، ويصلوا إلى مرتبة الرجولة في نحو الثلاثين أو بعد ذلك قليلا ، كما سئى عند الكلام على طبقات السن ، ويشتمل المهر على بعض الماشية والغنم ، ومقدار من جعة العسل honey-beer . ويدفع المهر بالتدريج ، ولا يتم الدفع إلا بعد ولادة طفل ، وهذا بمثابة تأكيد الزواج ، وبعد ذلك تستطيع الزوجة أن تنتقل إلى دارها في منزل الزوج .

ومتى انتظمت الحياة الزوجية أعطى الرجل زوجته شطراً كبيراً من الماشية ليكون في رعايتها . . والزوجة الثانية نصيبها أقل من الأولى ، والعادة أن الزوجة الكبرى تعطى بعض ما عندها للصغرى . . وهذه الماشية ليست ملكاً للزوجات ، بل هي بمثابة أمانة عندهن حتى يرثها الأبناء . . وكل زوجة يحصل أبنائها على ما لديها بعد وفاة الوالدين .

والمسكن عند الماساي يمثل مساحة كبيرة من الأرض ، تتوسطها حظيرة للماشية في شكل دائرة . نصف الحظيرة مخصص للماشية وربيعها للعجول والربع للضأن ومن حول الحظيرة تقام الأكواخ ، للرجل ونسائه وأبنائه وزوجاتهم . بحيث يخصص لكل زوجة كوخ . وإذا كان للرجل أخوة وأبنائهم وزوجات الجميع . فإن المسكن في هذه الحالة قد يشتمل على ٣٠ أو ٤٠ كوخاً .

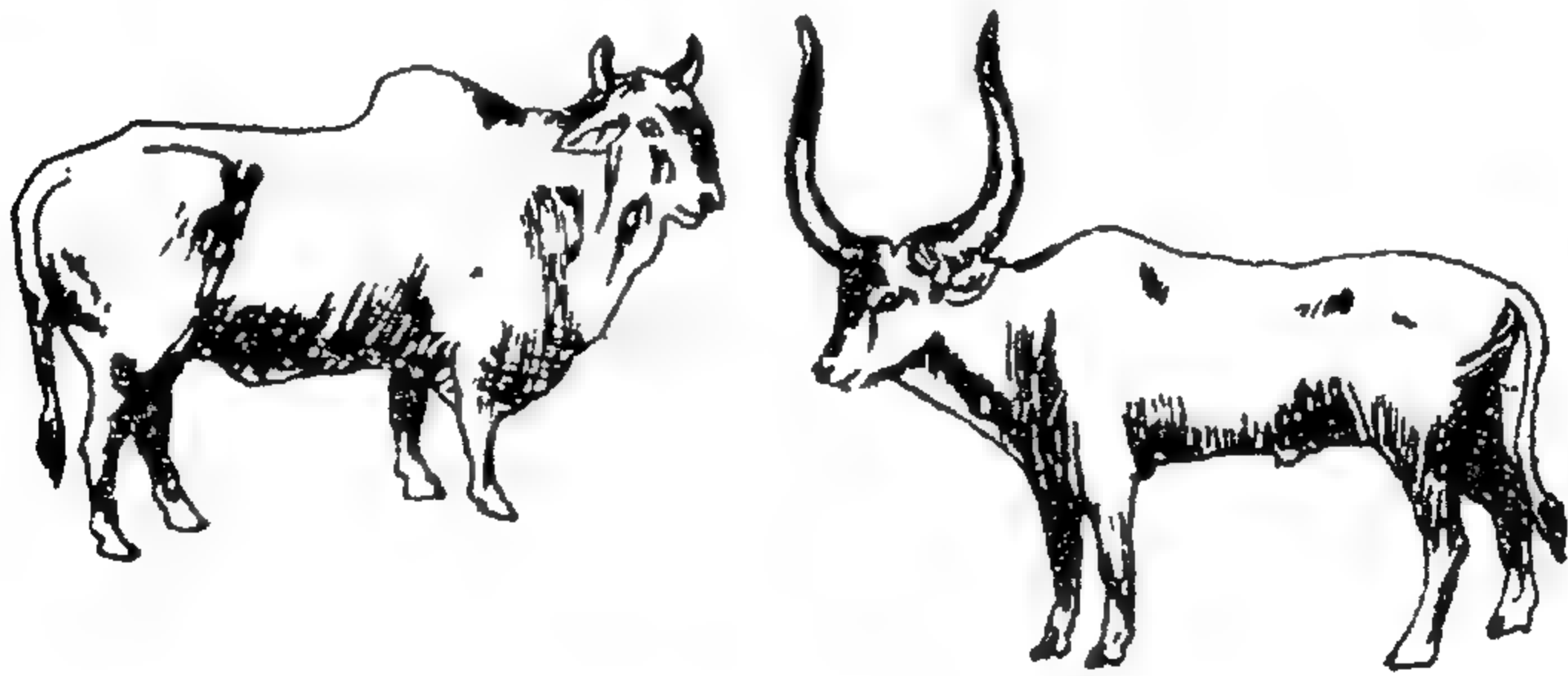
وكوخ الماساى مستطيل ؛ وطوله يزيد على عرضه مرتين وفى آخره الباب ،
ويحيط بالأكواخ كلها سياج سميك من العوسج والطين ، وهناك فتحتان فى
السياج ، من ناحيتين متقابلتين للخروج والدخول إلى الحظيرة . أنظر (شكل ٧) ؛



كوك الماساى

(شكل رقم ٧)

وعلى الرغم من اتساع المسكن وما يشتمل عليه من الأكواخ فإن إقامته
من عمل النساء . وماشية الماساى من نوعين : الأول نحيل طويل القرون ،
قليل اللبن ، والثانى قصير القرون ، سمين ذو قتب كثير اللبن ، والأول
هو المفضل كما فى (شكل ٨) . والنساء يحلبن اللبن .



نوعان من الماشية فى شرق إفريقيا

(شكل رقم ٨)

ومعظم العجول تخصى بعد الولادة ، وتحفظ ليكون منها الهدايا ،
والهبات ، ودفع الديارات والمهور ونحو ذلك ونحصر بعضها بالطبع للتناسل .
أما البقر فيحتفظ بها اللبن وللولادة . وربما أعطى بعضها في المهر زيادة في
حسن التقدير .



وعاء من اليقطين عند الماساى

(شكل رقم ٩)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الماساى لا يصنعون الفخار ، بل يحفظون اللبن
في القرع الجاف ، الذى ينمو وحشياً ، فيتخذ وعاء اللبن وللماء وغيرهما
من السوائل .

ويشرب اللبن طازجاً وحامضاً ، ولا يغلى إلا للمريض . ويصنعون
الزبد ولا يصنعون الجبن .

ومن أغذيتهم الدم يحصلون عليه من عنق الثور وذلك بربطه بحبل حتى
ينفخ الوريد ويستخدمون القوس والسهم في إحداث جرح في الوريد ، حتى
يجرى منه مقدار من الدم .

وهناك إلى جانب البقر ، كثير من الضأن والماعز ، وهذه يكون أمر
ذبحها متصلاً بشعائرهم وحفلاتهم .

وفوق ذلك لدى الماساى بعض الإبل والحمر ، ولعلها تجلب من بلاد السومال ٥

والملبس عند الماساى مادته الرئيسية جلود الحيوان من الماعز والضأن والبقرة . ينزع الشعر منها بقطعة من الحديد ، ويطرى الجلد بالدهن ، ويضغط بالأقدام مراراً وتكراراً حتى يتشرب الجلد الدهن . وربما دبغ الجلد بعصير بعض النبات .

ويستعمل فى ثوب المحارب جلد عجل ، طوله ١٢٥ × ٧٠ سم . تخاط أطرافه بحيث يمكن أن يلبس الثوب من فوق الرأس ، فيغطي الكتف اليمنى ، وتظل الكتف اليسرى عارية .

ويكون للمحارب أيضاً حزام يحمل سيفه ، ويعلق فى الحزام من الخلف مثلث من الجلد يحمى المحارب من الشوك إذا جلس . . ويصنعون فوق ذلك نعالا من جلد الثور الغليظ ويلبسها المحاربون وغيرهم .

والرجال المتزوجون يلبسون ثياباً من نفس الطراز ولكنها أكبر حجماً ، وإذا تقدمت بهم السن لبسوا إزاراً ، خلاف الرداء .

أما النساء فيلبسن رداء كبيراً حول الأكتاف ، وإزاراً قصيراً يتدلى من الخصر . وفى الحفلات يلبس المحاربون تاجاً من الريش مثبتاً على سير من الجلد ، ويربط حول الرأس ، وأحياناً يضاف إلى هذا قلنسوة من جلد الأسد أو غيره من الوحوش . كذلك يلبس المحارب أساور وقلادات من الجلد أو الحديد ، وحزاماً مطرزاً بالخرز .

وتتحلى النساء بلفات عديدة من سلك حديدى حول المعصم والجيد والساق ،

* * *

والنظام السياسى لمجتمع الماساى ، مبنى على وجود عشائر كثيرة العدد جداً بحيث يستحيل عليها أن تؤلف كتلة متحدة تأتمر بأمر زعيم واحد . ومع ذلك

فإن للماساي زعيماً أو رئيساً روحياً يدعى الليبون Laibon ، وهو أقرب إلى أن يكون بمثابة الكاهن الأعظم من أن يكون المتصرف في شئون شعبه : وهذا الليبون الموقر هو زعيم عشيرة إينزر . ومنصبه الروحي هذا تبعاً لذلك منصب وراثي . وعلى الرغم من أنه لا يمارس سلطة حكومية في كل مكان ، فإنه شخص محترم يرهبه الجميع لقداسته ولأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يتوسط عند الإله الواحد الأعظم إنجاي En-gai ويتجاوز احترامه شعب الماساي إلى من جاورهم من الدروبو واللنبوا Lumbwa وهو أيضاً الذي ينظم الاحتفالات السنوية للإله الأكبر ؟

ونظراً لنظام الوراثة المطرد نرى كل ليبون حريصاً على تلقين ابنه الحرص على مصلحة الشعب وخدمته والإخلاص له . وكثيراً ما يكون الليبون ذا شخصية وذكاء ، وإدراك للأوضاع السياسية والعسكرية . وفي هذه الحالة يكون له نفوذ كبير في توجيه نشاط الشعب ، والخروج به من المآزق الحرجة وكثيراً ما كان تدخل الأوربيين مفسداً لزعامة الليبون . وكثيراً ما أدى إلى الاضطراب في نظام وراثة المنصب .

وعلى العموم في الأحوال العادية ، هو الذي يوجه الحرب أو السلم دون أن يشترك هو أو عشيرته في القتال .

ونظام تغذيته محدد وهو لا يتناول شيئاً سوى كبدة الماعز والعسل واللبن ، ولا ينبغي له أن يتعاطى شيئاً آخر .

ومن حول مسكن الليبون ، تتجمع مساكن كثير من الشيوخ والممتازين في القبيلة . ومن عشيرة الليبون أيضاً يكون الرجال الذين حرقهم الطب والسحر ويعالجون أمراض الماشية ، ومناصبهم أيضاً وراثية .

وهناك عشيرة أخرى رؤساؤها يرجع إليهم في جلب المطر ، فإذا اشتد الجفاف وامتنع الغيث زمناً طويلاً طلب منهم أن يتدخلوا ، فيدخلون تحت لحاف كبير من الجلد ، ويقرأون التعاويذ والأدعية والغزائم .

وهي أيضاً عشيرة غير محاربة ، ويتولى الآخرون الدفاع عن ماشيتها .
واشتهر الماساي بنظامهم الدقيق الخاص بطبقات السن ؛ وهو نظام
روعيت فيه طبيعة المجتمع ويجمع بين البساطة والدقة : وأهم اعتبار فيه تقسيم
العمر إلى ثلاث مراتب أساسية : مرحلة الصبي : إلى سن ١٤ أو ١٦ ؛
ومرحلة الفتوة من سن ١٦ إلى ٣٠ . ومرحلة النضج والرجولة بعد الثلاثين . .
وهناك أقسام ثانوية في كل من المرحلتين الأخيرتين . ولا شك أن الخطوة
الخطيرة هي الانتقال من الصبي إلى الفتوة . وهي تتم على الصورة الآتية :

١ - حينما يكون هناك عدد كبير من الأولاد ، سنهم تتراوح بين ١٤
و ١٥ يتجمعون في صورة عصابة ، ويطوفون بالمنازل يلتمسون الهدايا ؛
وهذه يقدمونها إلى رجل من الكبار ذوى النفوذ . ويطلبون منه أن ينشئهم
ليكونوا فتياناً .

٢ - يتقبل الزعيم منهم الهدايا ويزيد فيها . ثم يشرع في إقامة حفلة أو
أكثر من الحفلات التمهيدية . ويعد الترتيبات اللازمة ليوم التنشئة Initiation
والذى تتم فيه عملية الختان بوساطة ختّانين مهرة من قبيلة دروبو Drobo
وعندما يتجمع عدد كاف في العشيرة ، تعمل حفلة كبيرة للمختّنين ، تحلق
فيها رءوسهم ، وهذا لإيذان بدخولهم زمرة الفتيان أو طبقة المحاربين .

٣ - وكل عصابة حلقت رءوسها وتم ختانها معاً تأخذ لنفسها اسماً خاصاً
مثل « الأسود » أو « المغيرون » أو « السيف الأبيض » . ولا يلبثون أن يقام
لهم معسكر خاص تقيمه الأمهات والبنات . ويعيش الشباب بعد ذلك في هذه
المعسكرات . وليس معنى ذلك أن كل عصابة جديدة ، ستبدأ القيام بالأعمال
الحربية ؛ إن هناك طبقات أقدم منها ، وأكثر تجربة ، ولا بد أن يمضى وقت ،
حتى يستطيع الرهط الجديد أن يشترك اشتراكاً جدياً في العمل الحربي . .
ولذلك تكون هنالك مراتب معترف بها في طبقة المحاربين .

ويقضى المحاربون في المعسكرات من ١٠ إلى ١٥ عاماً ، يرعون الماشية ،

ويقومون الحفلات ، ويعدون الغارات ، والعمل الرئيسى لطبقة الشباب هو بالطبع أن يتعهدوا الماشية ، وأن يدافعوا عنها ، وهم الذين يخلبون ألبانها ، فتحملها النساء والفتيات فى أوعيتها من المعسكرات إلى مساكن العشيرة .

وقبل أن يحد من نشاط الشباب ، كان من واجهم أيضاً أن يعملوا على زيادة ماشيتهم بالإغارة على ماشية غيرهم . ولذلك كثيراً ما كانت ترى ماشية الماساى تحمل أنواعاً مختلفة من الوسم . . وهم يعدون العدة للإغارة على قبيلة أخرى فى كثير من المهارة والتخفى ، فيرسلون العيون والجواسيس . وبعضهم ربما ذهب إلى معسكر العدو يلتمس حمايته مدعياً أنه شخص من الدروبو تعرض لكثير من البغى والاضطهاد وربما كشف عن جرح لم ينضم لإثباتاً لما يدعيه . فيسمح له بالبقاء ، ويقوم بخدمات . وفى الوقت نفسه يلاحظ عدد الماشية وقوة القبيلة ، ومبلغ مقدرتها الدفاعية ، ويرسل كل هذه المعلومات إلى معسكره . . . ويظل هو فى معسكر العدو ، حتى يكون مرشداً وعضواً نافعاً فى الغارة .

ومن الغارات ما يكون صغيراً لا يشترك فيه إلا عشرات أو مئات ، ولكن إذا جدَّ الجد ربما حشدت قبيلة الماساى جيشاً يتراوح عدداً بين ثلاثة وأربعة آلاف محارب .

ونظراً لما اتسموا به من النظام والشجاعة ، كان الماساى دائماً مبعث خوف ورعب للقبائل المجاورة . فكانوا لذلك مرهوبى الجانب .

وبعد أن تنتهى مدة المحارب ، وقد ناهز الثلاثين ، عاد « الرجال » إلى المساكن الأصلية ويكون كل منهم قد اختار زوجته ؛ التى كانت تزوره فى الغالب فى المعسكر ، فيدخل فى الحياة الزوجية . وينضم إلى زمرة الرجال الناضجين ، ثم ينتقل مع السن إلى زمرة الكهول ، ثم الشيوخ ، الذين بيدهم تصريف شئون المجتمع .

لا شك أن مجتمع الماساى كان دائماً منظماً على أساس أنه مجتمع رعوى ،

لا يعرف ولا يريد أن يمارس الزراعة ، وكل همهم اقتناء الماشية وحمايتها والاستكثار منها . وليست الغارات عملاً عدوانياً في نظره ، وإنما هي وسيلة لاقتناء ماشية أكثر . . . وقد تم الغارة بنجاح ، دون أن يقتل أحد ، فليس الغرض قتل العدو ، بل الحصول على ماشيته .

ومع ذلك فإن المجتمعات المتحضرة الحديثة ، التي أخذت أفريقية بأسبابها لا يمكن لها أن تغض النظر عما يرتكبه الماساي من غارات ، ولكن لعل من الممكن أن يتم تطوير المجتمع مع بقاء القطعان ورعايتها والذود عنها ، والاشتغال ببعض وجوه النشاط الاقتصادي في ميادين أخرى ؛

وقد جاء في سياق الكلام على الماساي ذكر لجماعات الدروبو أو الواندروبو Wandrobo وأنهم يقومون بأعمال خاصة للماساي مثل الختان وحلاقة الشعر . وذبح الماشية . وهم في الواقع عنصر قديم ، سابق للماساي ، ولا يقتني ماشية ، ويحترف أنواعاً من الحرف مثل الحدادة والصيد وبعض الزراعة ، وينظر إليهم الماساي بأنهم شعب منحط بالنسبة لهم . وعليه أن يقوم بخدمتهم . وليس الدروبو من الأقزام أو أى سلالة قديمة منقرضة ، بل تظهر فيهم أحياناً بعض صفات تشير بنوع من الاختلاط بالدم القوقازي . وإن كان هذا قليلاً . . . وبعضهم يعيش مع الماساي والقسم الآخر مع قبيلة ناندي ، التي تشابه الماساي في كثير من صفاتها . . . وفي كلا الحالين لا يمكن اعتبار الدروبو سوى شعب زنجي دخله بعض الدم الحامي . ولعله كان يؤثر حرفة الصيد ، وبما للماساي والناندي من النفوذ ، أرغموه على أن يؤدي لهم خدمات ، بعضها يتطلب مهارات يعترف لها بها الماساي ويأجرونه عليها .

الفصل السادس

النيليون الحاميون

— ٢ —

شعب الباري

في كتابه المعروف عن الأجناس في أفريقيا ، يعتذر الأستاذ سلجمان عن اضطراره لأن يذكر الباري ضمن كلامه عن السلالات النيلية الحامية ، مع أنهم — في نظره — ليسوا نيليين حاميين بالمعنى الصحيح (١). ويقول إنه اضطر لأن يحشرهم في زمرة النيليين الحاميين ، لأنه لم يجد لهم مكاناً آخر في كتابه : وهذا القول يرجع إلى أن سلجمان كان متأثراً بالتعريف القديم للنيليين الحاميين بأنهم أنصاف حاميين Half Hamites أى يشتملون على نسبة عالية من الدم الحامى . . ولا شك أن هذه النسبة لا تتوافر لدى الباري . على أن فكرة الاعتماد في تحديد معنى النيليين الحاميين ، على الصفات الجسدية ، قد صرف النظر عنها منذ زمن . وأصبح الاعتماد على اللغة والعناصر الثقافية الأخرى : وسرى فيما يلى أن الاعبارات الثقافية والاجتماعية تبرر تماماً اعتبار الباري من السلالات النيلية الحامية ، وفيهم كثير من الصفات التى رأيناها عند الماساي ، مع الاختلافات التى لا بد منها ، بحكم اختلاف الوطن ، والسلالات التى قد اختلطوا بها في هذه الأوطان الشمالية .

الباري أهم الشعوب النيلية الحامية في السودان ، سواء من حيث عدده ، أو من حيث موقعه الجغرافى ، إذ يحتل الباب الجنوبى ، حيث يدخل نهر النيل

(١) سلجمان Races of Africa . ص ١٥١

نفسه متابعاً مجراه نحو الشمال . وتتناول أوطان الباري الضفتين الشرقية والغربية لبحر الجبل ، وإذا أدخلنا في الباري الجماعات التي تتكلم اللغة البارية ، فإن هذه الأوطان تمتد من حدود السودان الجنوبية إلى خط العرض السادس ، وفي هذه المساحة العظيمة يحتل الباري الجزء الأوسط منها وأعظمها خطراً وفيه تقع عاصمة الجنوب السوداني جوبا .

وكثيراً ما يطلق اسم « باري » على جميع القبائل التي تتكلم لغة الباري ، لأن هناك كثيراً من الشعوب اقتبست لغة الباري ، تعيش إلى جوارهم ولكنها مستقلة عنهم . وأهم هذه القبائل المتكلمة بلغة الباري قبيلة منداري Mandari في الشمال ، وقبائل نيانجوارا Nyangwara وفاجلو Fajellu وكاكوا Kakwa وكوكا Kuka . وهذه الأربع واقعة إلى الغرب والجنوب الغربي .

ويروى الباري أن أجدادهم جاءوا من الشرق أو الجنوب الشرقي ، ولم يزالوا يتنقلون حتى احتلوا الإقليم الواقع شرق بحر الجبل ، وهناك نزلوا واستقروا ، وكانت هذه هي المرحلة الأولى في تاريخهم . . غير أنهم لم يتركوا ليعيشوا آمنين في أوطانهم ، بل أخذوا يتعرضون لإغارات من جماعات قوية الشكيمة ، ولعل منها أجداد الشعب الذي يدعى اليوم لوكويا Lokoya وقد كان المغيرون أشد تسليحاً ، لم يكفهم استخدام السهام ، بل هاجموا الباري بالحرايب والرماح . ولم يكن للباري رماح . بل كان سلاحهم الوحيد القوس والسهم ، فلم يطبقوا صولة المغيرين ، الذين استطاعوا أن يرغموهم على إجلاء عن معظم أوطانهم شرق النيل والالتجاء إلى الأراضي الواقعة إلى الغرب .

ولا يزال بين جيران الباري من النيليين الحاميين من لا يعرف من الأسلحة سوى القوس والسهم ، ولكن الباري لم يلبثوا أن تعلموا اقتناء واستخدام الرماح . وعادوا بعد زمن فاستردوا أوطانهم شرق النيل بفضل اكتمال تسليحهم . وبذلك أصبحت لهم أوطان إلى الشرق والغرب من بحر الجبل .

وقويت شوكتهم وامتد نفوذهم نحو الغرب ، حتى نشروا لغتهم بين عدد كبير من القبائل . وأصبح في جنوب السودان شعب الباري ، وإلى جانبه شعوب تتكلم لغة الباري .

فالباري - إذن - شعب من النيليين الحاميين ، ساقته ظروفه إلى أن يحتل الأطراف الشمالية من أوطان النيليين الحاميين . والمفروض في سلالة الباري عند نزولها الأوطان الجديدة أن تشتمل على نسبة عالية من الدم القوقازي ؛ وعلى فرض صحة هذا الزعم ، فإن الإقليم الذي نزل به الباري إقليم خصيب كثير الخيرات ، ولم يكن بلا شك خالياً من السكان . ولكثرة ما كابده من أحداث جد خطيرة ، لا بد أن اضطر إلى امتصاص عناصر أخرى كانت تعيش في هذا الإقليم . ولهذا نقصت نسبة الدماء الحامية ، وظهرت عليها نسبة الدماء الزنجية . وقد لوحظ أن الصفات الزنجية أكثر ظهوراً في الجانب الغربي . والقامة أقصر . وهناك أيضاً ارتفاع يسير في النسبة الرأسية إذ نكون في الغرب قد اقتربنا من أوطان المورو وغيرهم من شعوب بحر الغزال في جنوب السودان ، وهم يمتازون بنسبة رأسية أعلى من النيليين والنيليين الحاميين ؟

وأوطان الباري تشتمل على أرض فسيحة سهلة ، وبخاصة في الجانب الشرقي ، وقد يتخلل السهل نتوءات يسيرة من الصخور البللورية ، وارتفاع السهل فوق سطح البحر في المتوسط نحو ٥٤٠ متراً ، وتختطه بعض أودية ضحلة ، وفي وقت الجفاف يمكن استنباط الماء بقليل من الحفر في جوانب هذه الأودية .

ويتخلل الإقليم مرتفعات لا تزيد على خمسين إلى مائة وخمسين متراً . وهي دائماً من الصخور البللورية القديمة ، ومن أشهرها شنديرو Shindiro وبلنيان Belinian . وهما على قمة ارتفاعهما لها مكان خاص عند الباري لأن أهم عشائر الباري (عشيرة بيكات) تعيش هنا ، وهي التي يكون منها الزعيم جالب المطر ؛ وكثيراً ما تعقد بجانبها حفلات الاستسقاء .

وبعض التلال المنتشرة - وبخاصة في السهول الغربية تشتمل على مادة الحديد ، ولذلك تعيش بالقرب منها جماعات تحترف صناعة الحدادة .

وتبدو الأرض مجدبة قليلة النبت في الأشهر الأولى من العام ، وهو موسم الجفاف ، وتكتنفها المستنقعات وقت المطر . . . والإقليم من نوع السفانا الغنية ، وتحتوى أشجاراً متناثرة وسط المساحات الهائلة من الحشيش العالى . ويبدأ موسم المطر في أواخر مارس أو أوائل أبريل ويبلغ ذروته في أشهر الصيف . . . وينتهى بنهاية شهر أكتوبر .

وقد عاش الباري في هذه البيئة ممارسون حرفة الرعى ، وكانت ماشيتهم كثيرة ، ثم أدركها النقص الشديد في أزمنة قاسية ، إما بسبب الأوبئة أو بسبب إغارة الأعداء . وقد اضطروا مكرهين إلى أن يولوا الزراعة بعض اهتمامهم .

ويورد سلجيان في كتابه عن السودان الجنوبي رواية طريفة لبعض شيوخ الباري . يقول له فيها : « كان للباري فيما مضى كثير من الماشية ، ولذلك لم يكن شباب القبيلة (التيتون Teton) يمحث في القرى ، بل يهاجر إلى الكرومى (زريبة كبيرة للماشية) وكانت زراعة الذرة قليلة ، لأن تناول الذرة كان قليلاً ، والناس تشرب اللبن ؛ كذلك كانوا يتعاطون ديلنج Dilong (الخضراوات بصلصة اللحم) وكانوا أيضاً يزرعون اللوبيا والسهم . ولكن الشباب يشربون اللبن ، والشيوخ المتخلفون في القرى يأكلون الذرة ، والفتيات كن يذهبن إلى الكرومى لكى يصنعن الزبدة ويحملنها والألبان إلى القرية .

« وكان الناس في حالة رخاء ، وكان الكثير منهم يتزوج اثنتين أو ثلاث زوجات ، لولا خوف ما يشجر بينهن من خلاف . ولذلك فضل أكثرهم الاكتفاء بزوج واحدة . . . في ذلك الوقت لم يكونوا يتزوجون في سن الشباب . أما الآن فيتزوجون وهم صغار ، ولذلك كثيراً ما يتزوجون أكثر

من واحدة^(١) .

هكذا عبر الشيخ عن الفرق بين حال الباري اليوم وحالهم من قبل . . . والكرومى المشار إليه زربية ضخمة تقام فى الأمكنة المرتفعة نوعاً ، بعيداً عن النهر ، ويمكن أن تتسع لماشية عدة قرى ، تشترك فى بنائها . هذه الكرومى لم يعد لها وجود ، وكانت من قبل هى المسكن للشباب المحارب التيتون Teton يقضى فيها جزءاً من عمره . (من سن ١٧ إلى ٣١) ويتولى رعى الماشية والذود عنها ولا يستطيع لذلك أن يتزوج إلا فى مرحلة الرجولة . بينما يقيم الرجال المتزوجون والشيوخ والأطفال فى القرى . والبناات يتنقلن بين القرى والمعسكرات يحملن الزاد والألبان .

هؤلاء التيتون طعامهم اللبن ، واللبن المزوج بالدم المشتق من فصاد الماشية أسوة بما رأيناه عند الماساى ، ولم يعد هناك كرومى لنقص الماشية ، وتعذر الإغارة والسلب . فلم يعد هنالك بأس فى أن يبقى التيتون فى القرية وأن ييكرؤا بالزواج .

المساكن :

القرى عند البارى ، كما هى الحال عند كثير من مكان السهول فى أعالى النيل ، ليست عبارة عن بيوت متلاصقة ، بل هى عبارة عن « منطقة سكنى » تحتلها مساكن عديدة ، ولذلك تشتمل على مساحة واسعة من الأرض . . . ومن الممكن أن نميز بين نوعين من القرى : فالقرى البعيدة عن النهر تتألف من مساكن عديدة ، كل مسكن يشتمل على كوخين أو أكثر ، ومن حولها سياج وبين كل مسكن والذى يليه مسافة صغيرة ، أى أن المساكن ليست متلاصقة ، بل كل منزل وحدة سكنية مستقلة ، أما النوع الثانى فهو القرى القريبة من النهر ، وفيها نرى المساكن أكثر تلاصقاً ، وليس لكل منزل

(١) ص ٢٠٢ من ملجمان القبائل الوثنية فى السودان الجنوى

سياج يحيط به ، بل القرية كلها ربما احتواها شبه سور أو سياج من الشجر ،
وهي في هذه الحالة أقرب إلى القرية كما نتصورها .

والمسكن في كلا الحالتين يتألف من عدة أكواخ لا يقل عن اثنين ،
والأغلب أن يكون أكثر من ذلك ، والكوخ من الطراز المخروطي الشكل
المستدير . ومجموعة الأكواخ التي يتألف منها المنزل تكون بنسبة عدد السكان
بحيث تسع الرجل وزوجاته وأطفاله ، مع تخصيص كوخ للماشية ، ومكان
لخزن الحبوب وغيرها من الحاجات ، وفي العادة تكون الأرض المجاورة
للأكواخ مرصوفة بالطين المزوج بروت الماشية . وأمام الكوخ مباشرة
يضاف إلى الطين قطع صغيرة من الخبز المتخلف من الأدوات المخطمة ،
بحيث يكون سطحه أمتن .

وعلى الرغم من قلة الماشية ، وازدياد الزراعة بالنسبة للعهود الماضية ،
فلا يزال للماشية مكان ممتاز في اقتصاد الباري ، ولا يزال السكان يحبون اقتناء
الماشية ، يحبونها حباً كثيراً لذاتها . كما يحبون ألبانها ، ويحرصون على أن
يكون لديهم منها الشيء الكثير . لأنها عنوان الثروة ، ووسيلة للحصول على
الزوجة ، أي أنها لا تزال أساساً للنظام الاجتماعي ، ولا بد للفقر أن يعمل بهمة
في الزراعة أو في جهات خارج موطنه حتى يتوفر لديه مال أو محصول زراعي
يستطيع بالمقايضة أن يقتني به بعض الماشية .

ولا تزال هناك تقاليد أخرى تتصل بالماشية تدل على احتفاظ الباري
بعاداتهم كمرعاة ، وبعض هذه التقاليد يشابه ما نجده لدى الدنكا . مثال ذلك
أن لكل رجل ثوراً خاصاً به يدعى صونو Sönö محبه ويدافع عنه ويضع
في عنقه الجرس الذي يقود به القطيع . . وإذا أدركه العجز والهرم ، يضحى
به وهو حزين آسف ، وينقل الجرس الذي في عنقه إلى ثور صغير يخلفه . .
ولا يسمح لنفسه أن يتعاطى شيئاً من لحم ثوره ، ولكن هذا مباح لأقرانه من
الرجال فقط . وهذا يشبه تماماً العرف السائد عند الدنكا . . ولعل في هذا ،
ما يدل على أن كلا الشعبين ورث هذه العادة عن أجداده في وطن قديم مشترك .

النظام الاجتماعي :

١ - ينقسم الباري إلى عشائر منفصلة اغترابية (لا يتزوج امرؤ من عشيرته) عددها يقرب من الأربعين وقد تكون عدد الرجال فيها ٧٠٠ وقد لا يتجاوز عددهم ثلاثة أو أربعة .

وعند بعض هذه العشائر - وربما كان يوماً أمراً عاماً من قبل - نظام الطوطمية ، فيكون للعشيرة حيوانها الذي تقلسه ، أسداً أو فهداً أو فيلاً أو غيره ، ومثل هذا الحيوان لا يقتل ولا يؤكل بوساطة أفراد العشيرة . وهم يزعمون أن الطوطم أخ لهم .

ولا يتزوج الرجل طبعاً من عشيرته . ويروي الباري في ذلك قصة تدل على أنهم يدركون أن الإضواء ضار بالنسل . ويزعمون أنه فيما مضى كان هنالك الزواج بين أفراد العشيرة . فترتب على ذلك انتشار الأمراض ، وتدخل الزعماء في الأمر ، وقسموا القبيلة أقساماً ، وحرّموا الزواج داخل كل قسم وبالتالي داخل كل عشيرة .

ولعل أشهر العشائر وأجلها خطراً عشيرة بيكات Bekat ، لأن منها يكون زعماء المطر المشهورون . وربما وجد غيرهم خبراء في شئون المطر في عشائر أخرى . ولكن هؤلاء لا حظ لهم .

٢ - إلى جانب تقسيم الشعب إلى عشائر ، هناك تقسيم اجتماعي آخر عند الباري ، لا نجد له نظيراً عند النيليين ، وإن كان له مشابهة عند الماساي . وهو تقسيم المجتمع إلى قسمين : في كل مكان وفي كل قرية قسم يدعى لوي Lui المفرد (Luitat) وآخر يدعى دوبي Dupi (المفرد Dupiet) أي طبقة الخاصة والعامة ، أو طبقة الأحرار ، وطبقة الخدم ،

وهناك تقسيم آخر يميز بعض الأفراد سواء أكانوا من الخاصة أم العامة . وهذا التمييز لا يتناول إلا جماعات قليلة توصف بأنها بحور أي طبقة العارفين

بشئون الماء مثل جالبي المطر ومساعدتهم . . . وهؤلاء عددهم قليل بالطبع بالنسبة للجاهلين بشئون الماء .

وقد يكون في طبقة الكور كثير من الدوبي . . . وبالطبع لن يكون زعيم المطر إلا من طبقة لوى . غير أنه دائماً يتخذ أتباعاً من الدوبي الذين لهم دراية بمسائل الماء .

يصف سلجان الدوبي بأنهم « طبقة الخدم » أو « طبقة وضيعة » servile class وأفرادها موجودون في جميع العشائر ، وليسوا مقصورين على شعبة دون أخرى . والباري أنفسهم يرون أن الدوبي سلالة غير سلالتهم ، حتى من الناحية الشكلية ويصفوهم بأنهم أقصر قامة وأغلظ جسداً وأشد حمرة في لون البشرة من الأحرار ، وأن وجوههم أعرض وعيونهم أصغر .

والأصل في الدوبي أنهم لا يملكون ماشية ، ولا يزرعون أرضاً لأنفسهم ، بل يعملون لخدمة بعض الخاصة . فيقومون بفلح الأرض وإحضار الماء ، وقطع الأخشاب ، وتسقيف الأكواخ ، ونحو ذلك من الأعمال ، ويوصفون أيضاً بالمهارة في طهو الطعام ، وفي صيد فيران البوص ، وينسب إليهم اختراع صنع البيرة ، كما اشتهروا بإجادة الرقص والغناء .

والظاهر أنهم يقعون من اللوى - في أكثر الأحيان - موقع العبيد من سادتهم بحيث كان يجوز للسيد أحياناً - وإن كان هذا الحدث نادراً - أن يستبدل ببعض الماشية واحداً من أتباعه وفي الأحوال العادية يجب على السيد أن يوفر الغذاء لأتباعه ، وأن يجد لهم الزوجة - من طبقتهم بالطبع - وأن يدفع مهرها كما يدفع عنهم ضرائبهم التي تقررها الحكومة .

ولا يجوز للدوبي أن يملك ماشية أو يتزوج أكثر من واحدة ، كما لا يجوز له أن يأكل مع سيده . وفي الحفلات يتناول نصيبه من الذبيحة (جزءاً منها) وينهب بعيداً ليتعاطاه منفرداً .

والأصل في طبقة الأحرار ألا يتزوجوا من الدوبيات ، ومع ذلك كثيراً ما تزوج رجل من الأحرار امرأة من الدوبي ، وبخاصة إذا لم يرزق ذرية ، أو لم تعيش ذرية من زوجه الحرة . وعندئذ يبادر بتحرير زوجته الدوبية . وهكذا تسرب الدم الدوبي إلى سلالة اللوي .

وليس من السهل أن نحاول تعليل هذا الاختلاف في الطبقات . والباري أنفسهم لديهم أكثر من تفسير واحد لوجود هذا التقسيم : فيزعمون أن الدوبي هم أقدم السكان في البلاد ، وكانوا لا يرعون ماشية ، بل يأكلون لحم فيران الغيط ، التي يصيرونها بالشراك . فلما جاء الباري بماشيتهم ، داست الماشية على تلك الشرارك حتى أزالها . فجاء إليهم الدوبي يلتمسون ما يقتاتون به من لبن أو غيره . وبذلك صاروا يتناولون طعامهم نظير خلمات يؤدونها لسيادتهم .

وهذه الروايات وأمثالها تشير إلى أن شعباً من الرعاة تغلب فيهم الدماء الحامية نزلوا بالبلاد في زمن متقدم — ولعله ليس معرقاً في القدم — وصحروا سكانها القداماء لخدمتهم ، وجعلوا منهم طبقة الأرقاء . وهؤلاء السكان القداماء كانوا يمتازون بصفات وتقاطيع تختلف عن صفات المهاجرين ، فكانوا أقصر قامة ، والنسبة الرأسية فيهم عالية ، يميلون إلى احتراف الصيد ، وقد يزرعون قليلاً ، والأنف عريض ولون البشرة نحاسي أحمر . وهذه الصفات تدل على خليط من الزنج والأقزام ، أي السلالة التي يحق لنا أن نتوقع وجودها قبل هجرة الحاميين .

ولا شك أننا حتى في الوقت الحاضر نرى أمثلة من الباري من الطبقات الراقية تتميز بصفات حامية واضحة . بينما كثير من الدوبي تبدو فيها الصفات الأخرى . ولعل هذه الظاهرة كانت فيما مضى ، أكثر وضوحاً مما هي اليوم ، بعد أن حدث التزاوج الذي أشرنا إليه من قبل .

وليست حالة الدوبي سيئة دائماً ، لأن خدمتهم تتناول أعمالاً مرغوباً فيها مثل صنع الجعة والغناء والرقص . وكذلك يرتفع مقامهم إذا كانوا من أتباع

زعماء المطر فيمثلونه في بعض الحفلات وينوبون عنه . كما يعاونون أيضاً البونيت أو الأشخاص الذين يعالجون الأمراض .

٣ - هنالك طبقات أخرى خلاف الدوبي ينظر إليهم الأحرار نظرة احتقار . عددهم ليس كبيراً ، ولكن لهم أعمال ونشاط خاص . وهؤلاء هم : أولاً : طبقة الصيادين أو اليارى Yari وهؤلاء يعيشون في قرى صغيرة ، بعيدة عن النهر . وليست لهم ماشية ولا يزرعون إلا قليلاً ، ويمارسون حرفة الجمع والالتقاط والصيد بخاصة . ويصيدون كل شيء حتى الفيلة . ويؤدون لزعيمهم ضريبة من ثمر الهجلاج والتمر هندي والعسل والنحل وسن الفيل . وعند الزواج يلتمسون من هذا الزعيم أن يدبر لهم الفحل والعجلة من البقر : وهو المهر الذي كان مصطلحاً عليه .

ثانياً : طبقة الحدادين ، وهؤلاء يمارسون حرفتهم خارج قري البارى ، أو في قراهم الخاصة : ومن أهم ما يصنعونه الفئوس للزراعة والسنان للرماح والسهام .

ثالثاً : طبقة صيادى النهر . وهؤلاء كانوا فيما مضى - وبعضهم لا يزال إلى الآن - يعيشون في قرى خاصة بهم في أكواخ أصغر حجماً .

وفي نظر هؤلاء أن الفرق بينهم وبين الدوبي كبير كما هو بين اللوى والدوبي . ومع ذلك فإن الأحرار يدعونهم دوبي ، أى من درجة عبيد الأرض . . وهم جميعاً ينكرون ذلك كل الإنكار ، ولكن الشخص الذى يزعهم دائماً رجل من الأحرار . . ومن الجائر أن وصفهم بأنهم دوبي مجرد تعبير ازدراء ، لأنهم بحكم حرفتهم لهم بعض الاستقلال ، ويستطيعون الاستغناء عن مساعدة الزعيم فى الحصول على زوجة ، لأن كلا منهم ينتج سلعة لها قيمتها : فالحداد قد يسهل عليه أن يجد الزباين لرءوس الحراب والفئوس ، وصياد النهر أهم سلعة ينتجها دهن فرس البحر .

هذه إذن هى طبقات المجتمع عند البارى ، منها أربع طبقات « وضيفة »

وطبقة واحدة سائدة ، وهؤلاء يملكون القطعان ولهم كل مناصب الرياسة والرعاية .

هذه الحالة السائدة عند الباري تشابه أحوالاً أخرى في القارة الأفريقية ، وإن لم تكن مطابقة لها تماماً . . . ويقارن بعض العلماء حالة الباري ، بحالة الناندي والماساي ، الذين يتخذون من الدروبو خدماً يؤدون لهم بعض الأعمال التي ينفرون منها . غير أن القياس مع القارق لأن الدروبو مجرد جيران ، لهم حياتهم واستقلالهم ونشاطهم الاقتصادي . وخدماتهم للماساي مجرد عمل إضافي فهم ليسوا عبيد الأرض ، حتى ولو نظر إليهم الناندي والماساي نظرة احتقار .

وحالة الباري - مع وجود ما يشبهها في أفريقيا - تمتاز بأن عدد الأحرار كبير جداً والطبقات الواطية قليلة بالنسبة إليهم . . . ولا ننسى أن الباري يسهمون في أعمال زراعتهم ولا يعتمدون على الدوبي . وقلة عددهم بالنسبة للأحرار^(١) جعل المجتمع أكثر استنباطاً فلم تحدث فيه ثورات كالتى حدثت في رواندا . وكل ما ترتب على التطورات الحديثة أن مركز تلك الطبقات قد تحسن كثيراً . ويقول الأستاذ هويتهد Whitehead أن حالة الطبقات تغيرت لبعض العوامل أهمها :

١ - إدخال النقود منذ اتصال الشمال بالجنوب في منتصف القرن التاسع عشر إلى الآن . فقد دخلت البلاد سلعة جديدة وهى النقود يمكن استخدامها في الحصول على أى شيء . وأمكن بوجه خاص لطبقة الصيادين Yari أن تستفيد فائدة عظيمة لأن الاتصال الجديد كان مصحوباً برواج سلعة سن الفيل . وكان يدفع فيها ثمن لم يكن يحلمون بمثله . وكان الباري أكبر من استفاد لأنهم وحدهم يقدرون على الصيد . حتى يروى أن بعض الأحرار أخذ يقلدهم ويحترف حرقهم .

(١) يزعم هيتنجفورد أن الباري كانوا متجهين إلى خطر تكاثر للدوبي . وأنهم كانوا في وقت ما يدمون نسلهم (راجع ص ٢٩ من
Huntingford : Northern Hamites (1953)

وبدرجة أقل حدث رواج في سلعة الحدادين وصيادي السمك . فأمكن لكل هذه الطبقات الواطية أن تحصل على النقود ، وما يمكن أن تشتري به النقود من بقر وماعز . فأصبح في وسعهم أن يدفعوا المهور دون الالتجاء إلى الزعيم .

٢- وهناك عامل آخر أثر في المجتمع . وكان له أثر شديد في طبقة الأحرار ، وذلك أن الماشية تناقصت تناقصاً مطرداً فترة من الزمن . فجميع السائحون الأوائل شهدوا بأن الماشية عند الباري كثيرة جداً وبعد ذلك تناقصت بسبب الأمراض والإغارات ، حتى جاء وقت لم يكن المهر يدفع بالبقر ، بل بالماعز والغنم . ثم كثرت الماشية مرة أخرى منذ أوائل القرن الحالى . ولكنها لم تعد للطبقات التى كانت تملكها وحدها من قبل . إذ أصبح منها عند الدوبي ، وغير الدوبي الشيء الكثير .

وفقدان الماشية في أواخر القرن الماضى كان له أثر آخر . وهو الانصراف إلى الزراعة وزيادة العناية بها . ولم يبق ما يدعو إلى إنشاء الزرائب Kurumi في أماكن بعيدة . لكى يعيش فيها الشباب . وترتب على ذلك أن انصرف الشباب إلى العمل في الزراعة ، وأدخلت غلات جديدة . وأصبح الأحرار جميعاً لا يستنكفون من العمل في الحقول .

المناصب الهامة لشعب الباري :

١- جالب المطر : أو زعيم الماء . هو بلا شك أسمى المناصب في النظام الاجتماعى كله . والمنصب وراثى في أسرة واحدة في عشيرة بيكات ، وكان مركز الأسرة ومركز الزعيم في شنديرو Shindiru . وبقي الأمر كذلك إلى منتصف القرن الثامن عشر إذ شجر خصام حول الزعامة بين أخوين ، فانتقل أحدهما إلى قرية بلنيان Belinian ، وليست بعيدة عن شنديرو ، ونصب نفسه زعيماً آخر للمطر مركزه بلنيان Belinian .

٢ - الزعيم الثاني عند الباري . زعيم الأرض أو كما يسمونه مونيكاك Monykak وتتصل وظيفته بالزراعة والمحاصيل .

٣ - والمنصب الثالث في الأهمية رجل الطب يسميه الباري بونيت Bunit

لا شك أن زعيم المطر أهم الزعماء وأبعدهم شأنًا ، وكل زعيم مطر له كاهن أو بونيت يعمل معه . . وأسرة بيكات لها نفوذ يشمل البلاد كلها - على الرغم من وجود بعض جالبي المطر في بعض النواحي . وأهميتهم محلية . أما أسرة بيكات فربما وصل نفوذ زعيم المطر منها إلى البلاد المجاورة في الغرب . وتدفع لزعيم المطر هدايا بانتظام ، معظمها غلات زراعية ، وربما كان منها بعض الدواب .

أما زعيم الأرض ، فهو الخبير في شئون المحاصيل والزراعة ، ويرجع إليه في معظم شئون الزراعة وما تتطلبه من حفلات دينية ونحو ذلك . والعادة أن يكون في كل قرية زعيم للأرض . وأحياناً أكثر من واحد . إذا كانت الحلة كبيرة ، والمنصب وراثي . والأصل فيه أن يكون قد تولاه رجل قام بتطهير مساحة كبيرة من الشجر وتولى زراعتها لأول مرة . وهو الذي يرشد العشيرة في كل ما له صلة بالمحاصيل ومواعيد الزراعة وفي شئون المراعى والصيد . ويظل في القرية دائماً لأداء هذه الوظائف ، وإذا كان هناك أرض تقسم فإنه يشرف على التقسيم . وهو يحصل على هدايا مختلفة ، وهو يعمل بالتعاون مع جالب المطر ، ويتفاهمان معاً على مواعيد البذر والحصاد .

أما خبير الطب (بونيت) فقد يكون ذكراً أو أنثى ، وهو يمارس حرفته بمزيج من الطب والسحر . ويكون عادة من أسرة معروفة بهذه الحرفة . . ومن عادته أن يكثر من مواساة المرضى وملاطفتهم .

ومن أهم ما يختص به مقاومة الحسد . ويلجأ إليه من أجل هذه الخدمة كل من زرق وفر في الماشية أو الولد . وهو أيضاً الكاهن الذي ينصح ويحذر من بعض الأعمال ، ويؤخذ رأيه في كل مناسبة .

ولكل زعيم مطر كما ذكرنا بونيت يعاونه ، وكذلك لكل واحد من زعماء الأرض .

وهذه الزعامات كلها تشتمل على وظائف . فالأشخاص لهم عمل محدد . ووظيفتهم أقرب إلى أن تكون وظيفة « روحية » ritual وليست « حكومية » . ولا يعرف تماماً أن من تقاليد البارى أن يكون لهم زعيم مدنى : يتولى شئون الحكم . وفى الأغلب أن لكل عشيرة هامة زعيماً محلياً لكنه ليس بذى سلطة مطلقة . بل هو مقيد بآراء مجلس مكون من شيوخ العشيرة . . وربما حدث أحياناً - على غير قاعدة - أن ينشأ زعيم من ذوى الجاه والمال له نفوذ يتجاوز عشيرته . إلى درجة أن السلطة الزمنية قد تكون موزعة فى البارى بين أربعة أو خمسة من الرؤساء ، ولكن هذه الحال تجيء نتيجة لعوامل شخصية وامتنياز الشخص برجحان العقل والعطف وحسن التدبير . أو تكون نتيجة ظروف خاصة تتطلب اتحاداً بين عدد كبير من العشائر .

والظروف الحديثة لا تساعد على قيام مثل هذا الزعيم الكبير . وتدخل حكومة الاستعمار فى شئون البارى كما هى الحال عند غيرهم . يقوم على توجيه الأمور عن طريق الزعماء الوطنيين . ولكن الأهالى سرعان ما أدركوا أن السلطة الحقيقية فى يد الحكام الرسميين . وأن سلطة زعمائهم إنما هى مستمدة من السلطة التى يسمح لهم بها الحاكم . ولا شك أن هذه الحال كان لها أثر عميق فى النظام الاجتماعى للبارى ، إذا أفقدت الزعماء كثيراً مما كانوا يتمتعون به من النفوذ .

ومن الطريف أن هذه الحال جعلت البارى ينشئون فى مصطلحهم نوعاً جديداً من الزعامة ، ويسمونه Kimak ti Gela : الزعيم الذى له حظوة عند الأجانب . وهو من الوجهة العملية له فائدة جديدة وهى قضاء الأمور بالتوسط لدى السلطات .

طبقات السن .

يمر الشخص عند الباري كما هي الحال عند غيرهم من النيليين الحاميين بمراحل منذ عهد الطفولة . وليست المراحل محددة تماماً كما هي الحال عند الماساي . ولكنها لا تخلو من التشابه ، فالأولاد والبنات قبل أن تخلع قواطعهم يسمون لويوديات Lupudiat للأولاد وكوديسي Kodisi للبنات . . وبعد ذلك بفترة قصيرة يؤدونها في الخلعة ، يدخلون مرحلة الفتوة Teton ثم الرجولة Temejik بعد سن ٣٥ ، والشيخوخة Mudungin بعلم سن ٥٥ .

وعادة خلع القواطع شائعة عند الباري ، وهي تلعب الدور الرئيسي في نظام التنشئة Initiation للذكور والإناث . وهي تقوم مقام الختان عند الماساي . (وليس الختان من عادة الباري) . . وقد تخلع القواطع في حفلات منفصلة للأولاد والبنات وتحدث في حوالي سن السادسة عشرة بالنسبة للأولاد ، أما البنات فإن تنشئتهن لها نظام خاص سنذكره فيما يلي . ويقوم بعملية خلع القواطع شخص متخصص . وعند الباري تخلع القواطع الأربع السفلى . وبعد العملية تربط الشفة بخيط فيه خرز فيحملها حتى يتم شفاء اللثة . ويحدث هذا عادة في موسم الحصاد . والشباب الذين أجريت لهم العملية لا يعودون إلى بيوتهم ، بل يوضعون في منزل خاص تحت رعاية رئيس القرية . وهو يتولى إطعامهم ، وبعد أن تشفى الجروح يخدمونه بضعة أشهر قبل أن يعودوا إلى ديارهم .

أما تنشئة البنات فتشتمل على أعمال أخرى . . إذ يجري عليهن سلسلة من عمليات الوشم^(١) قبل وبعد خلع القواطع . ففي نحو الخامسة عشر يعمل لها الوشم

(١) يستخدم المؤلف كلمة الوشم لتؤدى معنى Cicatrisation = وهو كالوشم تماماً عدا أنه لا تستخدم فيه مادة منقوعة . والوشم (بالسين) يستخدم في وشم الدواب ... أما الوشم فالتجميل . وهو منتشر في إفريقية عند بعض قبائل للشرق والغرب لتزيين جسم المرأة ... ومعظم التفاصيل هنا مأخوذة عن Huntingford .

الأول في الجزء الأسفل من الظهر . ويشتمل الوشم في هذه الحالة على ثلاثة أسطر من النقط عن يمين وشمال العمود الفقري . ويكون الرسم أفقياً . وفي أثناء مدة الانتظار التي تسبق إجراء هذه العملية تتناول البنات غذاء طيباً ويزورهن الأصدقاء ، وتنشد الأغاني ويدور الرقص . . ثم تتم عملية الوشم للبنات جميعاً في ذلك الجزء من أجسامهن . وفي سن ١٧ سنة يجيء دور البطن فيجري عليه الوشم على النحو المذكور . وبعد ذلك بعام تتم عملية الوشم الثالثة وتكون في الظهر إلى جوار العمود الفقري وموازية له . ومع أن الإجراءات قد تختلف عما تقدم ، غير أن الفتيات بعد هذه العملية الثالثة يطفن بالمنازل يغنين ويرقصن ويتسلمن الهدايا قبل أن يبلغن ديارهن ؛ وبعد ذلك بعام - أي في نحو سن التاسعة عشرة - تجيء حفلة خلع القواطع . وفي سن العشرين تجرى لمن آخر عملية وشم . وهي عبارة عن سطور على جانبي الصدر تحت الترقوة . وبعد ذلك تستطيع البنت أن تبدأ حياة الزوجية الكاملة ، ومهما يكن من أمر فإنها لا تستطيع الزواج قبل إتمام عملية خلع القواطع .

وهكذا تشتمل تنشئة البنات على ثلاث عمليات وشم تسبق خلع القواطع ، وعملية وشم وحدها . أما الأولاد ، فإن خلع القواطع هو العمل الخطير الذي ينتقلون به من مرحلة الصبا إلى مرحلة الفتوة التي يقضون فيها ، من سن ١٧ إلى سن ٣٥ - ويكون الشباب الذين وصلوا إلى هذه المرحلة معاً مجموعة سن (Age-set) واحدة . تربطها أواصر الصداقة والتعاون مدى الحياة . ومجموعة السن اسمها في لغة الباري بر Ber . وليست لها الآن صفة حربية ولكن هذا ليس معناه أنها لم تكن لها هذه الصفة في الأزمنة الماضية ، وكل بر له اسم خاص مثل : « الغزاة » - « العصاة » - « الشجعان » - « الأخوان » . . . الخ . وأفراده يتعاونون في معظم شئون الحياة .

نظام الزواج :

كان الزواج يتم فيما مضى في سن متأخرة لمعظم الشبان . أى حوالى سن ٣٢ ، كما سبق لنا ذكره ، غير أن التغير في نظام المجتمع الذى ترتب عليه زوال نظام الزرائب المشتركة Kurumi والانصراف إلى مزيد من النشاط الزراعى ، وغير ذلك من التطورات أتاحت للشباب أن يتزوج فى سن مبكرة وتتاح له الفرصة للتزوج بأكثر من زوجة تبعاً للمركز الاجتماعى والمالى .

والعادة أن يجرى الزواج بناء على اختيار الرجل . أى أن الشاب هو الذى يخطو الخطوة الأولى ولكن من الجائز أيضاً فى بعض أحوال رواها سلجيان أن يتخذ والد البنت إجراء يرمى إلى الحصول على زوج لابنته ، إذا رأى أنه شخص مرغوب فيه جداً .

والعرف يقضى بعد أن يتفاهم الشاب والفتاة ألا يتقدم الشاب بنفسه ، بل ينوب عنه البر أى مجموعة السن التى ينتمى إليها . . فينزل الجميع ضيوفاً على الوالد يوماً أو يومين ، ثم يسألهم ما خطبهم (كأنه لا يعرف) وفى الغالب لا يقبل ولا يرفض ، بل يسألهم أن يعمروا به مرة أخرى . . فيعودون بعد أيام ، وتجري الضيافة ثانية ويسألهم ما خطبهم فيخبرونه . فيقول للفتى أن يرسل أباه . وفى اجتماع الأبوين يتفق على المهر ، وبقطع النظر عن السنين العجاف التى مرت بها القبيلة . فإن المهر يتألف عادة من نحو عشر من الماشية . . وعدد من الماعز . والأغنياء يدفعون أكثر . ومن الأمثلة المشهورة على ذلك لارو لادو الزعيم فى منجلا فى وقت الدراويش دفع فى مهر زوجته ٥٠ رأساً من الماشية و ٤٠ من الماعز ، ومقداراً كبيراً من الذرة . وفى الأحوال العادية يدفع المهر على دفعات ، وبعد أن يدفع معظمه وتقرب حفلة القران يرسل العريس عوداً من البوص ، ملبساً فيه عدداً من الخواتم ، لكى يوزع فى حلقة الرقص يوم حفل الزواج وجميع أقارب الفتاة اللائى لم يتزوجن يتقاسمن هذه الخواتم الحديدية ، ثم تعقد حفلة رقص يشرب فيها كثير من الجعة .

وتظل العروس في بيت والدها شهرين أو أكثر ، قبل أن تذهب إلى
كوخ زوجها في صحبة عجائز عليهن طلاء أحمر . ويضيفهن الزوج ويبالغ
في إكرامهن ، ويمنحهن الهدايا ، فيعدن إلى الوالد ويخبرنه أن كل شيء على
ما يرام . . كذلك تعود الزوجة إلى بيت والدها عند اقتراب الوضع وبخاصة
بالنسبة للطفل الأول . ولا ترجع إلى الزوج إلا بعد بضعة أشهر .

هذا هو النظام الشائع للزواج عند الباري ، وقد يكون هناك اختلاف في
التفاصيل بين عشيرة وأخرى ، ولكن معظم الإجراءات متشابهة . وقد تختب
الفتاة وهي في سن الحداثة وقبل خلع القواطع ، ولكن الزواج لا يتم إلا بعد
هذا الإجراء .

وواضح مما ذكر آنفاً أن الشباب يختار زوجته من عشيرة غريبة ، بخلاف
عشيرة والده . وعليه أيضاً أن يمتنع عن الزواج من أي فتاة بينه وبينها أي صلة
قربانة . فلا يجوز لشاب مثلاً أن يتزوج بنت خال أو بنت خالة ، مع أنها من
غير عشيرة أبيه ، غير أن قربانها من أمه تحرم زواجه منها .

وليس من الضروري أن يمتنع الشاب عن الزواج بفتاة من عشيرة أمه
— كما هي الحال عند بعض القبائل — على شرط ألا يكون بينها وبين الأم
أواصر قربانة .

وهذا معناه أن الشاب الذي يرغب الزواج يجب أن يغترب ، لكن ليس معنى
هذا أن يبتعد عن قريته كثيراً ، بحثاً عن الزوجة ، فإن القرية الواحدة ربما
اشتملت على أجزاء من عدة عشائر .

أما تعدد الزوجات فأمر يتوقف على المال ، والظروف التي قضت بأن
يكر الشباب بالزواج لا بد أن توحى أيضاً بزوجات ثانية وثالثة . وهذا هو
المثل الذي ينشده أكثر الشباب إذا استطاع لذلك سبيلاً . والزعيم الغني ربما
استطاع أن يتزوج ستاً ، بل عشرين في نظر سلجيان . أما متوسط الحال فيكتفون
بأثنين أو ثلاث . والمتواضعون يكتفون بواحدة ، وقد ذكر بيتن Beaton

أنه وجد بعض النواحي لا يزيد عدد المتزوجين بأكثر من واحدة على ١١٪ والمتزوجون بامرأة واحدة ٥٢٪ والباقي ٣٧٪ لم يتزوجوا بعد . ومع أن هذا الإحصاء قد تنقصه الدقة ، أو أنه يمثل حالة استثنائية ، فإنه يدل على كل حال إن كثيراً مما يقال عن تعدد الزوجات في الشعوب البدائية ، يجب أن ينظر إليه بغاية الاحتراس .

والأرامل عادة يرثها الأخ الأكبر للمتوفى . ويمكن للابن إذا كان كبير السن أن يرث أرامل أبيه (عدا أمه بالطبع) . وكذلك ربما آلت الأرامل إلى ابن الخال ، وفي جميع هذه الأحوال لا يدفع لهؤلاء الزوجات مهر . والفكرة في هذا أن هؤلاء النسوة وأولادهن قد تركن بلاعائل ، وقد سبق دفع مهرهن بوساطة المتوفى ، ولا بد أن يخلفه من يعولهن وأبناءهن وبناتهن .

ويعصف هو يتهد ما يحدث في مثل هذه الحال فيقول :

« بعد أن مات رئيس الأسرة ، أخذت الأسرة ترثيه وتبكيه ستة أشهر وبعد انتهاء مدة الحداد في الشهر السابع جاء أكبر إخوته وجمع الأسرة ، وسأل الزوجات واحدة واحدة : « من الذى يعول أطفال الفقيد ويعولكن من بعده ؟ » فأجابت ست من الزوجات : « أنت تتولى رعايتنا » . ولكن الزوجة السابعة اختارت ابن خال الفقيد » .

هؤلاء الأرامل قد يكن أرامل لا يصلحن لإنتاج ذرية جديدة . ولكن قد يكون بينهن من لا تزال في سن الحمل . وفي هذه الحال يكون الأطفال أبناء الفقيد ، لأنه هو الذى دفع المهر .

وإذا أراد الأخ الذى ورث الزوجات تغييراً في هذا الوضع ، فإن عليه في هذه الحال أن يبعث بهدية (بقرة وفحلا أو بقرة وعشرة من الماعز) إلى والد الأرملة ، وبذلك يكون له الحق في أبناء الزوجة ، الذين يولدون بعد ذلك ، ولكن العادة أن تظل المرأة تابعة لزوجها الميت وكذلك جميع الأطفال السابقين واللاحقين ، كما هو المتبع أيضاً عند الدنكا .

ولا بد من الإشارة إلى أن تولى الأخ شتون أرامل أخيه ، ليس وراثته ، بالمعنى المألوف ، وليس الأرامل بسبب ذلك سلعة تورث ، كما يزعم بعض المتحاملين من المبشرين وغيرهم ، وإنما هو نظام لرعاية الأسرة التي مات عائلها . . . ونظام الميراث عند البارى يتبع النظام الأبوى . . . ولو كان الأمر فى هذه الحال إرثاً . لكان الابن هو صاحب الحق ؛ ولكن البارى يعلمون أن الأرامل لسن إرثاً يورث ، بل عبثاً لا بد أن يحمله أحد . والأخ فى مثل هذه الحال مفضل على الجميع . ومع ذلك فإنه ليس فى الأمر اكراه ؛ وفى الغالب يتم هذا كله بشيء من الاتفاق ، فى أثناء الأشهر التى تلى الوفاة ، والاتفاق الشكلى الذى يتم بعد ذلك علناً ما هو إلا تنفيذ للاتفاق الخاص الذى حدث قبل ذلك .

الديانة :

من الجائز أن الديانة عند البارى - وسلجيان لم يستطع أن يكون صورة واضحة عنها - هى مزيج من شعائر وعقائد لم تنبعث كلها من مصدر واحد . ولذلك اختلطت فيها عناصر مختلفة ، والأمر الذى حار فيه سلجيان بوجه خاص هو الكائن المسمى نجون Ngun وعلاقته أو عدم علاقته بالقوة التى تتمثل فى أرواح السلف .

ونجون عندهم هو الكائن الأسمى ، أو القوة المهيمنة . . . ولكنها قوة مزدوجة : سماوية وأرضية . أو كما يقول البارى Ngun loki (الإله فى السماء) و Ngun lo kak (باطن) الأرض . وأحياناً يبدو مما يقوله البارى أن القوتين مظهران لكائن واحد . وأحياناً نجد أن كلا منهما قوة مستقلة تعارض الأخرى ، ويتنازعان السلطان والتحكم فى بنى الإنسان . فالقوة العليا تريد أن ترى الناس أحياء يذبون على سطح الأرض ويرزقون وينعمون . أما القوة السفلى فتريد أن تجذبهم إلى بطن الثرى . ومع أن نجون لوكى حسب هذا رأى هو قوة تعمل للخير ، فإنها أيضاً قوة قادرة تهيم على مصائر الناس ، ولها القدرة على الحياة والموت .

ومن الظاهرات التي تعزى للقوة العليا ، المطر ، وما يصحبه من سحاب ورعد وبرق ، ولذلك نرى صانع المطر كثيراً ما يستغيث بالنجون الأعلى ، ولكنه لا يكتفى بالاستغاثة به ، بل يستعين أيضاً بأرواح أجداده ، الذين كانت لهم دراية كبيرة بأمر المطر ، وهذا بعض وجه الغرابة ، في نظر سلجان كذلك قد يقدم قربان إلى إله السماء هذا ، لكي يشفى المريض أو يرفع الرباء . ولكن أحياناً يكون هذا مصحوباً بتضحية لروح السلف . ولعل ما يبدو هنا أنه نوع من التناقض ليس تناقضاً حقيقياً ، بقدر ما هو مظهر للمصادر المختلفة التي تولدت منها الشعائر والعقائد عند الباري ، وليسوا هم وحدهم الذين نجد لديهم هذا الازدواج .

أما إله الأرض فيقال إنه المختص بنمو النبات والشجر ، ولذلك توجه إليه الدعوات والتضحيات الخاصة بالزراعة والخصوبة . ويزعم البعض أنه الأخ الأصغر لإله السماء وخاضع له . وهو على كل حال القوة الأرضية وله اتصال بالقبور والشواهد التي تنصب عليها .

وهناك شعبان أخضر (في لون النبات) خال من السم ، لا يضر إنساناً ، والناس تفرح حين تراه وتقدم له بعض اللبن ، وعندهم أنه تتمثل فيه روح النجون الأرضي وأرواح السلف . وهذه الفكرة توحى بأنهم لا يفرقون بين القوتين .

والأشجار الكبيرة المعمرة يشار إليها أحياناً بأنها تتصل باله الأرض ، وأحياناً بأرواح السلف . وهذه الأشجار لها حظ وافر من التبجيل والاحترام ، فلا ينبغي تسلقها ، أو الاقتراب منها إلا للتضحية . وقد شاهد سلجان شجرة من هذا الطراز ، وقد وضع في ثنايا لحائها بعض التبغ أو بعض العسل أو الدهن لأن نجون ربما تذوق شيئاً منها ، ويحدث هذا بوجه خاص وقت مواسم الزراعة لكي تجود الغلة . وهذه الاعتبارات جعلت بعض الأشجار ينظر إليها على أنها مسكن للسلف . وهذا لا ينطبق على كل شجرة كبيرة ، بل على الشجرة التي يراها البونيت أنها ذات صفة مقلسة .

مما تقدم يبدو أن العنصرين الأولين في ديانة الباري هما إله السماء وإله الأرض ، وأن أرواح السلف — وهي العنصر الثالث — كثيراً ما يختلط أمرها باله الأرض ، لأنها فيما يبدو لا تصعد إلى السماء ، بل تظل على مقربة من الناس . تسكن المقابر وأحياناً الشجر ، ولها مقدرة على الخير . وهذا هو الأصل ، أى أنها ترعى وتحمى الخلف . ولكن إذا لم تلق ما تستحقه من الرعاية ، فإنها خليفة أن تنزل الويل والمرض بالناس ، أما الرعاية التى تطلبها فهي ألا يرتكب الناس شراً أو إثماً ، وأن يذكروا الأجداد من آن لآن ، ببعض الحفلات ، ولو كانت متواضعة .

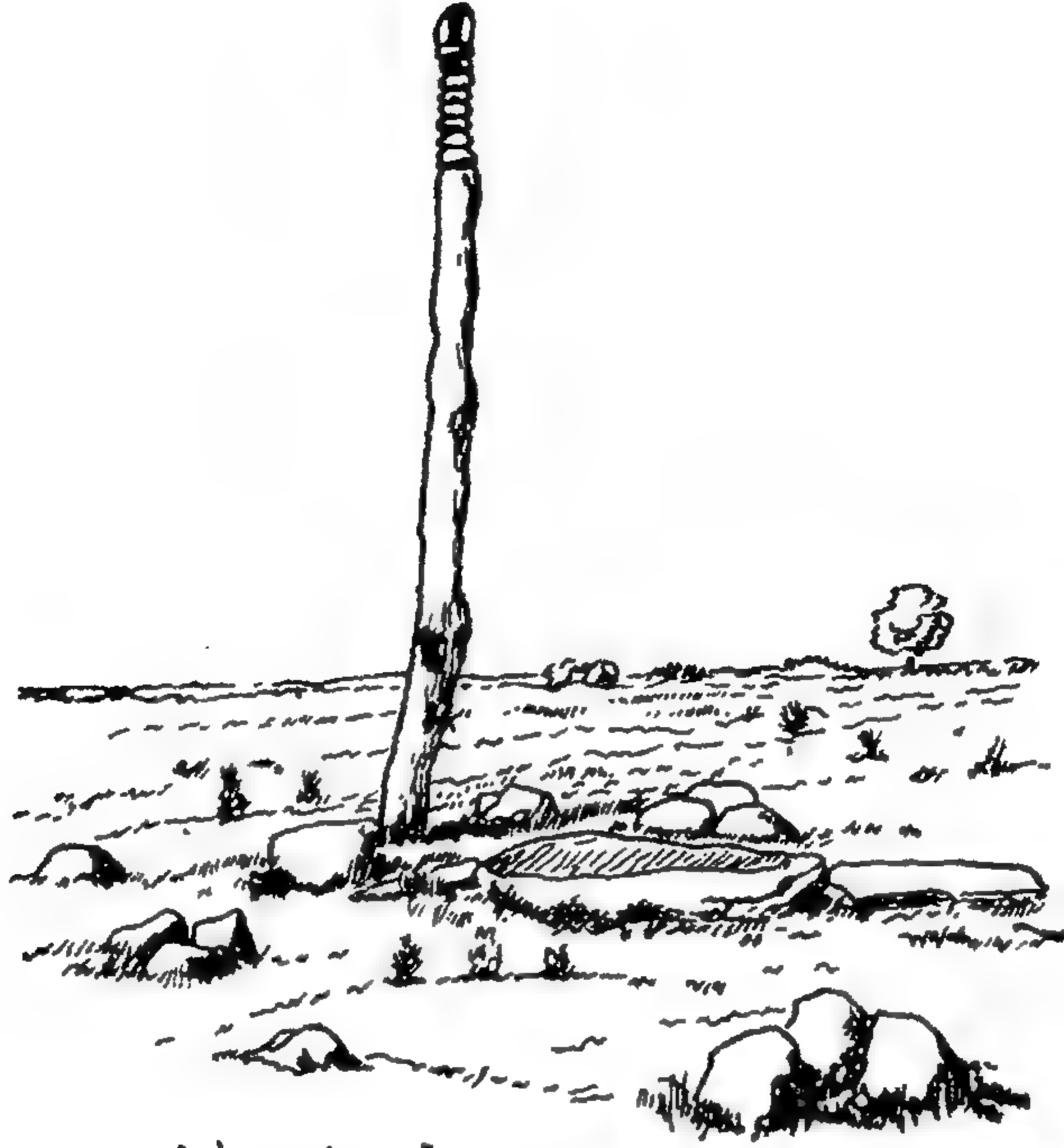
ولا شك أن أهم حقيقة نستنبطها من هذا كله أن الباري شعب متدين جداً ، وحريص أشد الحرص على أداء الشعائر والطقوس الدينية ، منبه دائماً لما قد يتهم به من التقصير . ومستعد دائماً لما يكلف به من مظاهر التضحية والتكفير .

الحفلات العامة وحفلة المطر بخاصة .

يتبع شدة التدين أن تكون هنالك حفلات عديدة وتضحيات ، منها حفلة الزراعة يقيمها صاحب الحقل ويذبح فيها عنزاً ، ويطبخ لحمه مع اللوبيا ويوزع على أشخاص بعينهم ، وحفلة الحصاد . . . وحفلة الماشية للشكر على وفرتها وصحتها . وهذه كلها حفلات عادية موسمية ، تحدث كل عام ، وتخص شخصاً بعينه . . . ولذلك لا يشترك فيها إلا صاحب الشأن وجيرته الأقربون .

وأهم الحفلات السنوية بلا شك هي حفلة جلب المطر ، وهذه لا تقام فى كل قرية ، بل لها أمكنة مخصصة . موزعة فى بعض الأنحاء ، ولكن أشهرها بلا شك ما يقام فى شنديرو وبلرجه أقل أهمية فى بلنيان : وهى تبعد إلى الشمال بنحو خمسين كيلو متراً . وكلا الموضعين على البر الشرقى عند خط عرض ٤٣° ٣٠' شمال خط الاستواء (أنظر شكل ١١) .

هذه الحفلة تعقد عادة في أبريل ، ومن مصلحة زعيم المطر أن يؤخرها حتى يكون موسم المطر قد اقترب حقاً . وتبدأ السحب في الظهور .



قبر صانع المطر في بلينيان

(شكل رقم ١١)

ومن أهم العناصر في هذه الحفلة :

- ١ - دواب سوداء اللون ودجاج تقدم لصانع المطر .
- ٢ - التضحية بواحدة من الدواب ويشارك هو وأعوانه من الدوبي في تعاطي لحومها .
- ٣ - استخدام عدد كبير من حصا الكوارتس أو البللور الصخرى . وبعض أحجار أخرى من الجرانيت أو غيره . كلها صغيرة الحجم تدهن بالزيت أو بالدهن بعد أن تغسل .
- ٤ - الالتجاء - بواسطة صانع المطر - إلى روح أجداده .

هذه هي العناصر الأربعة الأساسية ، إلى جانب الدعوات والعزائم والابتهالات . . . وهناك مظاهر أخرى تختلف من مكان إلى مكان .

ويروى سلجمان أن العادة كانت تقضى فيما مضى بأن زعيم المطر إذا فشل برغم التجائه إلى جميع الوسائل يوماً بعد يوم ، وبرغم ما بذل له من الهدايا والماشية ، فإن الناس تبادر بقتله . . . وهذه الفكرة كانت سائدة أيضاً عند اللاتوكا . والفكرة وراء القتل ليست مجرد الانتقام من الرجل الذى حصل على الثمن ولم يسلم البضاعة ، بل لأنه أثبت أن السر المقدس قد زايه . فلم تعد له تلك القداسة التى يتمتع بها جالب المطر ، ولا ترضى عنه القوى السماوية . فيقتل لكى يخلى مكانه لزعيم مطر آخر ، وقد يكون من أقاربه .

ويروى أن بعض جالبي المطر قاوم ولم يدعن لمن يريدون قتله ، بدعوى أنه لم يقصر ، وأنه لم يعط الفرصة الكافية وتلدور معركة بينه وأنصاره من جهة ، وبين الآخرين ، قد يقتل فيها أو ينتصر .

وهذه الظاهرة تشبه بعض نظائر لها لدى اللاتوكا كما ذكرنا ، وعند الدنكا والشلوك كما سنرى . وبالطبع قد حرمت الحكومة هذه الأعمال العنيفة . ولم يعد صانع المطر يقتل ، ولعله أيضاً فقد بعض ما كان له من النفوذ .

ولا شك أن حفلة المطر أهم الحفلات ، ولا يراد بها أن تكون التماساً لسقوط المطر فقط ، بل أن تعم أيضاً بسببها البركات ويكثر الزرع والنسل . . . فهي حفلة خير للقبيلة كلها ، وهى فى الأغلب حفلة ناجحة ، لأنها تقام فى موعد سقوط المطر .

ولقد يقال إن بلاد البارى قلما تشكو الجفاف . وقلما تتعرض للجذب . وهى فى موقع جغرافى ممتاز بالقرب من نهر عظيم يجرى فيه الماء دائماً ، وبلدون انقطاع . فالاهتمام بحفلات الاستسقاء ليس مما تفرضه طبيعة هذا الإقليم . بخلاف الإقليم الأوسط للنيليين الحاميين ، ما بين بحيرة كيوها وبحيرة رودلف . فإن هذا حقاً يخشى أن يمتنع فيه المطر وأن يتعرض للجذب .

وهذا الاعتراض بلا شك وجيه ، ولعل خير ما يقال في تفسير اهتمام
البارى بالاستسقاء ، وحفلات المطر . أنها شيء تعلموه في البيئة التي أقبلوا
منها ، والتي هي في الغالب أقرب إلى الإقليم الجذب ، إلى الشرق من أوغندا
فبقيت لديهم الطقوس والعادات ، يراعونها حتى في بيئتهم الجديدة ، الغنية
بمطرها ونباتها .

* * *

في ختام هذا الفصل لا يفوتنا أن نشير إلى أهمية الموقع الجغرافي لإقليم
البارى . فهذا الباب الضيق المؤدى إلى أوغندا . يحف به جبال الكوكو من
الناحية الغربية ، وجبال لانجيا من الناحية الشرقية . موقع استراتيجي خطير
وقد تنبه الاستعمار إلى ما لهذا الموقع من الخطر ، ولم يكن الاستعمار يخفى أنه
يريد أن يسيطر بصفة دائمة على السودان الجنوبي ليصله بأقطار أوغندا . .
ولذلك ركز اهتمامه على شعوب هذا الطرف الجنوبي . وبذل منتهى التأييد
لحركات التبشير التي اتخذت الجنوب مركزاً لنشاطها ، واختاروا للبارى بالذات
بعض نوابغ المبشرين ، وترك الاستعمار كل حركة التعليم والثقيف والتوجيه
في أيدي هذه البعثات ، وأمدّها بالمال ، وبعض هذا المال - إن لم يكن كله -
قد حصل عليه من إيرادات أهل الشمال فكأنه جعل الشمال يدفع الثمن لتشجيع
انفصال الجنوب عن الشمال ، وفي الوقت نفسه حرم على أهل الشمال أن
يذهبوا إلى الجنوب إلا بترخيص خاص ، كما حرموا على كل من يدين
بالإسلام أن يقيم شعائر دينه علناً ، بحيث يراه بعض سكان الجنوب . والدين
المسيحي دين سمح كريم ، ولكن لم يكن المراد به أن يكون ديناً يطهر النفس
ويهذب الطبع ، بل وسيلة للتفرقة بين أهل الوطن الواحد .

وقد اضطررنا لأن نذكر هذه الحقائق هنا ، لأن البارى ، وبعض
جيرانهم في الجنوب ، قد ترددت أسماؤهم في أثناء هذه الفتن التي نفت
الاستعمار سمومها بين سكان السودان ، فأضاف بذلك صفحة سوداء ، إلى
ماضيه المملآن بالإفك والإثم والشرور .

ولم ينجح المبشرون كثيراً - كما أكد لي غير واحد منهم - في تلقين أهل الجنوب مبادئ الدين المسيحى الكريم . ولكنهم بلا شك نجحوا نجاحاً هائلاً في التفرقة ، وإثارة الكراهية والبغضاء عند أهل الجنوب . مع أن هذا أكبر ما ينافى تعاليم الحب والسماحة التى بنى عليها الدين المسيحى . وقد لوث الاستعمار الدين بأن جعله أداة للوصول إلى مآربه بأحط الوسائل وأخسها .

الفصل السابع

النيليون - الدنكا

— ١ —

النيليون أو ما يسميه الإنجليز Nilotes مجموعة من الشعوب ، موزعة بين أوطان متباعدة في كينيا وأوغندا وفي السودان ، وأطراف أثيوبيا الغربية . والنسبة إلى النيل هي بالطبع من صنع العلماء ، ولها ما يبررها ، لأن جميع السلالات النيلية ذات أوطان على مقربة دائماً من نهر النيل . . ولا شك أن أهم مجموعة منهم هي التي تعيش في السودان ، وتحتل من السودان الجنوبي معظمه . وتقع في الأقاليم الوسطى منه . بينما السلالات غير النيلية تحتل الأطراف . وهذا الجزء الأوسط ليس مجرد مساحة متواضعة في المركز ، بل عبارة عن إقليم مترام الأطراف يستغرق معظم حوض بحر الجبل وبحر الغزال والسوبات وأعلى النيل الأبيض . . ويمتد طولا في مساحة تبلغ ٨٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب ، وقد تصل إلى نحو ٥٠٠ كم من الشرق إلى الغرب ، أي أنها تحتل ما يقرب من نصف مساحة السودان الجنوبي كله .

والنيليون أينما وجدوا متشابهون في لغاتهم وتقاليدهم وثقافتهم . وبينهم وبين النيليين الحاميين تشابه في أمور كثيرة ، كتمجيد الماشية وإيثار حرفة الرعى ، وتنظيم المجتمع ، وطبقات السن وبعض التشابه في العقائد والطقوس ونحو ذلك . ولكن هناك اختلافاً ملحوظاً من الناحية اللغوية ، جعل للغات الحاميين صفات مفقودة عند لغات النيليين .

وهناك تشابه في الصفات الشكلية ترتبت على وجود عناصر قوقازية في كلا الفريقين وإن كانت تلك الصفات أكثر ظهوراً في بعض الشعوب النيلية الحامية مثل الماساي ، وفي الوقت نفسه ليس هناك اختلاف بين الفريقين في شكل الرأس . فالرأس مستطيل دائماً بنسبة تدور حول ٧٣ ؛ والقامة طويلة نحيلة ، مع قلة بروز العضلات . . بينما يجاور النيلين والنيليين الحامين جماعات زنجية أكثر دكنة وارتفاعاً في النسبة الرأسية كما هي الحال في الجنوب الغربي من السودان .

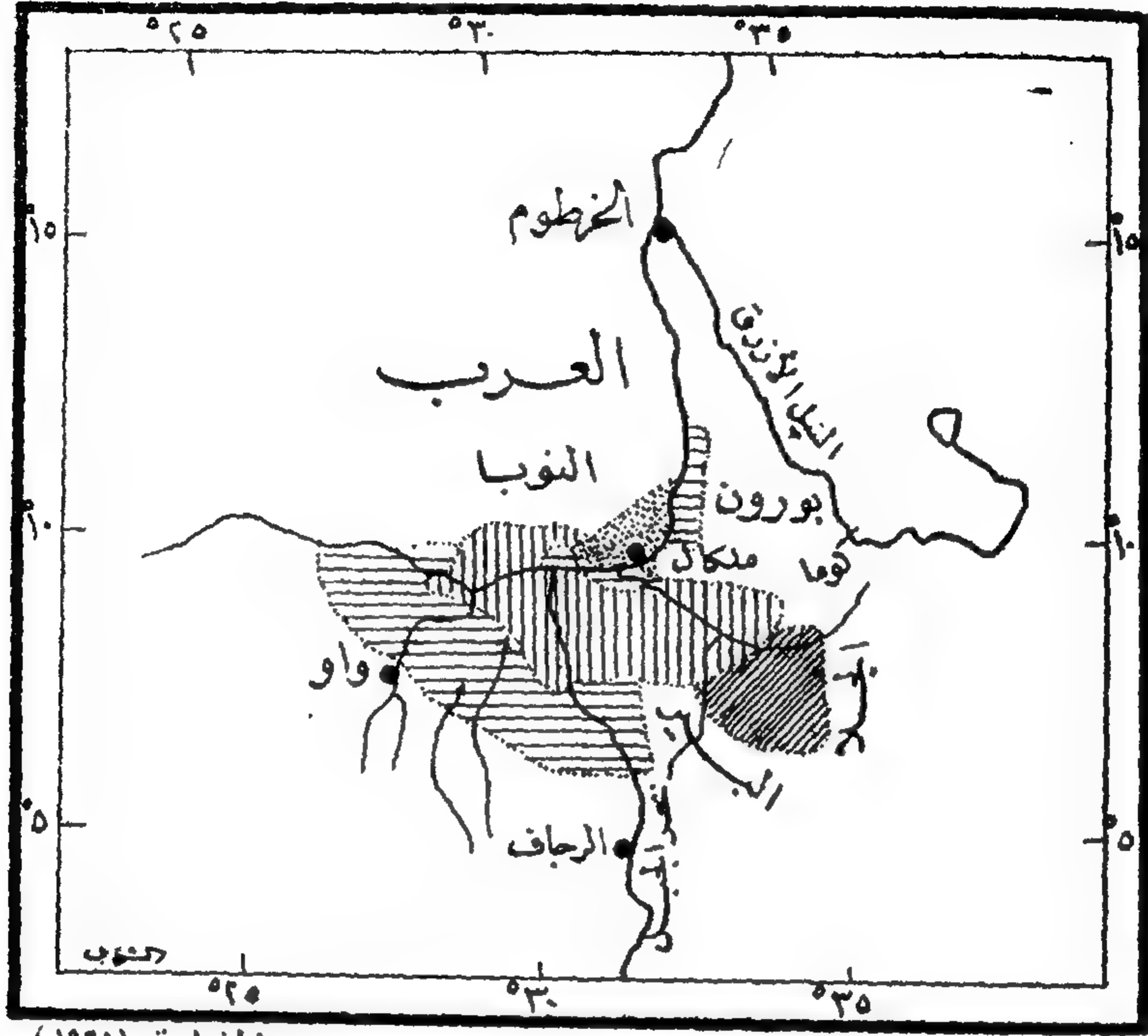
ونظراً للتشابه في الصفات الطبيعية والثقافية بين النيليين الحامين والنيليين ، يرى الأستاذ سلجمان أن الأوطان الأصلية في كلا الحالين متقاربة . . كما يرى أن الموطن النيلى واقع إلى الشمال بالنسبة للوطن الأصلي للنيليين الحامين .
وأهم الشعوب التي تتألف منها المجموعة النيلية هي :

- ١ - جماعة اللو Luo في كينيا ، وهم يكونون عنصراً هاماً في جمهورية كينيا المستقلة ، وتمتد أوطانهم من منطقة خليج كافرونندو نحو الجنوب الشرقي .
- ٢ - شعب أتشولى Achuli في أوغندا في الجزء الشمالى منها . بقرب مجرى نهر أسوا وإلى الجنوب منه شعب آخر يدعى لانجو Lango ، يتكلم اليوم لغة النيليين ، ولكنه في الأصل من شعب النيليين الحامين . ولذلك ربما وجدناه في بعض المراجع معهوداً من الشعوب النيلية . واللغات التي يتكلم بها كل من اللو والأتشولى واللانجو هي لهجات من لغة نيلية واحدة تدعى جانج Gang ومن المهم التنبيه على أن كلمة جانج تفيد اللغة وليست اسماً لشعب كما نجد في بعض المراجع .

كذلك يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لغة الجانج تتبع مجموعة اللغات النيلية التي منها لغة الشلك ، الذين يعيشون على النيل الأبيض .

- ٣ - شعب الدنكا ، ومواطنه إلى شمال الباري . وسنتحدث عنه فيما بعد .
- ٤ - شعب النوير ، وأهم مواطنه في الجزء الأسفل من بحر الجبل والغزال .

- ٥ - شعب الشلك . ومعظم أوطانه على الضفة الغربية للنيل الأبيض .
٦ - شعب الأنواك . في حوض نهر بارو من أهم روافد السوبات ،
ومعظم أوطانه داخل حدود أثيوبيا (أنظر شكل ١٢) .



الأنواك الشلك النوير الدنكا

الدنكا وجيرانهم

(شكل رقم ١٢)

ولا يسمح المقام بأن ندرس هذه الشعوب كلها ؛ ونظراً لتشابه ثقافتها ،
فإننا نكتفي بالكلام المفصل على شعبين وهما الدنكا والشلك . متبعين نفس
الخطة التي عالجنا بها موضوع النيليين الحاميين بالتوسع في الكلام على شعبي
الماساي والباري .

الدنكا

الدنكا أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من أية مجموعة أخرى من الشعوب النيلية ، لكنهم لا يحتلون إقليماً منديجاً متصلاً ، بل تفصل بينهم قبائل النوير Nuer ، وتمثل أوطانهم موقعاً وسطاً تمتد من السوبات الأدنى إلى بحر الجبل ثم إلى بحر الغزال . إن المجرى الأسفل لهذه الأنهار الثلاثة يحتله النوير .

ومع ذلك فإن المساحة التي تعد من أوطان الدنكا عظيمة ، تبدأ من العرض السادس - أى إلى شمال الباري مباشرة - إلى الخط الثانى عشر الشمالى . . هذا من حيث الطول ، فيما عدا الجزء الذى يحتله النوير كما ذكرنا . أما من حيث العرض فإن مواطن الدنكا ضيقة فى الشمال ، وتلتزم الجانب الشرقى لنهر النيل الأبيض ومواقع قليلة جداً من الجانب الغربى . وهذا الجزء من أوطان الدنكا لا يزيد اتساعه من الشرق إلى الغرب على ٣٠ كيلو متراً فهم هنا جماعات نيلية حقاً تلتزم النهر ، كما هى الحال فى أوطان الشلك جيرانهم فى الغرب والجنوب .

هذا الوطن الشمالى للدنكا منعزل عن الوطن الجنوبى . . حتى يسمى سكانه أحياناً دنكا النيل الأبيض . لكن الوطن الجنوبى أعظم وأوسع ، ويشتمل على أقطار متصل بعضها ببعض ، تبدأ من السهول الشرقية فى حوض بحر الجبل ثم تمتد فى شكل مروحة إلى الشمال الغربى حتى تصل إلى شواطئ بحر العرب . ولهذا جرت العادة بتقسيم الدنكا إلى ثلاث شعب : شعبة النيل الأبيض وشعبة بحر الجبل ، وشعبة بحر الغزال . وقد حال هذا الانتشار والاتساع العظيم دون أى محاولة لتوحيد الدنكا فى نظام سياسى مشترك ، بل لقد كان هناك تشاحن وعداوات وحروب بين بعض القبائل الدنكاوية المتجاورة . وبرغم هذا هنالك اتفاق فى خصائص اللغة والدين والنظم الاجتماعية الأساسية والاقتصادية . وإن لم يخل الأمر من اختلاف يسير بين اللهجات .

وجميع أوطان الدنكا ذات خصائص متشابهة ، فالأقطار التي يعيشون فيها

عبارة عن أراض سهلة نخالية من أى أثر للجبال أو الكثبان . ولذلك كان تصريف المياه فيها متعذراً . فتنشر فيها المستنقعات فى فصل المطر بسبب قلة الانحدار من جهة ، وبسبب طبيعة التربة من جهة أخرى ، وتزداد هذه المستنقعات ازدياداً هائلاً فى الحوض الأدنى من بحر الجبل ، وحوض بحر الزراف ، حتى يتأثر نظام الحياة فى هذه المواقع . أما سائر الأقاليم التى يحتلها الدنكا . فإن الأمطار يعقبها انتشار الحشائش والأعشاب الغزيرة ، وتظل محتفظة بغزارتها ونضرتها إلى أشهر الشتاء . . ثم يجيء الجفاف الشديد فى أوائل العام إلى أوائل الربيع ، فتحترق الحشائش أو تجف جفافاً شديداً ، وتغدو هشيماً تذروه الرياح . وتجف الأرض حتى تصبح كتلة صلبة تختطها شقوق عميقة . . وفى هذا الفصل الشديد الجفاف والحرارة ، يلتمس الناس مهرباً من هذا الجفاف المنتشر ، فينزحون إلى أقرب مجرى للمياه ، ويتزاحمون على شواطئ الأنهار ، أو المنخفضات التى يتخلف بها بعض الماء .

وفى السهل الشرقى من بحر الجبل خط مستطيل من الأرض المرتفعة نسبياً يعلو بعشرات مع الأمتار فوق مستوى السهول التى حوله ، ويمتد من الجنوب إلى الشمال ، كأنه جسر مستطيل منقطع فى مساحة طولها نحو مائة وخمسين كيلو متراً . . وكل جزء بارز نوعاً على هذه الصورة يسميه الدنكا دوك ، وعلى هذا المرتفع البسيط يتكاثف الشجر ، بحيث يحاكي شكل الغابات . وتتكاثر المنازل فوق مثل هذا المرتفع حتى تكون بلدة أو ما يشبه البلدة . وسيجدها القارئ على الخريطة، يسمى بعضها دوك فايول Duk Faywel ودوك فاديات D. Fadiat ودوك عيوض . تسمية لها بأسماء أشخاص اشتهروا فى تاريخ الدنكا .

والاسم الذى تطلقه هذه الجماعات على نفسها هو جينج Djing (مفردها جانج) حرفها جيرانهم من العرب إلى دنكا والمفرد دنكاوى ؛ والاسم يدل على مجموعة كبيرة من القبائل ، مرصوفة بعضها إلى جانب بعض ؛ منفصلة بعضها عن بعض ، مستقل كل منها بحياته السياسية والاجتماعية والثقافية ،

والحياة الاقتصادية للدنكا على الرغم من تشابهها ، ومن اعتمادها في الجملة على حرفة الرعى ، لا تخلو من بعض الاختلاف في جهات بعينها . ويرجع هذا الشذوذ إلى ظروف محلية ، طبيعية كانت أو بشرية . فمن الظروف الطبيعية انتشار المستنقعات في الجزء الأوسط من الوطن الدنكاوى ، حيث يتعذر الانتقال من مكان إلى مكان ، ويتعذر بالتالى الوصول إلى المراعى ، إذ تغمر المياه مساحة واسعة من الأرض . . والدنكا الذين يعيشون في هذه البيئة يطلق عليهم الآخرون اسم مون ثان Mon-than ، أو جماعة الثان . والثان معناه قطعة الأرض الجافة وسط المستنقعات .

كذلك نرى أن الحياة لا تعتمد على الرعى عند قبيلة سيك ، التى تعيش في السهول الواقعة غربى بحر الجبل ما بين بور وشامبي ، فهؤلاء اختصوا بحرفة تميزهم عن سواهم ، وهى استخراج وصهر الحديد . وفى كلا هذين الحالين نرى أن الماشية لا تحتل مكاناً هاماً من نشاط العشائر ، وإنما يعتمد سكان المستنقعات على صيد السمك بوجه خاص ، وحيواناتهم قليلة ، وكذلك زراعتهم .

أما عشائر الحدادين - وهكذا يسمون في الخرائط القديمة - فأوطانهم في الجنوب الشرقى من بحر الغزال . . ومن الجائز أن تكون هناك عشائر أخرى من الدنكا تشتغل بصهر الحديد في حوض الغزال ، ولكن الذين اشتهروا بذلك هم قبيلة سيك في الغرب من شامبي والجنوب الغربى منها ، ويتخذون من صناعتهم وسيلة للمبادلة بها على ما يحتاجونه من الأشياء الأخرى ولكنهم مع ذلك لا يقتنون الماشية ، بل لعل حرفة الوحيدة الأخرى هى الصيد . ولقد نجد بين القبائل الأخرى أشخاصاً يعملون في صناعة الحراب ورعوس الرماح ، ولكن هذه العشائر هى وحدها التى تشتغل بصهر الحديد وطريقهم في ذلك كما وصفها سلجمان أن يعملوا موقداً من الطين ارتفاعه نحو ١٧٥ سنتيمتراً ، وعرضه نحو الستين سنتيمتراً ، في أسفله ثقب يدخل منها الهواء . فيوضع بعض الحطب في أسفل الموقد ، ومن فوقه مقدار كبير من

الفحم النباتي سمكه يزيد على المتر ، ومن فوقه طبقة من المعدن المشتعل على الحديد ؛ وهو يحتوى على نحو خمسين فى المائة من مادة الحديد، إلى جانب مواد أخرى ، وتغطى هذه الطبقة بمقدار آخر من الفحم النباتي ، وتستغرق عملية الصهر نحو ٢٤ ساعة ، تؤدى فى النهاية إلى رسوب كتلة مستديرة من الحديد قطرها نحو عشرين سنتيمتراً ، وهى وحدة المبادلة والتعامل ، يدفع نحو عشرة من هذه الأقراص ثمناً لثور أو عجل كبير . ولا بد من دفع الخمسين أو الستين منها مهراً للزوجة ، وهذا أرخص من مهر الزوجة عند قبائل الدنكا، الذين يقتنون الماشية .

هذه المادة الحديدية ، تكون بعد ذلك بمثابة المادة الأولية ، التى تستخدم فى صنع الحراب والأسنة . وهذه بدورها تستخدم أيضاً فى المبادلة ويمكن بواسطتها اقتناء الأواني أو الماشية الصغيرة كالضأن والماعز .

والعشائر التى تعتمد على الحديد تزواج فيما بينها ، وإن لم يكن محظوراً عليها أن تصاهر القبائل ذات الماشية ، غير أن قلة ما تملكه منها يجعل من المتعذر عليها أن تصاهر تلك القبائل^(١) .

والأرجح أن مثل هذه الصناعة المعدنية — التى قد تتناول معادن أخرى مثل النحاس لصنع الحلى — غريبة على الدنكا ، ولعلها ترجع إلى مؤثرات ثقافية من جماعات سابقة لنزول الدنكا بهذا الإقليم ، أو جماعات آتية من الجنوب حيث يكثر معدن الحديد ، ويكثر المشتغلون بصناعته . وقد ذكر لينهت فى كتابه عن ديانة الدنكا أن أسماء العشائر التى ذكرها سلجمان — على أنها تشتغل بصهر الحديد — ليست أسماء دنكاوية .

أما سائر الدنكا فإن قوام الاقتصاد عندهم هو بلا شك اقتناء الماشية ، وبوجه خاص اقتناء البقر ، وعلى الرغم من أن الدنكا كثيراً ما يقتنون الضأن والماعز ، ولديهم منها قطعان كثيرة ، فإن الماشية ذات المكان الرفيع فى

(١) راجع كتاب سلجمان Pagan Tribes ص ١٣٨ وما بعدها .

حياتهم الاقتصادية والروحية ، هي البقر ؛ فهي مقياس ثروتهم ومبعث فخارهم وعزهم ، ومصدر سعادتهم وبهجتهم ، وعماد مركزهم الاجتماعى ، فهي الأساس الاقتصادى للمجتمع ، فى مختلف شئونه ومظاهره ، بها تدفع المهور للزوجات ، وتدفع الدية طبقاً للنواميس والشرائع المعروفة المتوارثة ، الشيء الوحيد الذى يحسد المرء من أجله . وقليل الماشية لا بد له أن يسعى فى الحصول عليها بمختلف الوسائل . وفى عهد النظام والحكم الصارم قد يضطر الفرد لأن يعمل فى غير بلاده ، أو فى خدمة الحكومة ، لكى يجمع ما يمكنه من اقتناء ما يحتاجه من الماشية ؛ وهو لن يستطيع على كل حال شراءها من الدنكا ، لأن الدراهم فى نظرهم أحقر من أن تقبل ثمناً للبقر . لكنه قد يشتريها من قبائل البقارة فى الأسواق الشمالية . . هذا ما يجرى فى حالة النظام والحكم ، أما فى حالة « الفطرة » التى اعتادها الدنكا فإن السبيل للحصول على الماشية هو الإغارة والنهب . وهذا الأمر قد يحدث الآن ما بين الدنكا والنوير أو بين قبائل مختلفة من الدنكا . ولكنه أصبح من الأمور النادرة .

ويقول سلجيان - بل وكل من كتب عن الدنكا - إن الماشية عندهم ليست مجرد مادة للحياة الاقتصادية على الرغم من أن هذا أمر له خطره ، بل لها فوق ذلك أهمية حيوية ، بل وروحية . لأنك لا ترى الدنكاوى مغتبطاً مسروراً إلا وهو يتحدث عن الماشية أو يرعاها أو يتأملها ، أو يتغنى بسيرتها . ومع أن الدنكا يزرعون الذرة الرفيعة ويتخذون منها مادة أساسية لغذائهم ، كما يزرعون التبغ ، ولهم ولع بالتدخين ، غير أن هذا النشاط الاقتصادى يعد شيئاً ثانوياً إلى جانب الماشية ، التى هى العماد الأكبر للحياة والركن الأساسى للنظام الاجتماعى كله .

وتراهم يبنون للماشية أكواخاً أضخم وأعظم مما يبنونه لأنفسهم (ويسمى لواك والجمع لويك) وفى هذه الأكواخ تبيت الماشية وسط المزارع والحشائش ، فى الوقت الذى تتوافر فيه الحشائش ، أما فى موسم الجفاف ، فتلتقل العشرة إلى جوار الأخوار أو الجداول أو الغدران ، حيث تعيش

مع قطعائها في أكواخ مؤقتة أو في العراء أحياناً ، وهنا يعيش الرجال بالقرب من ماشيتهم ؛ وفي الليل توقد النيران في موقد كبير يحرق فيه روث الماشية ، لكي تستعان بما يتصاعد منها من الدخان في طرد البعوض كيلا يؤذي الماشية . وتربط الحيوانات إلى أوتاد من الخشب مغروزة في الأرض ، لتكون بمأمن من أن تسرق ليلاً ، ولكي تظل قريبة من موقد النار . والدنكاوى يبدى منتهى البسالة والجرأة في الدفاع عن ماشيته ، والذود عنها .

والسلاح الذي يستخدمه الدنكا هو الرمح الطويل . وله سنان من مختلف الأشكال . ولا يختلف كثيراً عما يستخدمه سائر النيليين . وهناك حراب تستخدم في الرماية من بعيد ومحصرة من الخشب المتين المصقول تنتهى ببكرة قطرها نحو ثمانية أو عشرة سنتيمترات ، وطولها نحو الستين أو السبعين سنتيمتراً . والحكومة لا تحول دون حمل هذا السلاح في أى وقت يريد صاحبه . . ولا يستخدم الدنكا السيف ولا القسي والسهام ، اللهم إلا جماعات محدودة لدى قبيلة آجار ، وأكبر الظن أن هذا من تأثير اتصالهم بالشعوب الجنوبية في حوض بحر الغزال .

النظام الاجتماعي :

ينقسم الدنكا كما رأينا إلى قبائل . وكل قبيلة تنقسم إلى عشائر . لكل عشيرة شعارها الخاص أى (طوتم) . ولا يجوز الزواج من العشيرة التى يتبعها الراغب في الزواج . أى عشيرة الوالد . وتعيش كل عشيرة في رقعة من الأرض خاصة بها . والمساكن تحيط بها المزارع والمراعى ، وهذا يسرى بوجه خاص في الإقامة الدائمة في زمن اخضرار العشب . أما في زمن الجفاف فإن المساكن في الموطن المؤقت تكون أشد تلاصقاً . ومع أن كلا منها ينزل في رقعة خاصة به ، غير أنه من الجائز أن تنزل عشائر في بقعة واحدة ، أو في مساكن متقاربة في أثناء « النجعة » .

والقبيلة مهما تعددت عشائرها لها نظام يؤلف بين أجزائها ، وتعرف كل

قبيلة أنها تؤلف وحدة متميزة عن قبائل الدنكا الأخرى ، لها رؤساؤها ومشايخها طبقاً للعرف المتبع . والمنصب الأكبر الذى يتقلد صاحبه الزعامة العليا ، وله نفوذ روحى كبير فى القبيلة كلها وهو الذى يدعى بين بيت ، وكلمة بين Bith معناها الزعيم أو الرئيس ، وبيت معناها Bän الرمح الخاص ، لا رمح القتال العادى ، بل رمحاً له نوع من القداسة ، كأنه بمثابة الصولجان أو الرمز للقوة الروحية ، التى يتمتع بها الزعيم . مع أن هذا الرمح قد لا يختلف فى مظهره كثيراً عن شكل الرماح الأخرى ، لكن الأغلب أن تكون له صفة تميزه ، وكثيراً ما تكون سنانه مربعة ذات أشواك . وقد يكون من النوع الذى يحاكي ورقة الشجر المستطيلة .

هذا البين بيت هو الزعيم الدينى وله نفوذ كبير فى الشؤون المدنية أيضاً . وهو أيضاً جالب المطر ، الذى يستطيع أن يؤدى المراسيم والطقوس التى لا بد منها لجلب المطر .

وهنا لا بد لنا أن نلاحظ مرة أخرى أن أوطان الدنكا كلها – والجنوبى منها بوجه خاص – لا يتعرض بصفة جدية للجذب والجفاف ، اللهم إلا فترة قصيرة ، وغريب أن يتزعم القوم رجل يستمد نفوذه الأكبر من عمل ليس بذى خطر كبير فى هذه البيئة . . وليس بمستبعد والحالة هذه ، أن تكون الحال هنا كما هى فى إقليم البارى واللاتوكا ، وأن يكون تمجيد جالب المطر ظاهرة مستمدة من الإقليم الأول الذى نرح منه النيليون فى شرق إفريقيا ، حيث الجفاف أوسع انتشاراً والحاجة إلى إجراءات جلب المطر أشد وأعظم .

والمنصب عند الدنكا وراثى ، ومنحصر فى بعض الأسر لا يتجاوزها إلى غيرها ، وتكون الوراثة للابن الذكر ، الذى يرث بعد وفاة أبيه (أو عمه أحياناً) زعامة القبيلة ، وكل ما يتبع تلك الزعامة من النفوذ والسلطان ؛ وإلى جانب الحفلات التى تعقد لجلب المطر ، يقوم البين بيت بفض النزاع بين المختصمين ، فهو الحكم الفصل فى كل ما يشجر من خلاف ، وهو السلطة

القضائية العليا .. وهو لا يمارس السحر بالمعنى المألوف ؛ لكنه بوصفه الرئيس الدينى يستطيع أن يبلغ أغراضه بأن يتنهّل إلى الإله الأكبر نهيالك Nhialik .

وهناك زعماء آخرون يجيئون فى المرتبة الثانية بعد الزعيم الدينى ، أهمهم من غير شك هو بين ووت Bän Wut زعيم البقر . ومنصبه أعظم مما يدل عليه اسمه ، باعتبار أن البقر هى العنصر الأساسى فى الاقتصاد القبلى ، ولأنه فوق عنايته بالبقر وتنظيم شئونها العامة ، فى الانتقال من مراعى الصيف إلى مراعى الشتاء ، فإنه هو أيضاً الذى يتولى الزعامة فى الدفاع عنها ، إذا أغار مغير على القبيلة أو بعض عشائرها .

يلي هذين الزعيمين فى الأهمية : أفراد يناط بهم عمل خاص مثل بين ده راب Bän de Rap الذى يعنى بمحصول الذرة الرفيعة ، ويدود عنها الطير والجراد بأساليب ووسائل مختلفة بعضها ذات صبغة عملية وبعضها من قبيل السحر .. كذلك الزعيم الذى يعنى بصيد الأسماك بين ده رك Bän de rec وكل ما يتصل بها .. وربما وجدت زعامات أخرى قليلة الخطر عند بعض القبائل .

ومناصب الزعامة كلها أو معظمها وراثى . فالابن يرث أباه أو عمه (إذا لم يكن للعم ابن صالح) . ولكن نظام الوراثة أدق المناصب العليا ، وأيسر خطراً فى الزعامات الصغيرة . ومنصب الزعيم الأكبر : بين بيت له أثر اجتماعى عظيم لأنه يحفظ وحدة القبيلة ويؤلف بين أجزائها وعشائرها . وهو رمز هذه الوحدة ومن غيره يتمزق شملها وتذهب ريحها ، وتزول شخصيتها ، سواء اندمجت فى قبائل أخرى أو بقيت مشردة الأجزاء موزعة العشائر مفقودة التواصل والترابط ، وتكاد أن تعد فى حكم المنقرضة لأن كيانها المستقل قد زال من الوجود .

وقد تعرضت بعض القبائل الجنوبية فى حوض بحر الغزال لغارات شديدة من الشمال بواسطة جماعات غازية ، ويزعم بعض كتاب الإنجليز أن هذا حدث

في عهد المهديّة .. فتمزقت بعض قبائل الدنكا في بحر الغزال وفقدت زعماءها ، وأصبحت في حالة سيئة من الفوضى ، ورأى رجال السلطة بعد المهديّة أن من مستلزمات الاستقرار أن تلتئم القبائل المشردة ، وأن يجتمع كل منها حول زعيم . وقررت أن تتولى هذا الأمر بنفسها دون أن تنتظر حتى ينظم الدنكا شئونهم ويختاروا زعماءهم ، فقامت تلك السلطات بنفسها باختيار من آنست فيه روح الزعامة أو خيل لها أنه قادر على تولي الزعامة . ففرضت على كل واحدة من تلك القبائل زعيماً اختارته وارتضته وأيدته بنفوذها ، وطلبت من العشائر أن تدعن له راغبة أو كارهة . وقد ترتب على هذا خلافات ومنازعات تعبت الدولة في علاجها .

كانت هذه حالة بعض القبائل في حوض الغزال بوجه خاص ، ولكن هناك قبائل عديدة زعماءها عريقون في الحسب والنسب ولم تزعزعهم الأحداث . وهؤلاء في العادة يستطيعون أن يرجعوا بأنسابهم إلى أجيال عديدة ومنهم من لا يزال إلى اليوم يتحدث بذكرى زعيم كبير ، كانت له خصائص البطولة الممتازة والقيادة الحكيمة .

أما نظام العشائر فأساسه تمييز كل عشيرة أو جزء من القبيلة عن سائر الأجزاء ؛ وهي في العادة مجموعة من الأسر لها اسم واحد وطوطم واحد . وعشائر الدنكا طواطمها من الحيوان عادة مثل التماسيح أو فرس البحر أو بعض الزواحف أو نحو ذلك من ضروب الحيوان والحشرات . ومن العشائر من طوطمه نبات ، أو بعض الجملادات مثل النار أو السحاب . ومن القبائل أيضاً ما هو مسمى باسم بعض الحيوان كما هي الحال في دنكا نيل Niel ، الذين يعيشون حول خور آدار على خط عرض ١٠° شرق النيل الأبيض ، وهؤلاء شعارهم نوع من الثعابين يسمى بذلك الاسم . كما أن دنكا علياب — كما ذكرنا من قبل — يقال إن اسمهم مشتق من اسم جعران مائي . وهذه الحالة : تسمية قبيلة باسم حيوان ، أمر نادر ولكن ربما كان يرجع إلى أن بعض العشائر في سالف الزمن قد نما وكبر حتى أصبح في عداد القبائل واحتفظ باسمه

وكل عشيرة تحترم الحيوان الذى يمثل شعارها أو طوطمها فلا تؤذيه ولا تقتله ، ولا تمسه بسوء ، والأطفال يحترمون طوطم العشيرة التى ينتمى إليها أبوهم ، وكذلك يحترمون - ولو بدرجة أقل - الطوطم الخاص بأمهم ، إكراماً لخاطر الأم . لكن هذا أمر شخصى يخص الأسرة . أما العشيرة كلها فطوطمها واحد . وجميع العشائر تعلل الطوطم الذى اتخذته شعارها بعلة واحدة لا تكاد تختلف من عشيرة إلى عشيرة . فيزعمون أن جدهم الأول أحد توأمين ، والتوأم الآخر هو الحيوان الذى غدا للعشيرة طوطماً وشعاراً . . . هذه هى القصة الشائعة ، وقد يكون لها صور أخرى ، بأن يكون مولد الجد الأكبر مصحوباً بظاهرة خارقة للعادة ، مثل سقوط شهاب من السماء أو صاعقة تحرق الشجر ، وتوقد النار ، أو غير ذلك من الظواهر الطبيعية غير المألوفة ، التى لا تحدث فى كل شهر أو فى كل عام . . والعشيرة إما أن تسمى باسم الطوطم أو باسم جدها الأول .

والمفروض أن احترام الطوطم من اختصاص كل عشيرة واجب تفرضه على نفسها ، والعشائر الأخرى لها طوطمها التى تحترمها . وفى العادة لا ينتظر من إحدى العشائر أن تعظم أو تبجل شعار عشيرة أخرى . ومع ذلك يحدثنا سلجيان^(١) أن بعض العشائر القوية قد تغضب إذا لم يلق طوطمها كل إجلال واحترام من العشائر المجاورة ، وهذا يؤيد ما سبقت الإشارة إليه من أن بعض العشائر قد تصبح قوية الشكيمة فتفرض طوطمها على من حولها وينتهى الأمر بأن يصبح الطوطم اسماً لقبيلة بعد أن كان اسماً لعشيرة .

نظام الزواج :

لا يجوز بالطبع لأى فرد من الدنكا أن يلمس زوجته فى العشيرة التى ينتمى إليها أى عشيرة والده ، ولكنه أيضاً مبالغة فى الاغتراب ، لا يجوز له أن يتزوج من امرأة تمت بصلة القرابة إلى والدته : إن مثل هذا الزواج يعد

(١) المراجع السابق ص ١٥٠ .

في نظرهم من المحرمات ، بل من الكبائر الشنيعة ويجلب غضب أرواح السلف (جوك Jok) . فإن مثل هذه المعصية تجر الوبال والدمار ، وموت الأطفال أو عقم الزوجات . . وعلى كل حال إن مثل هذا الحال لا يمكن أن يحدث ، لأن مراعاة الشعوب البدائية للعرف واجب مقدس لا يحيد عنه أحد . وعلى فرض حدوثه فإن العرف يقضى على الرجل أو أبيه أن يقدم فدية أربعة رؤوس من الماشية ، وفيها بقرة واحدة على الأقل . ويمسح جسد الأثيمين ، لتطهيرهما ببعض السوائل المستخرجة من بطن الذبيحة .

فالعرف يقضى - إذن - بأن يبحث الرجل عن شريكة حياته في عشيرة غير عشيرته ، وليست به حاجة لأن يبحث عنها في قرية بعيدة ، لأن القرى كثيراً ما تضم عشائر مختلفة ، وموسم الجفاف : الذي تحتشد فيه العشائر على مجارى الأنهار يهيئ فرصة للتعارف والتفاهم : ومتى تم له الاختيار يبدأ في الإجراءات اللازمة نحو الخطبة ثم الزواج . وهذه الإجراءات قد تختلف اختلافاً يسيراً بين قبائل الدنكا ، ولكن الجوهر فيها كلها واحد : وهو يشتمل على بعض العناصر الأساسية ، مثل :

- ١ - استعانة العريس ببلداته في الخطبة .
- ٢ - رضا الوالد (أبي الفتاة) شرط أساسى للمضى في الخطبة .
- ٣ - تقديم الهدايا لاسترضاء أقارب العروس .
- ٤ - دفع المهر لتعويض الأسرة عما فقدته بإعطاء ابنتها لعشيرة أخرى : وليس من الضروري أن يدفع المهر كله مرة واحدة : بل يدفع أكثره ويقسط الباقي بالاتفاق بين الأبوين .
- ٥ - يتم الزواج فعلاً بحفلة تشتمل على كثير من الموسيقى والرقص .
- ٦ - تظل الزوجة عادة في منزل والدها ، حيث تسكن وعريسها كوخاً أعد لها . وذلك إلى أن تلد طفلاً أو طفلين . تستطيع بعد ذلك أن تنتقل إلى عشيرة الزوج وتتخذ لها مسكناً فيها .

هذه هي العناصر الأساسية للزواج عند الدنكا ، وهي متشابهة بصفة عامة عند سائر القبائل ، كما أنها تشبه من وجوه كثيرة ما ذكرناه خاصاً بالباري : وهناك بعض الاختلاف بين قبيلة وقبيلة ولكن هذه الاختلافات لا تمس الجوهر . . . والعادة عند معظم القبائل الدنكاوية ، أن تبدأ الخطبة الرسمية - وقد سبقها في الغالب تفاهم شخصي بين الفتى والفتاة - بزيارة الخطيب ومعه لداته بيت العروس ، ويلتمسون بعض التبغ ليدخنوه ، فتذهب العروس وتطلب هذا التبغ من أبيها . فإذا أعطاها إياه فهذا علامة الرضا . . . وتستطيع العروس بعد ذلك أن تزور أسرة الخطيب مصحوبة بأترابها أول الأمر ، ثم بمفردها بعد ذلك . ثم يحىء دور الأبوين ، اللذين لا بد لهما أن يتفقا على المهر . وهذا قد يختلف من قبيلة لقبيلة . فالقبيلة الغنية بماشيتها ، قد يصل المهر عندها إلى خمسين رأساً من الماشية أكثرها بقر ، ومعها غنم وماعز ، بل قد يزيد على ذلك في بعض الأحوال الاستثنائية . أما عند سكان المستنقعات ، حيث المراعى محدودة ، قد لا يزيد المهر على خمسة رؤوس من الماشية بعضها بقر والبعض ثيرة . . . ومعها بعض الماشية الصغيرة من ماعز وضأن ، كذلك يقلم الخطيب زوجاً من الأسنة التي تستخدم في صيد فرس البحر . ومقداراً كبيراً من السمك ، وقدرين أو ثلاثاً من دهن فرس البحر . وفي جميع الأحوال يتعاون الوالد وإخوته في دفع هذا المهر حتى يدفع معظمه ويقسط الباقي ، ولا داعى لأن يتأخر الزواج ما دام القسم الأكبر منه قد تم دفعه .

أما عند جماعة « الحدادين » فإن المهر كما ذكرنا يتألف معظمه من أقراص الحديد . وعنصر الماشية فيه قليل جداً . وفي الغالب لن يكون فيه بقر ، بل بعض الثيرة ، والماعز والضأن .

ومتى رضى الوالد عما دفع من أقساط المهر ، قام بذبح ثور وأقام حفلة رقص يشهدا شباب القرية . ولكن الخطيب لا يشترك في الرقص ، أما العروس فتشارك فيه ، وعندما تدنو الحفلة من نهايتها ، تتجمع الفتيات ، ويأخذن

العروس ، التي تتظاهر بالتمنع ، إلى الدار التي أعدت للزواج ، حيث تجد العريس في انتظارها ، وبذلك تم مراسم الزواج .

والطلاق جائز عند الدنكا ، كما هو جائز عند جميع النيليين ، وسببه في العادة العقم ، فإذا مضى عامان أو ثلاثة ، ولم يثمر الزواج الثمرة المرجوة ، جاز للزوج أن يطلق زوجته ، وفي هذه الحالة ترد إليه الماشية ، التي قدمها مهرأ ، وما قد تكون أنجبته من عجول في تلك الفترة . . وربما فضل الزوج - إذا كان ذاسعة - أن يحتفظ بزوجه الأولى برغم عقمها ، ويتزوج امرأة أخرى ، وتعدد الزوجات ليس ممنوعاً ، ولكنه شيء نادر . فقليلون من مملكون من الماشية ما يمكنهم من اقتناء زوجة ثانية ، لهذا لم يكن تعدد الزوجات شائعاً بين النيليين .

واحتمال الطلاق يوضح لنا حكمة أخرى في بقاء الزوجة فترة من الزمن في منازل أسرتها حتى تنجب الأطفال ، لأنها بذلك تكون قد أثبتت زوجيتها وصلاحياتها في صورة لا تحتل أدنى شك . وليس الطلاق من حق الزوج وحده ، بل من الجائز أن يكون من جانب الزوجة ، بالامتناع عن معاشرة زوجها ، وعودتها إلى أبيها ، بمحض إرادتها أو إرادة والديها . وفي كلا الحالين لا بد أن يرد المهر للزوج ، كما أن الطلاق قد يحدث إذا هربت الزوجة إلى رجل آخر .

ورد المهر ليس عملاً سهلاً ، لأنه - وإن تسلمه الوالد - فإنه لا يحتفظ به لنفسه ، بل يوزع على أقارب الفتاة من الذكور ، ولا يحتفظ إلا ببقرة أو بقرتين ، ولا غرابة في ذلك لأن الأقارب يتعاونون في دفع مهر الفتى ، عند زواجه ، فلا بد لهم أن يتقاسموا مهر الفتاة أيضاً ، فإذا أريد أن يرد مهر إلى أسرة الرجل ، فلا بد من جمع الماشية من أطراف متعددة ، ومن حسن الحظ أن هذا لا يحدث كثيراً ، لأن الطلاق قليل .

ولتماماً للحديث عن تعدد الزوجات ، نلاحظ في الأقوال التي يرويها سلجبان عادة أشار إليها . . وهي أن الشاب الذي تدركه الوفاة دون أن يتزوج

لا بد لأخيه أن يتزوج بالنيابة عنه ، قبل أن يتخذ زوجة لنفسه ، لأن الزواج أمر لا يجوز أن يحرم منه المرء حياً أو ميتاً . وهذه الزوجة تعتبر في عرف المجتمع زوجة الأخ الذي توفي ، وأنجالها أنجاله . . وهذا العرف المقدس عند الدنكا له أساس في الديانة . ذلك أن من أهم الشعائر الدينية عند الدنكا، تمجيد أرواح السلف 'Jok' وتقديسهم . ولا بد للرجل أن يكون له نسل حتى يمجسوا روحه فإن لم يتم ذلك الزواج تظل تلك الروح نائمة عليهم، حتى يفعلوا . وامتلاك الأطفال شيء مقدس عند الدنكا . ومن مظاهر اهتمامهم به أن أرملة الرجل إذا تزوجت من أخيه بعد وفاته أو من أحد أقاربه ، فإن هذا الرجل لا يعدّ زوجاً ، بل عشيراً أو نائباً عن الزوج المتوفى . والأطفال الذين يولدون يعدون أطفال الزوج الأول . والعادة أن تلتزم الزوجة الحداد عاماً كاملاً ، ثم يسمح لها بعد ذلك أن تدخل في عصمة رجل من أقارب الزوج ، بعد أن يقدم قرباناً يسترضى به روح الزوج الفقيد .

وهناك أمر ذكره سلجمان يستحق أن نوردّه هنا ، وهو الإشارة إلى الاهتمام الخاص الذي يبذل عند ولادة توأمين . في هذه الحالة يستدعى الوالد جميع أقاربه من الذكور ، ومعهم أحد الكهنة Tiet ومن الممكن أن يشهد الاحتفال أقارب الأم أيضاً من الذكور . ثم تقام الصلوات للإله الأكبر Nhiahik نيهالك ، ويذبح عجل ويمسح ببوله الأبوان والرضيعان ، ويتلى الدعاء للإله بالمعنى الآتي :

« أنت أيها الإله الأكبر نيهالك
أنت الذي خلقتكما ، وأنت الذي أتيت بهما
فلا ينبغي لأحد أن يبغضهما أو يضرهما لهما سوء .
أنت الذي تهب الحياة وتعطف
أنت وحدك القادر والناس عاجزون
إنا نقرب لك هذا الذبيح ، فاقبله منا ثمناً لما وهبت
وامنحهما الحياة . . . »

هذا الدعاء مما يعطينا فكرة عن شدة تدين الدنكا ، والأسلوب الذى يتبعونه فى مخاطبة الإله الأكبر ، وشتان بينهم وبين بعض النيليين الحاميين ، الذين يعالجون مشكلة التوأمين ، بقتل أحدهما ، لكى يعيش الآخر .

* * *

ولكل دنكاوى عادة عدة أسماء منها ما يطلق على الطفل عند ولادته ، ومنها ما يختاره لنفسه عندما يكبر ، ويدخل طبقة السن التى يتبعها ؛ ومن هذه الأسماء ما يدعى « اسم الماشية » وذلك أن كل شاب يبلغ سن الفتوة يكون له عجل خاص به ، ويكون اسمه الجديد مطابقاً لاسم العجل . وهذه العجول لما ميزة على غيرها . فمن ناحية الشكل تسحب قرونها بحيث ينمو أحد القرنين للأمام والآخر للوراء . كذلك هى فى العادة لها مكانة ممتازة . إذ تسير فى مقدمة القطيع . وكل فتى يعنى بعجله أو ثوره عناية فائقة ؛ لأنه يحس رابطة قوية تربطه به . ولعل هذه السنة قد أريد بها أول الأمر أن تشعر كل فتى من الدنكا بما للماشية من الخطر . . وهذه الظاهرة شائعة فى جميع الشعوب النيلية كما هى معروفة لدى من يشبهونهم فى الثقافة مثل البارى .

ومن عادة الأحداث من الدنكا أن يتبعوا الشباب فى رعى الماشية ، ليتدربوا ، ويتولى الكبار تعليم الصغار تدريجياً . فيبدأ الأطفال بجمع فضلات الماشية للوقود ؛ فإذا كبروا قليلاً تعلموا كيف يحلبون البقر ، وفى نحو التاسعة من عمرهم يذهب بهم أبوهم إلى النهر أو البركة ليعلمهم صيد الأسماك . وبعد عامين أو ثلاثة يشتركون فى صيد فرس البحر . وهكذا نرى أن الرعى والصيد من اختصاص الرجال . ومع ذلك فعظم النساء قد يحلبن الماعز أو الضأن ، وقلما يحلبن البقر .

والبنات يتعلمن من أمهاتهن أعمال المنزل من طبخ وطحن وخبز ونحو ذلك . وكذلك يقمن بجميع أعمال الزراعة ، ولا يشترك فيها معهن سوى الأحداث من الأولاد والبنات . . ومع ذلك فإن بعض قبائل دنكاريك تفى بحر الغزال يقوم رجالهم بنصيب كبير فى الميدان الزراعى .

وعندما يقترب الطفل من العاشرة تُخلع قواطعه السفلى ، وهي عادة رأيناها عند البارئ تتم في سن السادسة عشرة ، وتكون مظهراً لتنشئة الصبي وانتقاله إلى مرحلة الفتوة . . ولكن عند الدنكا ليس لخلع الثنايا أى معنى خاص فى نمو الطفل ، ولا تقام من أجل ذلك حفلة ولا تدل على بلوغ الصبي مرحلة خاصة من العمر ، وذلك بخلاف الوشم الذى يعمل فى الجهة الذى يكون فى سن المراهقة فإنه يدل على بدء مراحل الفتوة والدخول فى أول طبقات السن . . هذا الوشم عبارة عن سطرين أو ثلاثة من الندوب : أى فى شكل نقط : وهذه الندوب هى آثار جروح تعمل بسن الرمح ولا يسمح لها أن تلتئم بسرعة ، لكى يظل أثرها فى الجهة ومن حول الرأس واضحاً دائماً . . هذه هى العملية الأساسية للتأهيل أو التنشئة Initiation عند الدنكا .

ويصحب هذه العملية أن يمتحن الشباب امتحاناً خاصاً ، فترسل المجموعة التى يراد تنشئتها فى سن ١٥ أو ١٦ سنة إلى منطقة المستنقعات حيث يعيشون نحو شهر فى العراء أو فى حفر يحفرونها ، ويحصلون على قوتهم بأنفسهم ، ويتكبدون المشقات ، ويدللون الصعوبات التى تصادفهم بأنفسهم ، وعند انتهاء الشهر يعودون إلى القرية فتحلق رءوسهم ، ويتبرع والد كل فتى بما تجود به نفسه لفتاه : وأكثرهم يعطى ابنه ثوراً وزورقاً ورمحاً وحرية للصيد ، وأخرى لصيد فرس البحر ، وشباكاً لصيد السمك ، وحلية مما يلبس على الذراع ، من أسلاك نحاسية أو إسورة مستطيلة ، والأب الغنى ربما منح ابنه بقرة أو بقرتين .

وعند عودتهم إلى القرية يكون الشباب قد اختاروا واحداً منهم لقيادتهم تبعاً لما آتسوا فيه من الشهامة والكفاية فى أثناء الإقامة فى المستنقعات . ووالد هذا الشاب هو الذى يحبى الحفلة للفريق عند عودتهم إلى القرية ، ويقدم جميع الذبائح اللازمة من الضأن . وفى هذه الحفلة يشترك هؤلاء الشبان للمرة الأولى فى الرقص ، وينتقلون بعد ذلك من قرية إلى قرية فى طابور مفرد وراء قائدهم

ويستطيعون منذ الآن أن يتحدثوا إلى الفتيات ، وبالتدريج يسمح لهم بالاشتراك في بعض المعارك إذا دارت رحى حرب .

وبذلك يدخل الأولاد أولى مراتب السن . وعدد هذه المراتب يختلف من مكان إلى مكان . وهي في العادة حوالى ست :

١ - من نحو الخامسة عشرة إلى العشرين .

٢ - ومن ٢١ إلى ٢٦ .

٣ - ثم إلى الثانية والثلاثين .

٤ - ثم إلى الأربعين .

٥ - ثم إلى السابعة والأربعين .

٦ - ثم إلى ما يتجاوز تلك السن ويدخل الرجل في مرحلة الكهولة والشيخوخة .

والاشتراك في حرب أو قتال لا يكون إلا للمراتب الثلاث الأولى .

نظام الوراثة .

إن نظام الوراثة عند الدنكا فيه بعض التعقيد . عني أن المهم فيه أن الوراثة تنتقل إلى الأبناء الذكور بعد وفاة أبيهم طبقاً للنظام الأبوى المتبع . ولكن كثيراً ما يبادر الوالد ، دون أن يترك الأمر إلى ما بعد وفاته ، فيتصرف في جزء كبير من قطعانه ، فقد جرت العادة أن يهب رب الأسرة لكل من زوجاته عدداً من البقر من آن لآن بمناسبة أو بدون مناسبة . والزوجة الأولى (أو الزوجة الكبرى) Ting xit لها دائماً نصيب أكبر من التي تليها . وكلما ولدت زوجته طفلاً منحت بقرة أخرى أو أكثر . ولأبناء الزوجة الكبرى نصيب أوفر من أبناء غيرها . وربما وهب الرجل صهره بعض الماشية عندما ينتقل بزوجه إلى بيته الخاص .

وهناك نظام خاص للابن الأصغر : ويسمى كون Kun فهذا الطفل لا يرث شيئاً عن أبيه ، ولكنه يرث كل شيء تملكه أمه . وهو الذى يتولى

رعايتها وحمايتها بعد وفاة أبيه . وهذا الترتيب له فائدة عملية واضحة . ذلك أن الأبناء الكبار يكونون وقت وفاة أبيهم قد تزوجوا ، وأصبح لهم كيانهم الخاص ، ومشاكلهم الخاصة . أما الصغير ، فلا يزال يعيش في كنف أبيه ، وعليه أن يرعى شئون أمه بحيث نظل هي ربة المنزل ، حتى بعد أن يتزوج نجلها الصغير .

وعلى الرغم من أن النظام الاجتماعي والاقتصادي عند الدنكا قوامه « الملكية » . وعلى الرغم من أن الأب يعد هو المالك للقطيع ، فإنه لا يستطيع التصرف فيه كما يشاء ، فلا يستطيع أن يهبه أو يبيعه ، بل يتصرف فيه فقط طبقاً للنواميس والنظم المتعارف عليها .

الديانة .

لا شك أن النيليين بعامة - والدنكا والنوير بخاصة - هم من أشد الناس تديناً ، بل يذهب سلجمان إلى أبعد من هذا فيقرر أنهم أكثر شعوب السودان تديناً ، ولعله يعنى السودان الجنوبي . ولا يحدث حادث خارق للعادة أو مخالف للمألوف ، إلا كان مدعاة لإقامة الشعائر وتقديم القرابين . فولادة التوائم سبق وصفها ، وأى ظاهرة سماوية غير مألوفة ، مثل سقوط شهاب من السماء أو ظهور مذنّب أو نحو ذلك ، يبعث في النفوس الرهبة والخشية ، ويفزع الناس إلى الإله الأكبر ، بالدعوات والصلوات والقرابين . ويضرب بعض الكتاب مثالا لذلك أن أحد الناس رأى في حقله قرعة عسلية ، ذات حجم كبير جداً . فآمن بأن هذا من صنع الأرواح . ولم يكن بد من تقريب رأس من الماعز ، وأن يسيل دمها على تلك القرعة ، قبل أن تقطع وتؤكل . ويقال أيضاً إن بعض الدنكا فزعوا عندما رأوا الطائرات للمرة الأولى ، وروى أحد الحكام أن خمسين رأساً من الفحول قد ذبحت بهذه المناسبة .

والإله الأكبر عند الدنكا هو نهياك السابق ذكره . وهو لفظ معناه « العلى الأعلى الذى مسكنه في السماء » . هو الذى خلق الكون ونظمه ، وهو

الذى يرسل السحاب من السماء . ويقول لينهت في كتابه عن ديانة الدنكا أنهم ربما استخدموا كلمة نهياك أحياناً كما نستعمل كلمة الإله أو الرب ، عند المسيحيين . ولكنهم يستعملون اللفظ بحيث تكون له مدلولات أخرى ، على كل حال إن نهياك عند الدنكا هو الإله الأكبر المهيمن على الأمور العظيمة .

وهناك قوة أخرى ، أشد اتصالاً بالحياة العادية وهذه القوة تدعى جوك أو أرواح الأجداد مجتمعة . . . وكثير من الدنكا يبدأون ابتهالاتهم بعبارة أى نهياك ويا أرواح السلف . وهذا الترتيب له مغزاه لأنه لا شك أن نهياك أعلى مقاماً من روح السلف . . . ومع ذلك ففي المعاملات اليومية ، والأمور العادية يلجأ الدنكا إلى جوك .

وهناك روح أو إله آخر يدعى دنج ديت Deng-Dit ومعناه المطر العظيم . وهذا الإله أيضاً يحتل مكاناً ثانوياً بالنسبة لنهياك ، ولكنه مع ذلك متصل به ، ويرى بعض الكتاب أنهم فهموا أن دنج ديت فرع أو منولد من نهياك . ويبدو أن كثيراً من الدنكا يختلفون في نظرتهم إلى دنج ديت ، فبعض القبائل مثل دنكا جنوك Gnoc في بحر الغزال يزعمون أنه ليس له أول ولا آخر ، ومعنى هذا أنه ليس لديهم عنه معلومات وافية ؛ ودنكا نيل Niel في النيل الأبيض ، يجعلون منه كائناً قريباً من الناس ، وأنه كان يوماً على الأرض بحكم قبيلته . . . وذلك يدعو إلى الظن بأنهم يعتقدون أنه بمثابة الجد الأول للدنكا ، وهذا مشابه لاعتقاد الشلك في نيا كننج ، وإن كان أمره أقل وضوحاً من نيا كننج .

وتقدم القرابين في هياكل ، أو أكواخ عبادة shrines ؛ وهى مبعثرة في جميع مواطن الدنكا . ويقول سلججان إن لكل قبيلة دنكاوية هيكلاً من هذا النوع ، وهو خاص بالطقوس الهامة . والحفلات الخطيرة . . . وعنده تقام حفلة المطر الرئيسية ، وهو في العادة قريب من بيت الزعيم ، وتقام فيه حفلة الحصاد ، وحفلة تلشين البن الجديد .

ولا يكاد يختلف مظهر هذا الهيكل عن الكوخ الدنكاوى المألوف ،
ويكون أمامه عادة نصب ؛ وهو عبارة عن جذع شجرة صغير ، أو فرع
كبير متشعب .

ويصف سلجيان أحد هذه الهياكل - وهو على حدود النوير والدنكا -
ويتألف من ثلاثة أكواخ (قوطيات) متلاصقة ، أحدها خاص بدنيج ديت ،
بابه مقفل دائماً ، لا يدخله إلا السدنة المختصون . ومع ذلك ربما سمح للرجل
الذى جاء ليقدم قرباناً ، طمعاً فى النسل ، أن يدخل ليتبرك ، ويدعو لتحقيق
أمنيته ، وفى هذه الحالة يدخل الكوخ وعن يمينه ويساره واحد من السدنة .
ولا يجوز أن يقرب القربان إلا بعد أن يأذن دنيج ديت . ويجىء الإذن عن طريق
الحارس الأول للهيكل . . . ويظل الطالب فى الانتظار ولو لبضعة أيام حتى
يأتى الإذن بالذبح ، ومن النادر جداً أن يرفض الطلب . وإلا كان ذلك نذيراً
بكارثة تحل بصاحبه . وتضحى الذبيحة بوساطة رمح خاص محتفظ به
لهذا الغرض .

ومن العادات المتبعة أن يمسح جسم صاحب الحاجة بمزيج من الزيت
والتراب المقدس ، وربما أعطى حربة أو شيئاً من هذا القبيل علامة الرضا .
وربما قلم صاحب الحاجة بعض التبغ يلقي به على كومة الرماد المتراكمة أمام
الهيكل . . . وهذا الرماد يتراكم بسبب الطبخ المستمر لقطع من القرايين . وهو
يصبح كوماً مقدساً تلقى عليه محتويات المعدة والأحشاء بعد ذبح الماشية . .
وتحتوى هذه الهياكل على أدوات متعددة من حراب وجرار وورق ، ويقال
إن لدى دنكا أجار كراسى صغيرة من النحاس الأحمر والأصفر ، مما أتى
به دنيج ديت يوم كان يسكن اللويك (الكوخ) . أى يسكنه مادياً ، وبالطبع
هو لا يزال يسكنه روحياً .

ويرى الأستاذ سلجيان أن هذه الرماح ذات صلة بصنع المطر
وبعضها لا يستخدمه ولا يمسسه أحد سوى البين بيت . وهى تمتاز ببعض
الخصائص ، فهى من حديد جيد . وحول القناة أحياناً حلق من الحديد

بالقرب من النصل ، وهى بوجه عام أثقن صنعة من غيرها . ويقال فى ذلك إن دنج ديت تراءى فى المنام لبعض الزعماء ؛ وأمره أن يبحث عن أحسن رمح ويضعه فى الهيكل . وهذه الرماح تتجدد من آن لآن بوحي من دنج ديت وربما حدث هذا التجديد فى كل عشر سنوات . والرمح الجديد تذبح به شاه بيضاء ، ويؤكل لحمها بوساطة بعض العجائز والشيوخ من أقارب البين ، ويترك دمها على الرمح ثلاثة أيام ، ثم يغسل ويزيت ويحفظ ، وتلقى عظام الذبيحة سليمة فى النهر .

ومما يبعث على الظن بأن دنج ديت له صلة بنشأة القبيلة ، وتأسيسها ، ما يروى من أن قبيلة سيك تتحدث عنه أن له أولاداً يسمون أولاد دنج ديت وهؤلاء حلت فيهم روح . . ويعتبر هؤلاء المؤسسين لكثير من العشائر .

وبدیهى أن علاقة دنج ديت بالمطر قوية ، ولذلك يتحتم على كل رب أسرة فى أول موسم المطر أن يضحى بشاة ويقدم الشكر لواهب المطر . وهنا أيضاً لا بد من إبقاء عظام الشاة سليمة ، وإلقائها فى النهر .

* * *

والدنكا يعتقدون أن للإنسان روحاً : تيب Tiep أو آتيب Atiep : وهى تفارق الجسد عند الوفاة : وتظل هائمة حول الدار ، حتى تقرب لها القرابين ، وتم حفلات الوفاة ، ولا بد لنا أن نميز بين الروح هذه وبين (جوك) روح السلف ؛ لأن الأولى لا يكون لها ذكر وخطر إلا بعد الوفاة مباشرة وأما بعد مدة فيقل خطرهما ، وبالتدريج تندمج فى جوك ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منه .

والجوك عبارة عن مجموعة أرواح السلف مجتمعة .. وهذه ربما غضبت إذا أهمل أمرها ونسى ذكرها ، فترسل العلل والأمراض ، ولكنها فى الأغلب قوة نافعة تعطف على القبيلة وترعاها وتحميها . وكل دنكاوى مخلص لذكرى السلف ويحس دائماً أنها تحميه وتصاحبه فى أوقات الشدة ، وتشده ساعده إذا

طعن فريسة ، أو اصطاد فرس البحر . وكثيراً ما يفرع إليها ويستغيث بها .

* * *

وهناك طائفة خاصة من الناس توصف بأن لها هبة الاتصال بالأرواح أو يحل بجسم الواحد منها بعض الأرواح سواء أكانت روح من توفي حديثاً Tiep أم روح السلف (جوك) هؤلاء الناس يسمى الواحد منهم تيت Tiet (سواء أكان رجلاً أم امرأة) وتكاد الوظيفة أن تكون وراثية . فعندما يحس الرجل اقتراب الوفاة يقول عن أحد أقاربه إن الروح ستحل في جسد هذا القريب . وآية ذلك نوبة ارتعاش أو إغماء تعتريه ، دليلاً على حلول الروح فيه

بعض هؤلاء الوسطاء لا ينظر إليهم نظرة تقدير ، بل يختلف النظر إليهم حسب مقامهم ومقدرتهم ، وشخصيتهم . والظاهر أن مركزهم الاجتماعي له بعض الأثر في نظر الناس إليهم . إلى جانب ما رزقوا من قوة الشخصية . فإذا كان التيت فرداً عادياً ليس من الرؤساء أو ذوى اليسار ، أو ينتمى إلى أسرة زعماء المطر ، فلا بد أن تكون له شخصية قوية لكى يثق به الناس ، ويخضعوا لأوامره . وسلجيان يصف لنا ثلاثة من هؤلاء الكهنة : أولهم امرأة ، ليست بذات خطر ، وكانت تعيش في بلدة مالك (من دنكا كبرو) . ويتحدث الدنكا عنها صراحة أنها لا أهمية لها . والمثال الثانى رجل يدعى لوال : من بلدة جوالا بالقرب من بور وهو من النوع الوسط ، يطاع أحياناً ، ويعصى أحياناً : وإذا ترتب على عصيان أوامره نتائج سيئة أظهر الناس الندم وعادوا إلى استشارته وامثال أوامره .

والمثال الثالث عند سلجيان شخص يدعى وال من دنكا علياب . وفى سنة ١٩١٠ عند ما زاره سلجيان كان يتمتع بنفوذ عظيم ، ليس مقصوراً على قبيلته ، بل كان بعض البارى والنوير يلجأون إليه فى الشدائد والملمات . ورواية سلجيان تفيد أن هذا الرجل استمد نفوذه الواسع من ثلاثة أمور : أولها شخصيته ، فإن حديثه مع سلجيان يدل على مستوى من الفهم فوق

المتوسط ؛ ويبدو أنه - فوق ذلك - شاعر يؤلف الأناشيد . ثانياً مركزه الاجتماعي ، لأنه كان يطلق عليه اسم زعيم (بين) . وإن لم يكن من كبار الزعماء فإنه على الأقل زعيم قريته . ثالثاً بعض المصادفات فقد لاحظ الناس أن كل من يخالفه أو يشاكره تحل به كارثة من الكوارث بعد زمن وجيز . وهكذا اجتمعت ظروف مختلفة لتجعل من هذا التبت شخصية روحية ممتازة . تتمتع بشهرة واسعة .

هؤلاء التبت هم كهنة القبيلة ، الذين يلجأ إليهم للتوسط في شفاء المرضى ، ومعالجة العاقر . ورفع الوباء عن الناس والماشية . فهم الوسطاء بين الناس من جهة وبين الجواك والدنج ديت من جهة أخرى ، وقد يلجأ إليهم في بعض الحالات الشاذة ، مثل الزواج عن جهل بين المحارم ، ونحو ذلك .

* * *

ولروح السلف تبنى هياكل خاصة : ويقسمها سلجمان إلى قسمين : الأول هيكل يحتوى قبر زعيم من الزعماء . وهذا النوع في الغالب من القبور القديمة ؛ ومن النادر جداً أن تعمل قبور حديثة في هيكل ، اللهم إلا لعظيم ممتاز جداً . وهذه القبور القديمة يبنى فوق كل منها كوخ .

والنوع الثاني هو الهيكل الذى يقام بناء على إشارة أو وحي من أرواح السلف ، الذى يترأى في المنام لبعض الكهنة ، ويأمر بإقامة نصب . وفي هذه الحالة لا يشترط أن يكون فيه قبر . ومن هذا القبيل ما يروى من أن آپوت Apuot زعيم السمك في قرية مالك . مرضت أطفاله ، فرأى أحد الكهنة في المنام روح السلف ، فأمره بإقامة مذبح shrine وهو يتألف من جذع شجرة ذات أفرع بعد تقطيع الأغصان . . فترك على هذا المذبح العظام الجافة لبعض القرابين وكذا عظام الجرثى (فرس البحر) ، وبعض القرع ونحو ذلك . وطلب الكاهن من الزعيم أن يقرب عزراً سميناً ، وأن يعد النصب . ثم حفرت

حفرة ، ووضعت الدماء ومحتويات الأحشاء فى داخل الحفرة . ووضع فيها
النصب وملئت الحفرة بالتراب . . وأكل اللحم ، أما العظام فتركت سليمة
حول النصب لمدة شهر ، وألقيت كلها فى النهر ما عدا الجمجمة وأجزاء من
العمود الفقرى . وهذه تركت عند قاعدة النصب . وأعطى الجلد للكاهن . .
وصاح الزعيم عند تقديم القربان : « أى جدى العظيم لقد قدمت إليك
قرباناً ، فاقبله ولا تدع أطفالى يمرضون بعد ذلك ! » .

* * *

وفى عدا الأحوال الخاصة التى تقدم فيها القربان ، على النحو المذكور ،
هنالك ظروف أو مواسم سنوية فى أول المطر أو أوان الزراعة أو الحصاد ،
أو لحماية الماشية أو نجاح الزراعة ووفرة الغلة . . فى كل هذه المناسبات تقام
الحفلات الدينية ، وتذبح القربان ، فتؤكل اللحوم وترمى العظام سليمة فى
النهر . وربما ترك بعض اللحم فى قدره ليلاً ، كأنه نصيب الأرواح . وفى
الصباح التالى يلقى بها حول النصب أو الكوخ .

وهناك حالة واحدة ، خاصة ببعض القبائل أو العشائر ، وهى التضحية
لسكان النهر وذلك عندما تنتقل الجماعات إلى حافة النهر فى موسم الجفاف ؛
فتذبح شاة قبل شروق الشمس ويترك دمها ليجرى فى النهر ، وبعد أن تفارقها
الروح يلقى بها فى النهر . وهذا من الأحوال القليلة جداً التى تلقى فيها الفريسة
فى النهر ، كذلك التضحية للغابة لحماية المحاربين .

* * *

والدنكا يعتقدون فى البركة واللعنة : بركة الوالد لأبنائه ، أو بركة
الكاهن ، أو أى شخص ذى نفوذ معترف به . وكل ما يصدر عنهم من لعنة
على عدو أو آثم . . وقد يكون منح البركة بالبصق ، فيقوم الشخص الذى
يمنح البركة بالبصق على رأس الطفل ؛ ثم يبصق على كفية ويمسح بهما رأس

الصبي وصدره وظهره ؛ ثم يمسح الجسم بالتراب الناعم ، وينفخ في أنفه وأذنيه .

واللعنة يصبها الشخص على بعض أقاربه أو غيرهم إذا أخطأوا في حقه ، أو نالوه بسوء . فاذا أصابتهم اللعنة بشر ، لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا من اللاعن ، أن يصفح عنهم ويغفر لهم ، فيبادر بتقريب قربان ، ويقوم ببعض الطقوس . راجياً لهم العفو والمغفرة .

كذلك يعتقد الدنكا كغيرهم من النيليين والنيليين الحاميين في شيء يشبه الحسد Kwan وهذا ما يشير كثيراً من النزاع والشقاق ، إذا تعرض أحدهم لسوء ، وهو يظن أنه يرجع إلى حسد صادر من شخص بعينه .

والدنكا طرق مختلفة لتأدية القسم ، أشهرها أن يلحق مطرقة الحداد ثم يقسم ، أو يلحق أسورة الحديد التي يلبسها على معصمه ، ودنكا أجار ، يمرون بيدهم فوق رءوسهم ، ويقولون : ليقم ربحي هذا على قبري ، إذا كنت ارتكبت هذا الأمر أو ذاك (إشارة إلى عاداتهم أن ينصب الرمح على قبر الميت سبعة أيام بعد وفاته) . ولكن أغلظ الإيمان بلا شك هو القسم على هيكل دنج ديت . . .

لقد أطلنا الحديث نوعاً عن ديانة « الدنكا » ، لأنها من الموضوعات التي درست كثيراً ، ومن المفيد أن يلم القارئ بشيء من التفصيل ولو بمثال واحد للعقائد والاعتبارات الروحية لشعب إفريقي . وكثير من الدنكا في الشمال ، وبعض الجنوب اعتنق الإسلام ، وكذلك ذهب التبشير إلى ديار الدنكا ، بمذاهب مسيحية متعددة .

* * *

والأمر الهام الذي يهديننا إليه البحث . أن الدنكاوى شخص متدين ،

ويحس دائماً بالاعتبارات الروحية في كل لحظة وفي جميع مناحي الحياة
ويلتمس التفسير الروحي دائماً لكل ظاهرة^(١).

(١) أهم المراجع عن الدينكا كتاب سلجمان وزوجته Pagan Tribes in the Nilotic Sudan, 1932 وكذلك مقالة الأستاذ إبراهيم البدرى Notes on Dinka Religion The Western Dinka : Sudan Notes and Beliefs, S.N.R. 1939 ومقا . G. Lienhardt, Records, 1938 : Morrison, Stubbs وبوجه خاص كتاب Divinity and Experience, The Religion of the Dinka, 1961 .

الفصل الثامن

السلالات النيلية

— ٢ —

الشلك

تكلمنا في الفصل السابق عن الدنكا . : وعددهم يقرب من المليون نسمة . . ونظراً لأهمية النيلين في وادى النيل ، يجمل بنا أن نتناول بالدرس شعباً نيلياً آخر وهو الشلك . . لا يكاد عدد الشلك أن يزيد على ٨٠ أو ١٠٠ ألف نسمة . ومع ذلك فإن لهم في المجموعة النيلية مكاناً ممتازاً وذلك لأنهم يكونون شعباً متميزاً قائماً بذاته : لا ينقسم إلى قبائل ، وأوطانه مندمجة متلاصقة . . بحيث تكون وحدة سياسية واجتماعية وثقافية .

هذه الأوطان تمتد من شمال قرية كاكا على الضفة الغربية للنيل الأبيض عند خط العرض الحادى عشر الشمالى . . إلى قرب بحيرة نو . . هذه هى الأوطان الرئيسية للشلك ، ممتدة على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل الأبيض . أما على الضفة اليمنى ، التى يحتل معظمها الدنكا إلى العرض الثانى عشر . فان للشلك هناك موطن محدود . وربما كان هذا الجزء من وطنهم فى وقت من الأوقات أعظم مما هو الآن ، حسب بعض الروايات ، التى زعمت فى شىء من الإسراف أن الشلك قد انتشروا انتشاراً واسعاً وفتحوا فتوحاً فى الجزيرة . على كل حال أن هذا الوطن الشرقى قد انكمش : بحيث أصبح عبارة عن مساحة تبدأ من شمال ملكال بقليل ، إلى الشرق من حلة دوليب بقليل :

وهكذا نجد أن من أهم ميزات الوطن الشلكاوى اندماجه من جهة . وملازمته لنهر النيل من جهة أخرى . وليس هنالك جزء من بلاد الشلك يبعد كثيراً عن النيل . ومعظمها مما يمكن للشخص أن يذهب إلى النهر ويمكث عنده لقضاء أى عمل يهده ، ثم يعود إلى بيته فى نفس اليوم : وليس فى نهر النيل فى هذا الإقليم عقبات أو صعوبات تحول دون اجتيازه ، والتيار معتدل السرعة حتى فى أوان الفيضان . ولذلك يعبره الشلك بسهولة بزوارقهم الصغيرة ، التى تتألف أحياناً من جذع نخلة دوم حفرت بعناية فى شكل الزورق - ويمكن أن تحمل اثنين - أو من حزمة من العمبج أو الطرور ، تربط بإحكام بحيث تكون الأجزاء الرفيعة منها مقدمة الزورق ، والأجزاء الغليظة تكون الآخرة . ولا يزيد طول الزورق عادة على مترين . ولا يكاد يحمل أكثر من شخص واحد .

هذا القطر الذى يعيش فيه الشلك يشتمل على بعض البلدان مثل كاك وكودك وتنجا وفاشوده . وهذه الأخيرة هى المركز الدينى والوطنى . . . وكانت فاشوده هى عاصمة الشلك ، ومركز الحكم الوطنى . . . وقد التقى عندها فى أواخر القرن التاسع عشر المغامر الشاب الفرنسى مرشان . آتياً من الشرق يريد أن يحتل هذا الإقليم باسم فرنسا . وحضر كتشنر وهو سردار الجيش المصرى . ورفع الراية المصرية ذات اللون الأحمر والهلل ، التى كانت شعاراً لكل الدولة العثمانية . وكادت الحادثة تؤدى إلى سوء تفاهم أليم بين الدولتين الغربيتين . ولكن انفرجت الأزمة برجوع الضابط الفرنسى ، وعدوله عن هذه المغامرة . . . ويقال أن حادثة فاشوده ، أدت إلى اهتمام حكومة السودان بتركيز الحكم الإدارى لشعب الشلك فى بلدة كودك القريبة . وبقيت فاشوده مركزاً دينياً . أما كودك فهى مركز الإدارة والتجارة ، وفيها المفتش والمأمور وغير ذلك من مستلزمات الحكم . وبلدة كودك مبنية بعيداً نوعاً عن النهر ، وأكثر مساكنها من القوطيات ، وذلك لسهولة البناء وملاءمته . ولكننا نجد فيها شوارع ومنازل متجاورة . وأبنية بالآجر ، وبخاصة المباني

العامّة ، وفي مثل هذه البلدان نجد كثيراً من « الأجانب » من عرب الشمال ، وبعض اليونان والمصريين والأرمن .

أما ملكال فإنها إذا كانت يوماً ما بلدة شلكاوية فإنها تطورت كثيراً منذ صارت عاصمة لمديرية ، ومركزاً للبحوث المائية ، ومحطة للطيران . وتنوع سكانها تبعاً لذلك وتكاثروا .

وهذه المراكز المتنوعة ، وإن قدمت للشلك بعض الخدمات . ليست من صميم الحياة الأصلية لشعب الشلك ، وإنما هي من مستحدثات العصر الحديث أما قرى الشلك الحقيقية ، فمؤلفة من منازل يحتوى كل منها على قوطيتين أو أكثر ، وهي ليست مرصوفة متلاصقة ، بل يحيط بكل منزل حقوله ، التي يزرعها ، وهي منتشرة في طول البلاد من أولها إلى آخرها ، ولا تكاد تخلو منها بقعة .

والحقول المزروعة هي المظهر السائد في ديار الشلك ، لأن عهد الرعى والانصراف إلى الرعى انتهى . . لقد كان الشلك رعاة ، ولا حرفة لهم إلا الرعى . وهذا زمان مضى وانقضى . . دعا لزواله في هذا الوطن المحدود تعرضه للغارات خلاف الأمراض والأوبئة .

فأصبح الرعى يمثل مكاناً ثانوياً ، في الوقت الحاضر ، وإن كان له مكانه المحترم بين الناس . ولا يشتغل به من السكان إلا عدد من الشباب . وليسوا في حاجة إلى معسكرات بعيدة في فصل الجفاف . إذ يتوفر الماء والمرعى في الأنحوار والأودية والجزر النهرية .

وهكذا قضت الظروف على الشلك أن يكونوا زراعاً ، بل أن يزرعوا أصنافاً لا تهمهم مثل القطن ، لكي يدفعوا به ضرائب الدولة ، ويشترخوا به بعض حاجاتهم . ولذلك يلازمون أوطانهم السنة كلها ، وليس لهم رحلات في موسم من المواسم طلباً للكلا .

وفيما يلي بيان عن ترتيب المساكن والقرى في ديار الشلك :

١ - المنزل : ويسمى بلغة الشلك جول GOL وهو ما يدعوه الإنجليز Homestead

هذا هو أصغر الوحدات للسكنى بما يلائم الحياة الريفية . وهو عبارة عن كوخين أو ثلاثة يحيط بها سياج وبجواره قطعة من الأرض . هذا هو منزل أسرة واحدة تتألف من زوج وزوجة أو أكثر والأبناء والبنات ، وقد يؤوى الرجل في منزله أحد أقاربه أو قريباته للضرورة . ولكن الأصل في المنزل أن يكون للأسرة بمعناها الضيق . والزوج الوالد هو رب الدار ، والمتصرف والمسئول . وهو الذى يملك الماشية ، ويسأل عن سلوك أبنائه . ولا بد لرب الدار أن يكون متزوجاً ، أما الفتى غير المتزوج فيعيش في كنف أبيه ، أو - في حالة وفاة الأب - في كنف عمه أو أخيه الأكبر المتزوج .

٢ - الحلة أو الكفر PAC :

من عدة منازل يتألف الكفر . وهو ما يسميه الإنجليز Hamlet وقد يكبر الكفر أو يصغر حسب عدد المنازل التى يتألف منها . هذه المنازل موزعة حول فضاء أو ساحة وسطها زربية معرشة (كأنها كوخ كبير) تأوى إليها في المطر مواشى الكفر . وهذا الفضاء هو مركز الحفلات والنشاط المشترك لسكان الكفر وضيوفهم . . وسكان الكفر عبارة عن أسر تجمعها أواصر القرابة .

٣ - بلد أو مركز Podh :

ومن عدة كفور (عشرة أو أكثر) يتألف ما نسميه - على سبيل التجاوز - بلداً أو مركزاً ، لأنها ليس لها نظير في بلاد أخرى . ويسمى الشلك بند Podh وقد سماها الإنجليز Settlement ، وهى تتألف من عدة كفور قد تكون مختلفة الأنساب . وفي بعض الأحيان نرى المراكز تتدخل حدودها بعضها في بعض . فهناك بضع مئات من اوحداث في القطر . والواحدة لا تكاد تنفصل عن جاراتها ، فالمراكز تكاد تكون أقساماً جغرافية : ودرجة ما اجتماعية أيضاً ، ويعرف السكان جميعاً مركزهم الذى ينتمون

إليه . ولهم فيه أحياناً نشاط مشترك في حفلات تقام أو ما شابه ذلك . ولكل مركز شبه زعيم معترف برياسته للمركز .

ويقال إن نياكانج (مؤسس دولة الشلك ، وجدهم الأول) عند احتلال البلاد وزع العشائر في كل مركز من المراكز . وهؤلاء تملكوا الأرض وأصبح لهم الحق الأول فيها . ثم انضم إليهم مهاجرون نزلوا في مختلف المراكز . وصار لهم فيها مكان ثانوى . . والأوائل يدعون ديل Dyl والآخرون هم الويد Wedh والعلاقة بينهما ليست علاقة الخاصة بالعامّة أو السادة بالمسودين . ولكن الانتماء إلى الجماعة الأولى ينطوى على شعور بشيء من الفخر والأهمية .

ومن هؤلاء الديل يختار عادة الجاجو Jago أو رئيس المركز . ومع ذلك فمن الجائز أن أسرة من الأسر غير العريقة قد يشتد بأسها ويزداد عددها ، فيعين زعيمها لرياسة المركز . ولكن يبقى دائماً للعريق الحسب مقامه الاجتماعى ، وتصلره في القيام بالشعائر الدينية .

في هذه الوحدة المركزية عناصر ضعف وعناصر قوة . فمن عناصر الضعف فيها أن الناس لتعدد عشائرتهم . قد يكون ولاؤهم الأول لعشيرتهم ، ثم لزعيم المركز في المكان الثانى . فإذا كان رئيس المركز ضعيف الشخصية ، كان ذلك سبباً في الشقاق وتفرق الكلمة .

ومن عناصر القوة أن موسم المطر الطويل ، يجعل كل مركز في شبه عزلة ، فيستقل بشئونه ، ويتعاون السكان فيه بما تفرضه عليهم الظروف إلى أن تيسر المواصلات مع المركز الرئيسى .

ومن عناصر القوة أيضاً ما يحدث من التزاوج بين العشائر العريقة الحسب والحديثة النسب . ونظراً لأن القرابة تحسب في كثير من الأحوال عن طريق الأم ، فيتبع الطفل عشيرة أمه ، ويكون لهذا أثره الطيب في إزالة الحزازات بين العشائر . ولكن أهم ضمان لوحدة المركز ورخائه ، الزعيم القوى العاقل . . وهذا ما يدعو الشلك للاهتمام باختياره .

هذه المراكز هي الوحدات الأساسية ، أو الخلايا التي يتألف منها المجتمع أما الأقسام الكبيرة في البلاد ، فإن هنالك إلى جانب التقسيم إلى مراكز ، أقساماً أخرى يشتمل كل منها على عدد من المراكز . . . ولإيضاح هذه النقطة نذكر أن بلاد الشلك كلها تنقسم إلى مديريتين :

الأولى هي المديرية الشمالية ، وتسمى جر Gerr . . . وتنقسم إلى ستة أقسام : وسنورد هذه الأقسام مكتوبة باللغة العربية والإفريقية .

١ - مومو	Muemo	٢ - دلال أجاك	Delal-Ajak
٣ - أتودوى	Atodwoi	٤ - دتوك	Detwok
٥ - جلباني	Golbany	٦ - فاشوده	Fashoda

ثانياً - المديرية الثانية : لواك Luak وأقسامها خمسة وهي من الشمال للجنوب .

١ - واو	Wau	٢ - ملاكال	Malakal
٣ - ديم	Detim	٤ - فانيكانج	Fanyikang
٥ - تنج	Tung		

فبلاد الشلك عبارة عن مملكة تنقسم إلى مديريتين . . . وكل مديرية مقسمة إلى وحدات . وكل وحدة مقسمة إلى مراكز عديدة .

ويقال إن هذه الأقسام من صنع نياكانج نفسه . ولكن لم يكن لها خطر كبير في الأزمنة الأخيرة من الوجهة السياسية ، وإن يكن هنالك تقاليد ماثورة تفيد أنه إذا جد الجد فإن هذه الأقسام تتعاون معاً لدرء الخطر . والوحدات المذكورة متجاورة . وقد استغلت هذه التقسيمات في الإدارة الحديثة . أما في الأزمنة القديمة ، فكانت الوحدات لا تعمل معاً إلا في ظروف نادرة .

والوحدات الست الأولى تؤلف كما رأينا المديرية الشمالية (جر Gerr) وتؤلف الخمس الأخرى المديرية الجنوبية أو لواك . ولهذا التقسيم بعض الأهمية الدينية في الطقوس والحفلات . ولكن ليست له أهمية سياسية أو أي

مغزى إدارى . والحد بين المديريتين خور يصب فى النيل يدعى خور آرياجور . واقع إلى الجنوب من فاشوده . والزعيم الرسمى للمديرية الشمالية هو زعيم مركز جليان بالقرب من فاشوده . أما الزعيم الرسمى للمديرية الجنوبية فهو زعيم Debalo kwom ، إلى الجنوب من فاشوده . ويلاحظ أن كلا الزعيمين يعيش بالقرب من فاشوده مركز الملك . فالمركزان القريبان من فاشوده اكتسبا أهمية خاصة لقربهما من مقر الرث Reth .. وهناك أيضاً أهمية خاصة لمن يحكم آخر قسم فى الشمال فى مومو ؛ وفى آخر الجنوب فى تنجا . . . كأنهما بمثابة حراس الثغور . .

وفاشوده بالطبع هى أهم الجميع ، فهى مركز الملك نفسه وهو بلغة الشلك يدعى رث Reth .

الأقسام الاجتماعية :

أولاً : يتألف الشعب الشلكاوى من الوحدات الاجتماعية الأربع الآتية :
١ - كوارث Kwareth ، وهى عشيرة الملك نفسه ، والمفروض أنها منحدره من نسل نياكانج نفسه . الجد الأكبر الذى قاد الشعب من أوطانه الأصلية إلى أن أنزلهم بديارهم الحالية . والعشيرة موزعة فى أنحاء البلاد . ولا يتولى الملك إلا عضو منها ، بشرط أن يكون والده قد تولى الملك :

وهى تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ - الملك نفسه ، أو الرث .

٢ - نيرث : الطبقة الثانية التى تلى الأولى فى الأهمية وهى تتكون من أبناء وبنات الملك الحالى أو الملك الراحل .

٣ - نيارث : أبناء أبناء الملك ، ويكونون الطبقة الثالثة .

٤ - حفداء أبناء الملك . ويكونون الطبقة الرابعة .

ونلاحظ فى القسمين الأخيرين أنه لا ذكر للبنات فى الطبقة الثالثة والرابعة ، وذلك لأن بنات الملك لا يتزوجن . لكيلا يكون لهن من نسلهن من يزاحم فى تولى الملك .

وقد انتشرت عشيرة الرث في جميع أنحاء البلاد حتى صارت لها الأغلبية في كثير من المراكز . وتولى أفرادها زعامة المركز بفضل ما لديهم من الثروة ، بحيث يستطيعون أن يتزوجوا بكثير من الزوجات ، فتتسع عصبيتهم وتنمو : . ومن جهة أخرى ، فإن الرث نفسه إذا آن لإحدى زوجاته أن تضع مولوداً فإن التقاليد المرعية تقضى بأن ترحل الزوجة إلى أهلها في المركز الذي تنتمي إليه . وهناك تضع جنينها ، الذي ينشأ ويتربص في كنف خاله . . وقد يكون حسن الحظ ويزاحم على تولي منصب الرث . أو يغدو على كل حال شخصاً هاماً في المركز لأنه من الطبقة الثانية في العشيرة الملكية .

ثانياً : في الطبقة الثانية بعد عشيرة الملك تجيء أورورو Ororo . وهي عشيرة منفصلة عن عشيرة الملك . ولكن أصلها من العشيرة المالكة . ثم حرمت حقوقها في بعض العهود . وهذا على كل حق من حقوق الرث إذا شاء أن يحرم أى أسرة أو فرع من عشيرته . والملك يتخذ منهم دائماً بعض زوجاته ، ولا يتميز الأورورو عن سائر العشائر إلا بأن لهم دوراً خاصاً في بعض الطقوس التي لا بد من إجرائها عند تنصيب الرث الجديد أو عند وفاته .

ثالثاً : يجيء في المرتبة الثالثة بانج رث Bang Reth أو حاشية الملك وأتباعه المقربون وهم إما متطوعون للخدمة أو أسرى في الحروب أو من نسل ارتكب آباؤهم جريمة القتل . فضم الأبناء إلى الحاشية . حيث يقومون بجميع الخدمات الزراعية والمباني وكل ما يلزم للملك من خدمات . وهم لا يكونون عشيرة متصلة بالنسب ، ولا يتزوج منهم الرث لأنه يعدهم من المقربين إليه وإذا توفى الرث ذهب فريق منهم لخدمة مقبرته . ويمنحهم الرث بعض الماشية على سبيل المكافأة .

وهذه الأقسام محدودة بحكم نشأتها ووظيفتها .

رابعاً : أما القسم الرابع ويسمى كولو Kolo فهم الذين يتألف منهم معظم الشعب وعشائرتهم تبلغ نحو المائة ، وكل عشيرة منها تعد نسبها عن طريق

الأب والجد إلى بعض أتباع نياكانج ، أو إلى بعض الزعماء الذين هاجروا إلى البلاد قديماً . أو كانوا من السكان الأصليين قبل هجرة نياكانج نفسه .

التنظيم السياسى والإدارى :

أهم ما يمتاز به الشلك هو وحدة النظام السياسى ، التى تنتظم البلاد من أولها إلى آخرها ، ووجود زعامة عليا لشخص واحد مقدس هو الرث ؛ فى شخصه تتمثل المملكة والبلاد وأقسامها وكل من فيها من العشائر على اختلاف أنواعها .

وتبعاً للرواية السائدة عند الشلك ، فإن الزعيم الحالى هو الواحد والثلاثون منذ نياكانج ، ذلك الزعيم الأول الذى نظم البلاد وقاد شعب الشلك إلى هذا الوطن الجديد ، ووزع العشائر وأنزلها فى منازلها . ووضع السنن والتقاليد ، التى لا تزال مرعية إلى اليوم . وهو الذى تنتقل روحه فتسكن جسم كل رث . ولا تزال ذكره تؤلف القوة العظيمة التى تربط الشعب برباط روحى متين

والمفروض أن الرث هو الحاكم الأعلى والمتصرف فى جميع شئون البلاد والعباد ولكن سلطانه يتمثل فى سلطته الروحية . لأن السلطة الزمنية يحد منها تعذر المواصلات وبعد المسافات ، ولذلك لا بد له أن يعتمد كثيراً على حكام المراكز (جاجو) .

وقد كان الكتاب يظنون أول الأمر أن الرث يحكم الشلك حكماً مباشراً وله السلطة العليا فى البلاد . وهذا صحيح من الوجهة النظرية فقط ، أما من الوجهة العملية فإن حكم الرث يطبق تطبيقاً هيناً . والمفروض أن الرث يستطيع إذا شاء أن يتدخل فى تعيين حكام المراكز . ولكنه فى الواقع لا يفعل شيئاً من ذلك ، بل يكتفى بإقرار اختيار من يقع عليه اختيار رؤساء الكفور . وهؤلاء الجاجو هم العنصر الفعال فى إدارة شئون الشعب ، لأنهم فى موضع يمكنهم من الاتصال المباشر بالناس ، وعليهم واجبات روحية مقدسة نحو شخص

الـرث . وهذه يؤدونها دائماً عندما يذهبون إلى فاشوده . . ولا يصبح تعيين زعيم المركز نهائياً إلا بعد أن يعقد له الرث بيديه عقدة القميص : lan : ولعل هذه المرونة في النظام السياسي ، التي تأخذ بعين الاعتبار آراء زعماء الأسر وزعماء الكفور وزعماء المراكز ، لها فضل كبير في وحدة الشعب وتماسكه .

* * *

ولسنا بحاجة للتوسع في الحديث عن ديانة الشلك : فإن عناصرها الأساسية تتألف من الإيمان بالإله الواحد . ومن تمجيد وابتهاال للسلف . أما الإله الواحد فاسمه جوك Jok وهو اسم يشبه ما يطلقه الدنكا على السلف . وقد افترق أجداد الشلك عن أجداد الدنكا منذ زمن ، ونمت كل ديانة في شعبها منفصلة عن الشعب الآخر . وإذا كان الاسم واحداً ، فإن له عند الدنكا مدلول . وعند الشلك معنى آخر . وعند الشلك الإله الذى خلق العالم وبيده كل القوى والخصائص الربانية : واسمه جوك . وعندهم أنه فى السماء . ومع أنهم يبتهلون إليه أحياناً . . ولكن أكثر ما يبتهلون ويلتمسون المعاونة ويقربون الذبائح هو لروح السلف الممثلة فى روح نياكانج ، فإنه يتجهون دائماً بالصلوات والدعوات عندما يحزبهم أمر أو يحل بهم خطب .

والمفروض أن نياكانج قد جاء إلى أرض الشلك فى ظاهرة كونية أو طبيعية عنيفة ، وعندما أدركته المنية . قبض فجأة وانتقلت روحه إلى الرث الذى يليه . والمفروض أن كل رث تحل فى جسده روح نياكانج ، فجدير به أن يظل دائماً سليم الجسم والعقل حتى لا تتأذى تلك الروح الغالية التى تسكن فى ذلك الجسد . . أما إذا اعترى ذلك الجسد الإعياء ، ونالت منه العلل أو السنون ، فلا بد من إجراء ينتقل بواسطته الروح إلى جسد الرث الجديد .

هذه الظاهرة هى التى تتمثل فى نظرية « الملك المقدس » . وهى منتشرة عند عدد من الشعوب فى إفريقية وبوجه خاص عند البارى واللاتوكو والدنكا والشلك . . وكلها تنص على أن الزعيم يجب أن يقتل إذا بدا عجزه عن أداء

وظيفته . وقد حرمت السلطات بالطبع مثل هذه الوسائل وعلم الناس أن هذا مما لا ترضاه السلطة فتجنبوا ارتكابه علناً . بحيث لم يصل إلينا وصف لمشاهدة هذه الظاهرة رأى العين . وقد رأينا أن نكتفى بمعالجة هذا الموضوع بإشارة يسيرة ونحن نتكلم عن الشللك لأن « قتل الرث » موضوع أفاض فيه سلجان وزوجته ؛ ومع ذلك فمن الجائز أن هذا الأمر قد انتهى ، وغشيته سحب النسيان .

الفصل التاسع

بعض شعوب السودان الجنوبي

شعب الآزندى

لقد وصلنا فى دراستنا للسلاسل النيلية ، إلى نهاية انتشارها الشمالى عند خط عرض ١٢° . ولكننا فى تتبعنا للسلاسل المختلفة فى السودان الجنوبي تركنا بعض أقاليم لم نتحدث عنها ولا عن طبيعة سكانها ، فقد رأينا أن المدخل الجنوبي الأوسط للسودان يحتله البارى وله أوطانه فى شرق وادى النيل وفى غربه . ويلى البارى فى الشرق شعوب مثل اللاتوكا والتبوتا وأكثرهم من النيليين الحاميين . وفى الناحية الغربية من أوطان البارى نجد شعوباً تتكلم لغة البارى ، وتشبههم ثقافياً واجتماعياً . . فإذا مضينا فى اتجاهنا نحو الغرب وصلنا إلى الجزء الجنوبي من حوض بحر الغزال ، المتاخم لأعلى روافد نهر الكونغو . ها هنا نرى مساحة واسعة جداً فى السودان الجنوبي الغربى . وفى الشمال الشرقى من الكونغو . وهى تقع فى مركز وسط بالنسبة للقارة الإفريقية ، فى هضبة متوسطة الارتفاع . . وتحتلها مجموعة من الشعوب المختلفة عما كنا بصددده عند الحديث عن النيليين والنيليين الحاميين . . ومن أشهرها قبائل مورو ، وماضى وبونجو ومنديو والمكاركه والزاندى والمنجبتو ، وغيرهم . . .

وهذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الإفريقية التى انتشر فيها ذباب تسي تسي ، المسبب لمرض النوم ، وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها فى القرون الثلاثة الأخيرة ، جماعات مختلفة من أقاليم الكونغو ، وأواسط إفريقية ودارت بينها اشتباكات ومنازعات . . وأخذت جماعات تتشكل فى مختلف

الجهات ، ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفى ، تستقل ثم تندمج . . ولا تزال آثار هذا التشتت والتمزق واضحة ، بحيث يتعذر معها رسم خريطة لتوزيع الشعوب في هذا الإقليم الكبير^(١) (شكل ١٤) .

ومع ذلك ففي وسط هذه الفوضى العظيمة استطاع شعب واحد : وهو الآزندي ، أن يدمج أقطاراً عديدة ، وأن يخضعها لنظام اجتماعي وسياسي مشترك . وأن ينشر بينها لغة واحدة ، وذلك بفضل الطوائف الحاكمة في الآزندي المسماة أفنجره ، وبفضل براعتها الحربية والإدارية .

إن الشعوب التي اندمجت في الآزندي كانت كلها من المهاجرين ، الذين ملأوا هذا الإقليم وافدين إليه كما ذكرنا من أعلى الكونغو وأواسط إفريقيا . ولكن لم يكن بينهم أحد من النيليين أو النيليين الحاميين . . أو البانتو . وهؤلاء لم يؤثروا في حضارة الزاندي ولم يتأثروا بها ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض لم تكن يوماً علاقة مودة وصداقة . ولا يزال هذا الإحساس سائداً في علاقات الدنكا والآزندي ، برغم الجوار في حوض بحر الغزال .

ونظراً لاختلاف السكان هنا عن سائر جهات السودان . فمن الممكن أن نعتبر هذا الإقليم امتداداً لحوض الكونغو ثقافياً واجتماعياً . وسنكتفي في هذا الفصل بالحديث عن الآزندي . وهم على كل حال من الأهمية بحيث يفوقون جميع العناصر الأخرى مجتمعة .

والآزندي موزعون بين الكونغو ، والسودان ، وإن كان هذا الانقسام نتيجة أحوال سياسية خارجية . وكذلك هناك عدد من الآزندي في إقليم كان يدعى إفريقيا الفرنسية الاستوائية ؛ وهو الآن يدعى جمهورية وسط إفريقيا ، وأكثر الآزندي في بلاد الكونغو يدعون المانجبيتو Mangbetu وهو اسم للعشائر الحاكمة ، ويقابل اسم الأفنجره Avungara : وهي العشائر الحاكمة في الإقليم السوداني .

(١) يتضح ذلك للفارئ من مراجعة الخريطة الملحقة بكتاب

Baxter & Butt: The Azande and Related Peoples, 1953.

ولا بد لنا أن نشير إلى أن اسم الآزندى كثيراً ما يختلط باسم تلك العشائر أو باسم بعض الشعوب المندمجة في الآزندى مثل الماكركا Macarca والأصوب أن ندعوها باسم الآزاندى Azande . والشخص المفرد يدعى زاندى . لأن الألف الممدودة من علامات الجمع . ولا بد لنا أن نشير أيضاً إلى الاسم الذى أطلقه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى ، على سكان أواسط إفريقية : وهو اسم نيام نيام ، الذى اشتقت منه كلمة النمنية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعباً بذاته ، بل مجموعة سكان الإقليم الأوسط ، الذى يشمل الكونغو وأعلى النيل ، والذى اشتهر سكانه بالنمنية . وبذلك يكون إطلاق هذا الاسم على الآزندى دون غيرهم خطأ . والأوفق أن نضرب صفحاً عنه . ونكتفى بتسمية الشعوب بأسمائها .

وكان الكتاب الأوائل في القرن التاسع عشر يزعمون أن الآزندى يتجاوز عددهم مليونين من الأنفس ، وبعضهم تجاوز تقديره ثلاثة ملايين . والإقليم الذى يسكنه الآزندى معرض كما قلنا لمرض النوم . ومن الجائز أن يكون تناقص السكان راجعاً لذلك ، أو لظروف أخرى سندكرها فيما يلي . أما التقدير الحالى فأكثر تواضعاً ، وهو يجعل عدد الآزندى نحو ثلاثة أرباع مليون نفس : منهم ٥٠٠,٠٠٠ في أعلى الكونغو . و ٢٧٠,٠٠٠ في حوض بحر الغزال الأعلى ونحو ٢٠,٠٠٠ في جمهورية إفريقية الوسطى .

ومن الأمور التى لاحظها بعض الباحثين - ولها تأثيرها بلا شك في تناقص عدد السكان - أن نسبة الأطفال للأمهات في تناقص . ويعلل ذلك الأستاذ الفرنسى ليلنج بأن هذه الظاهرة نتيجة استئثار الأغنياء كبار السن بالزوجات الشابات مع تعدد الزوجات ، وانتشار مرض الزهري . وعلى الرغم من أن تجارب هذا الكاتب ترجع إلى زيارته للإقليم البلجيكي والفرنسى ، فإن هذه الظاهرة قد لوحظت في السودان أيضاً ، والآزندى هناك يعزونها إلى انتشار الرذيلة ، بسبب فقدان الشعائر القديمة . . ولعل السبب في الحالين واحد !
واللغة التى يتكلم بها الآزندى وبعض من يلوذ بهم من القبائل لغة واحدة ،

وإن تعددت لهجاتها . . . وهناك فوضى لغوية بين مجموعات صغيرة تحيط بأوطان الزاندى . وأكبر الظن أن الذين يقتبسون لغة الآزندى في ازدياد مطرد . والبعض ينتهى به الأمر إلى أن يدعى أنه آزندى . وهذا يفسر لنا أن بعض القبائل التى كان لها شأن خطير عند زيارة شوينفرت لهذه الجهات فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ قد انقرضت أو تضاعل حجمها بدرجة كبيرة .

* * *

لقد رأى سلجمان أن يميز هؤلاء الجنوبيين بأن وصفهم بأنهم مجموعة متوسطو الرءوس . . . ولا شك أن ما ذهب إليه سلجمان صحيح ، تنطق بصحته المقاييس الكثيرة التى عملت فى مختلف الجهات . . وما لاحظته شوينفرت نفسه فى أثناء إقامته بين الآزندى . وإذا ذكرنا أن كثيراً من سكان الإقليم نزحوا إليه من الكونغو ، ولعل هذه الموجات ترجع إلى زمن بعيد . فليس من الخطأ أن نقول إن هذه الموجات حملت صفات سكان الكونغو إلى أعلى الكونغو وإلى أعلى بحر الغزال ؛ فالصفات الطبيعية تختلف كثيراً عما رأيناه لدى النيلين والنيلين الحاميين .

الرأس متوسط العرض تصل النسبة الرأسية فى المتوسط إلى ٧٩ ، وهذا الرقم يشير إلى أن هناك كثيراً ممن وصفهم شوينفرت بأنهم عراض الرأس جداً ؛ النسبة الأنفية ٨٢,٥ والقامة متوسطة تبلغ ١٦٧ سم فى الرجال و ١٥٧ فى النساء . وهذه الأرقام توحى بأننا هنا إزاء سلالات امتصت كثيراً من دماء الأقزام ، فاكتمبت بذلك ارتفاع النسبة الرأسية . ومما لاحظته شوينفرت أن طول الجذع غير منسجم مع طول الأطراف السفلى . أى أن الأرجل أقصر مما ينتظر بالنسبة لطول القامة . وهذه كما أوضحنا فى الفصل الأول من أهم خصائص الأقزام . وعلى العموم يمتاز الجسم بالمثانة ومرونة العضلات ويضعهم شوينفرت فى مقدمة سكان إفريقيا ، كما أنه فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، أريد تجنيد بعض العمال من الزاندى لبعض المشروعات الدفاعية . . فأرسل لهذا الغرض ألف رجل ، لم يرفض منهم سوى ٥٪ بسبب ضعف البنية

ويرى بعض الكتاب أن الزاندى من أذكى سكان إفريقية جنوب الصحراء . ولاحظوا أن له شغفاً بأشياء عديدة ، وأكثرهم يرى أن أهم خصال الزاندى :

- ١ - النظام والاحترام .
- ٢ - الروح الحربية والنظام العسكرى .
- ٣ - مهارة فى العمل بأيديهم . وسرعة تقليدهم للأوربيين .
- ٤ - قوة الاحتمال والشجاعة .
- ٥ - مظاهر النظافة .

ومن الأمور التى يشمئز منها المراقبون : شراهة الزاندى فى تناول طعامه ، وإقباله على التهام الطعام العفن ، واللحم الفاسد ؛ ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الحيوان فى هذه الجهات قليل نادر . والماشية معدومة بسبب ذباب تسمى تسي . والحيوانات الوحيدة « الأليفة » هى الكلب ، وهو من فصيلة خاصة لا يكسوها الشعر . وبضع دجاجات هزيلة عجفاء . وهو لا يتورع عن أكل لحم الكلب . كما أنه يصيب بعض لحم الصيد ، ولكن مورد الغذاء الأكبر هو الزراعة . والزاندى مسرف فى الأكل إذا أصاب طعاماً ، يكاد يزدرد طعامه بدون مضغ . ولكنه يصبر على الحرمان إذا لم يجد طعاماً . ولا يعرف السكر ، وإن كان يعرف الجعة . . ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى ما اتهم به الآزندى من جنوحهم للنمنمية . فقد مررنا من قبل بسلاطات تعزى إليها هذه العادة . ولم نقف عند هذا الأمر طويلاً . . وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها النمنمية ، وأنها تمتد من الكونغو إلى أعلى بحر الغزال ، فإن أكبر الظن أنها لم تكن يوماً ما عادة عامة شائعة فى طول الإقليم وعرضه . وهى بلا شك لم تكن عامة فى ديار الآزندى . وكثير من السكان ينكرون أن أمراً كهذا يمارسه أحد . ولا شك أن هذا أمر لم يعرفه الاقنجرة فى أى عهد من العهود . ومهما يكن من أمر فإن الاتصال بين الشعوب ، لا بد أن قضى على هذه العادات ، فى الجهات القليلة التى كانت تمارس فيها .

ويعمارس الآزندى التدخين : ويزرعون التبغ ؛ وأحياناً في خلسة يزرعون بعض القنب وعند الآزندى كلمة خاصة في لغتهم لكلمة التبغ : بينما الشعوب المجاورة تستخدم كلمة تبغ ؛ والنساء تدخن أسوة بالرجال ، والكل يستخدم في التدخين بيبة طويلة تبلغ ثلاثة أقدام . ومعظم الدنكا يأخذ من بيته نفساً طويلاً عميقاً ، يدوخ بسببه لحظة ، ومع الحب الشديد للتدخين يزعم الزاندى أنه يدخن دفعاً للبرد والرطوبة .

وهم يخشون البرد والرطوبة . ولا شك أن الإقليم معرض لانخفاض الحرارة الشديد بالليل ، بسبب مناخه القارى ، البعيد عن الأثر الملطف للمحيطات ، البعيدة عنه بعداً شديداً .

والزاندى ينظر إلى الجماعات التى تمشى عراة نظرة ازدراء . وهم لذلك يحرقون الدنكا ؛ ومع ذلك فإن ثياب الزاندى بسيطة . والزى الأساسى عندهم قطعة من النسيج ، الذى يتخذونه من لحاء الشجر ، وهم يلبسونها بين الرجلين ويربطونها حول الوسط . وهذا الثوب لا يقبل الغسيل ، بل يلبس حتى يبلى ، وقد يتخذ هذا الثوب من الجلد ؛ وهناك نوع من الثياب يتخذ من جلد الوعل الصغير ، على شكل فوطة طويلة تحمى صاحبها من رطوبة الحشائش العالية . ولا تزال تستعمل . . وقد أسرع الزاندى بتقليد الملابس الأوربية ، وانتشرت حتى بين طبقة الآفنجرة . ولكن النسيج المتخذ من لحاء الشجر لا يزال له مكانه فى « الرسميات » .

وفى الرجلين يلبس الآزندى نعلا من الخشب أو الجلد ، ولكنه فى الأغلب يفضل السير حافياً . أما على الرأس فقد برع الزاندى فى صنع قبعات من الخوص . وهذه تنسج بمهارة فى الشعر . ويحدث أن يكون بين الزاندى أشخاص شعرهم طويل نسبياً ، فيترك ولا يقص بوصفه هبة من امبورى Mbori الإله الأعظم .

والجلد يمسح بالدهن أو الزيت خوفاً من التشقق ولا شك أن البيئة تتطلب ذلك لأن الجفاف فى ديار الآزندى شديد جداً .

وعلى الرغم من خوفهم من البرد ينام الآزندی في أكواخهم عراة ،
ويتخذون وسائل من الخشب لرءوسهم . والظاهر أن النوم دون ثياب . يراد
به المحافظة على الثياب . وهذا يضطرهم إلى إيقاد نار في الكوخ للتدفئة .

ولا يوجد وشم أو تشويه للجسم بصفة عامة . وإن كانت الأذن أو الأنف
تحرق أحياناً ويوضع فيها حجر أو خشب . وللتزين تتخذ عقود وبعض
الأساور من النحاس حول المعصم .

ولا تخلع القواطع في اوقت الحاضر فيما يبدو ، ولكن ربما قاموا ببرد جزء
ما بين اثنتين من القواطع العليا المتوسطة ، على شكل الحرف V للتجميل .
وقد أصبح الختان عاماً (للرجال فقط) .

ومهارة الآزندی في كل ما يصنعونه بأيديهم ظاهرة يشهد بها كل من
كتب عنهم . فهم يتقنون صنع الأسلحة والرماح والخنجر والحراب والترس .
ونتاجهم مشهور بالدقة والمتانة . ويحسنون صنع السلالات والحصير والفخار .
وكذلك يذيبون المعادن من خاماتها الطبيعية ويقومون بنحت الخشب والعاج . .
ولهم براعة في صنع التماثيل .

وهم فوق ذلك لم يهملوا فن الموسيقى ، وبرعوا في صناعة أنواع من
الدفوف والقيثارات والطناير . ويتقنون صناعة الطبول .

وعلاوة على الأكواخ المتقنة التي يبنها أكثر الناس متوسطي الحال .
يبنى الزعماء والملوك منازل واسعة ، وجيدة البناء والجدران مزينة بالرسوم
تستخدم فيها ثلاثة ألوان : الأسود والأبيض والأحمر . وقد ذكر شوينفرت
أن إيوان الملك Munza كان طوله ثلاثين متراً وعرضه ١٥ متراً وارتفاعه
عشرة أمتار .

ولا شك أن هذه البراعات الفنية تذكرنا بما رأيناه من التقدم الفني في
الجاناب الغربي من إفريقية ، بينما الجهات الشرقية خلت من هذه المواهب الفنية .
وإن كانت كما يذكر الكثير من الكتاب قد ارتقى تفكيرها الديني كما برعت
في فن تربية الماشية !

ويلخص الكاتبان باكستر وبت^(١) تاريخ الآزندي، بأن أساس السكان في هذا الإقليم الواسع في أعالي الكونغو والغزال، كان عبارة عن جماعات متفرقة من الأقزام، وقليل من الزنج مبعثرين متفرقين بأعدادهم في هذه البيئة الواسعة التي تبدأ بالغابات الكثيفة في الجنوب وتنتهي إلى الحشائش العالية في الشمال. . . ويبدو أن هذا الإقليم تعرض لبعض الضغط من الجنوب والشرق من بعض سلاسل البانتو، ولكن هذا الضغط لم ينبث أن تلاشى أمام الموجات المتتالية من الغرب من عناصر سودانية غربية، وقد ترتب على هذه الموجات الزاندية انتشار سلاسل جديدة، واندماج القديم في الجديد، وتوحيد الثقافة، وتكوين ممالك منظمة في هذه المساحات الواسعة. وكثيراً ما كانت هذه الموجات بقيادة عشائر ممتازة في صفاتها ومهارتها الحربية. وآخر هذه الحملات هي التي كان يقودها الآفنجرة، ولعل الأمور استتبت في صورة مستقرة في أواخر القرن الثامن عشر فلم يكديجىء القرن التاسع عشر حتى كان لعشائر الآفنجرة السيطرة التامة على الجهات الشمالية. . . ويقابل ذلك دولة المانجبتو Mangbetu في الجنوب. وبعد ذلك جاء الحكم الأوربي. . . وبعد الاستيلاء التام على بلاد الآزندي، كان هناك تذبذب في الإدارة، فتارة يسلبون الآفنجرة حقوقهم، ويحرمونهم كل سلطة، وتارة يبدلون من سلوكهم ويحاولون استرضاءهم.

وبلاد الآزندي بمعناها الواسع في الكونغو والسودان تمتد من خط العرض الثاني جنوب خط الاستواء إلى خط العرض السادس الشمالي في حوض بحر الغزال. ومن خط طول ٢٣ إلى خط طول ٢٩ شرق جرينتش. . . أنهارها وجداولها عديدة، بعضها يتجه شمالاً بشرق نحو بحر الغزال، والبعض يتجه جنوباً بغرب نحو نهر أويله من روافد النيجر ويحف بهذه الأنهار شجر كثيف ولكن معظم الأراضي أشجارها متباعدة وبعضها حشائش عالية يصل ارتفاعها

(١) The Azande and Related Peoples by Baxter and Butt, 1953.

إلى ثلاثة أمتار ، وربما وجدت في الجنوب بعض الغابات الكثيفة ، والتربة بوجه عام خصبة .

وليس للآزندی كما ذكرنا حيوان سوى الكلب الأقرع والدجاجة العجفاء ، يستخدم الأول في الصيد والثانية لإنتاج البيض . وحال مرض النوم دون وجود ماشية من أى نوع ولا يذكر الزاندى أنه كانت لهم ماشية في أى وقت من الأوقات .

فكان من حظهم وفرة الأرض الطيبة ، التي استطاعوا أن يظهروا فيها براعتهم في الزراعة . وأقصى ما يتمناه الزاندى أن تكون له مزرعة عظيمة ، وزوجة أو اثنتان ، وقليل من العبيد لمساعدته في الزراعة . وهو أيضاً يقوم بالطبع بواجباته الزراعية كاملة ، ويرتاح للعمل الزراعى ، حتى الآفنجرة الذين يأنفون من سائر الأعمال اليدوية ، لا يترددون في تولى إدارة مزارعهم ، وتوجيه العمل الزراعى فيها .

والمطر متوافر في جميع أوطان الآزندی ، ومن الممكن حتى في أشهر الجفاف (نوفمبر - مارس) أن يجد الناس ماء في مجارى بعض الجداول . وإذا جفت تماماً ، فمن الممكن استنباط الماء بأقل مجهود حفر في جوانب الوادى .

ويقوم الآزندی بالزراعة في المواسم الملائمة ، مع شىء من المرونة في مواعيد البدء بالزراعة والحصاد . وهم يبذلون كل جهد في أعمالهم الزراعية ، بقدر ما وسعهم الجهد مع اتباع نظام الزراعة البدائية ، الحالية من التسميد . ولعل انعدام الماشية من الأمور التي حالت دون التفكير في التسميد . . . ولذلك فإن الزارع من الزاندى يكتفى بزراعة ثلاثة محاصيل تبدأ مثلاً ببعض البقول مثل الفول أو الحمص يليه الذرة . ثم السمس . وهذه الغلات الثلاث تكفى لاستنفاد قوة الأرض ؛ فينصرف الزاندى إلى تطهير أرض جديدة لزراعة تلك الدورة أو ما يشابهها من جديد . . . أما الأرض التي سبقت زراعتها فترك بوراً خمس أو ست سنين لتسترد خصوبتها . ومن حسن حظ الزاندى

أن الأرض متوفرة ، وفيها متسع للزراعات الجديدة دائماً ، ولكل زوجة مزرعتها . تنهض بأعبائها من إعداد وبذر وحصاد ، ويساعد الرجل في بعض الأعمال الشاقة . ومن الممكن أحياناً أن تتعاون زوجتان ، فتساعد كل منهما الأخرى في حقلها . وهناك بعض التنوع في الغلات حسب الإقليم . وبذلك تنوع المحاصيل : فيكون فيها الذرة بأنواعها والبقول السوداني والبطاطا ، والكسافا والقرع العسلي ، وقد أدخلت زراعة المانجو من الكونغو ونجحت ،

واللحم قليل جداً ، مع أن شهوة اللحم عظيمة ؛ ولذلك يحاولون استيفاء حاجتهم من اللحم بالصيد خصوصاً في موسم الجفاف . . . وليس في الجداول سمك كثير لأن أكثرها يجف بعض العام ، ولكنهم لا يتورعون عن تعاطي أى نوع من اللحم ، ما عدا لحم حيوانات الطواطم .

والمرأة في المجتمع الزاندى تقوم بأعباء تفوق ما يقوم به الرجل : ومع ذلك فإن منزلتها في المكان الثانى ؛ ودون منزلة الرجل بكثير ، بخلاف ما نجده عند الهاميين . فالمرأة في المجتمع الزاندى هي خادم الرجل ، ولا تأكل حتى يفرغ هو من تناول طعامه . . . وفي بعض الروايات أن مركز المرأة الزاندية في تحسن ، ولعل هذا نتيجة اختلاط الزاندى ببعض الهاميين أو الأوربيين .

ولقد كان مجتمع الآزندى قائماً على نظام خاص يتولى فيه السيادة ومناصب السيادة عشائر الآفنجرة Avungara . . . وجميع الزعامات في البلاد موزعة بين أفراد العشيرة مع تدرج في المناصب ، من زعيم قرية إلى زعيم ناحية أو مركز إلى زعيم إقليم . إلى الملك نفسه . . . ونظام الوراثة للابن الأكبر ، الذى يرث أباه أو قد يفصل أحياناً ويؤسس مملكة جديدة . . . وقد كان لهذا النظام أثره في انتشار الزاندى .

وهكذا كانت الحال فيما مضى إلى أن جاء عهد الحكم الإفرنجي ، وألغيت هذه النظم ، فلم يعد هنالك ملوك . وقد يكون هناك زعماء يعملون مع السلطة ولكن ليسوا من الآفنجرة ؛ ومع ذلك فإن الآفنجرة لا يزالون يقومون

بنشاطهم الاقتصادى وبعض النشاط الاجتماعى . وربما تطورت الأمور
بما يضمن لهم القيام ببعض النشاط فى المجال القيادى أيضاً .

* * *

الديانة عند الزاندى تبدو كأنها تتألف من عناصر مختلفة ، متفاوتة
الأهمية ، وكذلك اختلفت الآراء فى أهمية الديانة فى حياة الزاندى . . وسنورد
فيما يلي أهم العناصر التى ذكرها الكتاب فيما ذكروه عن تلك الديانة .

١ - التوكا (Tuka) :

عندما يبنى الزاندى كوخه يجعل فى وسطه شيئاً كالمحراب أو النصب
لذكرى والده Tuka . وهذا النصب عبارة عن كومة من الطين ثبت فيها عمود
من الخشب مفتوح أعلاه بما يشبه السبت ، حتى يمكن أن تلقى فيه الهبات .
والمفروض أن هذا النصب يتلقى بعض الهبات من آن لآن . ولكن يقال إن
الآفنجرة وحدهم هم الذين يهتمون بهذه الشعائر ، ويقدمون لآبائهم شيئاً
كل يوم . أما سائر الآزنده فيكتفون بهدية كل موسم .

٢ - أجاليزا The Agalisa :

هؤلاء عبارة عن أرواح شريرة تختبئ وراء الصخور أو الأحجار وتؤذى
الآزنده فى تجوالهم منفردين . . ولا يعرف أن هنالك أى صلوات أو عبارات
لتقلل من أذاها . إنما هى مجرد عقيدة .

٣ - مبورى Mbori الكائن الأعلى :

يقال عن الآزنده إنهم يعبدون كائناً أعلى اسمه مبورى . ويقولون إنه
على كل شىء قدير ، وإنه خلق الأرض والهواء والنار والماء والحيوان وسائر
الكائنات . . وإلى جانب هذه الفكرة الراقية ، تحيط باسم مبورى خرافات
وأساطير ، لا ترقى لمستوى التفكير فى الإله الواحد .

ويقال إن الفكرة السامية التى تحيط باسم مبورى جاءت نتيجة التعاليم

المسيحية . . وليس للزاندى كهنة أو قسس أو هياكل أو طقوس ، أو مظاهر
تقديس خاصة بهذا الإله .

ومن الجائز أن مبورى يمثل ثقافة دينية تأثرت بها بلاد الزاندى زمنياً ؛
ثم أحاطت بها الخرافات بعد ذلك .

ويؤمن الآزندى بضروب عديدة من السحر والشعوذة شرحها شرحاً
وافياً الأستاذ برتشارد^(١).

(١) يرجع في أمور للزاندى إلى كتاب ساجمان : وكتاب باكسترويث السابق ذكره
ومقالات الأستاذ برتشارد وخصوصاً :

Evans-Pritchard: Witchkraft, Oracles and Magic among the
Azande, 1937.

الفصل العاشر

شعب النوبا

عندما تكلم الأستاذ سلجمان عن القبائل ذات النسبة الرأسية المتوسطة في السودان الجنوبي أشار أيضاً إلى أن هذه المجموعة الجنوبية تقابلها أيضاً مجموعة شمالية ، في الجهات المتاخمة لأوطان النيلين الشماليين مثل الشلك والدنكا . هذه العناصر تشمل شعب النوبا غرب النيل الأبيض ، وعدداً من القبائل في جنوب أرض الجزيرة ، جنوب خط العرض الثاني عشر ، مثل الإنجسنا والتورناسي والبرون ، وأودك ومبان . . . وتمتاز أوطان هذه القبائل كلها بأنها ذات طبيعة جبلية ، فاستطاع السكان أن يعتصموا بالجبال ، إذا ما أغار المغيرون على السهول . وبذلك احتفظت هذه القبائل بثقافتها ولغاتها ، وإلى حد كبير بدمائها . . وبقيت تغلب عليها الصفات الزنجية . في أقطار مشرفة على المؤثرات العربية ، والأوطان العربية .

والقبائل التي تعيش في أرض الجزيرة صغيرة العدد ، ونكتفي هنا بالإشارة إليها . ولكن النوبا في جنوب كردفان أجل خطراً وأكثر عديداً ، ويؤلفون شعباً هاماً من شعوب السودان ، ولذلك يجمل بنا أن نتحدث عنه بتفصيل أكثر .

أوطان النوبا : تقع الأقطار التي يسكنها النوبا في القطاع الجنوبي من إقليم كردفان ، في مساحة من الأرض تبلغ زهاء ٣٠,٠٠٠ من الأميال المربعة ، ما بين دائرة العاشرة جنوباً ودائرة ١٢,٣٠ ° شمالاً . وأخص ما يمتاز به هذه الرقعة من الأرض وجود مرتفعات مبعثرة في جميع أنحائها من غير نظام

خاص ، وهى التى يطلق عليها اسم « الجبال » ، أو جبال النوبا . وتتألف هذه المرتفعات من كتل جبلية صغيرة أو كبيرة قد يصل ارتفاعها إلى ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر . ولكن أكثرها دون هذا الارتفاع بكثير . وتفصل ما بينها أودية عريضة أو سهول فسيحة ، تبعاً لاقتراب الجبال وتباعدها .

بين منطقة الجبال هذه ونهر النيل مسافة عرضها يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ ميل ؛ كلها أرض سهلة أما شمال بلاد النوبا فإن طبيعة الإقليم الجبلية لا تنتهى بانتهاء مواطن النوبا ، بل تستمر إلى سائر كردفان ، ولو أن الجبال الجنوبية فى الجملة أكثر ارتفاعاً ، وأكثر تقارباً . . فاستحقت بذلك اسم « الجبال » .

تمتاز هذه البلاد — عدا طبيعتها الجبلية — بخاصية أخرى ترتبت على وجود الجبال ، وهى ازدياد سقوط الأمطار فيها بالنسبة لما يحيط بها من الأقطار شرقاً وغرباً ، كذلك تكثر فيها العيون والينابيع ، وسط الجبال وفى سفوحها ، والأرض التى حولها . . وفوق ذلك فإن المرتفعات أوفر عشباً ومرعى وشجراً .

فالإقليم الذى نحن بصددده إذن خصائص تميزه عن الأقاليم التى تحيط به ، وهذه الميزات الطبيعية يقابلها من الناحية البشرية خصائص تميز السكان عن حولهم من الجماعات فى الغرب من جبال النوبا تسود الثقافة العربية والدماء العربية بين جماعات من رعاة البقر أمثال الحبانية والرزيقات وغيرهم ، وإلى الشرق من جبال النوبا — بعد أن تجتاز شريطاً ضيقاً يكاد أن يكون خالياً من السكان — نصل إلى مواطن الشلك التى تمتد إلى نهر النيل الأبيض ، وهذه الحالة نراها سائدة من جهة الجنوب أيضاً ، حيث نجد بعض الشلك وجماعات النوير وغيرهم من القبائل النيلية .

أما شمال بلاد النوبا، فإننا نرى حالة أخرى أقل وضوحاً وتحديداً . فكما أن جبال النوبا فى جنوبى كردفان لا تنتهى فجأة فى الشمال ، بل تظل الجبال موجودة فى صورة أقل وضوحاً فى سائر المديرية ، كذلك نرى تشابهاً بين سكان كردفان شمال الجبال مباشرة وبين النوبا من حيث المظهر والسحنة

والتقاطيع . . والفرق بين كردفان الشمالى والجنوبى (وطن النوبا) فرق ثقافى أكثر منه جنسى . فقد استطاعت المؤثرات العربية أن تترك أثراً واضحاً فى سكان الشمال . فأصبحوا جميعاً يدينون بالإسلام ويتكلمون العربية ، حتى لقد وصلت هذه المؤثرات العربية إلى صميم الأطراف الشمالية من بلاد النوبا ، بل وبين النوبا أنفسهم فى جهات مثل دلنج وكادورو . وتتناقص المؤثرات العربية كلما اتجهنا جنوباً .

فسكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التى تحيط بها . وهى تعد مجموعة وطنية قديمة ، سكنت هذا الإقليم منذ زمن بعيد ، وليست حديثة العهد بأوطانها ، كما هى الحال فى الجماعات النيلية : وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعاً من الحماية ، فأمكنهم أن يكونوا نسبياً فى مأمن من إغارة المغيرين وعدوان المعتدين . ولو أن هذا اضطرهم لالتزام الجبال . . .

ولطبيعة الجبال أثر آخر فى السكان . بأن كانت بمثابة ملجأ تعتصم به الجماعات الهاربة اللاجئة من الأقطار المجاورة ، ويترتب على هذا أن يكون هناك تنوع واختلاف فى الصفات الشكلية نظراً لدخول عناصر مختلفة فى أزمان مختلفة ، والتجائها إلى هذه الحصون الطبيعية . فعلى الرغم من أن الصفات الزنجية هى السائدة ، فإننا لا نرى لها ذلك الانسجام والاطراد الذى نشاهده بين الدنكا أو البانتو . فالنسبة الرأسية أعلى مما نجده بين الزنج ، ويقول سلجمان إن ٦٠٪ من السكان لهم نسبة رأسية متوسطة ، وباقى السكان يزيدون على المتوسط أو يقلون عنه بمقادير متساوية .

والقامة أيضاً وإن غلب عليها الطول . فإنها أقل فى المتوسط عما نجده عند النيلين . كما أننا نجد نمواً فى العضلات لا نجد له نظيراً بين جيرانهم من السلالات النيلية . .

وهذا التنوع هو ما نتوقعه فى البيئات الجبلية دائماً . سواء نظرنا إلى الصفات الجسدية أو الثقافية أو الاجتماعية ، لأن الجبال تعزل الجماعات بعضها عن بعض ، وتحول دون الاتصال والاندماج . ولذلك تختلف العادات

واللهجات ، وكثير من مظاهر الحياة ، وهذا التنوع بين النوبا أشد وضوحاً في الثقافة منه في السلالة لأن الأساس الجنسي واحد للجميع وهو الدماء الزنجية . . أما الأصول الثقافية فهي متنوعة بين أتباع السلالة الواحدة . وقلة الاتصال تؤكد الفروق والاختلافات .

ويقدر عدد النوبا بنحو ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وهم مقسمون إلى نحو خمسين قبيلة أو وحدة قبلية منفصلة . وسكان كل جبل أو هضبة يدركون أنهم يختلفون عن غيرهم ويمتيزون عن سواهم ، وقد يبلغ عدد أفراد القبيلة الكبيرة ما بين ٢٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ كما هي الحال في قبيلة تورو ويصل العدد في القبائل الصغيرة إلى ما بين ألف وخمسة آلاف نسمة ؛ فقبيلة تلليتي عددها ٣٦٠٠ وقبيلة تاباك نحو ألف نسمة .

والعرب يطلقون عليهم اسماً واحداً وهو النوبا . ولا ندرى تماماً هل هذه التسمية قديمة أو جديدة ، بل نحن لا نعرف على وجه التحقيق أن لها صلة باسم النوبة سكان شمالي السودان وجنوبي مصر ، وليس من السهل أن نتصور كيف انتقل الاسم من الشمال إلى الجنوب على بعد الشقة ، واختلاف السلالات . وليس من الضروري أن يكون تشابه بعض الألفاظ أو اللهجات كما نرى سبباً في تسمية متشابهة لسكان الإقليم كلهم .

والنوبا أنفسهم يدركون أنهم شعب له خصائصه التي تميزه عن جيرانه ، ويسمون أنفسهم أحياناً سكان الجبال . وحتى إذا لم يكن لديهم اسم خاص ، فإنهم يحسون أنهم منفصلون . ويمتيزون عن سواهم .

وربما وجدنا بين النوبا اليوم كثيراً من الأفراد الذين يستخدمون لفظ نوبا ، ويصفون أنفسهم بأنهم نوبا . ولكن هذا جاء من غير شك نتيجة تأثير الحكام الذين يطلقون عليهم هذا الاسم . فهم يستخدمونه مجازاً لغيرهم . ولكن الذين درسوا القبائل النوباوية عن كثب ، لم يجدوا أن لهذا اللفظ أصلاً وطنياً في أية بقعة من البقاع .

وإلى جانب تعدد القبائل والنظم الاجتماعية ، نرى النوبا يمتازون بتعدد اللغات واللهجات ، حتى لقد قيل إن عدد اللغات بين النوبا يعادل عدد الجبال . وهذا قول لا يخلو من الصواب ، وإن كان أيضاً لا يخلو من المبالغة . وقد استطاع علماء اللغات أن يرجعوا لغات النوبا إلى ثلاثة أصول رئيسية ، أطلقوا عليها الأسماء الآتية : (١) السودانية (٢) البانتوية (٣) النوبية . فكل قبيلة تدخل لغتها ضمن نوع من هذه الأنواع الثلاثة . مثال ذلك نرى أن النوع الأول (السوداني) هو السائد بين كرنجو ونيا Korongo, Niyma والنوع الثاني (المشابه للبانتو) Bantoid هو السائد عند قبائل هييان Heiban وأوتورو Otoro وتيرا Tira ، والثالث (النوبي) : المشابه للغة النوبة) بين سكان دلنج وكادورو . . والنوع الأول يسود المنطقة الغربية والثاني الشرقية ، والثالث الأطراف الشمالية .

وهذه الأقسام الثلاثة الكبيرة قسمت إلى لغات تتفرع من كل قسم ومجموعها كلها عشر لغات تتفرع كل منها إلى لهجات متقاربة .

وقد اختلف الباحثون في أمر اللغات النوبية وكيف وصلت إلى شمال الجبال . وقد لاحظ العلماء ما بينها وبين لغات الدنقلاوين والبرابرة من التشابه القوي . ونظراً لأن انتشارها مقصور على الجهات الشمالية . فقد ذهب البعض ، ومنهم الأستاذ سلجان ، إلى أن هذا يرجع إلى تأثير جماعات نوبية أتت من الشمال . ونشاط النوبيين وانتشارهم أمر معروف . ولكن الأستاذ وسترمان يستبعد أن تكون اللغات النوبية نتيجة تأثير أجنبي آت من الشمال ، ولا يعلو أن يكون تأثيراً تجارياً . وبعض العلماء يذهب إلى أن هذه اللغات النوبية ترجع في كلا الحالين (في الشمال والجنوب) إلى أصل إفريقي قديم ظل محتفظاً بكيانه في بلاد النوبة في الشمال ، وفي جبال النوبا في الجنوب . . ولا بد أن يكون هذا رأى جرينبرج ، لأنه يربط بين لغة النوبيين في الشمال والنوبا في الجنوب . مهما بدا لغير المتخصصين من اختلاف بين تلك اللغات . والقبائل المتجاورة يزداد بينها الاختلاط ، ويقتبس بعضها ألفاظاً من

الآخر ، وكثيراً ما يصبح السكان قادرين على الكلام باللغتين ، وأحياناً بثلاث إذا أضفنا إليها اللغة المشتركة الناتجة من نفوذ الثقافة العربية ، ويطلق عليها اسم « نوبي عربي » . وتوشك هذه أن تكون هي لغة التخاطب Lingua Franca في جميع البلاد .

وقد كان الاختلاف اللغوي على أشده ، عندما كانت كل قبيلة معتصمة بأراضيها ، وتوجس خيفة من الاختلاط بغيرها . وقلما كانت تنزل إلى السهول التي تفرق بين الجبال . . . أما في الأوقات الحديثة ، بعد أن استقر النظام ، ووجدت حكومة مركزية تبسط نفوذها على الجميع ، وتستطيع أن تمنع العدوان . أخذ الناس يزاد تعاونهم وانتقالهم من مكان إلى مكان . . وانتشارهم في الجهات السهلة المجاورة لجبالهم . . .

وقد امتازت الأزمنة الحديثة بانتشار السكان لسببين : الأول يرجع إلى أن اطمئنان القبائل جعلها تجرؤ على احتلال بعض الأراضي السهلة ، حيث التوسع في الزراعة ممكن ميسر . والسبب الثاني أن الحكومة نفسها فرضت على بعض القبائل أن تنزل إلى السهول ، عقاباً لها على ما اقترفت من العصيان أو التمرد . ومعظم هذه القبائل قد استردت بعد ذلك أوطانها الأصلية ، ولكنها احتفظت بنشاطها في الأراضي السهلة أيضاً .

ولاشك أن إكراه قبيلة من النوباء على النزول من جبالها ضايقها كثيراً ، لأن هذه الهجرة المفروضة عليها بالقوة ، لم تحرم القبيلة من معاقلها الطبيعية فقط ، بل حرمتها من الأماكن التي تقدسها لاتصالها بشعائر دينهم وتقاليدهم . والآن على الرغم من أن عهد الهجرة بالإكراه قد انتهى ، وفي وسع أي قبيلة أن تعيش في جبالها أو على السفوح والمنحدرات إذا شاءت ، نرى كثيراً من القبائل أخذت تتوسع وتحل مساحات جديدة ، ومع احتفاظها بجبالها ، فإنها تميل الآن لأن توسع أوطانها ، باحتلال بعض الأرض السهلة المجاورة ، حيث المجال أوسع للنشاط الزراعي .

وصفوة القول إنه في الزمن الماضي كان العامل الأول في حياة سكان الجبال هو مسألة الأمن والدفاع ، وفي الوقت الحاضر أصبح العامل الأول اقتصادياً ، وهو الرغبة في التوسع الزراعي . ومع أن الجبال تمتاز بوفرة مائها ومرعاها ، فإن السهول المجاورة ، وإن نقصت مواردها المائية قليلاً ، تشتمل على مجال للتوسع الزراعي ليس متوفراً في البيئة الجبلية المحدودة .

* * *

والنظام الاجتماعي لدى النوبا يشتمل على وحدة « العشيرة » وهي تتألف من الأشخاص الذين تربطهم أواصر القرابة ؛ ومن كل مجموعة من العشائر — وهي في الغالب متجاورة — تتألف وحدة اجتماعية كبيرة ، يدعوها الكتاب قبيلة ، ولو أنه ليس هنالك لفظ بهذا المعنى لدى السكان ، بل لديهم كلمة تدل على سكان كل جبل من الجبال ، مرتبطين بشيء من التعاون يرجع إلى وحدة الثقافة وبعض التقاليد .

والعشائر — بوجه عام — لا تتغير ؛ وأكثرها عشائر أبوية ، تنحدر من آباء من قديم الزمان ، وإن لم يكن دائماً من السهل أن يتذكروا إلا عدداً محدوداً من الأجداد . وهناك في الجزء الجنوبي عشائر « أموية » أي أن انحذارهم عن طريق الأم . ومن الجائز أن تنقسم العشيرة إلى قسمين . فيصبح كل قسم بمثابة عشيرة مستقلة . وهذا يحدث في الغالب في حالة الزواج المحرم . فتقسم العشيرة إلى قسمين ، وتكون الزوجة في أحد القسمين وزوجها في القسم الآخر ، لأن الزواج محرم على أفراد من عشيرة واحدة .

ونظام الطوطمية موجود ، في معظم العشائر . ولكنه آخذ في الزوال ، ومع ذلك فإن لكل عشيرة اسمها الخاص . وعاداتها وتقاليدها في الطعام ، والامتناع عن أكل بعض الحيوانات .

الحياة الاقتصادية :

قوام الحياة الاقتصادية لدى النوبا الزراعة ؛ أما صناعة الرعى والصيد ، فعلى الرغم من مزاولتهما ، وتنظيمهما ، لا تحتلان إلا مكاناً ثانوياً . . . أما الصناعات فقليلة الخطر وبخاصة الصناعات التي يمارسها الرجال ، مثل الحدادة والنساجة ، والحشب المزخرف . فهي في الأغلب صناعات دخيلة ، تعلمها النوبة حديثاً من العرب أو غيرهم . بخلاف الصناعة النسوية ، مثل الفخار فهي أصيلة عند النوبا .

لكن الزراعة هي الحرفة الأولى التي اختص بها الرجل والمرأة ، وهي التي تدل على قيمة الرجل وعلى براعته . ويقول نادل^(١) إن البراعة في الزراعة شيء ضروري حتى لأولئك الذين يمارسون حرفة روحية هامة مثل قسيس القرية : الكوجور Kujur ، والزراعة السائدة هي الطراز البسيط ، الذي يدعى زراعة الفثوس Hoe agriculture ، أي التي لا يستخدم فيها المحراث بل نوع من الفثوس مستطيلة اليد ، ونوع من المسحاة أو الجاروف ، وتستخدم بعض الآلات في إعداد التربة ، وعزق الأرض . وهناك بعض أنواع من الفثوس تستخدم في إعداد أرض للزراعة ، لم تكن زرعت من قبل .

والأدوات كانت من قبل مصنوعة من الحشب ، ولكن في الأزمنة الحديثة ، تستخدم أدوات لها يد من الحشب ، ونصل من الحديد ، ويشترونها من الأسواق المجاورة .

وتستخدم أيضاً أنواع من العصي المدببة في تطهير الأرض في المدرجات الضيقة على منحدرات الجبال ، وفي الأرض الخفيفة الرملية ، قد يستخدم نوع من الفثوس له يد طويلة (٢ إلى ٣ أمتار) لعمل الحفر التي تلقى فيها البذور .

وبوجه عام نرى أن نظام الزراعة عند النوبا يتأثر تأثراً شديداً بالبيئة

(١) S.F. Nadel في كتابه The Nuba, 1947 - ص ١

الطبيعية . . والاختلاف في أساليب الزراعة يرجع إلى محاولة السكان أن يعنوا بمقتضيات كل بيئة . وهناك نوعان من البيئة . الأولى بيئة المرتفعات العالية ، ذات الطبيعة الهضبية ، تشتمل على مساحات كثيرة صالحة للزراعة . أما الثانية فبيئة التلال الواطئة نوعاً ذات الصخور الناتئة الكثيرة ، التي ليس بينها مسافات ، تتسع للزراعة ، داخل الأرض المرتفعة نفسها .

ويعتبر الطراز الأول بيئة زراعية جبلية ، وإن لم تكن الزراعة فيها مقصورة على الجبال وحدها . في هذه البيئة الجبلية نرى أن للنوبة ثلاثة أنواع من المزارع أو الحقول . وهي التي يدعونها :

- ١ - المزارع المنزلية House farm .
- ٢ - مزارع المنحدرات Hill-Side .
- ٣ - المزارع البعيدة .

وتمتاز كل من المزارع المنزلية ومزارع المنحدرات بأنها تجعل على شكل مدرجات ، والأولى تكون عادة ملاصقة للمنزل . والثانية على المنحدرات غير الآهلة بالسكان ، أو بعض الأودية القريبة . وفي كلا الحالتين تكون المزارع داخل المنطقة الجبلية . أما المزارع البعيدة ، فهي كما يدل عليها اسمها واقعة في السهول المجاورة ، أو بعيداً - بعيداً نسبياً - عن المساكن .

وبديهي أن شعباً يعتصم بالجبال ويألفها ، ويتخذ منها موثلاً وملجأ من أخطار الإغارة ، يؤثر أن تكون مزارعه قريبة من منزله . . ولا ينزل إلى السهول إلا إذا زال الفرع وانتشرت الطمأنينة . فالبيئة الزراعية عند النوبا فيها شيء من المرونة ، تنكمش وقت الفرع أو احتمال الخطر . وتتسع بعد أن يزول الخطر . ولعل هذا شيء تكرر مراراً في حياة النوبا . وظاهرة طبيعية طالما تعرضوا لها ، فلا محل لما يزعمه نادل من أن هذه هي المرة الأولى التي يتخذ فيها النوبا « مزارع بعيدة » ، بل الأقرب إلى العقل أن هذه ظاهرة تكررت مراراً في تاريخهم الطويل .

وليس اتخاذ « مزارع بعيدة » أمراً منتشرأ لدى جميع القبائل ، لأن بعضها لا يزال محافظاً على الأسلوب القديم . كما هي الحال عند سكان الجبال الغربية ، الذين لا يزال أكثرهم يفضل اتخاذ مزارع قريبة من منازلهم . ولعالمهم ليست بهم حاجة للتوسع في السهول لوفرة الأرض في داخل المرتفعات .

والاعتماد في الزراعة يكون دائماً على المطر ، ومع ذلك فهناك بعض المزارع تعتمد على الري . وهي عبارة عن قطع صغيرة من الأرض مجاورة لبعض الينابيع ، أو الآبار أو الجداول ، وهذا النوع موجود عند جميع القبائل . والمزارع في هذه الحالة تخصص عادة لزراعة التبغ أو البصل . والري في هذه الحالة يكون بنقل الماء آلياً من المورد الأصلي إلى المزرعة الصغيرة .

ومن المشاهد أن اتساع الزراعة ، وانتشارها من الجبال إلى السهول المجاورة ، كثيراً ما يدعو إلى التجاوز عن زراعة المنحدرات ، أن تحل محلها الزراعات البعيدة . أما المزارع المنزلية ، فإنها تظل محتفظاً بها .

ويختص كل نوع من المزارع بطراز خاص من المحاصيل . فالمزارع المنزلية المجاورة للمساكن تخصص لمحصولات محدودة من الذرة الشامية والرفيعة وبعض الغلات الغذائية ، مثل الفلفل الأحمر . والقثاء ، والبطيخ والقرع واللوبيا ، وبعض التبغ .

ومزارع المنحدرات تخصص عادة لأنواع أخرى من الذرة الرفيعة ، والسهم والبقول السوداني واللوبيا .

وفي مزارع السهول تزرع جميع الغلات السابقة ، كما يزرع فيها بعض القطن في الوقت الحاضر . وهو من النوع متوسط الثيلة . وعلى الرغم من تعدد المحاصيل فإن أهمها بكثير هو الذرة الرفيعة بأنواعها ، والذرة الشامية بقدر الإمكان . والنوبا يميزون بين الأنواع المختلفة من الذرة الرفيعة . فمنها نوع خفيف ينضج بسرعة ، ونوع كثيف بطيء النضج ، والنوع السريع مفضل في المزارع المنزلية ، وفي الأرض ذات التربة الرملية ، حيث يتم نضجه بعد

امتناع المطر . وهذا النوع منتشر في الجهات الشمالية حيث التربة خفيفة وموسم المطر أقصر :

أما في الجنوب عند قبيلة مساكين وتالودي ومورو وكرنجو ، حيث التربة ثقيلة وموسم المطر أطول ، فإن السكان متخصصون في زراعة نوع غليظ من الذرة يسمى كرجى Kurgi ومن مزايا هذا النوع أنه يحتمل التخزين زمناً طويلاً . (عامين أو ثلاثة) بينما الأنواع الخفيفة ، لا تحتمل التخزين أكثر من عام واحد . وسنرى أن تخزين الحبوب من أهم ما يعنى به النوبا .

* * *

وتختلف أنواع المزارع من حيث الحجم — كما هو منتظر — وأصغرهما بالطبع المزرعة المنزلية . وتقع بجوار المسكن مباشرة ، ومساحة المزرعة قلما تزيد على ٥٠٠ متر ، وهذا يرجع بالطبع إلى أن المساحة الزراعية في الجزء الأهل بالسكان من الجبال محدودة .

أما مزارع المنحدرات فإنها تتراوح في العادة بين نصف وثلاثة أرباع الفدان ، وقلما تتجاوز هذا المقدار . وهي ليست موجودة لدى جميع المزارعين ، بل نرى كثيراً منهم ، يفضل المزارع في الأراضي السهلة :

وهذا مزارع السهول تختلف في الحجم ما بين فدان وفدان ونصف ، وقد تزيد على هذا القدر فتصل إلى ثلاثة ، بل إلى خمسة أفدنة . كما هي حال بعض المزارعين في دلتج . ومزرعة السهول قد تكون مندمجة متصلة بحيث تكون قطعة أرض واحدة ، أو قد تتألف من قطع — ثلاثة إلى خمسة — منفصلة : واختلاف حجم المزارع في السهول يرجع إلى قدرة الزارع وبوجه خاص يرجع إلى عدد زوجاته ، وقد أثبتت المشاهدة أن المزرعة المندمجة أفضل من المزرعة المجزأة مع تساوى الحجم :

وفىما يلى جدول تقريبي أوردده الأستاذ نادل ليدال به على الأهمية النسبية للمحاصيل فى الاقتصاد النوبى . فى ثلاث قبائل اختارها : وهى هييان وأوتورو وتيرا .

تيرا	أوتورو	هييان	
٣٥	٤٠	٣٥	سن الفلاح
١	١	١	عدد الزوجات
—	١	—	عدد الأطفال
١	١	١	مزرعة منزلية
—	٤	—	مزرعة المنحدرات
١	٢	٣	مزرعة بعيدة
٤ سبت	٢ سبت	قليل جداً	الذرة الشامية
٤ سبت	٨ سبت	٢٤ سبت	الحبوب الخفيفة
٦ سبت	١ سبت	—	الحبوب الثقيلة
٢ سبت	١ سبت	٢ سبت	السهم
—	٣ سبت	١ سبت	الفول السودانى
٢ سبت	١ سبت	٢ سبت	فول
٢ كيس	—	—	قطن

ويجرى قياس الغلة كما نرى بالسبت (وهو نحو نصف الأردب عند معظم القبائل ، وثلاث أردب عند بعضها . وهذه المقادير الموضحة فى الجدول هى التى أودعت المخازن . . ويجب أن يضاف إليها ما يستهلك قبل التخزين (أى ما بين ديسمبر إلى مارس) وهذا القدر قد يتجاوز الأردب .

وأهم شىء يبدو من الجدول السابق هو أن زراعة الحبوب تحتل المكان الأول ، وأن المزارع الأخرى تبنى فى المكان الثانى ، ومقدارها محدود ، كما أن المزارع الذى رأى من المصلحة أن يزرع جانباً من أرضه قطناً ، يبيعه فى السوق كان لا بد له أن يضحى ببعض المحاصيل الزراعية ، لأنه يستطيع أن يشتري بالقطن حاجته من سائر الغلات .

والمزارع المنزلية تختلف عن غيرها لأنها يناها شىء من التسميد ، وسماها مستمد من فضلات المنزل ، ومن روث الماشية ، لأن كثيراً من

المساكن يحتفظ فيها ببعض الغنم والماعز . وفي الأغلب الخنازير أيضاً . والعادة أن تقوم المرأة والأطفال الصغار بجمع فضلات هذه الحيوانات ، تضاف إليها قمامة الدار ورماد الموقد . . ويخلط هذا كله ببعضه ببعض ، وفي أول موسم المطر ، عندما يكون النبات صغيراً ، ينثر هذا السماد على التربة كل يوم ، وبعد أن يكبر النبات ، ويصبح من المتعذر إجراء هذه العملية ، يكوم السماد بجانب الدار ، ويستخدم قبل بدء موسم الزراعة . وهكذا يكون التسميد على مرحلتين قبل الزراعة ، وفي المرحلة الأولى من نمو النبات .

وفوق ذلك فإنه بعد أن يحصد الحب ، تطلق الماشية في الحقل بعد أن تستحضر من مراعيها لكي تأكل فضلات النبات ، وتترك فضلاتها في الأرض .

هذا التسميد البدائي منتشر عند النوبا ، وهم مدركون فائدته ، ولكنهم لا يستطيعون تعميمه في جميع أنواع المزارع . وقلما يستخدمونه في المنحدرات أو السهول مع علمهم بفائدته ، بل يتبعون في المزارع غير المنزلية ، الطريقة الشائعة في إفريقية المدارية وهي طريقة الزراعة المتقلبة ، التي تقضى بالانتقال لأرض جديدة عندما يلاحظون نقصان الغلة نقصاناً شديداً في الأرض التي يزرعونها . . ومع ذلك فإنهم يتبعون في زراعتهم نوعاً من الدورة الزراعية : فيبدأون بزراعة السمسم أو القول أو اللوبيا ، ثم يزرعون الذرة بعد ذلك ، عاماً بعد عام ، حتى تظهر على الأرض علامات الضعف ، فيتركون الأرض بوراً مدة تتراوح بين خمس وست سنوات .

والقطن ، وهو المحصول الجديد ، يزرع عادة في الأرض الجديدة ، التي لم يسبق لها أن زرعت ، فيزرع سنة أو سنتين لا أكثر . وبعد ذلك يزرع السمسم أو بعض البقول ثم الذرة . . أو تترك الأرض بوراً لمدة سنة . والظاهر أن هذه الإجراءات المختلفة هي على سبيل التجربة ، حتى يتبين الزارع أيها أفضل

والعادة أن النوبا يزرعون الأرض حتى ينقص محصولها بنحو ٥٠٪ وبعد ذلك يتحولون عنها إلى أرض جديدة ، لم تسبق زراعتها — بقدر ما تسع

الذاكرة - أو أرض قد هجرت من قبل . وليس لديهم نظام مطرد في المدة التي يعودون بعدها إلى أرض سبقت زراعتها . . لأن أكثر النوبا يفضل دائماً أن يزرع أرضاً جديدة من أن يعود إلى أرضه التي سبق أن زرعت ، ثم هجرت .

كذلك ربما زرع أحدهم أرضاً لمدة قصيرة (سنتين مثلاً) ثم هجرها لأنه وجد المحصول أقل مما كان ينتظره دون أن يفكر في الأسباب التي دعت إلى نقص المحصول . وقد يهجر الأرض أحياناً لأن الجراد أغار عليها .

والخلاصة إن هناك نزعة لتفضيل الأرض الجديدة ، وتطهيرها تمهيداً لزراعتها ، على العودة إلى الأرض القديمة . وذلك أحياناً لأوهى الأسباب ، أما السبب الحقيقي الذي يدعو النوبا إلى ذلك والذي يدفعهم دائماً إلى اقتناء الأرض الجديدة . فهو وفرة هذه الأرض ، التي لم تسبق زراعتها ولو أن الأرض كانت محدودة ، والجديد الذي لم يسبق زراعته كان نادراً أو معدوماً لما كان للزراع مندوحة عن الالتجاء إلى أرضه القديمة والحرص عليها .

ويقول نادل إن هذا التنقل الكثير يمثل نزعة جديدة . وهذا صحيح ، لأن الناس أخذوا حديثاً ينزلون من الجبال ويقبلون على زراعة السهول . وميدان الزراعة في السهول أوسع وأعظم . ولا يزال فيها متسع للراغبين . وسيجيء اليوم الذي تمتلئ فيه السهول بالمزارع ، وعندئذ لا بد للنوباوي من الانتفاع بكل جزء من أرضه :

والمألوف أن يبدأ النوباوي تطهير الأرض الجديدة ، قبل موعد الزراعة بزمان طويل ، بل أحياناً قبل أن يجيء أوان حصاد الزراعة القديمة ، فينطلقون بفئوسهم ومساحاتهم إلى الأرض التي يرغبون في زراعتها في الموسم المقبل ، فيأخذون في قطع الشجر وتطهير الأرض من النبات ، وإحراق ما يتبقى في الأرض . وقد يترتب على إزالة الشجر تعريض التربة لخطر التعرية ، عندما يأتي موسم المطر ، وبخاصة في الأرض ذات الانحدار - ولا تكاد حتى

السهول أن تخلو من بعض الانحدار — وبعض النوبا يتخذ بعض الإجراءات لحماية التربة ، بترتيب الأرض في صورة مربعات ، أو بعمل خطوط عالية نوعاً ، لتحول دون اجتفاف التربة . ولكن هذه الأعمال ليست شائعة ، وظاهرة تعرية التربة منتشرة انتشاراً واسعاً .

مع ذلك فإن جميع النوبا شديداً العناية بالزراعة عناية فائقة . ومن الممكن أن نعدم من أحسن القبائل الزراعية اهتماماً بالزراعة . وإن كان بعضهم أكثر نجاحاً من بعض ، وهذا ربما يرجع إلى اختلاف في جودة التربة . وربما يرجع لأن الشباب يقضون مدة طويلة في رعى الماشية قبل الانصراف إلى الزراعة ، أو لأن الشبان فيما مضى كانوا يؤلفون الطبقة المحاربة ، التي لا تشتغل بالزراعة ، ولا يزالون متأثرين بهذا التقليد . فيقضون شطراً من العمر دون عمل جدي ، قبل أن ينزلوا إلى ميدان الكدح الزراعي . ومن مظاهر الحياة الجديدة أنها خلقت فرصاً في غير الأعمال الزراعية ، كخدمة الحكومة أو الهيئات المختلفة . . كذلك نشأت زراعات جديدة مربحة مثل القطن والشطة والبطيخ . : وكلها مما يمكن بيعه . ولكنها جديدة أن تصرف كثيراً من الناس عن الزراعات الأساسية .

والأرض عند النوبا ملك للرجال ، سواء أكانوا يزرعونها اليوم أم سبقت لهم زراعتها . وكل فرد في حوزته أرض يزرعها أو سبقت له زراعتها ، يكون له حق الملكية الكاملة عليها يتصرف فيها كما يشاء ، ويستطيع أن يهبها لورثته أو يتركها لهم بعد موته ، والمرأة لا تملك الأرض إلا عند عدد محدود من القبائل التي تتمسك بمبدأ الوراثة عن طريق المرأة . ولكن عند الكثرة العظمى من قبائل النوبا ، الأرض ملك للرجل ، وقد يشير بعضهم إلى أرض على أنها أرض زوجته فلانه ، وليس لهذا التعبير معنى إلا أن هذه الزوجة هي المكلفة بزراعة هذه الأرض . وهي عادة المزرعة المنزلية .

وكل أرض يملكها شخص تميزها دائماً علامة تحدها : مثل سطر من الحجارة ، أو جذوع شجر ، أو سياج من العوسج ، أو شريط من الحشائش

أو نحو ذلك . وإذا ترك المرء أرضه بعد أن استنفد زراعتها ، وخلفها بوراً ، فإنها تظل ملكاً له على الرغم من مضي عدة أجيال دون أن يعود إلى زراعتها لا ينازعه في ملكيتها أحد .

فالأرض إذن إن كانت مزروعة أو سبقت زراعتها فإن لها دائماً مالك معروف ، أما الأرض التي لم يسبق لأحد زراعتها فإن لها حالة خاصة . ويمكن أن نقسمها إلى قسمين ، أرض فضاء بعيدة عن أراضي جميع القبائل ، ولا يسكنها أحد ، فهذه وحدها هي التي يمكن أن يقال إنها أرض حرة لا يملكها أحد وليس لأى القبائل ميزة أو أحقية في امتلاكها ، وهناك نوع من الأرض الفراغ لا يملكها شخص بعينه ، ولكنها مجاورة لأراضي قبيلة من القبائل ، لذلك كان لهذه القبيلة وحدها حق التوسع فيها ، أى أنها هي « المجال الحيوى » للقبيلة التي تجاورها . وتعد ملكاً مشاعاً للقبيلة كلها . ويجوز لأحد أفرادها أن يقطع منها قطعة ليزرعها فتصبح ملكاً له . ولا نعرف إذا ما كان لدى النوبا نظام خاص ينظم مثل هذا التوسع ، اللهم إلا العرف السائد بينهم . فالعرف وحده هو الذى يمنع شخصاً من أن يسرف في الإغارة على الأرض المشاع ، ويأخذ منها فيسرف ؛ ولئن وجد مثل هذا الشخص الطماع فلا شك أن لدى النوبا وسائل يحدون بها من طبعه السيئ بالاحتكام إلى بعض قاداتهم ورؤسائهم . . . ومثل هذا الطمع يجب أن يكون نادراً ، لأن الرجل لا يستطيع أن يستولى على أكثر مما يستطيع أن يزرع :

ومن الجائز أن تنشأ في المستقبل مشكلات حول الملكية ، متى شغلت الأرض كلها بالزراعة والزراع . وقد بدأت في بعض الجهات تظهر علامات لهذا . ومحدثنا نادل (ص ٢٧) : أن هناك بعض جهات اختفت فيها الأرض الفضاء . . . وفي بعض الأحيان ليس من مصلحة الزارع أن يستولى على أرض جديدة . لأنها بعيدة عن مزرعة المنزل . فإن معظم الزراع في الوقت الحاضر ، يظلون في مساكنهم في الجبل . ويذهبون كل يوم إلى المزرعة البعيدة يشتغلون بالنهار ، ويعودون في المساء إلى ديارهم . . . فليس من المصلحة أن يتوغلوا بعيداً

من أجل حيازة أرض جديدة ، اللهم إلا إذا قرروا الانتقال كلية إلى المزرعة البعيدة ؛ وقليل من أقدم على هذه الخطوة إلى الآن .

وحيازة الأرض عند النوبا تم بإحدى طرق أربع :

١ - تطهير الأرض وزراعتها .

٢ - الوراثة :

٣ - بالشراء . وهذا يكون عادة في المزارع المنزلية لأنها محدودة .

٤ - الاستعارة أو الهدية .

النشاط الزراعي في مختلف الفصول :

جميع الأعمال الزراعية من إعداد الأرض ، وغرسها وتعهدها وحصادها . . . الخ . تشغل وقت الزراع في نظام متصل يستهلك الجزء الأكبر من السنة . ولا يكاد يختلف من قبيلة إلى قبيلة إلا اختلافاً طفيفاً ، لأن ظروف الزراع متشابهة بدرجة عظيمة . وإذا كان هناك اختلاف يسير ، فإنه يرجع إلى اختلاف طفيف في موسم المطر الذي قد يبدأ مبكراً في الجنوب قبل الشمال . أو اختلاف في التربة . أو لانشغال السكان بنواح أخرى من النشاط الاقتصادي خلاف الزراعة . فالمورو مثلاً يعشقون الصيد ، فيخصصون الفترة الأولى من موسم المطر للصيد ، وعند قبيلة نيبا ، حيث موسم الجفاف أطول نوعاً ، يتغيب الرجال في أعمال يوثجرون عليها في بعض الجهات . فيختلفون قليلاً عن غيرهم . ولكن هذه الاختلافات طفيفة .

ويمكن أن نعتبر نظام السنة الزراعية عند قبيلة أوتورو هو الحالة الوسط التي يمكن أن نتخذها مثلاً لما يجري في معظم بلاد النوبا .

في أواخر شهر أبريل يتساقط أول المطر . فتلين التربة بسبب ذلك ، ويسهل العمل في الأرض . وفي أثناء الربع الأول من مايو تطهر الأرض من بقايا الزراعة السابقة ، وتقتلع بقايا السيقان والجذور وتكوم أكواماً صغيرة

وتحرق . ويتولى الرجال عادة تطهير المزرعة البعيدة ، والمرأة تتولى إعداد المزرعة المنزلية . وبعد التطهير تحاط الأرض بسياج من العوسج ، إذا كان هناك خطر من عدوان الماعز .

بعد ذلك ينتظر الزارع بضعة أيام ، حتى يحل موسم المطر بصورة جدية . وعند ذلك ينهمك الجميع في نشاطهم الزراعى . وهذا يبدأ عادة بالمزارع البعيدة ، ثم القريبة . ويعمل كل مزارع من الصباح الباكر ويظل يجد طول النهار ، فيقسم الأرض إلى مربعات ، ويبدأ بأحدها ثم ينتقل إلى غيره . ويحفر في أرض المربع حفراً عديدة ، يضع في كل حفرة عدداً من البذور ويلبوسها برجله حتى تندمج في التربة . ومن الممكن أن تتم هذه العملية في يوم واحد لأرض مساحتها $\frac{1}{8}$ فدان . وفي ظرف أسبوعين تتم زراعة المزرعة البعيدة المكونة من فدانين . وهذا يوصلنا إلى نهاية شهر مايو .

وفي أوائل يونيه ، يبدأ نشاط جديد ، وهو استئصال الحشائش الطفيلية ، وإعادة بنى الأرض التى لم ينم فيها نبات ، أو التى اكتسح المطر بعض بذورها ، وتطهير الأرض من الحشائش ، يستمر معظم الموسم الزراعى . . ويشغل جزءاً كبيراً من وقت الزارع وزوجته . . والمرأة ترجع إلى المنزل مبكرة لترعى واجباتها المنزلية . ويتبعها الرجل في آخر اليوم ومعه أدواته الزراعية وبعض الحطب .

ولا تمضى الأيام الأولى من شهر يونيو حتى تكون هذه الزراعة الأولى ، وهى زراعة الحبوب في المزارع البعيدة ، قد تمت . بعد ذلك تبدأ الزراعات في مساحات أصغر : كزراعة الذرة الشامية بجوار المنزل ، والسهم على المنحدرات أو في المزارع البعيدة . كذلك اللوبيا والفول السوداني ، في مساحات صغيرة هنا وهناك ، وبينما العمل يجرى في هذه الزراعات الصغيرة ، فإن العمل في مزارع الحبوب لا يهمل ، وهو يشتمل على أمرين : تطهير مستمر من الحشائش ، ونقل بعض الشجيرات التى سبق أن زرعت متلاصقة : كل خمس أو ست في حفرة واحدة . . فينقل منها اثنتان أو ثلاث إلى مكان نخال

من الزرع ، أو في حافة المربع ، وفي أواخر يونيو يكون هذا العمل قد أنجز أكثره ، ويتفق ذلك مع فترة امتناع للمطر تدوم بضعة أيام .

ثم يتجدد المطر ، ويعود النشاط ، وتظهر حقول الحبوب بهمة من الحشائش : والجماعات التي تزرع القطن تبدأ عملها في هذا الوقت أي في أوائل شهر يوليو .

وفي شهر أغسطس يتم التطهير الثالث من الحشائش ، وهذا يعمل باليد ، لأن الأرض طرية لينة . فتتزع الحشائش باليد مباشرة . وفي هذا الوقت يزرع التبغ ، وفي أواخر أغسطس تكون الحبوب التي زرعت في مايو قد أخذت في النضج . ويمكن جمع بعضها للأكل . كذلك تؤكل أوراق اللوبيا ، كما تجمع بعض أنواع من الحشائش ، لإطعام الماشية .

وفي هذه الأثناء يجرى أيضاً كثير من الجمع والالتقاط لبعض الجذور والثمار الوحشية . وفي سبتمبر تجيء فترة راحة أخرى ، لأن الحقول بعد التطهير الثالث ، لا يكاد تنمو فيها حشائش دخيلة إلا القليل . ولا خوف على النبات وقد أوشك أن يتم نموه . . . وبعض الزراع ينتفع بهذا الوقت ليبدأ بتطهير قطعة أرض جديدة ، تطهيراً جزئياً ، فيقطع أغصان الشجر ، ويقتلع بعض الشجيرات والحشائش ، ويتركها لترعاها الماعز .

وأخر سبتمبر يتم نضج معظم الحبوب . وبخاصة النوع الخفيف ، ويحصد بعض المزارع القريبة من المنزل . ويوضع بعض المحصول في وعاء (بصفة تقاوى للمستقبل) والباقي يخصص للطعام ، ويجمع منه حسب الحاجة .

أما المزارع البعيدة ، فعندما تنضج فيها الحبوب يتبع فيها أولاً عملية الحزم والربط ، وهي أن تربط ثمانية أو عشرة سيقان معاً ، وذلك بأن يلف عليها أحد العيدان بمثابة حبل ، وتكون العقدة على ارتفاع خمسة أقدام ، ليسهل فيما بعد قطع الأجزاء العليا التي تحمل الحب ، وأيضاً لكي تبقى السيقان قائمة ، فلا تسقط بسبب ثقل الجزء الأعلى منها .

وفي نهاية سبتمبر وأول أكتوبر يكون السمسّم أيضاً قد نضج ، وطريقة حصّاده أن تجمع النباتات كلها وتربط على شكل حزم ، في كل حزمة من ٤٠ إلى ٥٠ عوداً ، ثم يقطع الجزء الأعلى (الذي يحمل الحب) ويوضع على الصخر ليّجف :

وهكذا يمضي شهر أكتوبر في أعمال الحزم والربط للحبوب والسمسم ، وفي نهايته يمكن جمع محصول القول السوداني أيضاً . وشهر أكتوبر بوجه عام يعدّ أهدأ من الأشهر السابقة . ومعظم الرجال يكتمى بأن يذهب إلى الحقل مرة واحدة في كل يومين أو ثلاثة .

أما حصّاد الحبوب ، وهو أهم أعمال الحصاد ، فيبدأ في نوفمبر . فتقطع الأجزاء العليا وتحمل إلى المنزل حيث تجفف في العراء . إذ قد انتهى موسم المطر ، ويجب أن يتم هذا العمل في أول ديسمبر حين يبدأ تقطيع الحبوب الثقيلة ذات النمو المتأخر . ثم تجمع اللوبيا ، ويبدأ جمع القطن أيضاً . وبعد الحصاد مباشرة تطلق الماشية في الحقول لتأكل السيقان المتخلفة . وفي هذا الوقت (منتصف ديسمبر) يشرف الموسم الزراعي على نهايته .

يبقى أمام المزارع أشهر يناير وفبراير ومارس ، وهي أشهر « تشطّيب » فالمحصول يتم جفافه بالتدريج ، ثم يحمل إلى الجرن . حيث تتم دراسته وتذريته ، ثم يجمع الحب ، ويكّدس في مخارن الحب . . وفي أثناء ذلك تتم أيضاً عمليات تطهير الأرض الجديدة ، والقديمة ، وإحراق الحشائش والأعشاب .

ونهاية السنة الزراعية عند النوبا قريبة جداً من أوائلها ، فلا يكادون يفرغون من تخزين الغلات ، حتى يجيء شهر أبريل ، ونبدأ السنة الزراعية من جديد . فسنة النوبا كلها نشاط ، ولو أن هذا النشاط بدرجات متفاوتة طوال العام ، فهو شديد جداً في الفترة من منتصف مايو إلى سبتمبر . . ولكنه أقل حدة في سائر الأشهر . وفي هذه الأشهر الأقل نشاطاً يحكم العمل ، يجري

نشاط كثير في المجال الاجتماعي ، إذ تقام حفلات الرقص والغناء والمصارعة .
وهذه الحفلات قد تقام بمناسبة انتهاء أحد المواسم : مثل موسم الغرس أو
الحصاد ، ولكنها قد تقام لغير مناسبة خاصة .

وبعض هذه الحفلات له صفة التوقيت ، أو تحديد الموسم ، وقد يشرف
بعض القسس على هذا عند بعض القبائل . ولكن الحقيقة أن النوبا يعرفون
تماماً دورة السنة ، ويعرفون من مظاهر الطبيعة اقتراب موسم المطر ، ولذلك
تمشي أعمالهم على وتيرة منتظمة ، فإنهم يسبرون طبقاً لمتقويم زراعي ، وإن
لم يعرفوا التقاويم والأشهر .

* * *

بعد تمام الحصاد تخزن الحبوب في صوامع من الطين أسطوانية الشكل ،
تقام عادة على قواعد من الحجارة حامية لها من بطش الجرذان والتمل . وهذه
المخازن قد تبنى بمفردها ، أو تبنى داخل المنزل ، أو الكوخ المعد للطبخ ،
وتتعدد المخازن بتعدد المحاصيل ، وربما تعددت أيضاً بتعدد الزوجات ، ليكون
لكل زوجة مخزن للمحصول الذي أسهمت في إنتاجه . . ولكن هناك أيضاً
— وفوق كل شيء — المخزن الكبير الخاص بالأسرة كلها . وبينما تتصرف
الزوجة في نصيبها بإطعام الأسرة منه أو بالبيع . . فإن المخزن الأكبر يحتفظ به
إلى النهاية ، ويكون التصرف فيه من شأن رب الأسرة . وهذا المخزن هو عماد
الأسرة الأكبر على مدى العام ، وعندما يملأ بحسب حساب ما يحتويه بمنتهى
الدقة ، بوساطة السبب فيعرف الرجل مقدار المخزون تماماً ، ويستطيع أن
يعرف هل يفي بجميع أغراض الأسرة أم لا . وهم يفخرون بوفرة المحصول
ويعلنون ذلك للخاص والعام ، وامتلاء المخزن الكبير إلى الحافة ، يكون فرصة
لحفلة خاصة يشرب فيها الكثير من المريسة . وليس هنالك سنة معينة لادخار
الحب من السنين الوافرة المحصول للسنين العجاف . . كل ما هنالك أن
المحصول إذا كان وافراً جداً . كان هذا سبباً في زيادة الإنفاق في مظاهر

البذخ والكرم . . فإذا جاءت السنون العجاف أحياناً ، فإنه يجد مشقة كبيرة ليدراً خطر الحرمان .

* * *

والاشتراك في العمل الزراعى بين الرجل والمرأة ، يصحبه بعض التخصص في توزيع العمل ، فالعمل الشاق مثل إعداد الأرض وإقامة السياج حولها ، يكاد يكون مقصوراً على الرجل . كذلك نجد أن المزارع القريبة ترجح فيها كفة المرأة بعكس المزارع البعيدة . وهذا بالطبع لأن المرأة يجب أن تظل بقدر الإمكان قريبة من المنزل ، بحكم وجود الأطفال وبعض الماشية من جهة ، ولأن على المرأة واجبات منزلية أخرى مثل إعداد الطعام والشراب (المريسة) .

ولكن هذا لا يمنع أن هناك مرحلة في الزراعة ، لا بد للزوجين أن يشتركا فيها لكي تتم بسرعة ، كموسم الغرس والحصاد . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة، فإن هذا لا يغير من هذا النظام كثيراً ، لأن لكل زوجة مزرعتها القريبة من المنزل ، وفي المزارع البعيدة تشتغل كل زوجة في حقل منفصل عن الحقل الذى تشتغل فيه زوجها . والرجل هو حلقة الاتصال ، ويشرف على كل هذا النشاط .

وهناك أعمال زراعية يستحب فيها أن تتم بسرعة . ولمثل هذه الأعمال يجب تجنيد أكبر عدد من المعاونين . وهذا ضرورى بوجه خاص في موسم الحصاد . فيلجأ النوبا في هذا إلى نوع من النظام التعاونى بحيث يتعاون الجيران طبقاً لعرف متبع ، وذلك بأن يطلب صاحب المزرعة معاونة من معارفه أو أبنائهم وبناتهم . وذلك لمدة يوم واحد ، ثم يتكرر هذا من آن لآن حسب حاجة المزارع ومقدرته ، إذ لا بد له أن يوفر لهم بعض الطعام ، وبخاصة بعض الشراب ، والمزارع المتواضع يرتب هذا النظام مرتين أو ثلاثاً في السنة ، أما الغنى فينظمه ست أو سبع مرات ، وقلما يلجأ إلى هذا التعاون إلا في الحصاد ، وأن استخدم في بعض القبائل أحياناً في موسم الغرس .

ولا بد من الإشارة إلى أن البنات في كل أسرة تساعد والديها ، إلى أن يتزوجن ، أما الأولاد قبل سن الزواج ، فلا يؤدون عملاً زراعياً يستحق الذكر ، لأن لهم عملاً آخر وهو الرعى . وفي موسم الزراعة يعيشون عادة في معسكر خاص Cattle Camp . وربما زرعوا حول معسكرهم هذا قطعة من الأرض ، من أجل غذائهم فقط . ويرى البعض أن قلة اشتراك الأولاد في الزراعة ، هو من بقايا عهد الرعى ، يوم أن كانت تربية الماشية عملاً أهم مما هو الآن ، أو لعله بقية العهد الحربي ، عندما كان الشباب يدخرون للرعى والحرب ::::

ومهما يكن من أمر ، فإن الشباب لا يكادون يقتربون من سن الزواج (١٦-١٧ سنة) حتى يزداد اشتراكهم في العمل الزراعي ، فيقومون بمساعدة والدهم ، أو نخالهم إذا كانوا خاضعين لنظام نفوذ الأم . وبعد أن ينحطب الشاب فتاة من بعض العشائر ، فلا بد له أن يقوم بعمل منتظم في حقل صهره . ومثل هذا العمل يعد بمثابة جزء من المهر .

إلى الآن لا نجد عند النوبا « عمالاً زراعيين » أى أجراء يشتغلون بصفة دائمة في أرض غيرهم . وهذا على الرغم من وفرة الأراضي . وليس هنالك طبقة عبيد ، تعمل لطبقة السادة . . ويبدو أن فكرة الحصول على عبيد للعمل قد اتخذت في الماضي صورة خاصة أشار إليها نادل في كتابه عن النوبا^(١) .

فقد جاء وقت كان فيه النوبا يقتنون بعض الرقيق بطريق السلب أو بطريق الشراء . ولكن لم تكن هناك تجارة رقيق بالمعنى المعروف . اللهم إلا عند قبيلتين : هم نياما ودانج . . والموقع الجغرافي للقبيلتين قد يفسر ذلك لأنهما في آخر الشمال الغربي ، إلى جوار أراضي العرب من البقارة . أما أغلبية قبائل النوبا فكانت تتبع مع الرقيق نظاماً خاصاً وهو نظام

(١) نفس المرجع ص ٥٥ وما بعدها .

التبني adoption بحيث يصبح الرقيق جزءاً من الأسرة ، تربطه بها أواصر القرابة . . . ويعمل في خدمتها كواحد منها ، وله عليها الحق أن تدفع له المهر إذا تزوج وتعطيه قطعة أرض لنفسه ، وأكبر الظن أنه عندما حرمت تجارة الرقيق ، لم يسبب هذا التحريم أية مشقة لقبائل النوبا .

* * *

الصيد : في الحياة الاقتصادية للنوبا ، ليس للصيد الآن أهمية كبيرة من ناحية التغذية . ولكنه لا يزال ظاهرة اجتماعية لها خطرها في حياة كل قبيلة ، وليس من المنتظر بعد أن توسع الزراع في زراعتهم ، أن تظل وفرة حيوان الصيد على ما كانت عليه . . فباتساع « العمران » والزراعة ، تنكمش المساحة التي تتجول فيها الحيوانات الوحشية ؛ وتضطر للنزوح إلى أراض بعيدة : لذلك أصبح الصيد مقصوراً على أنواع محددة : بعض الوعل ، والأرانب البرية ، ودجاج الوادي ، والققط البرية وبعض القردة الصغيرة ؛ وفيران الغيط التي تصاد بكثرة بعد الحصاد :

وسلاح النوبا الأصلي هو الرمح والمهاووة ، والدركة ، وهم لا يعرفون القسي ولا السهام ، ولذلك كانوا عاجزين عن صيد الفيلة ، وغيرها من الحيوانات الضخمة ، وربما تسنى لهم فيما مضى ، أن يصيدوا أسداً أو فهداً ، بوساطة رماحهم ، وهذا أصبح اليوم من الأمور النادرة .

وقد أدى دخول العناصر الآتية من الشمال إلى وجود بعض أسلحة نارية ، أكثرها بنادق قديمة مما اشتراه النوبا من بعض الجماعات العربية .

وموسم الصيد هو عادة فصل الجفاف (نوفمبر - مارس) ولكن الصيد لا يكاد ينقطع طول العام إلا في شدة موسم الزراعة (يونيه - سبتمبر) حين لا يكون لدى النوبا وقت لأي عمل آخر ، حتى أن بعض القبائل تحرم الرقص والحفلات والصيد في ذلك الموسم تحريماً دينياً .

ومن الجائز أن يذهب الرجل بمفرده للصيد ، مسلحاً بأسلحته العادية :

وبخاصة إذا كانت لديه بندقية . لكن أكثر الصيد تؤلف له جماعة يقودها واحد منها . . ولا يشترك في الصيد غير الشباب دون كبار السن أو النساء .

ولا بد للشباب المشرف على الزواج أن يقود حملة صيد ، لكي يحصل على بعض الغنائم التي يقدمها جزءاً من المهر ، كذلك لا بد للشباب الذي يوشك أن تعمل له عملية الوشم أن يقود حملة للحصول على الأرانب البرية التي لا بد أن تقدم جلودها للكبار .

* * *

حرفة الرعى :

يرعى النوبا طائفة من الحيوانات المنزلية ، وهي الضأن والماعز والبقر ، والخنازير والدجاج ؛ وبعض الرؤساء قد يكون لديهم بعض الخيل أو الحمير أيضاً . . وليست كل هذه الحيوانات موجودة عند جميع القبائل على السواء . فالجماعات التي تأثرت بالاختلاط بالعرب مثل دلنج وكورنجو وتيرا ليس لديها خنازير . وفي الجبال الشرقية تقل الماشية (البقر) بينما هي في الجنوب أهم الحيوانات المستأنسة . والمورو مثلاً يعدون حقاً من رعاة البقر ، إلى جانب أشهرهم بالزراعة .

والعادة أن تحفظ الخنازير والدجاج في المنزل ، ولا ترعى بعيداً عنه ، ولذلك كان رعيها متروكاً للنساء ، أما سائر الماشية فإن رعيها موكول للشباب : وأرجال وحدهم يقومون بجلب الماشية ، حتى ولو كانت من الماعز والبقر ، اقريب من المنزل ، أو الحقل الذي تعمل فيه النساء .

والذكور من الماعز والغنم والخنازير تخصى وهي في السنة الثانية أو الثالثة . ثم تسمن للذبح ، غير أن العناية بالماشية والإلمام بوسائل تربيتها ليس من الأمور التي يمتاز بها النوبا مما يؤكد أنهم شعب زراعى قبل كل شيء .

(١) الوشم ظاهرة شائعة لدى النوبا رجالاً ونساء . وتترك ندوباً بارزة في الجسم ، لتدل على الجلد وقوة الاحتمال للرجال ، وهي من قبيل التجميل للنساء .

وقد رأينا فيما تقدم أن النوبا يقتنون الخنازير ، ما عدا قبيلتين أو ثلاثاً متأثرة بالعرب . أما سائر القبائل فإنها تربي الخنازير ، ولا نجد في السودان شعباً آخر يربي هذا الحيوان سوى الانجسنا Ingassana ، الذين يعيشون في المرتفعات الجنوبية من أرض الجزيرة . . ويشتبه مشابهاً لبيئة النوبا . . ولكن بين أوطانهم وأوطان النوبا أراضٍ سهلة تسكنها شعوب أخرى ، لا تقتنى الخنازير إطلاقاً . . ولعل بلاد الانجسنا والنوبا كانت وقتاً ما متصلة ، متشابهة الثقافة ، وقد تشاركها في ثقافتها الأراضى التى تقع بينها . . وفى هذه الحال يكون ميدان تربية الخنازير واسعاً متصلاً . أما الآن فإن الأراضى الواقعة بينهما يحتلها الشلك والدنكا ، وبعض الجماعات العربية ، وهذه كلها لا تعرف الخنزير .

على أن الخنزير ليس بحيوان ذى شأن ، وهو عند النوبا أقل بكثير من الماعز ، وفى الوقت الذى كان سعر الرأس من الماعز ٢٠ قرشاً ، لم يكن ثمن الخنزير يزيد على خمسة قروش . ويبدو أن العدد أيضاً قليل جداً ، وإذا كان التأثير العربى قد أدى إلى فقد الخنازير تماماً عند عدد غير قليل من القبائل . فلا بد أن مصيرها إلى الزوال .

أما العناية بالماشية فإنها تستحق الذكر . وفى موسم المطر تأوى الماشية إلى زريبة أو معسكر خاص ، بعيداً عن المزارع والقرى . وفى موسم الجفاف ، وبعد أن يتم الحصاد ، فإن الماشية تجلب إلى قرب القرية أو المزرعة ، وذلك لعدة أسباب ، منها أنها تطلق فى الحقول ، لتأكل السيقان المتخلفة من زراعة الذرة بخاصة وسائر الزراعات بعامة ، ولحمايتها من الحيوانات المفترسة التى تكثر فى الحقول بعد موسم الزراعة . وكذلك لحمايتها من المغامرات البشرية ، التى كانت شائعة فيما مضى . ولوفرة المياه فى الجهات الجبلية بعد أن تتناقص أو تجف فى السهول . وصفوة القول أنها تجلب إلى قرب القرية من أجل التغذية والسقاية والحماية ، وقد أخذت بعض القبائل تعنى بصنع الزرائب فى السهول

بحيث تتوفر لها الحماية اللازمة ، فيمكن إبقاء الماشية هناك معظم السنة ، ولا يوثى بها إلى الجبال إلا لتأكل فضلات الزراعة .

وترعى الماشية في مراعى مشتركة ، لا يملكها شخص بعينه ، والقبائل المتجاورة ترعى في إقليم واحد . وفيما مضى من الزمن كانت المراعى تقام حول سفوح الجبال ، أما الآن وقد أخذت الزراعة تنتشر في السهول فإن المراعى أخذت تتراجع أمامها إلى الأرض السهلة . وفي المرعى القديم كان الرعاة يبنون كوخين أو ثلاثة من الحجارة والطين ، وفي داخل الكوخ بيت للرعاة ، وعددهم في العادة نحو خمسة أو ستة ، وتبيت معهم الماشية الصغيرة من ضأن وماغز ، أما الماشية فتبيت في كوخ آخر . وفي كل صباح تساق الماشية إلى السهول لترعى ، ثم تعود في المساء لتبيت ، ولا يزال هذا النوع من المعسكرات موجوداً لدى الموردي ، أما سائر القبائل فإنها أخذت تتوغل في السهول طلباً للمرعى ، بسبب ضغط النشاط الزراعى ؛ وأصبحت الزرائب تبنى من طراز أخف ، وتصنع من الحطب والخشب والطين والعشب ، وقد كبر حجمها عما كانت عليه من قبل ، بحيث تشتمل على سبعة أو ثمانية أكواخ للرعاة . وحظيرة للماشية . . وفي العادة يكون الرعاة من قرية واحدة ، وإن لم يكونوا من أسرة أو عشيرة واحدة ، وكل شاب يرعى ماشية أسرته . وربما غنى أيضاً بماشية بعض الأقارب . . والرعاة عادة متفاوتون في الأعمار ، والصغار يكلفون بالأعمال الأقل خطراً مثل نظافة الحظائر ، ورعى الضأن والماعز . أما الكبار فيرعون الماشية الثقيلة ، ويذهب بعضهم إلى القرية لإحضار الزاد من آن لآن .

ويجرى حلب الماشية في الصباح والمساء ، أما الماعز فتحلب في الصباح فقط ، وليس شرب اللبن أمراً محبوباً عند جميع القبائل . فبينما يحبه المورو نرى هيبان وكوالب وأوتورو لا يعبأون به كثيراً ، ويحفظ الحليب في وعاء من اليقطين ، بخلاف الذى يستعمل في المعسكر . ويحمل اللبن بعد ذلك إلى القرية كل بضعة أيام . ولا بد من تخصيص جزء كبير من اللبن لصنع الزبدة ،

الى يدهن بها الشباب جسدكم . وهذا أمر شائع عند جميع القبائل على اختلاف نزعاتها ، سواء أكانت ممن يحب شرب اللبن ، أم ممن لا يعبأ بشربه .

وكان اقتناء الماشية فيما مضى ، كثيراً ما يتم بوساطة الإغارة على القبائل المجاورة ، ولكن هذا العهد قد انتهى . ومن الجائز الآن أن يحصل شخص على رأس من الماشية بوساطة السرقة ، ولكن هذا العمل تخف به المشقات ولا تحمد عقباه . . أما الوسيلة المشروعة الآن للحصول على الماشية ، فهي بطريق المبادلة بأنواع أخرى من الماشية ، أو بالشراء وبخاصة من الأسواق العربية .

والبيع والشراء بالنقد وبالحبوب لا يزال أمراً قليل الحلوث ، وإنما الأغلب أن يستبدل المرء البقر بالعجول أو بالماعز . لأن بعض القبائل تفضل البقر ، والبعض يفضل العجول . وليس شراء البقر بالنقود أمراً سهلاً .

والأسعار في مثل هذه الأحوال مصطلح عليها . فالمعزى التامة النمو هي في زعم المستر نادل (وقد نشر كتابه في سنة ١٩٤٨) وحدة الحساب في الأسعار ، وهي تعادل سبتاً من الذرة أو نصف سبت من السمسم وتساوى بالنقد عشرين قرشاً . . والبقرة تعادل ثورين عند معظم القبائل ما عدا هييان وأوتورو التي لا تشرب اللبن وتفضل الثيرة على البقر .

وكثيراً ما يعتمد النوبا إلى تحويل الزائد من غلاتهم الزراعية إلى ماعز أو بقر ، لأنهم بذلك يقتنون سلعة أطول بقاء من الحبوب التي يدفعونها ثمناً . وهي فوق ذلك سلعة تأتي بنسل ولبن . وهي في الوقت نفسه عنوان بارز على الثروة والجاه . ومع ذلك لا نرى النوبا يستغلون هذا الاتجاه إلى أقصى إمكانياته ولذلك لا نراهم يزيدون حجم القطع كثيراً ، وهو في المتوسط حوالى عشرة رؤوس من البقر وستين رأساً من الماشية الصغيرة . . وبعض قبائل الجنوب فقط هي التي يصل قطيعها إلى ٣٠ أو ٤٠ رأساً من الماشية بخلاف الضأن والماعز . وهكذا نرى أن النزعة الزراعية هي الغالبة . والنوبا يقتنون الماشية

في الغالب لأغراض خاصة ، كأن تعطي للأولاد على سنبل الهبة أو لأولاد الأخت ، أو للمساعدة في دفع المهر^(١) أو الدية : : كما أن ذبح الماشية واجب في الحفلات ذات الصفة الروحية ، أو في الحفلات الخاصة ، حين يريد الشخص إظهار مكانته في المجتمع .

الصناعات الأخرى :

بالإضافة إلى الزراعة والرعي نجد أن للنوبة حرفاً أخرى ، وهذه تبين لنا إذا نظرنا إلى ما يقتنونه في الحياة . وهذه من السهل أن نذكرها : فهناك المنزل وهو عبارة عن مجموعة أكواخ تصنع من الحجارة والطين ، أو من الطين والخشب مغطاة بسقف من الحطب المرصوص بدقة وإحكام . وإلى جانب المنزل كومة من خشب الوقود ؛ وفي داخل المنزل أدوات الزراعة معلقة في السقف أو على الجدار . وبعض الرماح والفتوس ، وبنديقة (ليست من صنع النوبا) ، وبعض الأسيات والأوعية الفخارية ، واليقطين الجاف الذي يحفظ في كوخ الطبخ ، ويحفظ فيه الزيت واللبن ، وأخيراً ما قد يكون لدى الناس من ثياب (وبعض القبائل لا يلبس فيها الثياب كثيراً) وهي إما أن تكون من الجلد أو ثوب على الطراز العربي . وهناك أيضاً العنجريب بمثابة سرير للنوم عند كثير من القبائل ، ولعلمهم أخذوه عن العرب .

هذه أهم المقتنيات التي نجدها لدى النوبا .

ولا بد أن كان النوبا يوماً ما يصنعون بأيديهم كل ما يحتاجونه ، أو يتبادلون الأشياء مع جيرانهم الأقربين . أما الآن فمن الجائز أن يشتري المرء كثيراً مما يحتاجه من التاجر العربي المتجول ، أو صاحب دكان في القرية . ويمكننا أن نميز الآن ثلاث وسائل للحصول على ما يحتاجه النوباوي من

(١) يختلف المهر عند النوبا وهو يقدر في المتوسط بنحو ٨٠ عنزة . هذا مجرد قيمة تدفع بالماعز والبقر والحبوب والرماح والفتوس وكل شيء له قيمة . وعلى ذلك لا بد للخاطب أن يعمل في مزرعة والد العروس مدة قد تطول .

هذه الأمتعة : فهو إما أن يصنعه هو أو متعاوناً مع زوجته . أو يتخصص بعض النوبا بنوع من الصناعات ، ويبادلها مع الآخرين . أو يشتري من التاجر ما لا يصنعه النوبا أو ماتت صناعته عندهم .

والمنزل الذى يبنيه النوما ممتاز وإن كان من نوع الأكواخ أو القوطيات المعروفة ، ولكنها تبنى بإتقان ، وكثيراً ما تستخدم فى بنائها الحجارة . وبناء الصوامع لتخزين الغلة يتم بمهارة ودقة . أما أدوات الزراعة . فكانت فيما مضى تصنع من الخشب ، والآن يشتري النوباوى فتوساً مصنوعة من الحديد .

والسرير الذى ينام عليه النوباوى كان فيما مضى من طراز بسيط : أما الآن فقد استبدل به العنجرىب العربى ، وكثير من النوبا متخصصون فى صناعته .

وثياب النساء كانت فيما مضى تصنع من نسيج مشتق من لحاء الشجر أو الجلود . أما الجيل الجديد فيقتنى قطعاً أخرى من القماش الملون المستورد : والملح الذى كان فيما مضى يصنع بوساطة الأهالى ، يشتري الآن من دكان التاجر العربى . ولعل هذا التاجر العربى هو أكبر أداة للتحويل — إن لم نقل التقدم — الاقتصادى عند النوبا .

ولكن هناك حرفة لا تزال عملية صرفة وهى صناعة الفخار ، وهى حرفة نسائية صرفة ، بل هى مقصورة على طائفة من النساء تخصصن فيها . والمرأة هناك تعمل فى شبه « مصنع » وهو عبارة عن كوخ من القش ويصنع الفخار فى حفر ضحلة فى الأرض ، تغطى بورق شجر مبلول ثم توضع عليه عجينة الخزف ، وتسوى باليد ، ثم تحرق بعد أن تجف . وهناك بعض التخصص المحلى ، فالأوانى قد تكون مستطيلة ، بيضبة ، واسعة أو ضيقة : والناس تشتري ما تحتاجه من هذه الأوانى ، كما يروق لها .

* * *

ونختتم حديثنا عن النوبا ، وقد اضطررنا لبعض الإسهاب فى العرض ، لأننا هنا بإزاء شعب يحترف الزراعة ويمارسها بكل همه وجد ، بعد معالجتنا

في كثير من القصور ، للرعاة وحبيهم لقطعانهم . وكأن النوبا جزيرة زراعية في وسط بحر من الرعاة .

وليكن ختام الحديث إشارة يسيرة إلى الحياة الروحية عند النوبا . إنهم كما نرى في موقعهم الجغرافي معرضون للنفوذ العربي والإسلامي ، وقد تأسست إلى الشمال منهم ، ومتاخمة لحبودهم ، دولة عربية إسلامية وهي دولة تقلى . . . ومن أجل ذلك لم يكن بد من أن يكون للنفوذ العربي كبيراً ، على الرغم من أن الاستعمار طبق على « الجبال » القاعدة التي طبقها في الجنوب بأن يحرم على العرب ممارسة شعائر دينهم علناً ، وغير ذلك من المضايقات ، كما أن الاستعمار ملأ الإقليم بالمبشرين تعميماً للسياسة التي مارسها ، غير أن هذا كله لم يحل دون توغل النفوذ العربي في جبال النوبا .

أما المعتقدات الروحية الأصلية عند النوبا ، فإنها تركز في الاعتقاد بأن لكل عشيرة « روحاً » ، وأن هذه الروح « تحل » أحياناً في جسم فرد من أفراد العشيرة وعلامة « الحلول » أن هذا الفرد الممتاز تعتريه نوبات من رعدة أو رعشة ، ووجوم ونوع من الغيبوبة ، ينطق في أثنائها بكلمات وعبارات يمكن تأويلها بحيث تصبح نوعاً من التكهن بأحداث ، أو التوصية بأعمال . والمفروض أن « الروح » هي التي تتكلم والشخص ما هو إلا الأداة التي تنقل الرسالة الروحانية . . وهذا الشخص الذي تعتريه هذه النوبات يراقبه رجال العشيرة المحنكون ، ليتأكدوا أنه حقيقة قد اختارته الروح لكي تحل فيه من آن لآن ، وعند ذلك ينادون بأنه « كوجور » Kujur كبير تمييزاً له من غيره الذين لم ينضجوا ولم يصلوا إلى المرتبة الروحية العليا .

وفي بيئة متنوعة في لغاتها وثقافتها ، وأحوالها الاجتماعية ، لم يكن بد أن يكون لظاهرة الكوجور صور متنوعة في العشائر المختلفة . ولكن أساسها واحد ، وهو صلاحية بعض الأفراد لأن تحل فيهم روح العشيرة : وهؤلاء هم القادة الروحيون ، والعظيم منهم الذي يقر له الناس بالفضل الروحي ،

يكون هو « الكوجور الأعظم » . . ولا تكاد تخلو قبيلة من شخص ينطبق عليه هذا الوصف . وإلى جانب « الكوجور الأعظم » الذى يلجأ إليه فى الملمات هنالك كهنة من درجة أقل خطراً يمارسون أعمال الطب وشفاء المرضى ، وجلب المطر ، والعمل (روحانياً) لوفرة المحاصيل والغلات الزراعية .

* * *

وحسبنا ما تقدم من شرح لشئون شعب النوبا وأهميته . وإذا توغلنا بعد ذلك شمالاً خرجنا إلى الأقاليم التى يسودها العرب والسلالات القوقازية ، وقد اضطررنا لكى نواصل الحديث عن السلالات الزنجية ، أو التى تغلب فيها الدماء الزنجية إلى أن نتناولها الواحدة تلو الأخرى ، فوصل بنا الأمر إلى أن وصلنا إلى دار النوبا . ولكن لم يزل أمامنا شعب واحد ، إلى الغرب من دار النوبا ، ومنحدر نوعاً إلى الشمال وهو شعب الفور الذى سميت به مديرية دارفور . وشعب الفور ما هو فى الواقع إلا جزء من الشعوب والقبائل العديدة المنتشرة فى مديرية دارفور . . وتمتاز أوطانه بما يحيط بها من الجبال العالية وهى جبال مرة . ولن نطيل الحديث عن الفور ، والحديث عنه جدير أن يلحق بالحديث عن السلالات العربية أو المستعربة . فإن الفور وإن كانت لهم لغتهم الخاصة ، فإن هذه ظلت مجرد رطانة . وقد اعتنق الفور الإسلام ، واقتبسوا اللغة العربية . وفيهم عنصر ممتاز يدعى الكنجاره ، ويمثل سلالة عربية خالصة .

فلا مناص لنا من أن نختم الحديث عن السلالات الزنجية ، التى شغلت الفصول السابقة ، وأن تنتقل إلى الحديث عن السلالات القوقازية .

(١) تناول الكلام على النوبا الأستاذ سلجمان ، فى كتابه عن أجناس إفريقية . وتناوله بتوسع فى كتابه عن القبائل الوثنية فى السودان . . . وأخرج الأستاذ نادل كتابه عن النوبا فى سنة ١٩٤٨ ، بعد أن عاش فى البلاد زمناً ليس بالقليل ، كما أن لتادل مقالات أخرى فى مجلة السودان فى مدونات (S.N.R.) Sudan Notes and Records . وعلى الرغم من النقد الذى وجه إلى كتاب نادل ، فإنه مرجع واف مفصل عن جميع قبائل النوبا .

الفصل الحادى عشر

السلالات القوقازية

حينما نعرض للسلالات القوقازية فى إفريقية ، لا بد لنا أن نحصر الكلام على الشعوب التى سكنت إفريقية منذ الأزمنة المتقدمة ، أى الإفريقية الصحيحة ، مع صرف النظر تماماً عن العناصر الدخيلة ، التى تسمى « البيضاء » . . . وأكثرها فى إفريقية جنوب خط الاستواء ، هذه عناصر غربية تعيش فى غير أرضها ، دخيلة لم تنشأ ولم تتطور فى إفريقية ، ولم تعرفها البيئة الإفريقية ، إلا كعناصر عدوانية ، لا تمت للسلالات الإفريقية بسبب . ونحن إذا أغفلنا الكلام عن هؤلاء الدخلاء ، لا نفعل أكثر مما فعله علماء الأجناس ، فى كتبهم وفصولهم عن إفريقية ، كما نجد ذلك فى كتابات هدن وسلجمان وأصراهما . فإن وجود الإنجليز والبوير والجرمان فى جنوب إفريقية يمثل أحداثاً سياسية ، لا حقائق أنثروبولوجية .

وقد رأينا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب ، أن الجنس الزنجى وما يشابهه من سلالات ، قد اتخذت القارة وطناً منذ عهد بعيد ، سواء وفد إليها من الخارج ، كما يرى أصحاب رأى القديم ، أو نشأت فى صميم القارة ، كما ينادى أصحاب رأى الحديث . . . غير أن السلالات الزنجية على قدم عهدها بالقارة ، لم تنتشر فيها كلها ، بل كان أكثر انتشارها فى الأقاليم الوسطى والجنوبية . ولعلها لأسباب جغرافية طبيعية ، لم تجد دافعاً يدفعها إلى الأقاليم الشمالية .

أما العناصر القوقازية ، فإن قلة من الكتاب قد تزعم بأنها من أصل

إفريقي . والكثرة من العلماء ترى أن القوقازيين دخلوا إفريقية من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية للقارة ، والقوقازيون كما يعلم طلاب علم السلالات ، منتشرون في معظم القارة الأوربية والنصف الشمالى من إفريقية ، وفي قارة آسيا من أقصى الغرب إلى شبه جزيرة الهند ، وبعض « جيوب » أخرى في أندونيسيا وماليزيا والجهات الشرقية من القارة . وهذا بالطبع بصرف النظر عن الانتشار الذى ملأ القارة الأمريكية .. وهو شىء يتجاهله علماء الأجناس كما يتجاهلون وجود البيض في إفريقية .

وقد اصطلح علماء الأجناس على أن يقسموا القوقازيين في إفريقية إلى قسمين : الحاميين والساميين . ومع أن هذين الاسمين مأخوذان من العهد القديم ، فإن دراسة الأجناس قد تبنت الاسمين فقط (دون مدلول الاسمين) لأنهما اسمان جريا على الألسنة ، ولا بأس في استخدامهما في التمييز بين المجموعتين الكبيرتين من سكان إفريقية القوقازية :

ومع ذلك فإن التمييز بين الساميين والحاميين يوشك أن يكون هنا أيضاً تمييزاً لغوياً . فالحاميون هم الذين يتكلمون لهجات ، يرى علماء اللغات أنها من أسرة لغوية واحدة ، أصلها من جنوب آسيا وجاءت في عصر متقدم ، بحيث لم يبق لها أثر الآن في تلك القارة . أما الساميون فهم الذين يتكلمون لغات مشتقة من جزيرة العرب في وقت يوصف بأنه متأخر نسبياً .

على أن الأستاذ جرينبرج^(١) ، وهو من أهم أساتذة اللغات بعامة والإفريقية بخاصة ، قد جعل اللغات السامية والحامية أسرة لغوية واحدة . . . وقسمها إلى خمسة أقسام : (١) المصرية القديمة (٢) السامية (٣) البربرية (٤) الكوشية و (٥) لغة تشاد^(٢) . . . وأطلق عليها اسم الأسرة الإفريقية

(١) راجع مقاله في كتاب African Cultures, 1962 إخراج الأستاذين

Bascom, Herscovits

(٢) لغات عديدة حول بحيرة تشاد أكثرها في نيجيريا وأشهرها لغة الهوصا ، وكانت دائماً توصف أنها لغة « حامية » . . . وعدد هذا الفرع المسمى « تشاد » يزيد على المائة لغة كما يقول جرينبرج ص ١٩ نفس المرجع .

الأسبوية Afro-Asiatic ، وأراد أن يتجنب عبارة حامية لأسباب بدت له . . . والذي يهمننا هنا أن عالماً كبيراً من علماء اللغات ، قد استطاع أن يقرر وجه القرابة بين لغات الجماعات القوقازية في إفريقية ، بحيث أمكنه أن يجعل اللغة العربية واللغات البربرية في شمال إفريقية أعضاء في أسرة واحدة ، والأقسام التي ذكرها جرينبرج يهمننا منها بوجه خاص ، أنه أمكنه بأساليبه العلمية الخاصة أن يربط بين المصرية القديمة ، وبين اللغات السامية . كما أنه ميز بين الكوشية في شرق إفريقية وبين لغات البربر في شمال القارة .

وهذا التقارب اللغوي يعكس إلى حد ما التقارب في الصفات الطبيعية . لقد يصادف المرء في مطالعته كتاباً يحاولون عبثاً أن يفرقوا بين الساميين والهاميين ، في صفاتهم . فلا يبلغون يبحثهم شيئاً قبله ، وهذا يبدو جلياً عند الذين يحاولون أن يجلوا وجوهاً للاختلاف بين سكان شمال إفريقية الذين يتكلمون لغة بربرية أو لغة عربية ، وكثيراً ما يزعم البعض أن كثيراً ممن يتكلمون العربية في شمال إفريقية ما هم إلا بربر مستعربون ، والصحيح في نظر كثيرين أن الهاميين والساميين من أسرة جنسية واحدة ، كما هي الحال في لغاتهم . . . ولذلك لا حرج علينا ونحن نتكلم عن السلالات ، أن نفرد فصولاً عن بعض الشعوب التي تتكلم اللغات « الحامية » ، وأخرى عن أصحاب اللغات السامية . ولكن حيث يمتزج السكان في بعض الأقطار ، لا بد لنا أن نتخذ القطر كله موضوعاً واحداً ، نتكلم عن خصائصه الطبيعية والثقافية .

* * *

وعلى الرغم من احتراسات الأستاذ جرينبرج لا يزال الكتاب عن السلالات الإفريقية يتحدثون عن الهاميين والساميين في فصول مختلفة ، ولا بد لنا لأجل الوضوح أن نحذو حذوهم ولنبدأ الكلام عن الهاميين .

كما أن جرينبرج يفرق بين اللغات الكوشية واللغات البربرية ، يميز علماء

الأجناس بين الحاميين الشرقيين والشماليين ، ولا شك أن الاعتبارات الجغرافية تبرر مثل هذا الإجراء .

* * *

الحاميون الشرقيون :

يرى الأستاذ سلجمان أن المجموعة الشرقية تشتمل على :

١ - المصريين القدماء والحديثين برغم ما قد دخل مصر حديثاً من مهاجرين جدد .

٢ - البججه .

٣ - النوبيين .

٤ - الجلا .

٥ - السومال .

٦ - الدناكل .

٧ - الأثيوبيين ، برغم اختلاطهم بعناصر سامية وزنجية .

أما المجموعة الشمالية ، فتشمل :

١ - جماعات البربر في برقة وطرابلس وتونس والجزائر ، وهؤلاء يسمون أحياناً المجموعة الليبية .

٢ - بربر مراكش .

٣ - سكان الصحراء مثل الطوارق والتبو .

٤ - العولا في نيجيريا وما يليها .

٥ - الجوانش Guanche عنصر انقرض وكان يسكن جزر كناريا .

وهذا التقسيم كما قلنا مفيد على علته ، لأنه يتيح لنا فرصة لأن نتحدث عن الشعوب المختلفة ، وإن كنا لن نوفيها كلها حقها لضيق المقام من جهة ، وقلة معلوماتنا عن بعضها من جهة أخرى .

وقد احتشد الحاميون بعد انتقامهم في موجات متتالية في الجزء الشرقي من

القارة ، الذى يلى بوغاز باب المندب والذى يسميه كثير من الكتاب « قرن إفريقية » . . وتتدافع الموجات عبر البوغاز ، وتتدافع الشعوب ، وتحتل الأقطار المختلفة . . على مدى قرون عديدة . حتى لم يبق فى أوطانها الآسيوية إلا بقية لم تلبث أن اندمجت فى عناصر ثقافية أخرى فى الجنوب العربى .

والمتحفظون من الكتاب لا يذهبون بهذه الحركات والموجات ، التى ترتب عليها احتشاد الحاميين الشرقيين فى شرق إفريقية ، إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد .

وإذا صرفنا النظر عن الآثار التى ترتبت على الاختلاط بعناصر زنجية بحكم الموقع الجغرافى ، وبحكم الغزو والسبي . نرى أن هذه السلالات متشابهة حتى أن سلجمان كان يرى الشبه قوياً جداً بين المصريين القدماء ، وبين البجة ، وأورد فى كتاباته صوراً كثيرة توضح ذلك^(١).

والصفات قوقازية : بمعنى أن الشعر مموج فى العادة ، والأنف دقيق أو متوسط ، بارز فى كثير من الأحيان ؛ والشفاه مليئة غير منقلبة . وبروز الفك فى حكم العدم . والقامة متوسطة . والجسم نحيل والرأس والوجه بيضيان ، والشعر غزير على الرأس ، قليل على الجسم ، ولون البشرة متأثر بالاختلاط بعناصر جنوبية . . لكن الأصل فيه أن يكون أسمر ، سمرة خفيفة فى معظم الأحيان ، وداكنة فى أحيان أخرى :

السومال :

شعب السومال أول ما يصادفنا حين نغادر الأقاليم الزنجية فى شرق إفريقية ، وتتجه شمالاً ، ولذلك نرى أن بعض السومال يعيشون فى كينيا فى الإقليم المتاخم لسوماليا . . فأوطانهم تبدأ من المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثانية من درجات العرض الجنوبي ، وتتجه الأوطان نحو خليج عدن ،

(١) مقالة الأستاذ سلجمان فى مجلة J.R.A.J. لسنة ١٩١٣ وعنوانها :

The Hamitic Problem in the A.-E. Sudan.

وأكثرها داخل في الوقت الحاضر في جمهورية سوماليا . ما عدا إقليم جيبوتي ،
الذى يدعى السومال الفرنسى . كما أن هناك مساحة ضخمة تشمل الجنوب
الشرقى من أثيوبيا ، أى منطقة أوجادين وما يجاورها . والسوماليون يودون تعديل
الحدود بينهم وبين أثيوبيا ، ولكن الحكومة الأثيوبية متمسكة بهذه الأراضى ؛
مع أنها كانت مستعدة للتنازل عنها لإيطاليا فى سنة ١٩٣٥ إلقاء لشى موسيلينى
وحكومته . ولكن أثيوبيا تأبى أن ينضم السوماليون الذين عندها إلى إخوانهم .
وبلاد سوماليا تشمل جميع الإقليم الذى يدعى قرن إفريقيا ، ومساحة
الجمهورية واسعة ، ولكنها ضعيفة الموارد ، والمياه فيها قليلة ، وكثير من
الجهات تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والمساحات الصالحة للزراعة محدودة .
ولا بد أن تبذل جهود جبارة لزيادة الموارد المائية ، التى يمكن تدبيرها بشىء
من التحكم فى مياه نهر جوبا ونهر شبل . وهذا لن يكون سهلا إلا بالتفاهم
مع إثيوبيا لأن الأجزاء العليا للنهرين تقع داخل الحدود الأثيوبية .
أما سائر السكان فيمارسون حرفة الرعى . . وأكثر الماشية التى ترعى
الإبل والضأن والماعز .

ويبلغ تعداد أمة السومال أكثر من ثلاثة ملايين . وكان يسودها
النظام القبلى . والسكان موزعون بين سبع قبائل : وهى در واسحاق — وهما
فى الإقليم الشمالى — وداروط وهوية أولى وهوية ثانية ودجل ، وحمروين^(١)
والقبيلتان الأخيرتان ، تعيشان فى الجنوب وتمارسان الزراعة والحياة المستقرة .
أما الخمس الأولى فإنها تتبع نظام القبائل وتنقسم كل قبيلة إلى عمائر ، ثم إلى
عشائر وإلى بطون ، وأصغر وحدة هى العاقلة ، وهى التى يلزمها دفع الدية
عما يرتكبه أفرادها من جرم . وبفضل النهضة الوطنية قد ضعفت العصبية
القبيلية جداً .

(١) هكذا فى بحث لويس فى عدد يوليو سنة ١٩٥٩ فى مجلة Africa . أما سلجان
فيقول إن السكان ينقسمون إلى قسمين : الساب وهم مجموعة دجل وهنوين . والسومال وهم
دير — هاويا — وجادابرى ودارود .

وهذه الأقسام القبلية موزعة في سائر الوطن السومالى ، وقرابة الدم تجمعها بما فى ذلك سكان أوجادين ، وشمال كينيا . . وهذا هو الذى يفسر لنا حرص جمهورية سوماليا على أن تسترد أوطان الشعب السومالى كاملة :

* * *

الخلا:

هذا الشعب الحامى يعيش فى الجنوب والجنوب الغربى من أثيوبيا . وليست له أوطان خارج الإمبراطورية الأثيوبية ، وهم يدعون أحياناً بأسماء أخرى مثل إلم وأرما وأدومر . ويقال إنهم نزلوا أوطانهم هذه فى القرن السادس عشر . ولعل الصواب أن هذا الإقليم كان خالصاً للحاميين منذ زمن بعيد ، ولكن الجماعات التى دعيت باسم الخلا وصبغت السكان بهذه الصبغة هم الذين جاءوا فى الهجرة الحديثة .

وصفاتهم الطبيعية لا تخرج عما ذكرنا عن الحاميين عامة سوى أن شعبة منهم تدعى برانا Borana ألوانها أقل سمرة من سائر الخلا ، وفيما عدا ذلك يوصف الخلا بأنهم متجانسون فى أشكالهم والقامة طويلة (متوسطها ١٧٢ سم) والجهة عالية وعريضة ، ويزعم سلجان أن الوثنية هى الغالبة وإن كان فيهم مجموعات إسلامية ومسيحية .

وعلى الرغم من أن الخلا يعيشون فى أثيوبيا ويخضعون للنظم الأثيوبية من الوجهة النظرية ، ويكونون فرقة الفرسان فى الجيش . فإنهم مع ذلك ظلوا محتفظين بكثير من تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية .

وفى الخلا نجد أن البوران وحدهم هم الرعاة ، ولا يمارسون الزراعة ، وينتقلون بماشيتهم فى موسم الجفاف ، والماشية الرئيسية هى البقر ، ومنها الماشية الدقيقة مثل الضأن والماعز ، ولكن لديهم أيضاً بعض الإبل بحكم مجاورتهم للسومال . . أما سائر الخلا فحرفتهم الأساسية هى الزراعة ، ومع ذلك يحبون اقتناء الماشية وتربيتها . . ويملك الزارع المجتهد قطيعه ويحاول أن

بجعله كبيراً بقدر جهده . والزراع من الجلا يستخدمون في زراعتهم نوعاً من المحراث البدائي يحره ثور أو جمل .

ونظراً لأن الجلا هم الشعب الحامى الوحيد الذى لا يزال شطر كبير منه ، ولعله أكثره ، محتفظاً بديانته ، فإن هذا أمر يجعل لعقائده الحالية أهمية خاصة لعلها تعطى فكرة ولو قليلة عن الديانة الأصلية للحاميين . . على فرض أن الموجود يحتفظ ببعض عناصر العقائد القديمة .

والجلا يعتقدون في كائن أعلى ، يدعى واك (ويرادف معنى السماء) ولديهم أيضاً اعتقاد في رب ورية - من المرتبة الثانية - اسمهما أجلى Oglie وأتيتى Atete . ويقوم رب كل أسرة بدور القسيس في المناسبات الدينية ، وفي أول الشهر القمري يقدم قرباناً لقمر الشهر المنصرم ، ويتهل إليه أن يتوسط لدى قمر الشهر الجديد ، لكى يعمل على تنمية الثروة ووفرة الغلات والماشية . . . الخ . وهناك ضروب من الحيوان لها حظ من التقديس مثل الثعبان ، والتمساح والبوم . وإن لم يكن هناك دليل على أنها من نوع الطوطم . . وعند الجلا الجنوبيين ، على وجه الخصوص ، نوع من التكريم الدينى لشجرة التبلدى ، فيصب اللبن على عروقها مرة في كل شهر ، ويضحون لها في العام مرة بكبش أسود . وهناك أنواع أخرى من الشجر تلقى بعض التكريم مثل شجرة التين الوحشية . . وبعض العشائر شعارها شجرة خاصة ، ويسمون باسمها ، ولا يسمحون بقطعها .

ويستعينون على التكهن ، والعلم بما خفى من الأمور . بالتضحية ببعض الماشية ، واختبار ما تحتويه معدتها . . . كذلك عندهم عادة « التطير » ، أى التكهن المبني على طيران الطير الذى يطلقونه لهذا الغرض ، ومن أهم شعائريهم الدينية شىء يدعى في لغتهم واداجا Wadaga وهو عبارة عن صلاة جماعية ، ويقدمون مع الصلاة بعض القرابين ، ويتناولون وليمة مشتركة ويقدمون جزءاً منها للإله واك .

وكان من شعائر الجلا نوع من الحجج - حرمة حكومة أثيوبيا - يحجون فيه إلى بلاد واليجاليزوروا شخصاً يدعونه أبامودا Abba Muda (أبو التبريك) وهو شخص يعدونه بمثابة الزعيم الديني لجميع الجلا ؛ ويقال عنه إنه يأوى إلى غار في مكان محقق ، وفي صحبته ثعبان . وكان يلقي الحجاج الذين يقصدونه مبادئ دينهم وعبادة واك ، وتقاليد الجلا التي يجب أن يلتزمها كل منهم ، ومنها معاداة الديانات الأخرى كالإسلام والنصرانية ، ثم يمسح على رؤوسهم ببعض الزبدة . فينصرفون بعد ذلك إلى أوطانهم ، ولم يكن يشترك في الحج سوى الرجال ، والمتنظر من كل أسرة أن تبعث بأحد أفرادها مرة في كل ثلاثة أجيال .

ونرى في هذا الوصف ، الذي نقله عن الأستاذ سلجمان ، أن عناصر مختلفة لا بد أن أثرت في ديانة الجلا ، فهناك مزيج من عبادة رب أعلى ، إلى عبادة القمر ، إلى تقديس الشجر . . إلى أنواع من الشعوذة والطيرة . مما يدل على أن هذه العناصر - وكثير منها موجود في جماعات متفرقة في أقطار كثيرة - قد تجمعت من مصادر مختلفة ، وتكونت على مدى أزمنة طويلة .

وتتألف ملابس الجلا من إزار من الجلد ، ورداء يسمونه الثوب : وهو عبارة عن قطعة كبيرة من القطن . . وربما جعلوا حول الكتفين شيئاً من فراء الغنم ، أو جلد الفهد . وأهم سلاح يحملونه حربتان ورمح ثقيل ودرقة مستديرة .

والشائع عند الجلا أن يتزوجوا زوجة واحدة ، فيما عدا البورانانا . . والمهر يؤدي بالماشية . والأسرة تتبع النظام الأبوي ، وللوالد سلطة الحياة والموت على أطفاله ، وقد يقضى ببيع بعضهم عبيداً إذا شاء . والابن الأكبر هو الوراث انشرعى . والمرأة لا ترث (١) .

(١) راجع كتاب سلجمان عن أجناس إفريقية (١٩٥٧) ص ١٠٦ - ١٠٩ .

سكان إثيوبيا :

إن الكلام عن الجلا ساقنا إلى الحديث عن إثيوبيا . لأن أوطان الجلا كلها واقعة داخل الإمبراطورية الإثيوبية ، وكذلك يعيش كثير من السوماليين أيضاً داخل الحدود الإثيوبية . وفي سائر أطراف الجمهورية شعوب مثل الأنواك والبرتو وغيرهم لهم ثقافات مختلفة ومتنوعة ، فإن الإمبراطورية الإثيوبية تضم عدداً كبيراً من العناصر الحامية والزنجية ، ولكن نواة الإمبراطورية هو العنصر الأثيوبي ، الذي يعيش في الهضبة الحبشية التي يزيد ارتفاعها على ألف متر فوق سطح البحر ، وهؤلاء لا يكادون يبلغون أكثر من ٣٥٪ من سكان الإمبراطورية، ولكنهم هم الذين يهمننا أن نتحدث عنهم هنا ، وندعوهم الإثيوبيين .

إن الإثيوبيين موزعون في جهات تجره في الشمال ، والأهمارة وجوجم في الوسط . وشوا في الشرق . وهضبة الحبشة كتلة عالية متسعة المساحة . تتخللها أودية عميقة ، تجعل الاتصال متعذراً بين أجزائها ، ولذلك كانت الهضبة الحبشية شبيهة بالبيئات الجبلية ، التي اعتصمت بها الجماعات من آن لأن ، واتخذت من شعابها وأركانها أوطاناً آمنة يتعذر على العدو المغير أن يصل إليها أو يزعمها .

ولقد رأينا من قبل أن البيئات الجبلية يكثر فيها تنوع السلالات ، وتنوع الثقافات لأن ضعف الصلة بين نواحي الوطن ، حال دون الاندماج . ولذلك لا يدهشنا أن تتعدد السلالات والثقافات في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، حتى أن الإثيوبيين أنفسهم تتألف منهم أقسام سياسية خطيرة في تجرة وفي أمهاره ، وجوجم ، وشوا ، يكاد كل قسم منها أن يكون مملكة مستقلة . لولا أن رئيساً من بينها أبدى من الهمة والمقدرة ما جعل الآخرين يدينون له بالطاعة ، ولذلك سمي الإمبراطور في العادة باسم نجستا نجست أو ملك الملوك .

والسلالة الاثيوبية التي تهيمن على دولة إثيوبيا في الوقت الحاضر ، قد تكونت على مدى قرون ، بوساطة هجرات دخلت الهضبة واستقرت في أرجائها ، من الجائز أن يكون الجنس الزنجي قد دخل الهضبة منذ آلاف السنين ، لاجئاً أو هارباً من الجماعات الحامية التي أخذت تتدفق عبر باب المندب . والأرجح أنه لم يكن يأوى إليها بأعداد كبيرة . ولكن من الممكن أن الحاميين الذين دخلوا الهضبة فيما بعد لم يجلوها خالية . . وهؤلاء الحاميون أتوا في موجات متتالية وسواء أدخلوا الهضبة راغبين أم هاربين . فلا شك أن انتقلهم إليها قد جعلهم على مضي القرون هم العنصر الراجح في تكوين السكان ، ولعلمهم امتصوا القلة الزنجية ، التي سبقتهم إلى سطح الهضبة ، بحيث أصبح التكوين الجنسى للأحباش يتألف من نحو ٧٥٪ من الحاميين ونحو ١٥٪ من الدم الزنجي ، ونسبة أقل ولكنها هامة جداً من الساميين .

وهجرة الساميين إلى أثيوبيا تعد حادثاً بعيد الخطر في تاريخها . إنه لا يمكن أن يكون أثر كثيراً في شكل السكان لأن التشابه قوى بين الحاميين والساميين كما رأينا . ولكن التأثير ظهر في نواح ثقافية واجتماعية عديدة . إننا لا نكاد نعرف شيئاً عن تاريخ أثيوبيا قبل دخول الساميين فيها . . وتاريخ دخول الحضارة السامية لا نعرفه إلا على وجه التقريب . . ويبدو من الروايات الأثيوبية أن هذه الهجرات السامية لا بد قد وقعت في حدود القرن العاشر قبل الميلاد . وفي أساطير بعض الشعوب في منطقة السفانا إشارات إلى تأسيس مملكتهم بوساطة مهاجرين من اليمن .

والإثيوبيون يقولون إن البيت المالك في أثيوبيا ينحدر من ملكة سبأ . . وصفوة القول إن هجرات متتالية أتت من بلاد اليمن ، ووجهتها هضبة الحبشة ، وقد توالى هذه الهجرات على مدى قرون عديدة ، وإلا لما أمكن أن تحدث الأثر الثقافي العميق في هذه الأوطان الإفريقية ، التي لم تلبث أن اصطبغت بالصبغة السامية ، وأخذت إثيوبيا تظهر في التاريخ ، وكانت لها صلات بالبطالة ، وغيرهم من حكام وادي النيل .

أما الأثر الثقافي الأكبر ، فيتمثل في انتشار لغة سامية سيأية ، تدعى لغة الجعر ، في منطقة تجره ، وبرزت في زمن متقدم مدينة اكسوم كمركز للحضارة أولاً وللديانة فيما بعد . وظلت هي العاصمة الدينية زمناً طويلاً ، بل إنها لا تزال تحتفظ بطابعها الديني إلى وقتنا هذا ، غير أن لغة الجعر باتت مقصورة على الشئون الدينية . وذلك أن لغة جديدة تدعى الأمهرية ظهرت في القرن الثالث عشر ، وأصبحت هي لغة القصر ، وقد تغير المركز السياسي من إقليم تجره إلى إقليم أمهارة . ونظراً لسهولة اللغة الأمهرية إذا قورنت بلغة الجعر ، إلى جانب أن إقليم أمهارة ، أكثر توسطاً ، وأيسر اتصالاً بسائر المديرية ، من أجل هذا انتشرت الأمهرية وأصبحت هي اللغة الرسمية للدولة ، وتكتب بالخط الأثيوبي الذي أدخله اليمنيون إلى البلاد . وهذه اللغة الأمهرية ليست سامية خالصة ، بل دخلتها عناصر من لغات حامية وغيرها ولكنها بامتصاصها للعناصر الحامية لم تتحول كما زعم سلجبان إلى لغة حامية ؛ بل لا تزال عضواً هاماً في اللغات السامية . وهي إلى جانب اللغة العربية ، واللغة التجرينية ، أهم اللغات السامية الحية ، والتي ظلت حية قروناً عديدة إلى وقتنا هذا .

ويتكلم اللغة الأمهرية في إثيوبيا نحو خمسة ملايين من السكان ، ويتكلم باللغة التجرينية ، (وهي المشتقة من الجعر) نحو ١٦ مليون في الإقليم الشمالي من إثيوبيا . وهناك خمس لغات سامية أخرى^(١) في إثيوبيا ليست بذات خطر ؛ وهكذا نرى الهجرات اليمنية قد طبعت إثيوبيا بالطابع السامي ؛ وأكبر الظن أنها كانت هجرات سلمية أو قريبة من أن تكون سلمية ، فقد ترتب عليها اتصال مطرد بين اليمن وإثيوبيا ، انتقلت في غضونه بعض عناصر الحضارة مثل زراعة البن ؛ ولا شك أن تشابه البيتين في كل من اليمن وإثيوبيا

(١) راجع مقالة إدورد ألدرف في

The Semitic Languages of Ethiopia, by Edward Ullendorff, in Africa (April, 1955).

ساعدنا على ربط الإقليمين ، وتوطيد العلاقات والصلات ، وإن كانت أثيوبيا فيما بعد رأت أن تهاجم بلاد اليمن وتستولي عليها فترة من الزمن ، كما يحدث بين الأقارب .

وقد اقتبست أثيوبيا الدين اليهودي ، ولعله لم يتجاوز منطقة محدودة في الشمال . وربما كان من بعض مهاجرين من اليهود : إذ لا يزال هناك في الإقليم الجبلي في الشمال طائفة من اليهود يسمون الفلاشا Falasha ويقدر عددهم بنحو ٣٠,٠٠٠ ويصفهم سلجيان بأنهم كانوا مستقلين ولهم « ملوكهم » يزعمون أنهم من نسل داود . ولكن هذا انتهى في سنة ١٨٠٠ حينما ضمتهم إليها مملكة تجره . . وعلى العموم يعيشون في شبه عزلة لا يتزوجون إلا منهم ، ولا يتزوجون أكثر من واحدة ، ويحرمون على أنفسهم أن يدخلوا منزل شخص مسيحي ، وينقسمون إلى ثلاثة مذاهب كل منها يشرف عليه قسيس خاص . ويصومون مرتين في الأسبوع ، و ٤٠ يوماً قبل عيد الفصح ، وفي ديانتهم بعض تقاليد وثنية :

أما المسيحية فقد جاءت إلى أثيوبيا في منتصف القرن الرابع على يد قسيس يدعى فرومنتيوس ، الذي عين أول أسقف لأثيوبيا . ولم تلبث الكنيسة الحبشية أن اتصلت بالكنيسة المصرية : وأخذت عنها كثيراً من طقوسها وعقائدها ، بل لقد كان البطريرك المصري فيما مضى هو الذي يعين رئيس الكنيسة الحبشية وكان يدعى « أبونا » إلى أن استقلت الكنيسة الحبشية منذ عهد قريب .

الفصل الثاني عشر

البجة (البجاه)^(١)

١ — مواطنهم وأقسامهم

لا شك أن مواطن البجة في الوقت الحاضر أضيق مساحة ، مما كانت عليه في الأزمنة الغابرة . ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ، ونهر عطبرة ، ثم النيل الأكبر غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان في الشمال .

أراض فسيحة شاسعة — وإن كانت أقل من أوطانهم القديمة : وبينة فيها تنوع كثير وإن غلبت على معظمها صفة الشدة والجهد . . وهذا التنوع يشمل التضاريس ، وسقوط المطر ، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان . ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعي يؤثر في الظواهر الطبيعية الأخرى . وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة للبحر الأحمر ، مرتفعات متصلة الحلقات .

(١) الاسم المتداول اليوم للبجة هو بكسر الباء ، وهذا تطور حديث ، ومن المؤلف على مضي الزمن أن تتحول الحركة من النغم إلى الكسر . وقد كان المتقدمون من الكتاب ، كالمسعودي وابن سليم الأسواني والمقرئ يكتبون الاسم بضم الباء وبعدها ألف وهاء . والظاهر أن الاسم قديم جداً ، لأن شعب البجة كان معروفاً للمصريين القدماء باسم المازوى أو الماجوى ؛ ومبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً في اللغات السامية كما هي الحال في مكة وبكة .

وفى عدا هذه نرى مرتفعات البحر الأحمر ممتدة بمحاذاة تلتصق به أحياناً ، حتى لا يكاد يفصلها عنه شىء ، وتبتعد أحياناً عنه ، فترك بينها وبينه سهلاً ساحلياً ضيقاً ، عرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلومتراً .

فتضاريس الوطن البجاوى إذن ذات اتجاهات شمالية جنوبية ؛ أولها من ناحية البحر ذلك الشريط الساحلى المنخفض ، وهو ليس سهلاً ساحلياً بالمعنى الصحيح ، بل عبارة عن أرض منحدره نحو البحر ، وقليلة الارتفاع عن سطحه وهذا الشريط الساحلى ضيق فى القسم الأعظم من الجهات الداخلة فى السودان ، ولكنه أكثر اتساعاً ، فى الجزء الداخلى فى حدود مصر .

كذلك جبال البحر الأحمر ، ليست كلها متساوية فى الارتفاع وانوعورة ، وهى تزيد على الألف وخمسمائة متر ، فى الكتلة الواقعة جنوب فجوة طوكر ، والواقعة شمالها مباشرة .

هذه المرتفعات الساحلية هى أهم ظاهرة تضاريسية فى الوطن البجاوى ، ولها آثار مناخية خطيرة . ومن الأماكن المرتفعة فيها بلدة أركويت (١٠٩٣ مترأ) وسنكات (٨٧١ مترأ) وتهايم (٦٤٧ مترأ) وتلجوارب (٥٣٩ مترأ) ، وكلها متقاربة .

أما البلاد الساحلية أو شبه الساحلية ، فيمثلها عقيق فى أقصى الجنوب ، ثم طوكر (إلى الداخلى قليلاً) وسواكن ، وبور سودان ، ودينجوناب ، وعيذاب ، وبرنيس ، (وهما بلدتان بئدتان) .

يلى الجبال من الغرب انحدار فجائى أو تدريجى ، وهو على كل حال أسهل من الانحدار الشرقى نحو البحر الأحمر . ثم نصل بعد ذلك إلى منطقة أدنى إلى السهولة وتنحدر بالتدريج نحو نهر النيل ، وفى كثير من المواضع تختطها أودية قلما تجرى فيها المياه فى الوقت الحاضر ، مثل وادى العلاقى ورافده وادى قبقة .

(١) بالقرب من موقع عيذاب القديم مرسى صغير يدعى مرسى حلايب .

وبعض الجهات في هذا الجزء المنخفض لها أسماء اشتهرت بها ، مثل سهل البطانة بين النيل الأزرق والعبقرة ، وتمثله بلدة القصارف في الجنوب وأبو دليق في الوسط . ثم يليه من جهة الشمال صحراء العتمور والعتباى الممتدة إلى القطر المصري .

وقد أثرت الجبال من غير شك في سقوط الأمطار ؛ وبذلك أصبح لبلدة مثل دنجوناب Dongonab مطر يبلغ نحو ٤٠ م ، وهي محاذية لوادى حلقا التي لا يسقط عليها مطر قط . وفي عقيق نحو ١٤٠ م ، وفي كرورا ٢٨٣ م . وفي بور سودان ١١٠ م ، وسواكن ١٨٠ م .

أما الجهات المرتفعة مثل سنكات وتهايم فطرها ١٣٤ م ، ١١٣ م على التوالي .

ومن الدراسات المناخية الممتعة في هذا الإقليم مقارنة مواسم المطر ، إذ نرى أن بعضها صيفي وهو الواقع على مرتفعات تنحدر نحو الغرب ، والبعض شتوي ، وهو الواقع على المرتفعات التي تنحدر نحو الشرق ، والجهات الساحلية مطرها شتوي ، وإن شذت بعض الجهات لأسباب خاصة ، كما هي الحال في سواكن وطوكر ، إذ ينالها بعض المطر الصيفي أيضاً ، ولعل هذا بسبب موقعها من الفجوة التي يجري فيها خور بركة إذ تتسرب في الصيف بعض التيارات الجنوبية عن هذا الطريق ، ومطر الصيف على كل حال أغزر من مطر الشتاء .

أما سهل البطانة فطره أغزر ، وفي الجنوب نرى القصارف . ومطرها يبلغ ٦٧٦ م (ومطرها صيفي) وأبو دليق (١٥١٥٥°) : ومطرها ٢٠٨ م (أكثر من الخرطوم وهي على نفس خط العرض ومطرها ١٦٠ م) .

ولهذه الأمطار أثر في السهول مختلف عن أثرها في الجبال ، لأن المطر في المرتفعات ذات الحرارة المنخفضة أعظم أثراً وأطول . وما يفقد بالتبخر منه أقل بكثير مما يفقد في السهول . ولشدة قرب هذه المرتفعات من البحر

الأحمر . يغشاها زمناً طويلاً غطاء كثيف من الضباب والندى . له أثر كبير في غزارة الحياة النباتية ، بل لعله السبب الأكبر فيما تمتاز به تلك المرتفعات من وفرة النبات ، وفرة لا يبررها مقدار ما يتساقط عليها من الأمطار . أما الإقليم الجنوبي ، في مثل كسلا والقضارف على حدود أرتيريا ، فإنه يمتاز بمطر أغزر من الأقطار التي تحاذيه على نهر النيل .

وهكذا نرى في مواطن البجة تنوعاً ملحوظاً في التضاريس والمناخ والنبات وإذا كانت تغلب عليها قلة المطر عامة . والطبيعة الصحراوية تسودها في الشمال ، فإنها لا تخلو من جهات يغزر نباتها في بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها سقوط المطر بين الصيف والشتاء ، هذا عدا الأنهار التي تجري المياه في بعض أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش ، والأنهار التي تجري بالقرب منها مثل العطبرة .

فالبيئة قاسية في جملتها ، ولكنها أقل قسوة مما يتوهمه الإنسان لأول وهلة . ومع التسليم بأن النصف الشمالي شديد الجذب ، لكن يخفف من جذبته انتشار الآبار في مختلف أنحاءه ، وإن كانت المسافات بين الآبار تزداد كلما اتجهنا شمالاً أو غرباً . ولذلك كان امتلاك الآبار من أهم العناصر في حياة البجة الشماليين .

في هذه البيئة ، إذن ، تعيش جماعات البجة ، منذ عصور طويلة ، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذي تفرضه خصائصها الطبيعية ، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها .

وينقسم البجة إلى أقسام أربعة رئيسية ، ويصح أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة ، لأن بين أفرادها عصبية ، ولكل منها زعيم (ناظر) : وهذه الأقسام هي البشاريون في الشمال ، في تلك البيئة الجبلية الصخرية القليلة الماء والكلاً ، كما يحتلون معظم الإقليم المسمى صحراء العتباي .

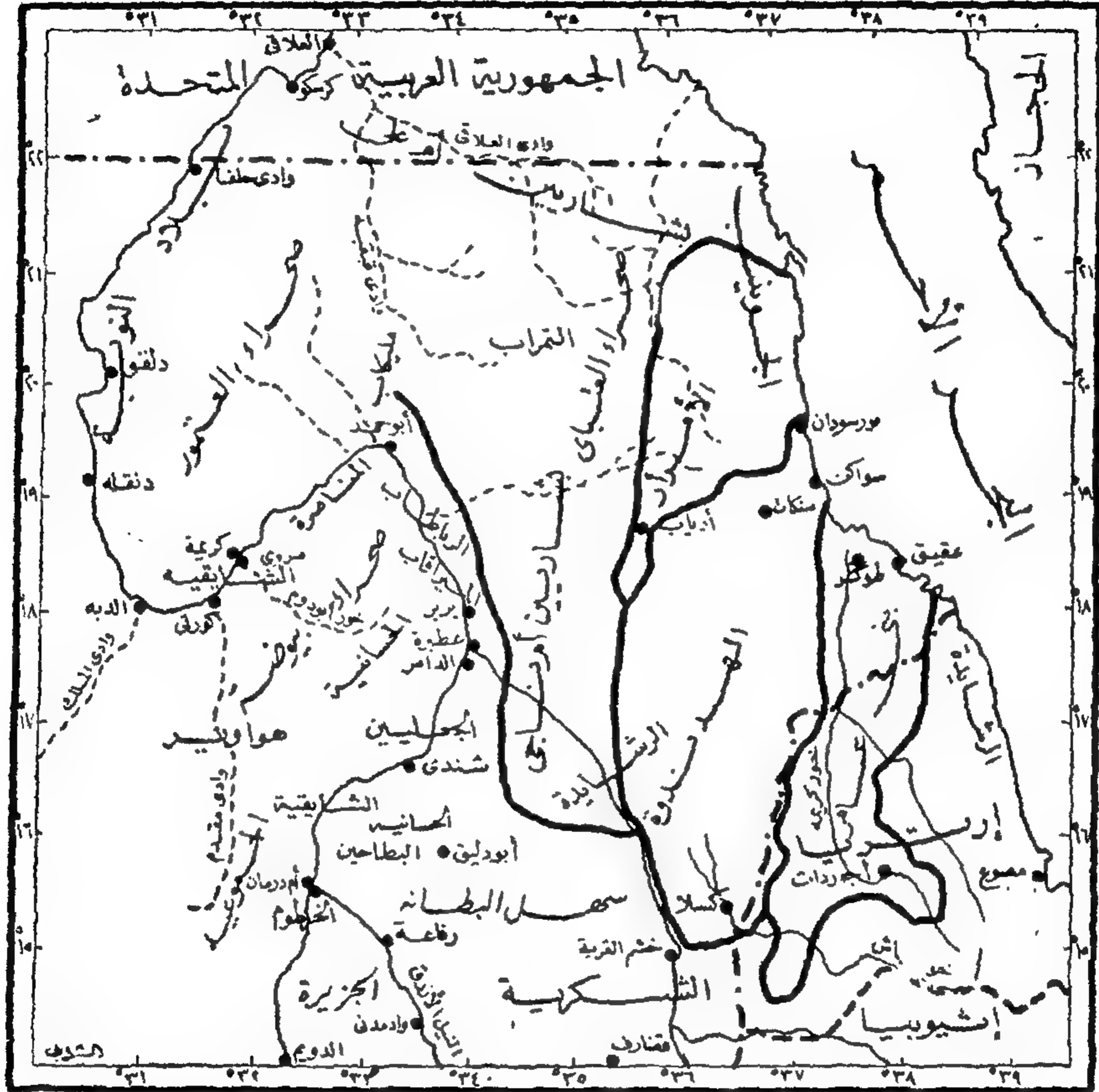
يلهم من الجنوب الأمرأر ، يمتدون بانحراف في اتجاه من الجنوب الغربي في مسار على الخط الحديدي ، إلى الشمال الشرقي ، في اتجاه بور سودان .

ويليهم جنوباً الهندوه ، وهم أكثر البجة في السودان عدداً ، ويمتدون من سواكن إلى سنار ، وفي الأرض المجاورة للخط الحديدى الممتد بين البلدين ، وبذلك أصبحوا يحتلون دلتا الجاش ، ويعيشون على شواطئ العظيرة المجاورة لهم على خط عرض ١٥° ، وأخيراً نجد إلى الجنوب الشرقى جماعة بنى عامر ، ويمتدون من طوكر شمالاً إلى داخل حدود إرترية في الجنوب .

وهناك جماعات أخرى من البجة ، أو قبائل صغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب ، والحالتقا وغيرهم . بعضهم يدور في فلك القبائل الكبيرة ، ويرتبط بها . ولكن أكثرهم يدعى الاستقلال ويحاول أن يثبت ما له من الأهمية والخطر ويحدثنا عن أبطاله القدماء ، وما كان لقبيلتهم من علو الشأن وسمو المقام في العصور الغابرة . . وليس في دعواهم هذه وجه غرابة ، لأن نظام القبائل من طبعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حيناً من الزمن ، بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة . ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض ، أو سوء القيادة ، فيضعف أمرها ، ويقل عددها ، وهذه الظاهرة واضحة في تاريخ القبائل العربية نفسها في جزيرة العرب ، ولا عجب إذا رأيناها لدى البجة أيضاً .

يتكلم البجة لغتهم الحامية ، وهي المسماة التبادوى (أو بداويت) ويستثنى من هذا معظم العشائر الجنوبية من بنى عامر ومن يجاورهم من الجماعات القليلة التى تتكلم لغة تجره (الخاصة) وهى لغة سامية منتشرة في أرتريا وشمال بلاد الحبشة ، وإن كان بعضهم يتكلم اللغة التبادوية .

وأكثر البجة يعرف اللغة العربية إلى جانب معرفتهم لغة التبادوى أو تجره . ولكن العربية ليست لغتهم الأصلية ، على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بشيء يسمونه « نسبة » وهى ورقة مكتوبة أو حديث محفوظ يرجع بهم إلى « قريش » فالدين الإسلامى المنتشر بينهم ، واللغة العربية ما هى إلا أثر من آثار النفوذ العربى الذى دخل في عهد متأخر نسبياً إلى أوطانهم ، ويوشك أن



الحدود السياسية حدود توزيع القبائل
 الأقسام الرئيسية للبيجة
 (في السودان الشالي الشرق)

يكون من المحقق أن هذا النفوذ العربي وصل إليهم من الشمال والشرق .

ويصف بعض الكتاب البجاوى بأنه جاف الطباع ، شديد النفور من الناس ، بل يذهب بعضهم إلى وصفه بالتوحش وإن لم يكن لهذه الكلمة مدلول صريح . غير أن الكتاب الإنجليز من موظفى حكومة السودان يخالفون هذا الرأى . والذي يطالع مقالاتهم يأنس منهم تحيزاً للقبائل البجاوية وبعض التحامل على العرب ، فيؤكد لنا مثلاً مستر نيوبلد الفرق بين العربى والبجاوى بمقارنة يوازن فيها بين طباع كل من الفريقين فيقول : إن (الفزى) Fuzzy وهو وصف مشهور عند الإنجليز للوجه مشتق من طريقتهم فى تصنيف الشعر) عاش فى مرتفعات البحر الأحمر أربعين قرناً على الأقل ، أما العربى فإنه « دخیل » منذ العصور الوسطى وللوجه أخبار شفوية وأساطير أبطال ترجع بسيرهم إلى نحو ١٢٠٠ سنة على الأقل ، والعربى يحب التجمع والاختلاط ، وهو ثرثار بخلاف ما اشتهر عنه ، أما الفزى فيحب العزلة ، نفور من الناس ، قليل الكلام ، وليس كالعربى ، عبداً للتقاليد الاجتماعية الضيقة ، والتقاليد القبلية السائدة . وهو كثير التسامح والتساهل فى اتخاذ أصدقاء من الأجانب ، وفى التشكل بكل بيئة جديدة . وحبه للعزلة الذى يتوهم الناس خطأ أنه يرجع إلى طبع وحشى ، ليس فى الواقع وليد الخوف ، أو لإحساسه بأنه غريب عن سائر الناس ، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية ، التى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب ، بل ألف العيش بنفسه ، فلا يجد لهم مكاناً فى دائرة حياته ، والبادية العربية تبعث على التجمع والمخالطة : حتى عند الوهابيين ، الذين اشتهروا ببساطة العيش ، نرى الأفراد تتجمع للحديث والغناء والسمر حول النار أو فناجيل القهوة العديدة التى يستوعبونها ، أما سكان البحر الأحمر — فيما عدا بنى عامر — فلا يميلون إلى إنشاء قرى أو مساكن مجتمعة فى ساحة كبيرة ، وبيوتهم المكونة من « البرش » ، أو الحصير الممدود على عيدان محنية ، يقوم كل منها بمفرده ، أو كل بيتين معاً ، أو ثلاثة ، على رأس بعض الأودية أو الأنحار .

ولا يكاد السائح المتجول أو الطائر المحلق في السماء ، يستثير منهم نظرة أو التفاتة . . . هكذا يعيشون في جيوب وزوايا وسط التلال أو الهضاب ، حيث لا يراهم العالم ، على غذاء من اللبن والحبوب ، وقايل من اللحم والسكر في زمن الرخاء ؛ وعلى اللبن وحده تقريباً بينما تنتابهم الكوارث ، من الجراد أو الجذب أو الطاعون^(١) .

ومن الجائز بالطبع أن الحياة — قروناً عديدة — في جوار هذه البيئة الجبلية قد علمت البجه أن المعيشة المنفردة في أعالي الأودية لها أيضاً قيمتها من ناحية الدفاع سواء في ذلك ما كان دفاعاً ضد أعداء من غير البجه ، أو من البجه أنفسهم ، ولا بد لنا أيضاً أن ندخل في حسابنا ما طرأ على هذه البيئة من التغير منذ العصر المطير إلى وقتنا هذا ، فإن كثيراً من الأودية المتغلغلة في الإقليم الصحراوي ، تدل على وفرة من الماء ليس لها اليوم وجود ، وقد اضطر السكان لتفضيل رءوس الأودية في المرتفعات ، لأن الأمطار سرعان ما تصبح نادرة أو معدومة في الجهات المنخفضة .

على أن حالة الانفراد والتشتت في شعاب الجبال وئناياها ، وإن لم تنزل قائمة ؛ قد تأثرت من غير شك تأثراً شديداً بالاتصال بالعمران ، وبالمشروعات الزراعية التي تمت في طوكر ودلتا الجاش ، وفي نمو مدينة كسلا والقضارف ، وما يصحب ذلك النمو من اشتباك المصالح ، واحتشاد العناصر المختلفة . وقد استجاب البجه إلى هذه التطورات ، فأخذوا يتخذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض المدن . وأخذ كثير منهم يشتغل بالزراعة وفي مختلف الحرف . .

ومعظم المنتفعين بمشروعات الري في طوكر وكسلا هم من البجه ؛ ومع التسليم بأن مستواهم في الإنتاج الزراعي ليس عالياً ، فإنه مع ذلك ليس

(١) راجع ص ١٤١ وما بعدها من كتاب

Hamilton. The Anglo-Egyptian Sudan from within

منحطاً ؛ ومما يثبت قابلية البجة للتشكل بالبيئة الجديدة أنهم استطاعوا أن يتحولوا من بدو رحّل إلى زراّع مستقرين ، وأن يقبلوا على هذا العمل الجديد الذى لم يعرفوه ولم يألّفوه .

المراحل التاريخية للبجة :

قدمنا أن البجة عريقون فى القدم ، فى أوطانهم الحالية ؛ ومن الجائز أنهم أول من سكن هذا الإقليم ، الذى يحتلونه اليوم ؛ فإن تشابه صفاتهم واطراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالاً للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى ، اللهم إلا القليل جداً ، الذى جاء عن طريق بعض القوافل التجارية فى الأطراف الشمالية ، أو عن طريق الاتصال بالحبشة فى الأطراف الجنوبية . وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار نستطيع أن نسردها على سبيل الاجتهاد ؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل ، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكى تشمل هذه الأقطار النائية المنعزلة .

١ - فى العصر القديم السابق للتاريخ كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مطراً ونباتاً مما هو اليوم . وكانت طوائف من الحيوانات المختلفة تمرح فى أرجائه وجوانبه ، وفى سهوله ومرتفعاته . فكان الصيد متوفراً وفرة عظيمة . ولا شك أنه كان يشتمل على حيوانات مثل الزراف ، وقطعان من الوعول ، بل والفيلة أيضاً ، وغيرها من حيوانات الصيد ، مما لا يكاد يكون له أثر فيها اليوم . كانت البلاد جنة لمخترى الصيد . ولا شك أن هذه كانت حرفة السكان فى ذلك الزمن البعيد .

٢ - ثم أخذت الأقاليم تحس الجفاف ، ويقل صيدها ونباتها تدريجياً . وقد ترتب على ذلك هجر بعض الجهات القليلة العشب ، التى أخذت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والتجأ السكان بالتدريج إلى الجهات الأوفر ماء ، القريبة من المرتفعات أى فى النصف الشرقى من البلاد التى يحتلها البجة الآن . ولكن بقي لهم بعض الاتصال بالشمال عن طريق الأنهار ، وبعض المسالك

التي تخلفت فيها مياه في صورة آبار ؛ أو في الأودية مثل العلاقي ؛
٣- ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلاً ، وكانت فيها الجهات
الصحراوية أقل سكاناً ، حتى مما هي عليه اليوم ، ثم جاء الدور الذي مر
بجميع الجهات الصحراوية ، في إفريقية ، حين أدخلت الإبل إلى هذه القارة
للمرة الأولى . ونحن نعلم أن الإبل دخلت مصر في العهد الفارسي ؛ وانتشرت
بعد ذلك بالتدريج . . ولا بد أنها تسربت إلى الجنوب بسرعة . والروايات
التي تروى عن بعثات قمبيز إلى الجنوب ، التي لم تصادف النصر دائماً ، إن
صحت فإن بعض هذه الحملات قد أدخلت الإبل إلى الجنوب ؛ في وقت
كان البجه قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت ماشيتهم من أنواع
أخرى . ولا بد أن البجه قد أدركوا ما للإبل من الفائدة ، فأقبلوا على تربيتها
في عناية فائقة . ولا نلرى حتى على وجه التقريب متى بدأ البجه يربون الإبل .
ولكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثاً^(١) .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نرجح أن اقتناء الإبل كان بمثابة
ثورة في حياة البجه ، إذ مكّنهم من استعمار الجهات البعيدة ، واجتياز المسافات
الشاسعة ، ومنحهم وسيلة لتعمير أقطار كانوا هجروها من قبل ومصدراً
جديداً للغذاء . فقد حدث - إذن - في صحراء العتباى ، بصورة مصغرة ،
ما حدث في صحراء ليبيا والصحراء الكبرى بصورة أكبر .

٤- وفي أثناء هذا كله اتصل البجه بسكان وادى النيل ، واقتبسوا من
حضارتهم ، وتعلموا الزراعة واستثناس الحيوان . وكان من أهم مناطق
الاتصال وادى العلاقي وما يليه من جهة الجنوب ، حيث معدن الذهب
المشتق من عروق الكوارتس .

(١) كانت لبلاد البجه صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى زمن قديم جداً . ولكن ليس
هناك دليل على انتقال الإبل إلى بلادهم مباشرة عبر البحر في ذلك الزمن البعيد . ولو أنها وصلت
إليهم قبل العهد الفارسي لانتقلت منهم إلى مصر لما بين البلاد من الروابط القديمة . وقد وجدت
بالصحراء الشرقية بعض آثار قديمة لبعض الإبل . ولكن هذه قد لا تعدو مثالا شاذاً لبعض
الدواب الوحشية .

وقد أثبت سلجمان أن البجه والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو
سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية الذين لم تمتزج دماؤهم
كثيراً بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد اعتمد سلجمان في
إثبات رأيه هذا على مقارنة الجماجم ، فوجد تشابهاً تاماً بين أشكال المصريين
القدماء ، ومنهم بعض الملوك ، وبين أشكال البجه الذين يعيشون في أوطانهم
الحالية^(١) فالشعبان من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت
بالمصريين طريقاً وأسلوباً في الحياة ، وسلكت بالبجه طريقاً آخر . وانفصلت
أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات لم يكن منها بد
بحكم التجاور .

ولا يتسع المجال هنا لشرح المراحل المختلفة لاتساع الصلات بين الشمال
والجنوب . وحسبنا أن نذكر أن الدولة القديمة لم تحاول أكثر من إرسال
البعثات التجارية إلى الأقطار الجنوبية . ولكن الدولة الوسطى ذهبت إلى أبعد
من هذا ، فأمنت في التوغل في بلاد النوبة ، وتأسست دولة في الجنوب
تتصل بالشمال اتصالاً سياسياً وثيقاً ، وامتد سلطان الدولة الجنوبية إلى أراضي
النيل الأزرق ، وبذلك صارت جميع أوطان البجه مجاورة لهذه الدولة الواسعة
الأرجاء ، ذات الثقافة المشتركة . فلم يكن بد من أن يسهم البجه في بعض
نواحي الثقافة المصرية ، ومنها الديانة التي ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحي
ومع أن مسألة استخراج الذهب ، هي التي يرد ذكرها على الألسنة ،
بوصفها العامل الأساسي في الاتصال بين المصريين والبجه ، فإن تجاور
الأوطان كان له أثر أكبر . وقد كان استخراج الذهب من مظاهر اتصال
المصريين بالأقاليم الصحراوية الشرقية والتوغل فيها . لأن أهم المناجم واقع في
وادي العلاقي والجهات التي تليه جنوباً إلى الإقليم الذي تمتد فيه السكة الحديدية
اليوم بين مسمار وسنكات ، وآثار هذه المناجم لا تزال قائمة إلى اليوم .

(١) راجع مقالة سلجمان في مجلة J.R.A.I. لسنة ١٩١٣ .

٥ - وعنى البطالة بالأقاليم الجنوبية أيضاً ، واهتموا باستنباط الذهب ، بعد أن تعطل فترة من الزمن بسبب الاحتلال الفارسي . ومن المعروف أيضاً أنهم كانوا يجلبون القيلة من الجنوب لاستخدامها في الحرب ، واستطاعوا أن يستألفوها ويروضوها ، مع أن الفيل الإفريقي لم يستأنس بواسطة الإفريقيين أنفسهم . وقد كانت لهم عناية بتجارة البحر الأحمر ، ولذلك أنشأوا على السواحل السودانية بعض الموانئ ، من أشهرها برنيس بالقرب من الحدود المصرية الحالية ، والعقيق Ptolomais Epitheras بالقرب من طوكر .

٦ - وهذه الموانئ ظلت قائمة في العصر الروماني ، ولكن أهميتها أخذت تنقص بالتدريج ، لأن الرومان لم يكن لهم مأرب في مناجم الذهب أو القيلة ، إذ كانت تجارتهم أوسع مدى وانتشاراً . فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندي . ومكنهم تقدم الملاحة من الاتجاه من مصر إلى جنوب البحر الأحمر رأساً ، ومنها إلى المحيط الهندي ، دون حاجة إلى التزام الشاطئ ، والمرور بكل مرفأ . ولم يكونوا حريصين على التجارة التي يجمعونها من موانئ السودان ، بل كان جل همهم غلات الهند . وكان اتصال الرومان بالبجة مقصوراً على الشماليين منهم الذين يعيشون في مصر أو على تخوم مصر في شمال السودان . وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البلمية . . Blemmye وإن كان هناك شك في أن هؤلاء هم البجة أو جماعة أخرى .

في ذلك العصر كانت دولة أكسوم في شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها ، وأخذت تغير على البجة من جهة الجنوب ، وتدور بين الفريقين منازعات ثور حينا وتهدأ أحيانا . وهناك لوحة ترجع إلى القرن الأول للميلاد ، كتب عليها ملك من ملوك أكسوم كتابة يزعم فيها أنه انتصر على البجة . وزحف على مصر ، ويقول نيوبولد إن هذه أول مرة في التاريخ يذكر فيها البجة باسمهم المعروف اليوم ، والظاهر أن هذا الملك لم يذهب بعيداً في زحفه نحو مصر . والأرجح أن انتصاره على البجة لم يكن نصراً دائماً ترتب عليه إخضاعهم لسلطانه فترة من الزمن ، بل مجرد غارات لا بد أن

تحدث بين دولة مستقرة ، وبين قبائل على حدودها لا تقبل الاستقرار أو الخضوع ، بل من دأبها هي أيضاً أن تثور وأن تغير .

وحكام مصر في العهد الروماني عانوا أيضاً بعض المشقة في إخضاع البجة الشماليين ، لأن كل الدول المتحضرة تحاول دائماً أن تخضع القبائل الواقعة على حدودها ، وتسعى في أن تفرض عليهم قيوداً تنافي مشاربهم في الحياة ، ومما زاد الحالة تعقيداً أن المملكة الحبشية من جهة ومصر من جهة أخرى سادتهما الديانة المسيحية . بينما ظل البجة متمسكين بعبادة إيزيس ، التي اقتبسوها عن المصريين القدماء وظلوا إلى القرن السادس يقاومون كل محاولة لتحويلهم عن وثنيهم .

٧- لم يكن بد من أن تنتصر المسيحية في النهاية . ففي القرن السادس أخذت تنتشر بينهم تارة من الشمال عن طريق بلاد النوبة ، وتارة من الشرق عن طريق الموانئ ، التي يجتمع فيها البجة بطريقة سلمية مع الوافدين من مصر من التجار والعمال . ونستطيع أن نتصور أن جميع البجة الذين كانت لهم صلوات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة قد اعتنقوا المسيحية بالتدريج أما الذين يعيشون في جهات منعزلة فظلوا على وثنيهم .

٨- وفي القرن السابع بدأ ظهور الإسلام في الشمال ، ثم أرسلت البعثات لفتح المناجم القديمة ، وقاوم البجة توغل الإسلام حيناً من الدهر . وتعود القصة سيرتها الأولى كما حدث في ظهور المسيحية ، فالاختلاط في الشمال وفي الموانئ أدى إلى التعارف ثم التزاوج . واستمر انتشار الإسلام في القرن العاشر وما بعده حتى اعتنقه الجميع ، ومما ساعد على ذلك أن طريق الحج في ذلك الوقت كان يصل إلى ميناء عيذاب ، في آخر حدود مصر وأول حدود السودان . ومنها إلى جده ، ويقال إن سبب تفضيل عيذاب أنها بعيدة عن إغارات الصليبيين الذين نقلوا في ذلك العهد سفنهم إلى البحر الأحمر . وقرب عيذاب من جده يجعلها موضعاً ملائماً لاختراق البحر الأحمر :

وقد اندثرت عيذاب بعد ذلك تماماً^(١) وانتقل نشاطها إلى بلدة سواكن ، وهي أيضاً واقعة في أرض البجة . ولكن لم يؤسسها البجة ، ونحن نجهل تاريخ تأسيسها ، ولعله يرجع إلى العهد الفرعوني أو البطلمي ، وإن كانت الروايات الحديثة تعزو تأسيسها إلى عرب الجنوب ، وعلى الأخص الحضارمة :

وقد اشترك في تعمير سواكن عناصر عديدة غير البجة^(٢) ، الذين لم يكن لهم في تعميرها شأن يستحق الذكر . وأهم هذه العناصر العرب ، سواء من الشمال أو الجنوب . . ولذلك وصفت بأنها مدينة عربية أكثر مما هي بجاوية ، ومنذ القرن الخامس عشر أخذت تؤمها السفن القادمة من المحيط الهندي ، من آن لآن ، وقصدها تجار من حضرموت ، واليمن ، والهند ، والصين ، والبرتغال . واستولى عليها العثمانيون في سنة ١٥١٧ وأصبحت ملحقة بمصر : وازدهرت تجارتها وظلت تلعب دورها الخطير ، إلى أن قررت حكومة السودان أن تنشئ بور سودان فتحول إليها كل النشاط التجاري الذي امتازت به سواكن . وأصاب البلدة الأخيرة ركود لا يزال مغيماً عليها إلى اليوم .

وعلى الرغم من أن البجة ظلوا محتفظين بطابعهم في العهد العربي : والكثير منهم الذين كانوا يعيشون في الجبال والجهات البعيدة لم يخضعوا لأي نفوذ أجنبي . فإن رؤساءهم ، بل وكثيراً من عامتهم ، قد اتصلوا بالعرب وشارك الرؤساء ، عل الأقل ، في النشاط التجاري ، وتزوج كثير من التجار العرب بنساء من البجة وأقاموا بينهم ، حتى اندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن يتأثر البجة بالإسلام والثقافة العربية تأثراً شديداً . فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين لا يدينون بأي دين آخر . والكتاب الأوربيون مثل نيوبولد وسلجمان

(١) كانت الحملة التي أرسلها الظاهر بيبرس سنة ١٤٢٦ إلى عيذاب من أهم العوامل في تخريبها . وقد دعاه إلى ذلك أن بعض رؤساء البجة استولوا على بضائع مرسلة إلى مكة .

(٢) لا يد لنا أن نذكر أن سواكن تتألف من جزيرة ملاصقة للساحل ومن البر المجاور لها والميناء الجزرية هي سواكن الحقيقية ، وهي التي لم يؤسسها البجة أما البلد المجاور لها على البر ، فقد عاش فيه البجة ، وهو جزء من أوطانهم .

لا يفتأون يذكرون أن الإسلام لدى البجة لم يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً وأن بقايا الوثنية لا تزال شائعة بينهم ، مثل الختان الفرعوني للنساء ، وعادة دق الأجراس عندما يولد طفل . ولكن عادة دق الجرس وقت الولادة لها أثرها في مصر أيضاً ، ووجود بقايا وثنية بعد اعتناق الإسلام أو المسيحية ظاهرة ليست مقصورة على البجة ، بل نجد لهذه الظاهرة أمثاله في مصر ، بل وفي أوروبا نفسها بحيث لا يكاد يخلو منها قطر من الأقطار .

أما الثقافة العربية فقد تأثر بها البجة أيضاً ، كما تأثروا بالإسلام : فأصبح أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة ، وعلى الرغم من احتفاظهم بلغتهم «التبداوى» فإن هذه اللغة قد تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت العربية في بعض الصيغ النحوية للغة التبداوية .

٩- وهكذا تمت - بفضل هذه الأحداث التاريخية المتعاقبة - المراحل الأساسية في تكوين البجة كما نعرفهم اليوم ، وفي تشكيلهم على الصورة التي نراها ، كما تم تقسيمهم إلى الأقسام الرئيسية التي سبق ذكرها . ومعظمها يرجع إلى وقت حديث . ما عدا الأمرار الذين كانوا معروفين بهذا الاسم وقت اتصال البجة بالعرب في القرن التاسع الميلادي . أما البشاريون والهدندود ، فقد كان تكوينهم على الصورة التي نراها اليوم في أوطانهم المعروفة إلى الآن حدثاً جديداً .

ولعل أكبر تطور في العهد الحديث (أى منذ منتصف القرن الثامن عشر) هو ظهور البشاريين والهدندود في حالة الاتساع والسيطرة على الإقليم الذي يحتلونه اليوم ، قد انتشر البشاريون جنوباً حتى اخترقوا العظيمة واحتلوا الجزء الشمالى من سهل البطانة وجعلوا عاصمتهم أو مركز الرئاسة لهم في بلدة بعلوك على العظيمة ، وبذلك أصبحت أوطانهم تمتد من خط العرض السادس عشر جنوباً إلى الثانى والعشرين شمالاً . أى من سهل البطانة إلى تخوم مديرية أسوان والصحراء المحاذية لها من الشرق ، وهى مساحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ويجاورهم من الجنوب العرب الشكرية ومن الشرق الهدندود والأمرار .

وقد اتسع وطن الأمرار أيضاً من الجهات الجبلية في الشرق إلى السهول الواقعة شمال العظيرة ، أى إلى الوطن البشارى الحالى ، وعلى الرغم من بعض الاختلاط والتزاوج بين الفريقين ، قامت منازعات حول المراعى والمزارع في هذا الإقليم بين الفريقين ، ولم يفصل نهائياً في هذا النزاع إلى اليوم .

أما الهدندوه فكانوا قبيلة قليلة قليلة الخطر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولكن الحروب التى دارت بين مملكة الفنج والحبشة ، وأضعفت نفوذ الفنج في الأقاليم الواقعة حول كسلا Taka وإلى شمالها ، قد أتاحت فرصة للهدندوه فأخذوا ينتشرون ويزداد نفوذهم حتى أصبحت أوطانهم تمتد إلى الأقطار التى يحتلونها اليوم . وأصبحوا أكبر قبائل البجة في السودان . في ذلك الوقت كانت دلتا الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر ، تؤمها السباع ، وقد ظهرت هذه الأراضى وزرعت بعد ذلك بمختلف المزروعات ما بين ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ومن بين مزروعاتها القطن .

وهذا الازدياد السريع في عدد الهدندوه ، وفي خطرهم ، وبروزهم لأول مرة كأكثر مجموعات البجة ، لا بد أنه يرجع إلى تغلبهم على عدة وحدات صغيرة وإدماجها بعضها في بعض وتزعمها بواسطة القبيلة الغالبة .

١٠ - ثم جاء عصر المهديّة ؛ وقد كان الحكم المصرى قبله سهلاً لنا ، لم يحاول الحكام أن يخضعوا البجة لحكم صارم دقيق ، ينافى ما ألفوه من الحرية ولذلك لم يقيم من البجة لمعاونة المهديّة سوى بعض الهدندوه بقيادة عثمان دجنة ، ولم تكن ثورتهم في الغالب عطفاً على المهديّ وأنصاره ، بل لأسباب أخرى ، ويزعم نيوبولد أنهم قدموا خدمات للجيش ونقلوا بابلهم حملة ولوازمها عبر الصحراء ، ولم يكافأوا على ذلك المكافأة التى كانوا يرجونها . ولذلك ثار عثمان دجنة وأصحابه وناصروا المهديّة فترة من الزمن ثم تخلوا عنهم بعد ذلك بالتدريج ، حتى قبل فتح السودان الأخير أما سائر القبائل : الأمرار وبنى عامر والبشاريين ، فلم يشتركوا في الثورة اشتراكاً يستحق الذكر .

الحياة الاجتماعية :

نظمت شئون البجة بعد عهد المهدية تنظيماً تدريجياً . وجعل لكل قبيلة رئيس (ناظر) يتولى شئونها العامة ، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة وبين القبيلة . وإذا أحسن اختيار الناظر ، وكان رجلاً محترماً من قبيلته ، ينتمى لأسرة سبق لها أن كانت ذات مركز ممتاز ، انقادت له القبيلة . وسارت الأمور على ما يرام . وقد تعلمت الحكومة بالتجربة أنه لن ينفعها أن تفرض على البجة أى ناظر تحبه ، ما لم يكن محبوباً من القبيلة ، معترفاً له بالسيادة . وقد أسندت النظارة الآن إلى أسر بعينها ، وأصبح المنصب وراثياً تقريباً .

وليس من الممكن أن نحصى عدد البجة تماماً في الوقت الحاضر ، ولكننا نستطيع أن نقدرهم تقديراً تقريبياً والأرقام الآتية المستقاة من نيوبولد وغيره تمثل لنا حالة هذه القبائل في الوقت الحاضر على وجه التقريب ، واختلاف عددها يرجع غالباً إلى طبيعة البيئة . فالجهات الشمالية أقل سكاناً بوجه عام من الجنوبية ، حيث المطر أغزر ، ومشروعات الري أتاحت مورداً جديداً للعيش .

فالبشاريون في الشمال (أم على) يعيشون بين البحر الأحمر وأسوان . وعددهم يبلغ نحو ١٢,٠٠٠ نسمة ، لهم تجارة مع مصر في الإبل التي يبيعونها لكي يشتروا حاجتهم من الحبوب وغيرها . وبعضهم يشتغل في مناجم الذهب بوادي العلاقي ، ويدبر عليهم ذلك بضعة آلاف من الجنيهات سنوياً .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجي) فيتركزون حول العظيرة والجهات التي حوله وعددهم يقدر بثمانية آلاف نسمة ، وأرض البشاريين واسعة فسيحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة . لكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

والأمراء يعيشون في مساحة تبلغ نحو ١٠,٠٠٠ ميل مربع ، بعضها في الجبال وبعضها في السهول . وأرضهم أكثر مطراً من أرض البشاريين ، وزراعتهم أكثر . منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة يشتغلون ويعيشون بصفة دائمة في

بور سودان ، وهم الذين يزودون المدينة وسكانها بحاجتهم من اللبن والسمن ، ويعملون في الميناء .

أما سائر الأمرأر فيعيشون في المرتفعات غربى بور سودان ، والمنحدرات التى تليها إلى الغرب ، وتمتد أوطانهم إلى العظيرة ، ويمارسون فى هذه المساحات حرفتى الرعى والزراعة . ويبلغ تعدادهم حسب تقدير ساندروز ٤٥,٠٠٠ يملكون نحو ٣٠,٠٠٠ رأس من الإبل ، وبضع مئات من البقر ، ونحو ١٢٠,٠٠٠ رأس من الضأن والماعز ، ولكن هذه الأرقام كلها تقريبية . وهم ينقسمون إلى ١٢ قسما (بدنه) ونحو ثمانين عشيرة :

أما الهدندوه فعددهم الآن نحو ١٠٠,٠٠٠ أو أكثر ، ينقسمون إلى أربعين بدنه ، وعدد كبير من العشائر ، والشاليون منهم رعاة ، ولكن الجنوبيين يمارسون الزراعة فى الأودية الواقعة غرب سنكات ، وفى دلتا الجاش ، وقد أمكنهم أن يحنوا بعض المال من النقل بوساطة إبلهم ، وعلى الأخص قبل إنشاء سكة حديد كسلا . ولهم فوق ذلك بعض التجارة ، كما يستغلون نخيل الدوم ، وكذلك يبيعون السنا المكى ، والألبان والجلود ، والفحم النباتى والسمن ، والحصير المصنوع من ألياف النخيل .

أما ينو عامر فى السودان فلا يزيد عددهم على ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولعل هذا العدد إذا أضيف إلى الشطر الآخر الذى يعيش فى أرتريا يبلغ ثلاثة أمثال هذا القدر أو أكثر قليلا ، وهم أهدأ عيشاً من سائر البجة ، ومواطنهم فى طوكر ، وحوض بركة مكنهم من الانتفاع بمشروعات الرى :

هذه مقارنة موجزة لحالة البجة ، بأقسامهم المختلفة ، وإذا استثنينا الجماعات التى تعيش فى مدن ليست من صنعهم ، يمارسون صناعة وأعمالا تناسب بيئة خلقها غيرهم كالزراع فى طوكر وكسلا ، والعمال فى بور سودان (وفيما مضى سواكن) أو التجار المقيمين إلى جوار أسوان . نرى سائر البجة يعيشون جماعات صغيرة فى رعوس الأودية ، عيشة تغلب عليها الشدة ،

ولا عمل لهم إلا رعى ماشيتهم . ولا يعرفون القرى الكبيرة ، بل يعيشون عيشة العزلة ، في بلاد يشتد حرها في الصيف ، وبردها في الشتاء . في بيوت من الحصير (البرش) غذاؤهم اللبن ، وقليل من الحبوب . وبعض اللحم من آن لآن ، وفي سنى الجذب يقاسون مرارة الحرمان .

هذه البيئة القاسية التي تتعرض لنوبات من الجذب والقحط في بعض السنين كما حدث في عام ١٩٤٩ ، قد صبغتهم بصبغتها القاسية ، وتمرسوا بها ، حتى أصبحوا جزءاً منها ، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين . فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشطف العيش ، يجزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة . ومظهرهم الطبيعي يتفق مع هذه الظروف القاسية .

القامة تمتاز بالنحول والرشاقة : متوسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة ، تشتد سمرتها في بعض الأحيان . والرأس مستطيل باطراد .

الشعر موج أو مجعد قليلاً . وإن بدا غير ذلك ، بسبب طريقتهم في ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة . كأنه حزمة من الخطب أو اللريس . وإذا كان الشعر مجعداً جداً كان ذلك دليلاً على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية . وهذا قليل لدى البشاريين والأمراء ، الذين وقتهم عزلتهم الطويلة من الاختلاط والامتزاج ، والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً . وليس هنالك بروز في الفك أو أى مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة . وقد سبقت الإشارة إلى ما يراه سلجمان من الشبه القريب بين البجه والمصريين القدماء .

والأمر الذي يلفت النظر في البجه جميعاً على اختلاف قبائلهم وأوطانهم أنهم لا تصلهم بالبحر أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب أو زوارق . ولا يعرفون حرفة الصيد البحري . فيحملون بذلك مورداً للغذاء هم في أشد الحاجة إليه . وعلى الرغم من أنهم يرعون إبلهم على ساحل طوله ٤٠٠ ميل ،

وقد تشرب إبلهم قليلاً من ماء البحر أحياناً ، فإن البعجه أنفسهم لا يلقون إلى البحر بالا : وقد طافت بالسواحل جماعات عربية ، واشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ في دنجو ناب وغيرها من الجهات . غير أن البعجه لم يتعلموا شيئاً من ذلك . وموانئهم العديدة أنشأتها شعوب غير البعجه . وعلى كثرة السفن والنشاط البحرى بوساطة المصريين والبطالمة والعرب اليمنيين والحضارمة والهنود والصين ، فإن البعجه لم يكتثروا لشيء من هذه الأعمال البحرية . ولم يحاولوا أن يتعلموا صنعة من الصناعات العديدة التى تتصل بالنشاط البحرى .

وفيما يلى أوصاف لحياة البعجه الشماليين ، وتنطبق فى جملتها على سائر البعجه ، لاحظها مستر كلارك^(١) الذى عاش فى بلادهم فترة من الزمن .

المسكن :

تقضى حياة البداوة بأن يكون المسكن خفيفاً ، يسهل نقله وبناءه . ولذلك نرى فى جميع مواطن البعجه الشماليين ، أن البيت السائد هو البديجاو Bidigau أو البرش المصنوع من الحصير ؛ وإقامة المنزل وتقويضه من عمل النساء ، وليس للرجال تدخل فى ذلك ، بل يعد من غير اللائق بالرجل أن يقوم بهذا العمل ، اللهم إلا إذا كان المنزل لضيف أو لرجل مريض ، حيث لا ينبغى للنساء أن يظهرن .

وهذا المنزل يتألف كله تقريباً من الحصير : والسقف المصنوع من هذه المادة ، يتألف من طبقة واحدة أو طبقتين ، طبقة داخلية ، من الحصير الدقيق الصنع ، والخارجية وهى من حصير أغلظ وأسمك ؛ وينصب هذا السقف مفرداً أو مزدوجاً على أعواد منحنية فى الطرفين . وفتحة المنزل أو بابه من الجانب الشرقى فى العادة ، ولكن قد تكون من جهات أخرى .

وجوانب المنزل ليست كلها من الحصير ، بل تغطى أجزاء منها من الداخل أكسية من الصوف (كل كساء يسمى شملة والأمامى منها الشرقى)

(١) فى Sudan Notes and Records مجلد ٢١ (لسنة ١٩٣٨) الجزء الأول .

من الصوف الرمادى ، والحلفى أسود اللون ، وتصنع هذه الشملات من صوف الغنم أو شعر الماعز .

والأثاث بالطبع غاية فى البساطة ، فالفراش أيضاً من الحصير الدقيق ، ومن تحته الحصير الغليظ وفى المنزل أيضاً أدوات القهوة ، وبعض القدور ، وأوعية من الجلد أو الخوص أو اليقطين لحفظ الماء واللبن ، وغير ذلك .

وفى وقت الظعن تكون الأكواخ صغيرة منخفضة ، وفى الإقامة الطويلة تكون أكبر وأعلى ، لا ينفذ منها ماء المطر ، وهى من هذه الناحية تفضل بيوت الشعر التى للأعراب . ولا نجد عند البجة اليوم تلك البيوت من الأدم التى أشار إليها المقريزى ، ولعله كان واهماً .

الختان :

عند البجة ، كما هى الحال عند العرب والنوبة ، الختان شائع للأولاد والبنات ، وهى فى الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث فى مصر . ومن الجائز أن تعمل والطفل فى حوله الأول أو الثانى ، ويظهر مكان العملية بالشحم الساخن .

أما ختان الفتاة فعملية قاسية ، فى معظم الأحيان . فهناك نوعان أو طريقتان : الأولى وهى طريقة الختان السنّى ، وهى لا تختلف عما يحدث فى مصر . والطريقة الثانية ، التى تدعى الختان الفرعونى . وهى توشك أن تكون عملية جراحية ، تعمل عادة فى الحول السادس إلى الثامن ؛ وتقطع فيها الأشفار العليا من الفرج وجزء من الأشفار السفلى ، وقد وصفها الأستاذ سلجمان وصفاً مستفيضاً ، وقد أكدها أيضاً المقريزى إذ يقول : « وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج » (١).

(١) راجع الجزء الأول من المخطوط ، طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٣١٥ ؛ وهذا النوع من الختان منتشر عند بعض القبائل الأخرى من غير البجة ؛ ونسبته إلى الفراعنة ليس لها سند تاريخى معروف .

المراهقة :

عندما يكبر الغلام عند البجّه بحيث يستطيع أن يرعى بعض الغنم ، يعطى خنجراً ، فإذا بلغ ١٤ أو ١٥ سنة أعطى سيفاً ودرقة ، اعترافاً ببلوغه مرتبة الرجولة . والظاهر أنه ليس هنالك حفلات مشتركة كبيرة يجتمع فيها الصبية معاً عندما يبلغون هذه المرحلة من العمر كما يحدث لدى القبائل الجنوبية من النيلين وأنصاف الحاميين ، كذلك ليس هنالك نظام لتصنيف المجتمع طبقات بحسب السن .

مركز المرأة :

من المعروف أن المرأة عند كثير من القبائل الحامية تتمتع بمركز ممتاز . وهذه الحالة قد لاحظها ابن بطوطة لدى الطوارق في الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثير عند الحاميين الشرقيين . وعادة الميراث التي تقضى بأن يرث الرجل ابن أخته ، هي بعض مظاهر أهمية المرأة . والفتي يعلو شأنه بعلو شأن خاله ، وفي أهمية الحال في الأحاديث والقصص والأغاني عند كثير من الشعوب السامية والحامية ، ما يدل على أن عادة الاعتراف بالأخت وأولادها عادة قديمة عند كثير من الشعوب ؛ وعلى الأخص الشعوب الحامية . . . وحياة الصحراء بطبيعتها تعطي المرأة شأنًا ومنزلة خاصة ، حين يغيب الرجل أياماً في التجارة أو الغارة ، ولا بد للمرأة أن تنهض بكثير من الأعمال في غيابه .

وسواء أكانت أهمية المرأة مما استلزمته طبيعة البيئة أم كانت عادة منتشرة لسبب آخر ، فلا شك أن المرأة عند البجّه كان لها فيما مضى مكان ممتاز . ولكنها لم تصبح لها اليوم المنزلة الممتازة التي كانت لها من قبل ؛ وإن بقيت من ذلك بقية في بعض النواحي الاجتماعية .

ويقول كلارك في مقاله المذكور إن المرأة قلما تعاقب أو تلقى جزاء رادعاً إذا ارتكبت منكراً ، ويزعم أنه أراد مرة أن يوقع عقاباً صارماً بامرأة شابة كان سوء سلوكها سبباً في تخاصم وشقاق وتضارب بين طائفتين من البشاريين :

فطلب تقديمها للمحاكمة الجنائية ، فاحتج أعيان البشاريين وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يعاقبوها عقاباً داخلياً . فسألهم ما نوع العقوبة التي يقترحونها ، فأجابوا أنهم سيقصون شعرها ، ويلزمونها أن تقوم بطحن الحبوب .

وعند البجة - وعلى الأخص البشاريين - لا تقوم المرأة بحلب الماشية ، وقلما تقوم برعيها . وهذه الحال تختلف عما هو سائد عند جيرانهم من العرب مثل الرشايدة ، الذين يشتدون في معاملة النساء ، إذ يشترك نساؤهم في أعمال الرعى وحلب الماشية ، وفي كثير من ضروب النشاط ، وقد تضرب المرأة عند الرشايدة ، ولكنها لا تضرب لدى البجة ، وإن كان ذلك لازماً لها في بعض الأحيان عن جدارة واستحقاق .

وتنحصر أعمال المرأة عند البجة في القيام ببعض الصناعات مثل عمل أوعية من الجلد وتحليتها بالودع ، ونسج الشملات من صوف الماعز أو الغنم أو وبر الإبل ، ويقمن بتزيين الرحال التي يجلسن عليها حين تنتقل بهن الإبل من مكان إلى آخر . وكذلك ينسجن الأسرة ، التي تصنع من الخوص ، وتربط بسيور من الجلد . وفي وقت « الخريف » أي موسم المطر يصنعن السمن من الألبان المتوافرة في ذلك الوقت من السنة .

فما مضى كانت للمرأة في الميراث مكانة ملحوظة ، إذ كان الولد يرث نخاله ، وقد كان لدخول البجة في الإسلام أثر في تغيير هذه العادة ، فأصبح الأبناء يرثون آباءهم . ولكن صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماماً . لأن المرأة إذا ورثت انتقل ما ترثه إلى قبيلة أخرى . وكان من أهم الأسباب في تركيز الميراث في ابن الأخت ، أن الأخت كانت متصلة بأخيها ، فيظل الإرث في القبيلة أو العشيرة ولا يخرج منها . والظاهر أنهم يخشون من توريث البنت لثلاثي ينتقل إرثها إلى العشيرة الأخرى التي تزوج منها .

الزواج :

وجوه الشبه كثيرة بين الزواج لدى البجة وعند القبائل العربية . وأبناء

العمومة أو الخوثة مفضلون دائماً ، ولا يعطى الرجل ابنته لزواج غريب إلا بعد استئذان أقاربها الصالحين للزواج ، والصدّاق يحدده العرف السائد ، وهو عند البشاريين العلياب لا يقل عن ثلاث من الإبل ، وثلاث من الغنم ، جزء للأب وجزء للأم وجزء مساو للخال الأكبر . كذلك يقدم الخطيب هدايا مختلفة من الأقمشة والأسلحة وما إليها .

هذا بالطبع هو أقل صدّاق وتبعاً لمقام الزوجة والزواج يرتفع الصدّاق إلى الضعف أو إلى أكثر من الضعف . وتبدأ الخطبة عادة بأن يقدم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز . وهذه الأشياء ترد إليه إذا لم يكن طلبه مقبولا . فإذا تمت الخطبة ، يقدم الصدّاق الذى يقضى به العرف ، ويعطى للزوج والزوجة ناقة عشراء وتكون بداية عهد الزوجية .

وتقوم نساء الحى ببناء بيت الزوجية الجديد :

وبناء المنزل يشتمل على إعداد الأبراش والشملات اللازمة ، وتركيبها وتحليتها بالأصباغ والألوان برسم دوائر وخطوط عليها ، وفى النهاية يحلى مدخل المنزل بحلية تصنع من الألياف الصغيرة من نخيل الدوم ، وهذه تربط فوق المدخل ، ويعلق بها حبل على صورة مقود الناقة ، وخف صغير مما يلبسه الأطفال الذكور . والغرض من هذا جلب السعادة للزوجين ، بأن يولد لهما الأطفال الذكور ، والإبل الإناث ، وهذا بالطبع منتهى السعادة وأقصى ما يتمناه الزوجان . غير أن هذه التعويذة (التى ندعى سنكواب Sankwab) لا تعمل إلا لمن يتزوج للمرة الأولى .

ويجرى الطلاق عند البجة طبقاً للعرف السائد عند العرب ، ولكن لديهم عادة خاصة تدعى « التعليق » أى أن يطلق الرجل زوجته بشرط يفرضه عليها ، فإذا لم يستوف هذا الشرط لا يجوز لها الزواج من رجل آخر ، بل تظل معلقة . كأن يفرض عليها مثلاً ألا تتزوج من رجل يشك فى أنه عشيقها ، وأنه هو السبب فى فساد الزيجة الأولى .

احترام اللحم والحياة .

يحترم الزوج حماته وحماته احتراماً شديداً يذكرنا بما هو سائد عند الدنكا ، بل لعله أقوى عند البجه منه عند أية جماعة أخرى . ويبلغ بالحن هذا الاحترام درجة تجعله لا يستطيع الجلوس في حضرة اللحم ، ويتجنب حماته كل الاجتناب

دق الطبول .

ومن عادة الأمر أن أقرب الناس إلى الميت يحرم على نفسه أن يجلس على فروة إذا ركب بعيره وذلك من مظاهر الحداد . فإذا كان الفقيد من الرؤساء أو من في طبقتهم دق له الطبل مرة واحدة ، ثم لا يدق بعد ذلك عاماً كاملاً ، ويطلق على الطبل اسم النحاس ، وهو الاسم الشائع في السودان ، وذلك لأنه عادة يتكون من قاعدة كروية من النحاس شد عليها غطاء من الجلد ، ولا يدق الطبل عادة إلا في ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة إلى الحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلها . ولا يجوز مطلقاً أن يدق النحاس لسبب تافه ؛ لأن له تأثيراً شديداً في نفوس الناس . ويتهيج له الجميع حتى الشيوخ الطاعنون في السن . فلا يكاد الطبل يدق حتى ثور الحماسة في القلوب وترهف الأعصاب ، وتجرد السيوف من أنعامها . ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة في دق طبولها ، تميزها عن غيرها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة .

ليس من المنتظر في بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية في معظم جهاتها أن يكون فيها للزراعة شأن كبير ، ومع ذلك هنالك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية . وبقطع النظر من التطورات الحديثة التي جاءت نتيجة لتنظيم الثروة المائية المحدودة لكل من خور بركة ، واستخدامها في ري نحو ٣٠,٠٠٠ من الأفدنة، وفي خور الجاش لرى مقدار معادل ، وما ترتب على

ذلك من نمو الزراعة في منطقتي طوكر وكسلا ، فإن البجة قد مارسوا الزراعة في جهات متفرقة ، وعلى الأخص في الجنوب ، وعلى ضفاف العظيرة ، وفي بعض الأودية والأنحوار ، وفي سهل البطانة حيث يجود المطر من عام لعام ، وإن كان من عادته أن يخلف الظنون في بعض السنوات .

والزراعة بوجه عام لا تمارس بحماسة وإخلاص ، شأن البجة في ذلك شأن جميع الرعاة في جميع الأقطار . ومن الجائز أنهم لم يكونوا يمارسونها مطلقاً ، أو كانوا يكلون أمرها إلى الخدم والعبيد . ويمكننا أن نقسم الزراعة بحسب أنواع الحقول إلى أربعة أقسام :

١ - في الأقاليم الوسطى الشبيهة بالصحراوية يقع منعزلة ؛ إذا جادها الوسمي ، ألقى الزارع بالحلب في الأرض ، ثم يعود إليه بعد ثلاثة أشهر لعل الطبيعة أن تكون قد قامت بالواجب فأنبئت الزرع فاستغلظ فاستوى على سوقه . وهذه الزراعة وسط الفيافي ، كثيراً ما تتعرض لها الإبل السائمة ، فترى فيها مرعى شهيأ خصباً فتلتهمها عن آخرها . فيصبح صاحبها ويضج بالشكوى مطالباً صاحب الإبل بغرامة كبيرة ، وهذا من أهم أسباب التقاضي .

٢ - على ضفاف نهر العظيرة ، يمكن للجواوي إذا شاء أن يستفيد من فيضان النهر ، فينتظر ريثما يهبط الفيضان ، ويزرع الشواطئ والجزر ، كما يحدث على طول نهر النيل . غير أن هذا العمل يتطلب مجهوداً زراعياً خاصاً ، إذ لا بد له من تطهير الأرض من الأعشاب ، وإعدادها إعداداً خاصاً . ولا يقبل على بذل مثل هذا المجهود إلا من اعتاد الإقامة على شواطئ النهر زمناً طويلاً ، كما هي الحال في إقليم النوبة ، ولذلك يقوم الجواوي بواجباته الزراعية هنا في شيء من التراخي .

٣ - لذلك نراه يؤثر الزراعة في سهل البطانة نفسه ؛ وللشواطئ النهرية ميزة أنها لا تتوقف فيها الزراعة على المطر ، لأن الفيضان يدع التربة في حالة من الرطوبة تمكن من زراعتها ، ولكن سهل البطانة له ميزاته أيضاً ، وهي

خصوبة التربة ، ووفرة المحصول لأقل مجهود يبذل ، بشرط أن يتوفر للزراعة مقدار — ولو معتدل — من المطر . والبشارى فى سهل البطانة متفائل دائماً ، وقد يهمل زراعة الأراضى الجزرية على شواطئ العطبرة ، أملاً فى سقوط المطر وجنى محصول وافر فى سهل البطانة ، وقد يخيب ظنه فتفلت منه الزراعة فى الإقليمين معاً ، ويضيع عليه ما عساه أن يكون بذره من الحبوب . والسبب الأساسى ، الكامن وراء تفضيل السهل على الشواطئ هو بغض العمل اليدوى ، الذى يحتقره البدو عامة . وليس بمستغرب أن نجده لدى الأمرأر والبشاريين : وتشبه الزراعة فى سهل البطانة ، زراعة الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة ، حيث المطر أغزر وأوفر ، وسقوطه أقرب احتمالاً ، ولذلك نرى أن حظ الهدندوه وبني عامر من الزراعة أكثر من حظ سائر البجة :

٤ — والنوع الرابع من الزراعة ، هو ما يجرى فى دلتا بركة والجاش ، وهنا تعتمد الزراعة على الفيضان . وقد نظمت الزراعة هنا حديثاً تنظيمًا خاصاً ، وبدأت زراعة دلتا الجاش فى عهد محمد على ، ثم استمرت فى النمو والزيادة بعد ذلك . ويقول الأستاذ نيوبولد إن الهدندوه فى إقليم الجاش يقبلون على الزراعة إقبالاً لا بأس به ؛ ولئن لم يكونوا زراعاً من الطراز الأول ، فإن ما يقومون به فعلاً يعد تقدماً عظيماً بالنسبة إلى أعمالهم قبل ذلك . وفرق كبير بين شعب اعتاد الزراعة منذ آلاف السنين ، وبين قبائل يدوية لم تكن تقبل على الزراعة إلا عن كراهية واضطرار .

وأهم ما يزرعونه الحبوب ، وعلى الأخص الذرة الرفيعة . وفى الأقاليم الشمالية . حيث الزراعة قليلة والمحصول ضئيل ، نرى البشاريين وغيرهم مضطرين كل عام إلى شراء حاجاتهم من الحبوب للطعام ، ولكى تستخدم بمثابة التقاوى عند الزراعة . أما فى الجنوب فإن البجة قلما يحتاجون إلى شراء الحبوب للقوت أو للزراعة .

ويصف لنا كلارك بعض المراسم المتبعة فى الزراعة ؛ فيقول إن البجة يقربون قرباناً فى الحقل قبل بذر الحبوب ، فيذبحون عجلاً أو جملًا أو كبشاً

أو معزى ، تبعاً لمقدرة الزارع وسعة الأراضى التى يملكها ، وبعضهم ينصب هودجاً ، فتعدو حوله الرجال على ظهور الإبل ، والنساء تزغرد ؛ وبعضهم - ذوو النزعات الدينية - يلتزمون الصيام فترة من الزمن ، وآخرون يكثرون من الصلاة - صلاة الاستسقاء - والدعاء والتسبيح .

فإذا اقترب وقت الحصاد ، ضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه ، وفى هذا العمل بالذات يبدى البجة نشاطاً كبيراً ، ويتسابقون أيهم يجنى غلته قبل صاحبه . ومن عاداتهم أن من ينتهى من محصوله أولاً يصبح بجاره : « الأرنب جاءتك » وهكذا حتى يبقى آخرهم وهو الذى وصلت إليه الأرنب ، فيضحك الآخرون منه وربما كانت هذه بقية عادة قديمة . . وهكذا نرى أن البجة - وإن تقاعسوا أو تكاسلوا فى أعمال الزراعة - يبدون نشاطاً هائلاً وقت الحصاد .

الرعى :

على الرغم من احتراف الزراعة ، وتعدد أنواع المزارع ، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية ، فإن الرعى هو الحرفة الأساسية لجميع البجة ، على اختلاف قبائلهم وأوطانهم ، وقد ازدادت ضروب النشاط الاقتصادى تعدداً وتنوعاً فى الأزمنة الحديثة ، وأصبحت تتناول البيع والشراء ، والتجارة فى مختلف مظاهرها ، وتتناول استغلال بعض الغلات الطبيعية ، كما تتناول العمل فى الموانئ وفى الخدمة العامة (الجيش وما إليه) ، ولكن هذه النواحي المختلفة لم تستطع أن تخفى الحقيقة الأساسية وهى أن البجة شعب من الرعاة ، وإن تعددت وجوه النشاط فيه وتنوعت . ومن الممكن أن نتصور أنهم جاء عليهم حين من الدهر لم يكونوا يحترفون حرفة أخرى ، بل كان جل اهتمامهم ونظام حياتهم مركزاً حول القطعان والعناية بها والدفاع عنها فإذا ثار نزاع حول أرض ، فذلك لأنها مرعى لماشيئهم أو فيها آبار لسقاية دوابهم ، وإذا أغاروا على جيرانهم فإن أهم أسباب الخصام الحصول على قطع

أو الثأر لعدوان على قطيع ، وإذا كانت الروح الحربية هي الخلق الذي يجب أن يربي في كل فرد ، فذلك لأن حياة الرعي تتطلب التأهب الدائم للذود عن القطيع ، ورد العدوان عنه . والطمع والجشع ، لا يتخذ إلا صورة واحدة ، وهي الرغبة في الاستئثار بأكبر عدد ممكن من الإبل . فالحياة كلها مركزة حول شيء واحد ، وإن ظهرت في مظاهر مختلفة .

ومن المرجح أن البجه قد عرفوا الزراعة والزرع زمناً طويلاً ، دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها . ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً ، عرفوا فائدة الغلات الزراعية ، وعلى الأخص الحبوب ، وحصلوا عليها واستخدموها في غذائهم ، دون أن يفكروا في استنباطها بأنفسهم ، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها بإحدى وسيلتين : إما بالإغارة ، إذا كان الزراع - كما هي الحال في كثير من الأحيان - جماعات مستضعفة ، متفرقة ليس بينها تضامن وتعاون ، ولا نظام دفاعي يمكنها من الذود عن أرضها ؛ وإما بالبيع والشراء ، بأن يعطوا ما يفضل عن حاجتهم من الماشية ويحصلوا في نظيرها على حاجتهم من التمر أو الحبوب .

ظل البجه حيناً من الدهر يحصلون على حاجتهم من غلات الزراعة بإحدى هاتين الوسيلتين ، ولا تزال المبادلة عنصراً هاماً إلى اليوم في حياتهم ، تمكنهم - وعلى الأخص سكان الشمال - من الحصول على جزء غير قليل من قوتهم الضروري .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولا كيف أخذ البجه يمارسون الزراعة ، مقلدين جيرانهم ، من المستقرين ، الملازمين لحقولهم ومزارعهم ، ولكن ظاهر الأمر يدل على أن ممارسة البجه للزراعة ليست بالأمر القديم ، المعرق في القدم ، لأن تقاليدهم وشعائهم ومختلف عاداتهم ، كلها تشير بأن مجتمعهم موطن الأسس في حياة الرعي . فالدية تدفع بالإبل ، وكذلك المهر ، وفي جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأساسية ، نرى الإبل وسائر أنواع القطعان تحتل مكاناً هاماً ، فنحن إذن أمام مجتمع قد تطور في العصور الحديثة بعض

التطور ، ودخلته ألوان مختلفة من النشاط الاقتصادي ، ولكن أركانه الأساسية لا يزال قوامها الرعى والعنصر المهيمن عليها تلك القطعان الضخمة من الإبل والغنم والماعز .

والإبل بالطبع هي أهم هذه الحيوانات ، وأعلاها شأنًا ؛ ولبست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة للثروة الحيوانية . ولا وجه للمقارنة بينها وبين الإبل في الأهمية . والقبيلة التي تنقص إبلها أو تبعد تتعرض لكارثة محققة ، ولن تلبث زمناً طويلاً حتى تذهب ريجها ، ويضطرب كيانها ، ولا يد لها بعد ذلك من أن تندمج في قبيلة أخرى أو تتعرض لفناء محقق .

والأرجح أن الإبل لم تأت إلى البجة عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، فإن الاتصال بين جانبي البحر في هذه المنطقة لم يكن ميسوراً في الأزمنة المتقدمة ، وأكبر الظن أن انتشار الإبل كان من الشمال إلى الجنوب ، أي أنها وصلت إلى بلاد البجة بعد أن وصلت إلى القطر المصري وبعد انتشارها في صحراء مصر ، في عهود البطالسة والرومان .

وأيا كان الوقت الذي تعلم فيه البجة اقتناء الإبل — إلى جانب ما كان لديهم من الماشية قبل ذلك — فإن إدخال الإبل إلى بلادهم صادف تربة خصبة ، إذا صح هذا التعبير ، لانتشارها ورعايتها . وقد كان البجة بلا شك رعاة بارعين قبل أن تدخل الإبل ديارهم ، فلما أخذوا في اقتنائها لم يلبثوا أن ألفوها ، وأبدوا في تربيتها براعة فائقة لا تقل عما أبدته أي قبيلة عربية ، اشتهرت بتربية الإبل . ومن الجائز بالطبع أن البجة قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربية الإبل من الجماعة أو الجماعات التي أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان . لكن لا شك أنهم زادوا كثيراً على ما تعلموه ، وتخصصوا في تربيتها على طريقتهم وأساليبهم ، وبذلك اختلفت طرقهم عما هو متبع لدى الكبابيش مثلاً ، ولدى غيرهم من القبائل ذات الإبل التي تعيش في الجانب الغربي من النيل .

لم يلبث البجة بعد أن اقتنوا الإبل أن أدركوا الصفات الأساسية التي تميز

بعضها عن بعض ، وأن الوراثة عنصر هام في تربيتها ، وفي تأكيد بعض صفاتها الممتازة . وهناك بالطبع صفتان أساسيتان : السرعة من جهة ، والمقدرة على حمل الأثقال ، وأن كلتا هاتين الصفتين لا بد من توافرهما . وكان من الجائز أن تتجه تربية الإبل نحو الجمع بين هاتين الصفتين ، بأن تكون الإبل ذات سرعة معقولة ، وفي الوقت نفسه تستطيع أن تحمل أكبر مقدار ممكن من الزاد والمتاع . غير أن نظرية البجه في تربية الإبل ، جعلتهم يدركون أن الجمع بين هاتين الصفتين على الوجه الأكمل يوشك أن يكون مستحيلاً ، لأن إبل الحمل ، يجب أن تكون قوية العضلات ، ضخمة السنام ، وبالجملة ثقيلة الوزن إلى درجة بعيدة ؛ بينما الهجن السريعة العدو يجب أن تكون خفيفة ، قليلة الشحم ؛ حتى تكون سريعة الحركة إلى أبعد مدى .

لذلك نرى البجه قد اتجهوا في تربية الإبل وجهتين : الأولى تربية الإبل السريعة جداً ، والأخرى تربية الإبل القوية الثقيلة التي تحمل أمتعتهم إذا انتقلوا من مكان لآخر . فأخذوا يربون إبلهم بدقة وعناية حتى يصلوا ، بطريق التوريث ومراقبة التناسل ، إلى استنباط هذه الصفات . وبذلك انقسمت الإبل لديهم إلى هذين النوعين .

والإبل السريعة عند البجه تلقى عناية خاصة ، لعلها أعظم مما يبذل من العناية في تنشئة النوع الآخر . وتبدأ العناية بها بمراقبة النسل ، فلا يسمح للناقة السريعة أن تنسل إلا من بكر سريع . وكل فصيل يولد تكون شجرة نسبه معروفة ومحفوظة والعناية التي تبدأ باختيار الوالدين ، تستمر بعد الولادة ، في جميع المراحل ، إذ لا بد من تدريب الفصيل في السنوات الأربع الأولى من عمره ، وإلا تعذر أو استحال تدريبه بعد ذلك . ومتى تم تدريبه أصبح صالحاً للركوب ولقطع المسافات البعيدة في سرعة قد تبلغ أحياناً سرعة الخيل . واشتهرت الهجن البجاوية بذلك في مصر والسودان ، وتحرص الحكومتان على اقتنائها لجميع الأعمال التي تتصل بمراقبة الحدود ، وكانت فيما مضى لها مكان في نظام الجيوش . ولا شك أن الدافع الأكبر الذي حدا بالبجه إلى العناية

بالسرعة ، هو ما لها من الشأن الأكبر في الحرب وفي الكر والفر ، وفي الانقضاض الفجائي على العدو . فهي تقوم بالدور الذي تقتنى له الخيل في البلاد العربية . وليس من السهل على البجّة أن يربوا الخيل في أوطانهم التي لا يتوافر فيها العشب إلا في جهات متباعدة . والقبائل العربية التي تقتنى الخيل تضطر لأن تخصص لها عدداً من الإبل لتحمل القوات اللازم لها ، في أثناء قطع المسافات البعيدة في الصحراء ، ولا شك أن في هذا تعطيلاً لعدد كبير من الماشية ، وإذا أمكن أن تعمل الإبل عمل الخيل ، فإن هذا أوفق لبيئة البادية .

وهذه الإبل — عدا ما اشتهرت به من السرعة — تعد مطية سهلة الركوب ، لا يحس راكبها نصباً ولا عناء ، ويستطيع أن يقطع المسافات البعيدة ويقضى على ظهرها الأيام الطوال دون مشقة ، لأنها عودت منذ الصغر أن تمشي مشية مستوية سهلة ، في خطاها السريعة أو المعتدلة . ونظراً لطبيعة البيئة التي تجمع بين المسالك الوعرة في الجبال والفيافي الواسعة في الصحراء ، اعتادت هذه الإبل أن تسلك الطرق الجبلية المنحدرة والممرات والشنايا الحجرية ، من غير مشقة ، وهي ثابتة الخطأ ، لا يخشى عليها أن تنزل بها الرجل أو تتعثر في الأحجار والمنحدرات والشعاب الضيقة ، وهي ميزة قلما نجدها في الخيل .

لا شك أن الإبل السريعة تحتل المكان الظاهر البراق من حياة البجّة ، فالنشاط الحربي والرياضي والحفلات لها فيها المكان الواضح الممتاز . وهي أيضاً التي شكلت المجتمع ، بأن جعلته يجمع بين التفرق في مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة والتجمع السريع إذا كان هنالك حاجة للمّ شمل القبيلة وتجميعها لغرض من أغراض الحرب أو السلم . ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية هو الإبل الأخرى ، التي تستخدم في الحمل ، وهي التي تدر الألبان الغزيرة . وتساعد في انتقال العشيرة من موطن إلى موطن . وهي العماد الأساسي للاقتصاد القومي ؛ وهي التي تستخدم في نقل السلع والغلات الزراعية فوق حملها الأبراش للخيام والأمتعة والأواني . وهي عماد النشاط التجاري ، يوجرها البجّة للنقل في الصحراء للحكومتين المصرية والسودانية ، حيث

تتعدى وسائل النقل الأخرى . وقد تؤجر للأفراد أو للبعثات ، وهى بذلك تكون مورداً من أهم موارد الرزق . ولذلك لا تقل عناية البجّه بها عن عنايتهم بالإبل السريعة التى تستخدم فى الذود عن القطعان ، وحماية الممتلكات .

فالعناية بالإبل إذن تشمل النوعين ، وإن كانت الهجن السريعة أقرب إلى قلوب البجّه ، لأنها موضع افتخارهم ، ولأنهم يصطحبونها ، وتلازمهم فى أسفارهم ، ويركبونها حتى فى غير أوقات الانتقال من مرعى إلى مرعى : وكثيراً ما يكون للرجل هجينه المفضل يعرفه باسمه ، ويصاحبه فى غدوه ورواحه . وبين الاثنين علاقة وصلة ، لا يتسنى وجودها بين الرجل وبين الإبل التى تحمل الأثقال .

على الرغم من هذا كله يعنى البجاوى بإبله كلها ، ويعرف طباعها وخصالها ، وهو طبيب بعلمها وأمراضها ، ويسمىها فى كل مرحلة من حياتها باسم خاص ، كما يفعل العرب تماماً . ولكل قبيلة علامة تكون على كل جمل أو ناقة ، وتعرف بالوسم ، يميز إبل كل قبيلة عن إبل القبائل الأخرى . وهى علامة واضحة لا يمكن إخفاؤها أو سترها . وقد تكون على العنق أو البطن أو أى جزء آخر من جسم البعير أو الناقة . وإلى جانب العلامة الأساسية الخاصة بالقبيلة ، تضيف كل جماعة أو أسرة علامة أخرى خاصة بها ، وكثيراً ما تكون هذه العلامة الإضافية هى لأسرة الأم إذا كانت الأم من قبيلة أو عشيرة أخرى ، وهذه بقية أخرى لنفوذ الأم بين البجّه . وفى أثناء البيع والشراء والمبادلة تضاف علامات أخرى ، بحيث يمكن للخبير أن يطالع على جسد الجمل تاريخه فى صورة مصغرة ، ولو أن بعض البشاريين يكتفون بعدد صغير من العلامات : علامة فى أعلى الساق ، وأخرى على العنق تحت الرأس مباشرة .

ويعالج البجّه إبلهم بطرقهم البدائية ، حيث لا تتوافر وسائل العلاج الحديثة . والكى من أهم الوسائل التى يلجأون إليها . وقد يستخدمون السكين ، فى استئصال كتلة مريضة من اللسان أو أى جزء آخر من الجسم .

ورعى الإبل في بيثة كالتى يعيش فيها البجه تستدعى بالطبع كثيراً من التنقل ، فإن الإبل على الرغم مما اشتهر من قدرتها على أن تقطع أياماً وليالى من غير طعام أو ماء . ليس معنى هذا أنها قليلة الطعام والشراب بوجه عام . والصحيح أنها يلزمها الكثير من الغذاء ، وقسط وافر من الراحة في المرعى ، قبل أن تشرع في رحلة طويلة . وإذا كثرت الإبل فسرعان ما تستنفد المرعى القريب ، ولا بد أن تساق إلى مرعى آخر . فإذا استنفدت المراعى القريبة في موطن من المواطن ، فلا بد من الانتقال بها إلى موطن يبعد عن الأول بعشرات الأميال . ومن الجائز للقبائل القليلة التى تعيش على حافة نهر كبير كالعظيرة أن تظل قريبة من مواطنها الأصلية ، حيث لا تعدم الماء والمرعى . ولكن القبائل التى تقيم في جوار الجبال ، وهى الجهات التى كان لها فضل كبير في تشكيل حياة البجه الاجتماعية والاقتصادية ، لا بد لهم أن يتحولوا عن موطن إلى آخر تبعاً لما يقتضيه البحث عن المرعى .

وفي السهول الممتدة شمال العظيرة إلى القطر المصرى ، حيث يغلب الجفاف ، ويقل الماء الجارى أو ينعدم ، ترى الآبار بعيدة بعضها عن بعض ، وكثيراً ما كانت ملكية هذه الآبار مجالا للنزاع بين القبائل . ونظراً لقلّة هذه الآبار نرى حولها زحاماً لا يكاد ينقطع ليلاً أو نهاراً ، وعلى الأخص في الليل . فلا تكاد تفرغ جماعة من رى ماشيتها ، وملء قربها ، والمضى في سبيلها حتى تجيء جماعة أخرى . ولا ينقطع الغناء والنشيد في أثناء هذا كله .

وإلى جانب الإبل يربى البجه قطعاناً كبيرة من الضأن والماعز . ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة (الصغيرة الحجم) إذا قورنت إلى الماشية الجليلة وهى الإبل . والماعز كما هو معروف أكثر احتمالاً لخشونة العيش من الضأن .

ويربى البجه ، إلى جانب الإبل والضأن والماعز ، قطعاناً من البقر . وهذه الثروة الحيوانية ليست مقصورة على قبيلة من القبائل ، بل يشترك الجميع في تربية البقر ، وإن كان بعضهم أغنى من البعض . وبديهى أن تربية البقر

لا تتاح إلا لسكان الأقطار التي يتوافر فيها المرعى فترة طويلة من السنة ، ولا سبيل إلى اقتناء البقر بوساطة سكان العتمور أو العتباى ، أو الأقاليم الشمالية بصفة عامة . ولكن نظراً لأن أوطان البشاريين قد اتسعت وامتدت إلى نهر العطبرة ، فإن هذه القبيلة أيضاً استطاعت أن تمتلك قطعاناً من البقر ، وإن كانت أقل بكثير مما يقتنيه الأمراء أو الهدندوه أو بنو عامر ؛ أو القبائل الصغيرة من البجة مثل الحالنقا والأرتيقا . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نسمى البجة رعاة بقر أو بقارة بالمعنى المعروف ، لأن البقر ليست هي الماشية الرئيسية لمعظمهم ، وأكثرهم لم يفكر في اقتنائها إلا في العهود الحديثة^(١). والجماعات التي تمتلك قطعان البقر ، هي في العادة نفس الجماعات التي تمارس الزراعة ؛ وكثيراً ما ترى قطعانهم في سهل البطانة ترعى العشب ، وهي تشتمل على مزيج من الإبل والضأن والماعز والبقر والحمير . وهكذا نرى أن ماشية البجة أكثر تجانساً في الشمال ، حيث تغلب تربية الإبل ، ثم تزداد اختلاطاً وتنوعاً كلما اتجهنا إلى الجنوب ولعل في تنوع الثروة الحيوانية في الجنوب ، ما يفسر لنا تفوق البشاريين الشماليين في تربية الإبل على جميع البجة .

وللبجة عادات خاصة تتصل باللبن وحلب الماشية ، منها أن الرجال كما ذكرنا من قبل هم الذين يحلبون الماشية ، وينكرونها من الزبيدية والرشايدة (وهم عرب من اليمن حديثو الهجرة إلى السودان) أنهم يسمحون للنساء بحلب الماشية . ومنها أنهم لا يحلبون في أوعية من الفخار ، وإن كان لدى كثير منهم أوعية فخارية . والوعاء المفضل لحلب الألبان هو اليقطين ذو القشرة السمكية ، أو أوعية الخوص ، وهي تصنع من الخوص الرفيع جداً . ويقول سلجمان إنهم ربما استخدموا قربة من الأدم لهذا الغرض أحياناً ، ولكن هذا نادر .

(١) يقول الأستاذ سلجمان في مقاله The Hamitic Problem (مجلة JRAI سنة ١٩١٣ ص ٦٥٤ وما بعدها) إن بعض البجة يعدون البقر ماشية حقيرة ، وهذا القول ينطبق بوجه خاص على الأمراء . وقد يتعداهم إلى غيرهم .

ومن عاداتهم أيضاً أن الرجل بعد الحلب لا يجوز له أن يذوق قطرة منه قبل أن يتناول منه شخص آخر جرعتين أو ثلاثاً . ومن أكبر الوصيات أن يرتكب رجل هذا الأمر المنكر ، مهما بلغ به الظمأ . وهم يصفون هذا العمل المستهجن ، بقولهم : « فلان حلب وشرب »^(١).

الصناعات :

حياة البداوة وكثرة التنقل لا تساعد على نشوء صناعات كثيرة ، فالصناعة مقصورة على الأشياء الضرورية . ومن الجائز أن تصنع أشياء قلائل لكى تباع فى أسواق بعض المدن للراغبين فى اقتنائها . والمادة الأولية بالطبع محدودة ، وأكثرها مشتق من النبات أو الحيوان . وأهم النبات نخيل اللوم ، وشجر السنط ، وأهم الغلات الحيوانية الشعر والصوف والوبر والجلود . والألبان بالطبع لصناعة السمن ، وليس هنالك مجال كبير لزيادة الإنتاج والتفنن فى الصناعة ، إذا كانت الهمة متجهة إلى الفائدة العملية دون سواها . ومع ذلك فإن الطبع البشرى لا بد أن يكون له أثره ، ولذلك لا يخلو الأمر من بعض العناية بالتجميل .

ومن أهم أنواع النسيج ، صنع الشملات . وهى تصنع عادة من شعر الماعز ، وأحياناً من صوف الغنم ، ولكن أكثر ما يستخدم فيه الصوف هو لتجميل الشملات أو الأوعية الجلدية . وهذه الصناعة كما سبق ذكره من أنخص عمل النساء .

وقد اشتهر بعض الأمراء فى صناعة البرذعات والأكوار للإبل ، وجميع البعجه يعترفون لهم بالبراعة فى هذه الصناعة . كما اشتهرت بعض العشائر البشارية بالمصنوعات الجلدية ، وبدبغ الجلود ، وبعض هذه المصنوعات قد تجد سبيلها إلى أسواق أسوان .

ويستخدمون فى الدباغة القرَد ، المشتق من شجر السنط ، فيقطعون

(١) سلجان فى نفس المقال والموضع .

فروع الشجرة التي تحمل القرَد ويتركونها لتجف . ثم يتخذون أحواضاً من الطين ويملاونها بالماء ، ويجعلون فيها القرَد بنسبة رطل من القرَد لكل قربة من الماء وفي هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام ، ثم يغيرون الماء . وهذه العملية تتكرر ثلاث مرات . تستخرج الجلود بعدها وتغسل بالماء مراراً . ثم تملأ بالطين وتعلق على الشجر لتجف ؛ وبعد أن يتم جفافها تؤخذ من الشجرة وينفض عنها التراب وتفصل وتخاط على شكل قرب . وتستخدم في حفظ الماء ونقله من مكان إلى مكان ، ويبقى أثر الدباغة في القربة فترة من الزمن ، ثم يزول بالاستعمال . ولا شك أن القرب المصنوعة على هذه الصورة من أحسن وأنسب الوسائل لحفظ الماء ونقله .

وإذا كانت الجلود تستخدم في صنع أوعية لحفظ السمن ، فإنها علاوة على عملية الدبغ ، لا بد لها من أن تعالج بوساطة نباتات أخرى تجعلها أشد اندماجاً ، بحيث لا ينفذ منها الدهن .

والبجة بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليهم الصفة العسكرية ، والطبع الحربي الذي أملت البيئة والكفاح للمحافظة على النفس والمال . وشجاعتهم وقوة احتمالهم مضرب الأمثال . وعلى الرغم من أن حكم القانون أخذ ينتشر ؛ وقل النزاع بين القبائل ، غير أن هذه الروح لا تزال سائدة فيهم ، متغلغلة في نفوسهم . وسلاحهم الرئيسي هو السيف للهجوم ، والدرقة للدفاع ؛ وقلما يستخدمون الرمح . أو القسي والسهام ، ولكنهم يحملون في منطقتهم خنجرأ منذ الحداثة ، ويظلون محتفظين به ، وليس هناك دليل على أن هذه الأسلحة ، باستثناء الدرقة ، هي من صنع أيديهم ، وليس في أوطانهم معدن الحديد . ولذلك لا بد لنا أن نقرر أنهم يشترون سيوفهم وخنجرهم عن طريق البيع والشراء . ويبدلون جهداً ملحوظاً في العناية بها ويحرصون على اقتناء أجودها وأحسنها ؛ ومن الجائز ، بل المرجح ، أن سلاحهم فيما مضى كان الرمح ، سلاح أهل الجنوب ، ولكن السيف جاءهم من الشمال ، أو من جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر ، فلم يلبثوا أن وضع لهم ميزة السيف على غيره من

ضروب الأسلحة . فأقبلوا على اقتنائه . وكثيراً ما يطلق الواحد منهم على سيفه اسماً خاصاً ، كمعادة فرسان العرب . ويروون قصصاً عن بعض السيوف وحدثها ، وكيف سقطت على الحجر ، فقطعته من أعلاه إلى أسفله وهلم جرا :

وتظهر النزعة الحربية للبحر حتى في لهوهم ولعبهم . فيرقصون رقصاتهم الحربية على دقات الطبول ، وأناشيدهم وأغانياتهم تردد قصص أبطالهم . وإذا اجتمعوا في المساء حول أكوأخهم ، أو حول نار من حطب السنط ، أحاطوا برجل يضرب الرباب ، ويغنيهم الأناشيد الطويلة عن بطل من أبطالهم القدماء .

الفصل الثالث عشر

النوبيون

جاء ذكر النوبيين مراراً في الفصول السابقة في مناسبات عديدة ، وعلى الأخص عند الإشارة إلى مستعمراتهم في مختلف أنحاء السودان ، غير أن الأوطان الرئيسية للنوبيين هي بالطبع تلك الأراضي الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى ، يستقلون أحياناً بهذه الجهات النهرية لا يشاركهم فيها أحد ، ويجاورهم أحياناً - كما رأينا من قبل - جماعات عربية فالنوبيون في أوطانهم الأصلية شعب نهري ، يلتزم وادى النيل التزاماً شديداً ، قل أن نجد له نظيراً في أى جزء آخر من الوادى . وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الطبيعة الصحراوية للأقاليم المتاخمة للنهر شرقاً وغرباً ، أرغمت السكان على مضى القرون الطويلة أن تظل ملتزمة للنهر ، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التى تحف به .

ولهذا الإقليم المستطيل الضيق مقدرة كبيرة على امتصاص العناصر الغربية التى دخلته من آن لآن ، وعلى تمثيلها تمثيلاً كاملاً حتى تندمج اندماجاً تاماً فى سائر السكان ، وقد تلقى النوبيون على مدى آلاف السنين ألواناً من السلاطات والجماعات ، نزلت ديارهم مهاجرة أو غازية ثم لم تلبث أن استولت عليها البلاد وأدجمتها فيها . وهذه الخاصية وإن كانت معروفة فى مصر ، فإنها أكثر ظهوراً فى الديار النوبية .

وليست هذه المساحة الطويلة التى يعيش فيها النوبيون ، مطردة فى مظاهرها الطبيعية ؛ فعلى الرغم من أنها تتفق فى أنها جزء من وادى النيل يقرب طوله

من الألف كيلو متر ، فإن طبيعة الوادى تختلف من مكان لآخر . فالإقليم الجنوبي من الدبة إلى أبو فاطمه وكرما ، يشتمل على واد سهل متسع ، يغطيه الفيضان ، فى كثير من أجزائه وفى ذلك ما يساعد على بعض المشروعات الزراعية ، والنهر هنا سهل الملاحة معتدل الجريان. وإلى الشمال من أبو فاطمه يبدأ ما يسمى الشلال الثالث ، وهو يكاد أن يتصل بالشلال الثانى ، فى مساحة تقرب من ٤٠٠ كيلو متر ، تكتنف النهر فيه سلاسل عديدة من الجنادل وتتعدر فيه الملاحة ، وتقل المساحات القابلة للزراعة قلة تذكرنا بإقليم المناصير ، وإلى الجنوب من وادى حلفا إلى جنوبى أسوان ، يعتدل مجرى النهر مرة أخرى ، وتكون الملاحة فيه سهلة ميسورة ، وهكذا نرى الأوطان النوبية النهرية تشتمل على ثلاثة أقاليم رئيسية ، إقليم سهل فى الجنوب ، وآخر فى الشمال ، يتوسطها إقليم وعر كثير الجنادل والعقبات .

والصحراء كما ذكرنا تحد الإقليم شرقاً وغرباً ، وتحصره فى نطاق ضيق جداً ، وهى صحراء وعرة ليس فيها ما يغرى سكان الوادى بالحركة أو الانتقال إليها ، فإذا ازدحم سكان الوادى بسبب النمو الطبيعى فلا مندوحة لهم عن التماس أسباب العيش فى الجهات الجنوبية أو الشمالية من الوادى ، متبعين مجرى النهر صعوداً أو هبوطاً ، ولكنهم ، مهما شطت بهم الديار ، يحنون دائماً إلى تلك الأوطان الضيقة المحدودة . ويودون أن يعودوا إليها متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وإذا لم تفسدهم الحضارة فى البلاد التى ينزلونها بعيداً عن أوطانهم ، فإنهم يظلون محتفظين بطابعهم وطباعهم ، التى تمتاز بالبساطة والاقتصاد والهدوء ، والتعاون فيما بينهم ، والرعاية لأقاربهم فى أوطانهم الأصلية ، وكثير من القرى النوبية الفقيرة تعيش اليوم بفضل ما يصلها من المساعدات المادية من رجالها الذين يعملون فى مختلف الجهات فى مصر والسودان ويوشك ألا يكون لبعضها مورد آخر يستحق الذكر .

ولا بد لنا أن نقرر فى بدء هذا البحث ما نعينه بالنوبيين ، فالنوبة شعب قديم ، عريق فى القدم : لازموا أوطانهم الحالية بضعة آلاف من السنين ،

وقد نزل العرب ديارهم ونخالطوا السكان وصاهروهم ، فأضيف النسب العربى الجديد ، إلى النسب النوبى القديم . وقد سبق للنوبيين فى تاريخهم الطويل أن دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندججت فيهم . وظل النوبيون برغم ذلك متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة ، مما يدل على أن الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث أزالَت الثقافة النوبية . ولذلك رأينا أن معالجة موضوع السودان الشمالى معالجة علمية ، تقضى علينا أن نجعل من النوبة مجموعة مستقلة عن المجموعات الأخرى . لأن النسب العربى مشترك بين جميع أبناء الوادى ، ولكن لبعضهم مميزات انفرد بها وفى ذلك ما يبرر النظر إليهم كوحدة قائمة بذاتها :

* * *

والنوبة — بوصفهم شعباً يعيش فى أوطانه الحالية — لم يلق من العلماء ما يستحقه من الدراسة ، سواء من الناحية الإثنولوجية أو الاجتماعية . وذلك على الرغم من كثرة ما كتب عن بلاد النوبة فى الأزمنة القديمة وعن لغتهم وما لها من الاتصال بلغات تشبهها من قريب أو بعيد فى جهات أخرى من حوض النيل ؛ وعن الآثار التى اشتمل عليها هذا الإقليم الأوسط من نهر النيل ومقارنتها بالآثار فى نواح أخرى من الوادى ؛ وعن المقابر وما اشتملت عليه من العظام والجلجام . والمقارنة بينها وبين السلالات المعروفة فى الشمال والجنوب ، كتبت فى هذه الموضوعات وأمثالها الفصول الطوال^(١) ، أما

(١) نورد هنا بعض المراجع عن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

1) The Archaeological Survey of Nubia.

(نشرته مصلحة الآثار فى عدة مجلدات :

2) Seligmann : The Hamitic Problem. J.R.A.I., 1913.

3) Hillelson : Nubian Origins, S.N.R. Vol. XIII, pp. 137-148.

4) Kirwan : A Survey of Nubian Origins S.N.R. Vol. XX, p. 47.

5) G.W. Murray : English-Nubian Dictionary (1923).

6) Junker and Shafer : Nubische Textete.

وصف النوبيين في الوقت الحاضر فكان دائماً يعالج في بضعة أسطر لا تسمن ولا تغنى .

هذه البحوث القيمة والجهود العلمية الضخمة ، حاول أصحابها أن يكشفوا عن الأطوار المختلفة التي مرت ببلاد النوبة وعن أصل اللغة النوبية ، وهل هي تمثل لغة وطنية قديمة نشأت في البلاد أو لغة دخيلة جاء بها عنصر دخيل في عصر من العصور . وعن الصلة بين الثقافة النوبية في الشمال وفي إقليم مروي في الجنوب . ولا يستطيع منصف أن يزعم أن هذه المحاولات قد قربتنا من حل لواحدة من تلك المشكلات ، بل ليس من الإسراف في شيء أن نقول إنها زادت صعوبة وتعقيداً .

والذي يهمنا هنا هو البحث عن نشأة السلالة النوبية ومبلغ قدمها في أوطانها الحالية ، والأوطان الأخرى التي انتشرت أو أثرت فيها وأهم العناصر التي اندمجت فيها على مضي القرون ؛ ومن المفيد مع هذا كله أن نعرض للبحوث الخاصة باللغة النوبية ونشأتها وانتشارها ، بقدر ما تساعد على إيضاح الأطوار المختلفة التي مرت بالشعب النوبي .

إن تقدم البحوث الأثرية في بلاد النوبة السفلى والعليا لم يكن على وتيرة واحدة ، فهناك ظروف خاصة دعت إلى البحث الأثرى في بلاد النوبة الشمالية ، وإلى التوسع في هذا البحث بسبب إنشاء خزان أسوان ، والخوف من ضياع معالم الآثار القديمة في هذا الإقليم . فترتب على ذلك القيام بالتنقيب عن الآثار وعمما اشتملت عليه المقابر القديمة في المساحة الممتدة من أسوان إلى جنوب وادي حلفا ، ونشرت نتائج تلك البحوث بواسطة مصلحة الآثار المصرية ، أما بلاد النوبة العليا فإنها لم تبحث بحثاً أثرياً يستحق أن يقارن بالبحوث الخاصة بالإقليم الشمالى . والجهات القليلة التي بحثت مقصورة على مواضع

== هذا بخلاف الكتب الخاصة بالسودان مثل كتاب ماكايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بركهارت ، والمراجع العربية مثل المقرئى والمسعودى وابن خلدون ، مما سبقت الإشارة إليه . وكذلك المؤلفات القديمة لعلماء اليونان واللاتين أمثال إراتوستين وسترابون وغيرها .

محدودة جداً . وحتى هذه لم تبحث بحثاً وافياً . ولذلك كانت المقارنة بين الشمال والجنوب في بحوث العلماء غير متكافئة ، مما يجعل الوصول إلى نتيجة سليمة أمراً غير يسير .

أما البحوث اللغوية فلعلها كانت أكبر الأسباب فيما وقع فيه العلماء من الأخطاء ، لأن علماء اللغة ، وهم يمثلون أكبر مجموعة من الباحثين في الدراسات النوبية ، قد بنوا آراءهم على اعتبارات لغوية دون أن يدخلوا في بحثهم أى اعتبار آخر . ولعل أكبر خطأ ترتب على ذلك هو الخلط بين الشعب النوبى وبين الجماعات التى يطلق عليها اسم النوبا سكان الجبال الواقعة في جنوب كردوفان . وشعب النوبة كما ذكرنا شعب قديم : والاسم نفسه قديم ، أما « النوبا » كاسم لسكان جبال كردوفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ، وهم يدعون أنفسهم أحياناً سكان الجبال ، ولكن التسمية السائدة هى أن كل شعبة تسمى باسمها الخاص ، دون أن يكون هنالك اسم جامع شامل لجميع سكان الجبال .

وقد وقع فردريك مولر وتبعه بعض الكتاب ، في خطأ كبير ، عندما رأى أن هنالك نوعاً من التشابه بين اللغة السائدة في بعض جبال كردوفان الجنوبية وبين اللغة النوبية ، فحكم بأن جميع سكان الجبال المذكورة يتكلمون لغة تمت بصلة القرابة إلى اللغة النوبية ، ولم يكتف بهذا ، بل حكم أيضاً بأن النوبيين والنوباويين من سلالة واحدة : وقد أصبح حكمه هذا مضرب الأمثال عند علماء الأجناس للخطأ التى يتورط فيه علماء اللغات ، حين يبنون قرابة النسب على تشابه لغوى^(١).

غير أن الخطأ الذى وقع فيه فردريك ملر ومدرسته كان خطأ مزدوجاً ، فقد أصبح من الثابت أن الجبال في جنوب كردوفان لا تشتمل على لغة واحدة ، بل على ثلاث مجموعات لغوية مختلفة ، وأن الجبال الشمالية الغربية

(١) . سلجمان المرجع المذكور ص ٦١٠ وما بعدها .

فقط مثل جبل داير وما يليه ، هي وحدها التي يتحدث أهلها بلسان ، يرى علماء اللغات أنه يشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين .

أما الخطأ الثاني فهو أن السلالة النوبية والسلالة النوباوية مختلفتان أشد الاختلاف سواء أكان ذلك من ناحية المظهر الطبيعي أم العادات الاجتماعية السائدة في كل من الإقليمين . فالنوبيون شعب قوقازي ، بينما سكان الجبال تغلب عليهم الصفات الزنجية . وقد وصف سلجبان كلا منهما فقال : إن النوباوي ممتلئ الجسم والعضلات شديد السمرة إلى درجة تبرر وصفه بأنه أسود البشرة ، أما النوبي فنحيل متوسط القامة ، وبشرته سمراء سمرة تكون في كثير من الأحيان خفيفة . وسكان الجبال شعرهم مفلفل والنسبة الأنفية عالية ، والصفات الزنجية المعروفة واضحة ، أما النوبيون فشعرهم مموج في الغالب . وقد يكون أقرب إلى الاستقامة برغم وجود أحوال شاذة . والتقاطع لا تشبه التقاطع الزنجية في شيء .

كذلك من الناحية الثقافية يختلف الاثنان كل الاختلاف ، فالنوبيون قد يستخدمون الشلوخ كما تفعل القبائل العربية ، ويمارسون الختان للأولاد والختان الفرعوني للبنات ، وهذه كلها عادات لا يعرفها النوباويون سكان الجبال . ولكنهم بالعكس يمارسون عادات لا يعرفها النوبة مثل خلع القواطع ، وخرق الشفة السفلى للنساء لكي توضع فيها حلية . . وكلا الشعبين يصنع الفخار ، ولكن شتان بين الطريقة المتبعة ونوع الفخار الناتج في الإقليمين . فالفخار النوبي مشابه تمام المشابهة لما يصنعه المصريون ، وليس هناك وجه شبه بينه وبين ما يصنع في جبال كردوفان الجنوبية^(١).

ومما يؤسف له أن سكان الجبال هؤلاء قد أطلق عليهم اسم النوبا ، فساعد تشابه الأسماء على كثير من الخطأ ، وعلى الأخص عند العامة وهواة العلم . ولئن كان هذا الأمر مما لا يمكن الرجوع فيه ، فإن من الواجب ، وعلى

(١) نفس المرجع ص ٦١٢ .

الأخص على المتعلمين من سكان السودان ومصر ، أن يدركوا أن هذا التشابه في الاسم سطحي ، ولا يستند إلى أية صلة أو قرابة نسب بين الشعبين .

أما التشابه اللغوي فلقد كان من الممكن أن نتصور هجرة نوبية انتشرت في كردوفان متجهة نحو شمالها أولاً ، ثم ممتدة إلى جنوبها بعد ذلك ، حتى تستقر في الأطراف الشمالية الغربية من الجبال^(١) ، غير أن هذا الرأي السهل البسيط لا يشفى غلة علماء اللغة ، وعلى الأخص المتطرفين منهم ، ذلك أن اللغة النوبية أو لهجات تشبهها من بعض الوجوه موجودة أيضاً في شمال كردوفان ودارفور ، كما هي الحال في جبل ميدوب ، وكذلك في الأطراف الجنوبية من البطانة بين أعالي العطبرة والنيل الأزرق ؛ وكان من الممكن تفسير هذا التشابه بما كان للنوبيين من التأثير في إقليم النيل الأزرق وفي سهل البطانة بالذات ، كما كان لهم انتشار مؤكد في دارفور وكردوفان . ولكن هذا التفسير يأباه كثير من علماء اللغة مثل زيلارتس . . . وفوق ذلك اكتشف اللغويون أن هنالك خصائص في بعض المفردات وفي النحو والصرف ، مشتركة بين اللغة النوبية وبين لغات الباري في أعالي بحر الجبل ، والمازاي في هضبة إفريقية الشرقية ولغة النيلين أمثال الدنكا والشك^(٢) . وكان من الجائز أيضاً تفسير حتى هذه الظاهرة بأن هذه الجماعات كلها دخلها كثير من الدماء الحامية وأن اللغة النوبية كالشعب النوبي من أصل حامى صميم ، فمن المعقول أن تكون الثقافة الحامية قد تسربت إلى جميع هذه الجماعات على بعد ما بينها من المسافات .

غير أن زيلارتس العالم النمساوي رأى لأسباب بلا شك وجهة في نظره أن لغة جبال كردوفان المشابهة للنوبية لا يمكن أن تكون مشتقة من لغة النوبيين

(١) يرى ماكايكل (تاريخ العرب في السودان الجزء الأول ص ١٤) أن هذا قد حدث بعد الفتح العربي لمملكة دنقلة .

(٢) مقدمة كتاب

سكان إقليم النوبة في جنوب مصر وشمال السودان ، بل إنهما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة في شمال كردوفان ، ثم انتقلت بوساطة أصحابها إلى كل من الإقليمين ؛ ونورد هنا تلخيصاً لرأى ذلك العالم كما رواه سلجيان^(١).

كان الوطن الأصلي للنوبة (والنوبا) في شمال كردوفان حيث تكاثر عددهم واتسعت أوطانهم ، بحيث أمكن تقسيمهم في ذلك الزمن البعيد إلى قسمين : ا و ب ، تبعاً لاختلاف اللهجات .

وفي القرون السابقة للميلاد (أى ما بين ٥٠٠ و ١٠٠ ق . م) نزحت أعداد كبيرة من نوبة ا غرباً إلى جبل ميدوب . ونزحت أخرى في اتجاه شمالي إلى النيل حيث عاشوا جنباً لجنب مع الليبيين الذين كانوا سكان البلاد في ذلك الوقت .

وفي القرن الأول والثاني هاجر باقى قسم ا من كردوفان في الاتجاهين المذكورين ، ويزعم المؤلف تأييداً لرأيه أن هنالك أسطورة لدى بعض النوباويين ، بأن أجدادهم وأجداد النوبيين كانوا إخوة ، ثم حدث نزاع حول ملكية خنزير كان قد قرب قرباناً في بعض المناسبات . فهاجر أجداد النوبيين ونزحوا عن البلاد . وهذه الأسطورة على طرافها لا تؤيد وجهة نظر المؤلف في أن النوبيين هاجروا من شمال كردوفان ، بل من إقليم الجبال .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الشعبة الثانية من القسم ا ، التي هاجرت في القرن الأول والثاني بعد الميلاد قد سلكت طريقين : أولهما طريق وادى الملك ، إلى بلاد النوبة مباشرة ، والآخر طريق درب الأربعين إلى الواحات الخارجة ، وهؤلاء كانوا قلة ، أما الكثيرة فقد هاجرت إلى بلاد النوبة حيث أقاموا مع أقربائهم الذين نزلوا هذه الديار قبلهم ببضعة قرون .

أما قسم ب فيقول عنه المؤلف إنه هاجر مشرقاً إلى أرض الجزيرة في أوائل القرن الرابع (حوالى سنة ٣٢٠) ثم إلى البطانة حيث أغار على مملكة

(١) في كتاب Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, p. 411

مروى وقضى عليها ، ولكنه لم يقتبس حضارتها ولم يمتزج بالسكان ، إلى أن دخلت المسيحية إلى بلاد دنقلة ثم إلى مروى فانتشر تأثيرها إلى قسم ب ، بل وامتد أيضاً إلى جبل ميدوب .

والمهم في هذا كله أن هذا المؤلف وغيره يزعم أن هؤلاء المهاجرين هم السلالة التي تدعى بحق باسم النوبة . وهم الذين نشروا اللغة النوبية في البلاد وقد حملوها من أوطانهم الأصلية في شمال كردوفان .

وقد حاول زيلارتس بنظريته هذه التي تستند إلى بعض الخصائص اللغوية أن يعطي صورة كاملة تفسر الظواهرات المختلفة المتصلة بانتشار الثقافة النوبية في مختلف الجهات ، ولم يفته أيضاً أن يجد تفسيراً لبعض الإشارات التي ذكرت بأن النوبيين وصلوا إلى الواحات الخارجة . ويبدو في الصورة التي رسمها تلك النزعة الغالبة عند كثير من الكتاب ، وهي أن اللغة النوبية ليست أصلية في بلاد النوبة ، بل دخلت البلاد في وقت ما — سابق للعهد المسيحي — كما أن الجماعات التي أدخلت هذه اللغة ونشرتها هي التي كانت تدعى باسم النوبة .

ومع ذلك فليس من السهل قبول هذه النظرية لسببين : أولهما ما أوضحناه من قبل من أن النوبا في كردوفان مختلفون كل الاختلاف عن النوبيين ، والسبب الثاني أن هذه الهجرات لطائفة النوبية قد دخلت بلاداً تسودها الحضارة منذ قرون عديدة ، كثيرة السكان ، وإن اتسعت لبعض المهاجرين فليس بمعقول أن يضطر هؤلاء المهاجرون السكان الأصليين إلى تغيير لسانهم ، بل وإلى تغيير اسمهم . ونحن نعلم أن سكان البلاد لم يكونوا بالشعب السهل الذي يتيسر إخضاعه .

وقد ظلت اللغة النوبية زمناً طويلاً دون أن تكتب إلى أن تحولت البلاد إلى الديانة المسيحية في منتصف القرن السادس على أيدي قسس مصريين ، فكتبت النصوص الدينية بالحروف القبطية . كما استخدمت تلك الحروف في كتابات أخرى ، وبذلك أصبحت اللغة النوبية لغة مكتوبة . أما النصوص

السابقة لذلك العهد فإنها نصوص باللغة المصرية القديمة ، ولعلها كانت اللغة الرسمية للبلاد بينما كانت النوبية هي لغة الناس ، مع ما بين اللغتين من التشابه .

ويصف لنا مسر مري اللغة النوبية وصفاً نلخصه فيما يلي :

ليس هنالك لغة تتفق مفرداتها مع اللغة النوبية اتفاقاً كبيراً ، بل إن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير في جميع اللغات التي قورنت بها . أما اللغات التي تشابه اللغة النوبية في مفرداتها ، فأكثرها بلا شك لغات حامية ، وبلا شك أن الصبغة الحامية هي الغالبة على اللغة سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف ، ولكن هنالك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية ، في ناحية واحدة وهي النظام الصوتي Phonetic System ، ولكن له نظيراً في اللغات النيلية في جنوب السودان مثل لغة الباري^(١) .

فاللغة النوبية تشتمل حسب رأى هذا المؤلف وغيره على عناصر حامية وأخرى غربية عن الحامية . ولعل مصدر هذا العنصر الغريب بعض الشعوب الجنوبية . وقد رأى بعض العلماء مثل راينش Reinisch أن الأصل في اللغة النوبية أنها حامية دخلتها مؤثرات أجنبية . ولكن بعضهم مثل مري نفسه يرى أنها في الأصل لغة نيلية جنوبية مثل لغة الباري . ثم تعرضت لمؤثرات حامية شديدة على مدى العصور . ومع أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى البحث فإن الرأى الأول هو الذى يتفق مع التطورات الجنسية والتاريخية .

هذا وقد دخلت اللغة النوبية مفردات من مصادر أخرى ، بعضها من شمال الحبشة ، عن طريق مملكة مروى على الأرجح ، كما استعارت اللغة النوبية ، كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها ، كما تأثرت بالطبع باللغة المصرية القديمة والقبطية .

ومع ذلك فليس الأمر المستغرب هو أن تقتبس اللغة النوبية ألفاظاً عربية كثيرة ، بل الأمر الذى يبعث على العجب هو تمسك النوبيين بلسانهم على

(١) راجع مري المرجع السابق ص ٥٠ .

مدى العصور الطويلة ؛ وعلى الرغم من تحولهم إلى الإسلام تحولاتاً ، ظلوا محتفظين بلغتهم .

* * *

وكما اختلف الكتاب في أن اللغة النوبية حامية – أى من نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها لغات البجة وغيرهم – ثم تأثرت بعناصر أجنبية ؛ أو أنها لغة جنوبية مثل لغة البارى ثم غلبت عليها المؤثرات الحامية ؛ كذلك اختلف الكتاب في الشعب النوبى هل هو فى الأصل نازح من الجنوب ، تغلب عليه الصفات الزنجية ، ثم تعرض لهجرات قوقازية من الشمال ومن الشرق والغرب ، أو أنه فى الأصل شعب حامى قوقازى تأثر ببعض الهجرات الزنجية ، أو دخلته الدماء الزنجية كما هى الحال فى سائر وادى النيل ، عن طريق تجارة الرقيق :

إن رأى الذى سبق التعبير عنه مراراً فى الفصول السابقة ، هو أن السودان الشمالى بوجه عام لم يكن فى وقت من الأوقات وطناً أصلياً للجنس الزنجى ، ولم يقصده الزنوج من تلقاء أنفسهم بالهجرة والاستقرار ، وقد بنى هذا رأى على دراسة تاريخ هجرات الجنس الزنجى من القارة الآسيوية فى زمن قديم ، والطرق التى سلكها وأسلوب المعيشة التى مارسها ، والتى لم تكن تصلح لها الجهات الشمالية ، فلننظر الآن إذا كان هذا رأى مما يتفق وتطورات السكان فى بلاد النوبة ، كما كشفت عنها الحفائر ، ودلت عليها الأخبار :

ونظراً لأن الاستقرار فى بلاد النوبة يرجع إلى زمن قديم جداً – إلى الألف الخامسة قبل الميلاد على الأقل – ولأن البلاد تعرضت لهجرات وغزوات متنوعة فى هذه العهود الطويلة ، نرى العلماء يتحدثون عن النوبيين فى الأعصر المختلفة ، بأنهم يكونون مجموعات : ا ، ب ، ج وبعضهم يضيف أيضاً مجموعة رابعة د ، ومجموعة خامسة س^(١). والاتفاق العام بين هؤلاء الكتاب

(١) هذه المجموعات التاريخية لا صلة بينها وبين الأقسام ا ، ب اللغوية التى سبقت الإشارة إليها .

هو أن مجموعة ا ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، والعصر السابق للأسر ، واستمرت إلى الأسرات الأولى ، ومجموعة ب ترجع إلى عصر بناء الأهرام ، وهي تمثل مجموعة ا معدلة تعديلا ملحوظاً في حضارتها وثقافتها ، ومجموعة ج ترجع إلى عصر المملكة الوسطى أى الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ، أما مجموعة س فيرجعونها إلى العصر الرومانى ابتداء من سنة ٣٠٠ ميلادية .

ولا يتسع المقام لتتبع حوادث التاريخ في جميع هذه المراحل ولكن من المهم أن نذكر أن محور هذه الحوادث واحد فيما يظهر ، وهو العلاقات بين مصر وبلاد النوبة . وكانت هذه العلاقات تمتاز بالاتصال الثقافى والتجارى ، وعلاقات حسن الجوار ، ثم تتخللها فترات اضطراب ، تجند فيها حملة عسكرية للحد من طغيان عدو من الأعداء ، وجميع الشواهد تشير إلى أن هذا العدو دخيل ، أغار على بلاد النوبة وقد يمتد عدوانه إلى الحدود المصرية .

ويسهل التسليم بأن بلاد النوبة ، وهى البقعة الحصينة وسط الصحراء والفيافى قليلة الماء والنبات ، قد تتعرض للعدوان من ثلاث نواح : من الشرق حيث قبائل البجه ، أو طوائف منهم ، ومن ليبيا التى كانت وكراً لجماعات طمحو وتهنو وغيرهم ، الذين تردد عدوانهم على وادى النيل قرناً بعد قرن ؛ ثم من الجنوب ، من شمالى كردوفان ، حيث الطريق ممهد بوساطة الأودية التى تنتهى إلى نهر النيل .

والإغارات الأولى والثانية يقوم بها على الأرجح جماعات حامية شرقية وليبية ، تزيد فى نسبة الدم القوقازى فى البلاد ، أما الهجرات الجنوبية فإن من الجائز أن تقوم بها جماعات فيها بعض الصفات الزنجية Negroids بقيادة قوقازية . وهذه الظاهرة مألوفة فى القارة الإفريقية .

هذه هى الاعتبارات الأساسية التى يجب أن نذكرها ونحن نتتبع التطورات النوبية من مجموعات ا إلى ب و ج وهلم جرا . وسنجد فى كتابات بعض علماء الآثار ما يؤيد هذا الرأى .

فمجموعة اخصصت لها فترة طويلة في تاريخ بلاد النوبة إذ تمتد من نحو عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . هذه الفترة الطويلة هي عصر تكوين السلالة النوبية، وإن لم تكن البلاد في أثناء ذلك بمأمن من الاضطراب . ويقول سلجمان في وصف النوبيين في ذلك العصر : إن الحفائر قد كشفت أن بلاد النوبة في أقدم الأزمنة كانت أهلة بشعب يدفن موتاه بنفس الطريقة المتبعة في مصر في العصر السابق للأسرات ؛ ويصنع فخاراً على نفس الأسلوب المتبع في مصر في ذلك الوقت ؛ وتشتمل مقابرهم على أدوات وآلات عديدة تتفق تماماً مع ما عثر عليه في المقابر المصرية لذلك العهد ؛ وقد وجد الأستاذ إليوت سميث بعد دراسة العظام والجحاش أن النوبيين من مجموعة ا لا يختلفون عن المصريين في ذلك الزمان ؛ ثم يتطرق الأستاذ سلجمان إلى الإثبات بأن هاتين السلالتين المتشابهتين كانتا تعيشان في عصر واحد^(١).

كان هذا الشعب النوبي القديم إذن من السلالة التي ينتمي إليها المصريون القدماء : وتمتاز هذه السلالة بالقوام النحيل والقامة المتوسطة أو فوق المتوسط بقليل ، والرأس مستطيل بارز من الحلف ، والتقاطيع قوقازية ، وهي فرع من الجنس الذي يطلق عليه اسم جنس البحر المتوسط لانتشاره في أوربا وإفريقية على سواحل هذا البحر . وهو يمتاز فوق ذلك بالأنف المعتدل والشفاه المعتدلة ، وبشعر مموج أو أقرب إلى الاستقامة ولون البشرة أسمر أو في لون الحنطة .

هذه السلالة التي عمرت بلاد النوبة دهرأ طويلا ، والتي كانت حرفة الزراعة وهي حرفة تساعد على التعمير وازدياد السكان، هي بمثابة الأسس التي بنى عليها الشعب النوبي من الناحية الجنسية ، والتي لم تحدث فيها الإغارات على مضي القرون سوى تغيرات يسيرة .

وكانت العلاقات مع مصر بوجه عام طيبة ، وتدخل فيها التجارة والمبادلة ، وكانت البعثات المصرية تمر من بلاد النوبة نحو بلاد جنوبية مثل يام ، كما

(١) مقالة سلجمان في J.R.A.L. لسنة ١٩١٣ السابق ذكرها ص ٦١٢ .

حدث للوزير حرقوف في عصر بيبي الثاني ، دون أن تلقى معارضة أو تصادف عدواناً ، ولذلك يبدو أن الإغارات التي قام بها صنفرو ، لم تكن موجهة إلى النوبيين الأصليين ، بل إلى عنصر غريب ، يختلف عن السكان الأصليين بأنه لم يكن يحترف الزراعة ، بل يحترف الرعى . ولذلك نرى صنفرو أخذ يسجل أنه قد حصل من هذا العدو على غنائم تقدر بمائتي ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة .

وهذا الاضطراب الذي ظهر في عصر صنفرو أخذ يتكرر في صورة أشد وأوضح في عصر الأسرة الثانية عشرة . وأخذت تظهر في البلاد عناصر جديدة ، وتتوغل فيها توغلا عدائياً . وقد ترك أمينمحت الأول كتابة يقول فيها : « لقد استوليت على شعب واوات ، وقبضت على شعب المازوى » . ولا نعرف بالضبط ما شعب الواوات وهو على الأرجح قبائل ليبية ، أما شعب المازوى فقد سبق لنا أن أوضحنا أن المازوى هم البجه .

ويرى غير واحد من العلماء أنه في هذه الفترة وما بعدها أخذت تظهر ، في فترات الإغارة هذه ، عناصر تشبه السلالات الزنجية ، وأخذت تؤثر في التكوين الجنسي للسكان بعض التأثير ، وهذا هو العصر الذي أطلقوا على سكانه اسم المجموعة النوبية ج ؛ وهي التي قرر الأستاذ إليوت سميث أنها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن النوبيين كما نعرفهم اليوم ؛ أما العنصر الزنجي الذي دخل البلاد في ذلك الوقت ، فالأرجح أنه لم يدخل مع المازوى ، ولعله دخل مع الواوات .

هذا وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى سكان الجنوب بكلمة نهس ؛ وهي لا تفيد أى معنى آخر ، وليست لها أية دلالة من ناحية الجنس والسلالة ، وأحياناً تستخدم تلك الكلمة بمعنى الأراضي الواقعة جنوب مصر على اختلافها وقد ترك بيبي الأول كتابة يقول فيها إنه شن الحرب على ست مجموعات من النهس وهم نهس إرثت ونهس مازا ونهس يام ونهس واوات ونهس كاو

ونهمس طمح . ونستطيع أن نميز من بين هؤلاء الستة ثلاث سلالات على الأقل لا صلة بينها وبين السلالات الزنجية ، وهي الإرث والمازا (البجه) والطمح وهم من ليبيا .

وهذه الوثيقة تؤيد الرأي بأن كلمة نهمس لا تعدو أن يكون معناها سكان الجهات الجنوبية . ومع ذلك قد جرت عادة كثير من الكتاب على ترجمتها بكلمة زنجي ، ومن بين هؤلاء الكتاب العالم الأمريكي هنري برستد . ولكن عارضه في ذلك علماء كثيرون مثل الأستاذ ينكر .

وقد اضطرت حكومة مصر في الأسرة الثانية عشرة إلى أن تحفر قناة عند الشلال الأول لتيسير الملاحة للسفن التي ترسل لتأديب المغيرين ، كما اضطرت إلى توسيع إدارتها بحيث شملت بلاد النوبة الشمالية إلى أول الشلال الثالث . وفي الأسرات الثانية عشرة إلى العشرين تم « تمصير » بلاد النوبة الشمالية والجنوبية من النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأنشئت لها عاصمة نبتا ، بالقرب من بلدة مروي الحديثة .

وهنا تظهر مشكلة لا تزال تفتقر إلى حل مقبول : وهي أن تصوير المصريين القدماء للنوبيين في عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، يمثلهم على أنهم زنوج ، مع المبالغة في تصوير التقاطيع الزنجية ، فكيف يتفق هذا الوصف مع ما ذكره إليوت سميث استناداً على دراسة الجماجم والعظام والمقارنة بين النوبيين في ذلك العصر والنوبيين في الوقت الحاضر ، والرأي الذي انتهى إليه بأنه ليس هنالك فرق جوهري بين الاثنين ؟

ويرى سلجمان في تفسير ذلك التناقض أن البلاد كانت تشمل فعلاً على عدد عظيم من الجماعات الزنجية أغارت عليها من الجنوب ، ثم طوردت تلك الجماعات واضطرت إلى أن تعود إلى بلادها . ثم جاء الاتصال المستمر بين مصر وبلاد النوبة عاملاً جديداً على زيادة الدماء الشمالية القوقازية .

ويرى غيره من الكتاب أن مقارنة الجماجم والعظام دليل أقوى من الصور والرسوم ، ولا بد أن المصور المصري كان يقوم بتصويره وهو في أوطانه

الشمالية ، ويبنى رسومه على ما يشاهده من جماعات الأسرى ، التي كانت ترسل إلى الشمال ؛ وهؤلاء يشتملون على عدد من الجنود الزنوج وإن كان معهم أحياناً بعض قادتهم من غير الجنس الزنجي .

وهناك تعليل آخر . لعله لا يختلف كثيراً عن الرأي الثاني ، وهو أن المصور المصري كان يرسم صورة للأعداء الذين أغاروا على بلاد النوبة ثم على حدود مصر الجنوبية . فكان يصورهم زنوجاً قحاً على سبيل الزراية والاحتقار

غير أنه ليس بمستبعد أن بعض الإغارات التي حدثت في بلاد النوبة في العصور القديمة كانت تقوم بها جماعات زنجية أو شبيهة بالزنجية Negroid بقيادة جماعة من الحاميين . وهذا ما نجده فعلاً في آثار الجماعات التي أطلق عليها اسم المجموعة النوبية س . وهي ترجع إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد والفترة التي أعقبها ، وقد وجدت آثارها وعظامها في بعض المقابر في إقليم بلان إلى الشمال من وادي حلفا وغيرها ، وقورنت محتوياتها بما اشتملت عليه بعض المقابر في جزيرة مروى^(١).

والبحت في هذه المقابر لا يصل بنا إلى نتيجة حاسمة لأن أكثرها ، وعلى الأخص مقابر القادة والزعماء ، قد نبشت وخربت مراراً^(٢) ، وقد قام ببحث الجاهم والعظام الدكتور بطراوي وقرر بعد فحصها أن هنالك سلاتين تتميز إحداهما عن الأخرى : الأولى تظهر في جماعات المحاربين والرؤساء ، ويمتازون بالقامة الطويلة وصفات أبعد عن الصفات الزنجية ، والأخرى تمتاز بالقامة القصيرة والصفات الزنجية وتظهر في النساء بوجه خاص ، كما أن هنالك أمثلة تشير إلى اختلاط بين السلاتين^(٣).

(١) جزيرة مروى هي الإقليم الواقع بين العطبرة والنيل ، وفي شماله بلدة مروى القديمة وآثارها اليوم أطلال بالقرب من كبوشية . ومن المهم التمييز بينها وبين مروى الحديثة المجاورة لبلدة نيتا .

(٢) مقالة كروان عن أصل النوبة في المجلد العشرين من S.N.R. ص ٥٦ .

(٣) Batrawi : Archeological Survey of Nubia (1929-34), p. 180

ولا يدع بحث الأستاذ البطراوي مجالا للشك بأن النوبيين رقم س ، وإن كانت تغلب عليهم الوثنية والعادات المخالفة لما كان يسود بلاد النوبة ، فإنهم لم يكونوا يمثلون سلالة زنجية خالصة ، بل جماعات حامية اقتادت معها سبياً من الزنج .

* * *

والظاهر أن مجموعة س قد انجلت عن البلاد بعد ذلك ، وإن تركت آثاراً بها وأخذت الأحوال في شيء من الاستقرار في القرن الخامس والسادس ، وانتشرت المسيحية بعد ذلك ، وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة فرس ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أنشئت في العهد المسيحي وهي دنقلة القديمة ، (أو دنقلة العجوز) ، ثم انتشرت المسيحية بعد ذلك إلى جزيرة مروى ، كما أنشئت بعد ذلك مملكة علوة ، وعاصمتها سوبة ، وفي عهد الفتح العربي لمصر كانت هنالك دولتان مسيحيتان ، الأولى دولة دنقلة أو دولة النوبة والأخرى دولة علوة ، وكان هنالك دولة أخرى تدعى مقرة اندمجت في دولة دنقلة قبل الفتح العربي لمصر .

هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين : الأول من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال الأول ووادي حلفا ، وهذا هو الإقليم الذي كان يطلق عليه اسم مريس ، وهي كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبي ، والطريق الثاني الذي سلكته المؤثرات العربية من الجنوب ، كما يتبين ذلك عند الكلام على انتشار الجعليين في الفصل التالي .

* * *

يتبين مما تقدم أنه إذا كان هنالك محل لاختلاف الرأي في أمر اللغة النوبية وهل هي لغة من اللغات التي تسود الجماعات الزنجية ، ثم تأثرت بعد ذلك تأثراً شديداً بالمؤثرات الحامية أو بالعكس ، فليس هنالك أقل شك في النوبيين

أنفسهم كما نعرفهم اليوم ، فإن أصولهم في السلالات القوقازية الحامية عريقة
قديمة ، وأن الصفات الزنجية التي قد نراها أحياناً بينهم هي العنصر الطارئ
الدخيل .

وكذلك لا شك أن النوبيين ، كما نعرفهم اليوم ، كانوا أوسع انتشاراً ،
وبلادهم مبعدة في النهر إلى مدى أبعد مما تصل إليه اليوم ، فالمديرية النوبية
المصرية التي كانت حاضرتها بلدة نبتا هي التي أنشأت عاصمة في الجنوب في
بلدة مروي القديمة ، بالقرب من بلدة شندى الحديثة . وقد ازدهرت مروي
بدورها ، واتسع نفوذها حتى وصل إلى ملتقى النيل الأزرق والأبيض وإلى
أرض الجزيرة ، وهذه كلها أقطار كانت تسكنها بلا شك سلالات ، وتصل
إليها مؤثرات ثقافية خلاف السلالات والمؤثرات النوبية ، ولكن بقايا الثقافة
النوبية ظاهرة فيها أيضاً . وقد يكون من الغلو أن تزعم أن مملكة المرويين ،
أو مملكة علوة ، كانت مملكة نوبية خالصة . ولكن لا شك أن بلاد النوبة
الشمالية هي العامل الأكبر في إنشاء هاتين المملكتين .

وقد اختلف العلماء في أصل اسم النوبة ، كما اختلفوا في تاريخهم وفي
نشأة لغتهم ، والأصل المصري القديم للكلمة مشتق من لفظ نوب أو نوبو ،
بمعنى الذهب ، أي أنها بلاد الذهب ، وهو أحد الأسماء التي كان يطلقها
المصريون على هذه البلاد ، وإلى جوارها كما هو معلوم مناجم قديمة لذلك
المعدن الثمين ، وقد وصفت البلاد بهذا الاسم في كتابة في الأسرة الثانية عشرة
في عهد الملك أمنمحتت الأول^(١) ، ومع أن هذا الاشتقاق الواضح مما يسهل
التسليم به ، فإنه لم يجد قبولا من أولئك الكتاب الذين يرون أن شعباً زنجياً
يدعى باسم النوبة ، قد أغار على البلاد ونشر فيها الدم الزنجي ولغة من اللغات
الزنجية ، في عصر يعد نسبياً عصراً متأخراً . وأن هؤلاء المغيرين الذين لا نكاد
نعرف عنهم شيئاً هم الذين أكسبوا البلاد اسمها الذي تعرف به الآن .

(١) ماكايكل : الجزء الأول ص ١٢ (جامثن) نقلاً عن برستد

Ancient Records, 1, 320

ومهما يكن من شيء ، فإن والى مصر الأمير عبدالله بن سعد بن أبي السرح عندما عقد معاهدته في سنة ٦٥١ ميلادية مع ملك هذه البلاد سماه في المعاهدة عظيم النوبة^(١) ، ونص على أن المعاهدة المعقودة تشمل البلاد التي تمتد من حدود مصر إلى حدود علوة ، مما يدل على أن عظيم النوبة المذكور كان مسيطراً على كل ذلك الإقليم ، من الشلال الأول إلى إقليم كان يدعى في ذلك الوقت إقليم الأبواب ، لعله عند الشلال السادس .

وقبل زمان عبدالله بن سعد بن أبي السرح بنحو تسعة قرون كان الجغرافي الإسكندري إيراتوسطين يدعو سكان تلك البلاد باسم النوبة^(٢) . وهكذا ترجع النصوص التاريخية باسم النوبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد . أى في زمن سابق بعدة قرون لظهور تلك الطوائف التي سموها نوبة س ، والتي يقال إنها هي التي أثرت في البلاد وأكسبتها اللغة والأسماء وقسطاً غير قليل من الدماء الجنوبية .

* * *

هذا وقد شغل بتاريخ النوبيين القديم وبلغتهم وآثارهم عدد كبير من الباحثين ، ولم يعن بوصفهم في الأزمنة الحديثة من الكتاب إلا عدد من السائحين مثل بركهات وغيره . ولا يزال هنالك مجال لدراساتهم في بيئاتهم الحالية ودراسة أحوالهم الاجتماعية والأثنوغرافية .

وحسبنا أن نذكر أن النوبيين في الوقت الحاضر يحتلون مساحة من نهر النيل قد تكون أقل من نصف المساحة التي كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان في الشمال إلى الدبة في الجنوب ، وهم ينقسمون إلى خمس مجموعات رئيسية : الدناقلة في الجنوب ما بين الدبة وأبي فاطمة ، ثم

(١) خطط المقرئى الجزء الأول ص ٣٢٢ .

Kirwan = Nubian Origins, p. 47.

(٢) ماكايكل نفس المرجع ص ١٢ وكروان

في المجلد العشرين من S.N.R. .

المحس والسكوت في إقليم الشلالات والجنادل ، ثم القديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو ، والكنوز في الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان . ولسنا نعرف حتى على وجه التقريب عدد النوبيين في أوطانهم الأصلية ، ولكنهم على الأرجح لا يقلون عن ربع مليون من الأنفس ، أما عددهم في جميع أنحاء وادى النيل ، فيوشك أن يكون من المستحيل تقديره .

والدناقلة يعيشون في إقليم يعد من أحسن ما اشتملت عليه الأوطان النوبية ، فالنهر معتدل الجريان خال من الجنادل سهل الملاحة ، ويتسع السهل الفيضى في عدة مواضع ، مما يتيح للسكان فرصة للزراعة على نظام رى الحياض ، مع الاستعانة بالسواقي ونحوها ، ومن أجل ذلك تعد الساقية من الممتلكات الهامة في بلاد النوبة ، ومع اشتغال الدناقلة بالزراعة نراهم من أنشط الجماعات في السودان كله في التجارة وفي مختلف الحرف .

ويشبه الدناقلة في مظهرهم الطبيعى جيرانهم العرب من البديرية ، ولا شك أن النسب العربى فيهم قوى ، وفي مجلس يضم جماعة من البديرية والدناقلة ليس من السهل أن يميز المرء بينهم في بعض الأحيان .

أما المحس فإن أوطانهم تتخللها جنادل الشلال الثالث ، وفيها يضيق مجرى النهر من آن لآن . بحيث لا يتسع للزراعة إلا بمقدار ضئيل ، ومع ذلك فهناك جهات يتسع فيها الوادى وتيسر فيها الزراعة ، غير أن إقليم المحس والسكوت بوجه عام محدود الموارد ، وسرعان ما يضيق بسكانه ، ولذلك كثرت الهجرة من هذا الإقليم أكثر من غيره ، وعلاوة على هجرة الأفراد في طلب الرزق ، نرى المحس قد هاجروا في صورة جماعات كبيرة ، ونزحوا عن أوطانهم إلى أوطان جديدة فأصبحوا يحتلون جزيرة توتى وإقليم عيلفون ، وفي هذين الإقليمين قد استعرب المحس ، وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب ، وأصبحت لغتهم الوحيدة هى العربية ، كذلك كان المحس هم العنصر الأكبر في المهاجرات التى كانت وجهتها جبل ميدوب ، وغيره من الجهات في شمال كردوفان ودارفور .

وفي هذا ما يؤيد الرأي بأن الإقليم الذي هاجر منه الجعليون إلى السودان هو إقليم مريس ، الذي تقدم ذكره وما يليه من جنوب القطر المصري . فقد أخبرنا المقرئ أن أثر الفتح العربي لمصر ، قد احتلت هذا الإقليم واستوطنته جماعات عربية أكثرها حجازي قرشي . فمن هذا المصدر أخذت الجماعات العربية القرشية تنتقل فوجاً إثر فوج . متجهة عبر صحراء العتَمور إلى أبي حمد ثم إلى سائر أوطان الجعليين .

نزل الجعليون إذن بحكم ظروف هجرتهم ، وطرقهم التي سلكوها ، على ضفاف النيل حيث العمران والسكان ، ولذلك ضموا إليهم الجماعات التي كانت تسكن هذه الجهات من قبل ، سواء أكانوا من أصل حامى أم نوبي أم مجاوى . أو من تلك السلالة القديمة التي لا نكاد نعرف عنها أكثر من اسمها المسماة بالعنج . وبذلك تم للمجموعة الجعلية احتلال الإقليم النهري ، فأصبحوا أكبر مجموعة عربية في السودان .

جهينة :

تعد قبيلة جهينة ، كما ذكرنا من قبل ، فرعاً من قضاة ، ولكن هذا الفرع قد نما نمواً عظيماً حتى فاق كل أصل وفرع ، وقد ظهوروا ظهوراً قوياً في الفتوح الإسلامية ، وانتشروا بوجه خاص في مصر وإفريقية والمغرب ، ومع ذلك بقيت لهم أوطان ، بل لم تنزل لهم أوطان على شواطئ البحر الأحمر وهذا التضخم الكبير لقبيلة جهينة واتساع مواطنهم على شواطئ البحر الأحمر في مقابل مصر والسودان هو وحده يفسر لنا كيف تسنى لهم أن يتخذوا كل هذه الأوطان العديدة ، وأن ينتشروا في كل إقليم دخلته الفتوح الإسلامية .

وإذا كانت المجموعة الجعلية بوجه عام ، قد انتشرت في الإقليم النهري من السودان ، فإن المجموعة الجهنية قد انتشرت في الشرق ، وفي الغرب ، وبذلك يتسنى لنا أن نقسم الجهنيين إلى مجموعتين : الأولى شرقية والثانية غربية وقلما تدعى قبائل جهينة في السودان هذا الاسم ، لأن هجراتهم وانتشارهم

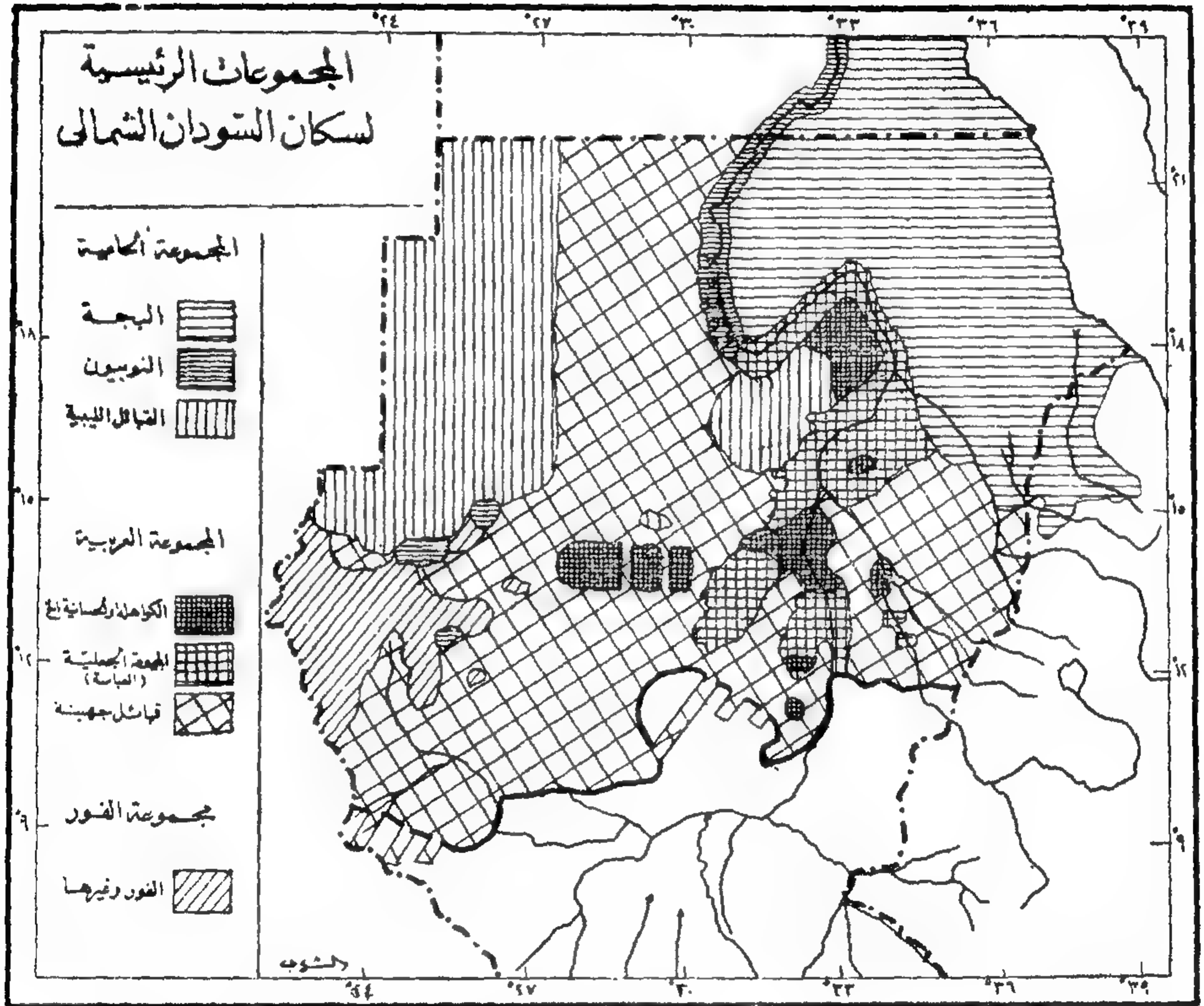
كان متفرقاً وموزعاً في أزمنة مختلفة ، وسلكوا إلى أوطانهم الحالية طرقاً مختلفة . ولم يحتشدوا كالجعليين في إقليم واحد ، ثم انتشروا منه في سائر أوطانهم . لذلك نرى القبائل الجهنية يدعى كل منها باسمه الخاص . مثل الشكرية أو المسيرية أو رفاعة أو غيرهم .

والشعبة الشرقية من جهينة تحتل الجزء الأكبر من إقليم البطانة بين العظيرة والنيل الأزرق من أطرافه الشمالية إلى أقصى الجنوب ، حيث نجد قبيلة الشكرية التي طالما كانت هي القبيلة البارزة في هذا الإقليم ؛ وحيث نجد أيضاً القسم الشرقي من قبيلة رفاعه . أما القسم الغربي منها فإنه يعيش في الجانب الغربي من النيل الأزرق .

وإقليم الجزيرة نفسه تكثر فيه الجماعات المنتمية إلى جهينة ، وإن كانت قد تسربت إليه عناصر أخرى من مختلف القبائل .

وهكذا يكون المجال الأكبر لهذه الشعبة الشرقية ، هو جهات البطانة وحوض النيل الأزرق ، فإذا أكدنا أن لجهينة أوطاناً في شرق البحر الأحمر وأن عبور البحر سهل ميسور ، جاز لنا أن نتصور أن الجهنين الشرقيين هاجروا إلى السودان من الجزيرة العربية مباشرة ثم انتقلوا بالتدريج نحو الجنوب حتى نزلوا بأوطانهم الحالية .

أما الأقاليم الغربية ، في كردوفان ودارفور ، فلها قصة أخرى ، فإن القبائل الجهنية ، التي اتخذت أوطانها هنا لم تأت من الجزيرة العربية مباشرة ، بل كان شأنها كشأن الجعليين . نزلت بمصر أولاً ، ولعلها التزمت الجانب الغربي من وادي النيل ، ثم اتجهت إلى النصف الغربي من السودان ، والأرجح أنها لم تمس نهر النيل إلا مساً خفيفاً . ونستطيع أن نسمى هذا الطريق الذي سلكته الشعبة الغربية الطريق الليبي ، وهناك طريق مثل درب الأربعين يمتد من وادي النيل بالقرب من أسبوط متجهاً بعد ذلك إلى دارفور أو كردوفان ؛ وهو طريق معروف منذ الأزمنة القديمة . ولكنه ليس الطريق الوحيد من هذا النوع ، بل هناك طرق أخرى ، وبعضها لا يبتعد كثيراً عن النهر ،



(شكل رقم ١٨)

ولا يزال الكبابيش وهم من الجهنين الغربيين إلى وقتنا هذا يستخدمون بعض هذه الطرق الليبية لنقل إبلهم من السودان إلى أسوان ومصر .

وربما كان بين الجهنين الغربيين من هاجر إلى السودان بعد إقامة طويلة أو قصيرة في برقة أو طرابلس . فإن أقوالهم وأساطيرهم تؤيد هذا الرأي .

هذا والجهنيون الغربيون ممثلون تمثيلاً قوياً في كردوفان ، ولكن انتشارهم في دارفور أضعف ، وبخاصة في النصف الشمالى ، بسبب تكوين سلطنة دارفور وامتداد نفوذها في تلك الأرجاء . وهم ينقسمون بوجه عام إلى قسمين رعاة إبل في الشمال ورعاة بقر في الجنوب ، ومن أهم القبائل التي ترعى الإبل الكبابيش ، ثم الحمر ، ورعاة البقر أكثر عدداً ويطلق عليهم اسم البقارة وهو اسم لا يطلق على أى قبيلة تمارس رعى البقر ، بل يطلق فقط على القبائل الجهنية في كردوفان ودارفورى ، التي تعنى برعى البقر، وهو عماد ثروتها ، وجميع البقارة من الجهنين ، بينما رعاة الإبل فيهم قبائل ليست من جهينة .

وأشهر قبائل البقارة من الشرق إلى الغرب الأحامدة وسليم ، المجاورون لنهر النيل . ثم الهبانية والمسيرية والحمر والرزيقات (وهؤلاء بلا شك أهم قبائل البقارة) . ثم التعايشة وبنى هلبة في أقاصى الغرب من السودان .

ولم يكن العرب رعاة بقر عندما دخلوا السودان ، بل رعاة إبل ، ولكنهم عندما توغلوا في الجنوب في أقاليم السفانا ، نفقت إبلهم بسبب الذباب الفتاك ، فاضطروا إلى التحول إلى رعى البقر ، وأصبحوا أعظم رعاة بقر في السودان كله ، وقد كان للبقارة فضل في انتشار الثقافة العربية والنفوذ العربى في جهات بحر العرب وبحر الغزال ، والجزء الجنوبي الغربى من السودان .

الكواهلة :

تعد الكواهلة مجموعة صغيرة إذا قيست إلى المجموعتين الكبيرتين ، الجعلية والجهنية . غير أن لهم في تاريخ عروبة السودان شأناً يستحق الذكر . فهم كما سبقت الإشارة من قبل قد نزلوا في وقت متقدم على السواحل السودانية

للبحر الأحمر ، ما بين عيذاب وسواكن ، وخالطوا البجة ، وتعلموا لسانهم وصاهروهم ، كما شهد بذلك ابن بطوطة نفسه ، فحملوا النسب العربى إلى هذه القبائل الحامية القديمة ، كما كان لهم أثر كبير فى نشر الثقافة العربية فى أرجاء القسم الشرقى من السودان .

وهؤلاء الكواهلة ، الذين خالطوا البجة وصاهروهم ، قد اندمجوا فيهم كل الاندماج ، بحيث لم يعد لهم وجود فى أقاليم البجة كوحدة قبلية مستقلة . غير أن بطوناً أخرى من بنى كاهل ، انتقلت فيما يبدو من شرق السودان ، واتخذت لها أوطاناً فى أقاليم عطبرة والنيل الأزرق ، ثم هاجرت جماعات أخرى ونزلت على النيل الأبيض ، حيث تدعى تارة باسم الكواهلة ، وأحياناً باسم الحسانية والحسينات ، كما أن هناك جماعة من الحسانية اتخذت لها أوطاناً فى صحراء ببوضه .

ولعل أهم قبيلة كاهلية اليوم ، هى قبيلة الكواهلة فى كردفان ، ويقال إن هجرتهم إلى هذا الإقليم حديثة لا ترجع لأكثر من قرنين اثنين ، ومع ذلك استطاعوا بفضل ما رزقوه من الحيلة والنشاط أن يصبحوا من أكبر القبائل التى ترعى الإبل فى كردوفان .

وبعد فإن المقام لا يسمح بالتحدث عن القبائل العربية فى السودان ، بأوسع مما أوردناه . ولا بد لمن يطلب المزيد أن يرجع إلى المراجع الخاصة بهذا الموضوع^(١) .

(١) راجع السودان الشمالى للمؤلف وسرهارولد ماكيكل عن تاريخ العرب فى السودان (بالانجليزية) .

الفصل الخامس عشر

الشعب المصرى

فى الجزء الشمالى من وادى النيل ، يعيش شعب مصر الذى يزيد تعدادده اليوم على الثلاثين مليوناً ، والذى بدأ حياته فى هذا الوادى منذ بضعة آلاف من السنين ؛ وإن كنا لا نستطيع أن نبت فى مدى قدمه ، ولكن الرأى متفق على أنه عريق فى القدم . . وقد استطاع أن يبنى صرح الحضارة فى أرجاء هذا الوادى قبل أى شعب آخر . ولذلك كان من معجزات التاريخ بقاؤه هذا الدهر الطويل ، على الرغم من تقلب الأحداث ، بحيا حياة متصلة ، متطورة ، يتعرض فيها لبعض المحن أحياناً ، ثم لا يلبث أن يخرج منها فائزاً منتصراً .

ولا شك أن شعب مصر أقدم شعوب العالم على الإطلاق ، فإنه على فرض أن بعض عناصر الحضارة فى زعم بعض الكتاب ، قد نشأت فى بعض الجهات الآسيوية . فلا شك فى أنه لم ينشأ فى أى بقعة فى العالم شعب يعمل متعاوناً ومنتجاً ، فى حياة اجتماعية وسياسية منتظمة ، قبل ظهور شعب مصر . ومع ذلك فإن قول البعض إن أهم عناصر الحضارة . وهى الزراعة ، نشأت فى غير مصر ، لا يمكن للمحقق أن يقبله . لأن الزراعة التى بنيت عليها الحضارات الأولى كانت تقوم على زراعة الحبوب ، وبخاصة زراعة القمح . ومن المسلم به أن نشوء الزراعة كان فى بعض السهول النهرية ، التى يغطيها الفيضان فترة من الزمن ، ثم ينحسر عنها ، تاركاً حقولاً واسعة معدة ومهيأة ، لأن يبذر فيها الحب . وبعد أشهر قلائل يجنى منها المحصول . . وأقل علم بفيضان النيل

برينا أنه الوحيد الذى تتناسب دورته مع دورة زراعة القمح . فالفيضان يتم فى آخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم تنحسر المياه . أو تبدأ فى الانحسار فى شهر أكتوبر . وتكون الأرض مهيأة لتلقى البذور فى منتصف نوفمبر . وهذا هو أنسب موعد لزراعة القمح . . وهذا النظام النهري الملائم للزراعة يخالف ما نصادفه فى جهات غرب آسيا ، حيث يكون الفيضان فى أشهر الربيع وأول الصيف ، على أثر ذوبان الجليد . أو يكون فى الشتاء على أثر سقوط الأمطار الشتوية . وهذه الدورات لا تلائم دورة زراعة القمح ؛ إلا بعد أن تدخر المياه وتحفر لها القنوات . ونحو ذلك من الأمور التى تلائم مرحلة متأخرة فى التطور الحضارى ، أما المرحلة الأولى فيكون الاعتماد فيها على الطبيعة . والمساعدات الطبيعية ، وهذه لا نجد لها إلا فى نهر النيل وفيضانه .

كذلك وجد النظام الملكى ووحدة الحكم فى البلاد فى وقت مبكر جداً لم يتح لأى بلد آخر . . ربما كان نهر النيل فضل فى هذا أيضاً . فإن نهر النيل فى القطر المصرى ، يجرى بانحدار معتدل ، لا هو بالانحدار الضعيف ، فيسبب المستنقعات والبرك . ولا هو بالسريع جداً الذى لا تستطيع السفن أن تصعد فيه ، واتفق فى الوقت نفسه أن الرياح التى تهب على الوادى هى ربح الشمال ؛ فتستطيع السفن أن تصعد ضد التيار - من الشمال إلى الجنوب - فإذا أرادت بعد ذلك أن تنحدر آتية بالناس وبالسلع من الجنوب ، فإن التيار كفىل بأن يحمل السفن ويدفعها دون مشقة . . .

وهكذا تضافرت الظروف الطبيعية لتيسير الاتصال بين الشمال والجنوب ، وتبادل الأفكار والآراء والمتاجر ، وتوحيد الاتجاه للبلاد كلها . وقد كان الاتحاد فترة من الزمن يقسم البلاد إلى مملكتين : العليا فى الصعيد ، والسفلى فى الدلتا . ثم اتحدت الدولتان فى دولة واحدة فى وقت مبكر جداً ، قبل أن يكون فى العالم أى شئ يشبه مثل هذا الاتحاد .

إن التاريخ الطويل لوادى النيل الأدنى . مع ما ظهر فيه من حضارة ، وما تخلف عنها من آثار فنية رائعة ، قد شغل العلماء والباحثين أجيالاً طويلة ،

فإن تربة مصر وهواءها كانا كفيلين بحفظ مخلفات العصور الغابرة . وأصبحت مصر مضرب الأمثال في ثروتها التاريخية والأثرية المنقطعة النظير . . ولعله لم يكن يحق لنا أن نتوقع ، مع وجود المغريات الهائلة بالبحث والتنقيب ، أن يهتم الكثير من العلماء بالبحث في تاريخ الشعب المصرى نفسه ، كيف نشأ وكيف تكون على مدى آلاف السنين ، وهل ولد هذا الشعب في هذا الوادى ، وفيه نشأ وترعرع؟ ، أم نزل أكتاف الوادى آتياً من أقطار أخرى . قريبة أو بعيدة ؟

إن بعض هذه الموضوعات قد عولج - ولو معالجة يسيرة - ولكنها لا تقارن إلى المجهود الضخم الذى بذل في الكشف عن الآثار ، وتحقيق أحداث التاريخ بعامة ، والعصور القديمة بخاصة . . وألفت في ذلك الأسفار في كثير من اللغات والأقطار ، ولم يحظ البحث الأنثروبولوجى عن سكان مصر إلا بالنذر اليسير .

ومع ذلك فإن مجرد التفكير في التاريخ الطويل لوادى النيل على مدى آلاف السنين ، يدعونا حتماً إلى التسليم بأن سلاسل أو جماعات عديدة قد نزلت أرجاء الوادى على مر العصور . ولا بد أنها أضافت إلى السلالة القديمة عناصر جديدة . لم تكن من قبل ممثلة في جمهرة السكان .

ولعل من المفيد أن نفرق بين العناصر التى نزلت البلاد واستوطنت بعض أرجائها واندججت في سكانها ، وبين العصابات التى جاءت للغزو والسلب والنهب . ثم انجابت عن البلاد ، وعادت أدراجها . فعصابة قمبيز وأتباعه من الآسيويين ، الذين جاءوا غزاة فاتحين ، ثم ارتدوا بعد نحو قرنين على أعقابهم خاسرين . لا يمكن أن يكونوا قد أثروا في البلاد وسكانها . وهذا يقال عن الرومان وقد كان حكام البلاد منهم بضعة قرون .

وعلى نقيض ذلك العناصر التى كانت تدخل البلاد من الأقطار المجاورة أفراداً أو جماعات مسالمة ، تنشأ التجارة أو الالتجاء ثم يستقر بها المقام وتندمج في السكان على مدى القرون . وهؤلاء هم العنصر الذى يؤثر في تكوين السكان

لأنه ينزل البلاد في هدوء ، لا يثير عداوة ولا ضجة . ولا يقوم بتخريب ولا تدمير ، فلا تؤلب القوى الوطنية وتحشد لإخراجه من البلاد .

وعلى الرغم من أنه ليس من السهل أن نرسم صورة كاملة للمراحل التي مرت بالوادي ، وعمارته بالسكان على مضي الزمن ، فإن هذا لا يمنعنا من أن نحاول رسم شيء تقريبي ، لا يبعد عن الواقع كثيراً . .

والخطوة الأولى في هذا السبيل أن نشير إلى الظروف الطبيعية للقطر المصري ، التي قل أن يكون لها مثيل في العالم ، فوادي النيل كما نعلم تحف به الصحراء من الشرق والغرب . وتمتد تلك الصحراء شرقاً عبر سيناء إلى جزيرة العرب ولا تنتهي إلا على شواطئ المحيط الهندي . وتمتد الصحراء غرباً حتى شواطئ المحيط الأطلسي .

في العهود البشرية القديمة إلى نحو عشرة آلاف من السنين ، لم تكن الصحراء - بشقيها الشرقي والغربي - مجدبة جافة كما هي اليوم ، كان هنالك عصر يدعى العصر المطير يقابل ما كان في أوروبا ويدعى العصر الجليدي . كانت الصحراء فيها مراعي وفيها من الوحش أنواع وضروب ، وغير قليل من الشجر . . وهذا العصر الذي اشتمل على فترات طويلة ، لم ينته فجأة ، بل بالتدريج . . ولعل المرحلة الأخيرة منه منذ نحو عشرة آلاف من السنين ، هي التي تهمننا بوجه خاص في تصوير بدء احتلال الوادي .

لقد كان الوادي ، في نظر كثير من الكتاب ، يتلقى نصيبه من المطر ، أسوة بالأقاليم المجاورة ، وكان يجري فيه النيل ، ويترتب على هذا أن تكثر فيه البرك والمستنقعات . وتمتلئ جوانبه بالأحراج والأدغال ، وتجول فيه قطعان الوحش .

وأكبر الظن أن السكان كانوا يعيشون على حافة الوادي ، دون أن يتوغلوا فيه كثيراً . وينالوا من صيده غذاءهم . ومع أنه ليس لدينا جماجم ترجع إلى هذا العصر الحجري القديم ، فإننا عثرنا على الكثير من الصوان

المنحوت في صورة أدوات مما ترمى به الفريسة أو تقطع ، ومن المؤلف أن تكون المرحلة الأولى للمجتمع البشرى مرحلة الصيد .

ثم أخذت الصحراء بعد ذلك تجف تدريجياً ، ونزحت إلى الجنوب حيوانات كالزراف كانت تعيش في وسطها . . . وهذا الجفاف كان محل في « موجات » أو فترات من الزمن يندر فيها المطر . . فيضطرب السكان ويلتمسون الماء والعشب في البقاع التي فيها بقية من الماء والعشب . ثم تنجلي هذه الفترة وتجيء بعدها فترة من الرخاء النسبي . فيستقر الناس ، وتعود حيوانات الصيد ، ويتكاثر السكان . وقد استمرت هذه « الفترات » إلى عصر الفراعنة في الدولة القديمة والوسطى ، بل والحديثة أيضاً .

أما الوادي فإنه أيضاً أخذ يتطور ، فتقل أمطاره ، وتنكمش فيه المستنقعات والبرك ويكثر الناس من النزول في أكنافه . ولكثرة الحيوان أخذ الناس يحتسبون صغار الدواب ، حتى تكبر ، أو إلى الوقت الذي يريدونها لطعامهم والأنثى ربما أبقى عليها إذا بدا أنها توشك أن تلد . . وهكذا تعلم سكان الوادي في هذه الفترة بالتدريج كيف يستأنسون الحيوان . وكان أول حيوان استؤنس في الغالب الضأن والماعز . والأرجح أن الكلب استؤنس في وقت سابق لأنه خير معين لمختر في الصيد . . وبالتدريج تحول سكان الوادي إلى قوم مولعين باقتناء الحيوان . ثم لم يلبثوا أن أخذوا يستأنسون النبات أيضاً ، وأن يصبحوا زراعاً . إن المصري شخص زراعي بالفطرة ، وهذا يرجع إلى قدم عهد السكان وأجدادهم بهذه الحرفة التي سبقوا بها الأمم ، والتي تعلمها منهم معظم الشعوب فلم تكد تقرب الألف الخامسة قبل الميلاد حتى كان في الوادي شعب يعرف الزراعة وتربية الحيوان ، ولم يلبث أن برع في الصناعات وبخاصة صناعة الفخار ، وكل هذا قبل العهد الفرعوني بألف أو ألفين من السنين .

ونستطيع أن نتصور أن جفاف الصحراء ، جعل كثيراً من سكانها ينزحون إلى الوادي ، بأعداد قليلة تزداد على مضي الزمن . وقد تعلم أكثرهم

كيف يربون الماشية ، ولذلك كانوا يفدون بماشيتهم يحيون حياة الرعاة ، حتى يتعلموا على مدى السنين كيف يمارسون الزراعة أيضاً . وقد دخلت البقر في وقت مبكر في عداد الحيوانات الهامة في وادي النيل وفي ليبيا ، وعنى القدماء بتربيتها^(١) وكان القاصدون إلى مصر من الغرب يفدون تارة مسالمين وادعين . ويعيشون بقطعانهم قريباً من الدلتا دون أن يتوغلوا في الريف . وكذلك العناصر الوافدة من الشرق مما ندعوه الآن سوريا وفلسطين والأردن وجزيرة العرب ، وبخاصة أطرافها الشمالية . . . وتارة بالطبع كان الوافدون جيشاً محتشداً يحاول الغزو والعدوان .

وعندما تبدأ الأحداث التاريخية الخطيرة تسجل ، يتجلى أمامنا العراك العنيف بين الرعاة من الشرق والغرب ، وبين المملكة المنظمة المستقرة .

وتروى لنا الأساطير العراك الدائم بين أوزيريس و « أخيه » ، بين قوى الحضارة والاستقرار ، وقوى البداوة والعدوان ، ويروى بعض هذه الأساطير أن أعداء أوزيريس ظفروا به ومزقوا جسده لإرباءاً ، ونثروا جزءاً من الجسم ، في كل مقاطعة ، حتى جاءت الأخت الحبيبة إيزيس فجمعت الأشلأ ، وبعثت فيه الحياة ، وأمكن لنجله هورس أن يطرد الأعداء ويوردهم موارد الهلاك .

ومن الإشارة إلى أوزيريس وأخيه ست يتبين أنه من ناحية السلالة ، ليس بين البدو الغزاة والحضر المستقرين فرق ، وإنما الفرق في أسلوب المعيشة ، ولذلك لم يترتب تغيير جوهري في تكوين السكان بسبب الهجرة المستمرة من جزيرة العرب ، التي لم تكد تنقطع في أي وقت من الأوقات . وقد التزمت الهجرات العربية الجانب الشرقي من مصر السفلى والعليا .

(١) لم يعرف المصريون القدماء الجاموس برغم انتشاره الآن . وأوطانه التي جاء منها إلى مصر في الهند وإندونيسيا . . . وأكبر الظن أنه نقل إلى مصر في عهد البطلمة باتساع التجارة . وجاء إلى مصر مباشرة ، لأنه غير معروف في سائر إفريقيا ، وقد لامته البيئة المصرية فتكاثر وازدهر .

كما أن أكثر الوافدين من الجانب الليبي كانوا ينزلون فيما نسميه الآن مديرية البحيرة . . وفي الصعيد .

في جملة ما تركه المصريون من الرسوم ، صورة تحكى مظهر الشعوب الأربعة التي لها بوادي النيل صلة . فقد رسم المصريون أنفسهم باللون الأحمر ، وأهل الجنوب في بلاد كوش وما يليها باللون الأسود ، وصوروا أهل الشرق باللون الأصفر . وسكان ليبيا باللون الأبيض . وقد كانت مصر في تاريخها الطويل ، ومنذ عهد النشأة تفد إليها عناصر من هذه الجهات ، وبخاصة من جهة الشرق ، وأكبر الظن أن الوافدين من الشرق بدأوا قبل التاريخ المكتوب ، أي قبل عهد الأسر بزم طويل جداً ، وأكبر دليل على هذا أن لغة مصر القديمة قد انطبعت بالطابع السامي ، في وقت متقدم جداً ، وقد دامت الهجرة واتصلت في كل عصر . حتى أصبحت مصر وجزيرة العرب قطرين مرتبطتين بأقوى الوشائج . وبديهي أن هذه الصلات اشتدت وقويت بعد أن أصبحت مصر جزءاً من الدولة الإسلامية . فعروبة مصر ليست ظاهرة حديثة ولا ترجع لعهد الفتوح الإسلامية ، بل ترجع إلى ما قبل التاريخ المسجل المكتوب . وهكذا يتألف سكان مصر من الجماعات الأولى التي نزلت إلى الوادي ، وما أعقبته من نسل على مدى السنين ، ومن سيل لا ينقطع من المهاجرين من جزيرة العرب . وبعض النازحين من شمال إفريقية . . هذه هي العناصر الرئيسية ، وقد انضم إليهم بعض عناصر أخرى ، بسبب اتخاذ الملوك في بعض الأزمنة جنوداً من المرتزقة ، وبسبب التجارة مع سكان البحر المتوسط ، وبعض العناصر الشركسية والبلقانية ونحوها . ولكن هذا لا يؤلف إلا نسبة صغيرة من السكان .

أما الصفات الطبيعية الأساسية لسكان مصر فقد لحصها الدكتور البطراوي فيما يلي^(١). نتيجة لدراسته للجهاجم في المقابر القديمة .

(١) مقالة نشرت بالإنجليزية في المجلة الأنثروبولوجية الملكية في مجلد ٧٥ ، ٧٦ في عامي ١٩٤٦ - ١٩٤٧ .

« منذ أوائل العصر الحجري الحديث كانت هنالك سلالتان متميزتان ، ولكنهما مرتبطتان إحداهما بالأخرى : الأولى في الشمال في مصر الوسطى ، والثانية في مصر العليا . ويتميز الجنوبيون بأن نسبة الرأس أكثر انخفاضاً . والنسبة الأنفية أعلى ، والفك فيه بروز قليل ، وهذا الاختلاف بين الجنوب والشمال استمر إلى عهد ما قبل الأسر ، وفي أول العهد الفرعوني ، أخذ العنصر الجنوبي يتراجع إلى الجنوب ، وإن بقيت منه بقايا في الصعيد . . . وأخذ العنصر الشمالي يزحف تدريجياً حتى صارت له الغلبة الواضحة في وقت الأسرة الثانية عشرة في جميع أنحاء البلاد » .

ويرى الأستاذ سلجمان أن المصريين القدماء يشابهون البعجه : فالرأس مستطيل نسبته بين ٧٣ و ٧٥ . والجسم نحيل . والشعر المموج لا بد أن كان قليلاً على الوجه ، وهو أسود والعيون سوداء . والقامة فوق المتوسط (نحو ١٦٨ سم) .

وقد حفظت المقابر جماجم كثيرة وقد بحثت ودرست . وتدل على أن تغييراً كبيراً لم يطرأ على سكان مصر ، وكانت المقابر الأولى بيضية الشكل أو مستطيلة ، تقع تحت الأرض بنحو متر . والميت يرقد على جانبه الأيسر والأرجل والأيدي مضمومة إلى الجسم . وهو ملفوف عادة في جلد أو قماش من التيل . ومن حول الجسم بعض المقتنيات التي قد يظن أن الروح تحتاج إليها في العالم الآخر . ومن هذه الأشياء أوعية من الفخار ومن المرمر وهي من أجمل ما صنع في أي عصر وفي أي بلد ، وألواح من الازدواز ، وحبات عقد ، وتماثيل صغيرة ، وخناجر ، وأدوات مختلفة ، ونحو ذلك . وبعض هذه الذخائر قد يكون مكسواً بالذهب . وكان النحاس قليلاً أول الأمر ، ثم أخذ يزداد في مقابر العصر السابق للتاريخ .

وهذه المخلفات المحفوظة في المقابر من أهم الوسائل في الاستدلال على أسلوب المعيشة في العهد النيوليتي . وهي تدل على شعب زراعي ، يزرع أنواعاً من الحبوب ، وكان لديه أيضاً كثير من الماعز والحمير . وكانوا

بارعين في الصيد البرى والنيل . وخلفوا كثيراً من الحراب النحاسية التى تستخدم في صيد فرس البحر . وهى مشابهة تماماً لما يصنعه سكان أعالي النيل اليوم لصيد الحيوان نفسه . وكانت براعتهم في صناعة الخزف فائقة ، ومهارتهم في صنع أوان من المرمر منقطة النظر .

وصفوة القول إن المصرى يكون في الغالب أسمر البشرة ، مموج الشعر ، العيون سوداء واسعة ولوزية الشكل ، والشعر أسود أو بنى داكن . وهو قليل على الجسم . والرأس مستطيل والقامة متوسطة أو فوق المتوسطة والأصل في الجسم أن يكون نحىلاً ، على الرغم مما نراه بخلاف ذلك في المدن . والعنق مستطيل .

هذا هو الأصل وهناك اختلافات نتيجة هجرات قديمة أو حديثة ، فقد دخل إلى مصر في عصر بناء الأهرام سلالة ذات رأس عريض نوعاً وجمجمة ممتلئة . نراها بوضوح في تمثال « شيخ البلد » وتمثال « الكاتب » .

كذلك نرى أحياناً أن الشعر لولبى مع أن سائر الوجه قوقازى . وهذا يرجع في الأرجح إلى الزواج أو التسرى بجوار من الجنوب . وهناك أشخاص وليسوا بالقليلين ، ألوانهم أكثر بياضاً ، والشعر فيه صهوبة أو شقرة والعيون قد تكون أيضاً رمادية أو عسلية خفيفة .

وليس لدينا أرقام ولا دراسات نهتدى بها إلى توزيع هذه الصفات ، وهى ترجع في الغالب إلى دخول عناصر شركسية ، أو مرتزقة في العهد الفرعونى المتأخر . أو عناصر ليبية ؛ ومع ذلك ربما صادفناها في صميم الدلتا أو الصعيد . وقد كان للحكم التركى أثره فقد دام بضعة قرون . ولكن هذه الآثار قليلة على كل حال .

وجميع الكتاب الذين تناولوا موضوع سكان مصر بالدراسة الأنثروبولوجية قد قرروا أنه ليس هنالك أى فرق بين القبطى وأخيه المسلم . . ولا عبرة بما يزعمه المرجفون خلاف ذلك ، والاختلافات في السحنة التى نجدها عند إحدى الطائفتين ، نجدها أيضاً عند الطائفة الأخرى . . .

والمصريون كشعب زراعى مجد فى حاجة إلى استقرار أموره وإلى حكومة قوية تنظم شئون الزراعة والرى . وإذا اختل الحكم فى مصر . اختلت الحياة كلها ، وأهملت الأعمال الزراعية . ومشروعات الرى . وهلك الناس ونقص السكان كما حدث ما بين أوائل القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر إذ هبط عدد السكان إلى ثلاثة ملايين . ولعله ليس فى العالم بلد فى ميسر الحاجة إلى الحكم الصالح كمصر .

ولا تزال مصر يفد إليها البدو من الشرق أو من الغرب . ثم يمرون بمرحلة طويلة تنتهى بهم إلى الاندماج التام فى السكان الأصليين . ولذلك نرى النظام القبلى معدوماً فى مصر ، وليس من المعقول فى شعب زراعى عاكف على حقوله ومواشيه وغلاته ، أن يحتفظ بنظام بدوى لا يمت إلى حياته بصلة . . . والقبائل البدوية لا وجود لها إلا فى سيناء والصحراء الشرقية والغربية . . وعددها قليل لا يكاد يتجاوز الثلاثين ألفاً . . وقد امتلأت الصحراء بمواقع عديدة للاستقرار فى شمال ليبيا وفى وادى النطرون ، وفى مشروعات التعدين المختلفة وبعض المشروعات الزراعية فى الجهات الشرقية .

الفصل السادس عشر

الأقطار المغربية

فى أوج اتساع الدولة العربية ، كان الكتاب يتحدثون عن « المشاركة » و « المغاربة » وكان هذا التمييز ينصرف عادة إلى الإشارة إلى رجال الثقافة والعلم . فيقال إن هذا الموضوع عند المشاركة له حكم وعند المغاربة حكم . وأن كاتباً « مغربياً » ينحو أحياناً نحو المشاركة . أو أن موضوعاً أو مذهباً من المذاهب الفكرية قد اختص به المغاربة ، وهلم جرا .

وهكذا قسم القدماء سكان العالم العربى إلى المشاركة ، وهذا الاصطلاح يشمل سكان العراق والشام والجزيرة العربية . والمغاربة وهذا الاصطلاح يشمل العالم العربى فى الأقطار الشمالية من إفريقيا مثل برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس . وفى الأرجح لم يشمل هذا التقسيم مصر ، التى أخذت بنصيب من الطائفتين ، وكانت بمثابة حلقة الاتصال ولم يكن بد بعد أن اتسع العالم العربى ، وانتشر إلى شواطئ المحيط الأطلسى ، أن يشير الناس إلى جناحه الشرق وجناحه الغربى .

وهذا الاتجاه يؤكد على كل حال الصفة العربية الخالصة لهذا الإقليم الغربى العظيم . الذى ظهرت فيه شعوب فى التاريخ القديم بأسماء مختلفة ، وغشيتها الحضارة الفونيقية ، وهى ذات الصلة الوثيقة بالثقافة السامية ، فترة من الزمن . ولكن جل تأثيرها كان مجاوراً للشاطئ . . وكذلك أملت به الثقافة الرومانية ، وحلت به أيضاً جماعات الوندال Vandal . ولم تترك هذه التجارب كلها أثراً فى حضارة الإقليم وثقافته ، إلى أن جاءت الفتوح الإسلامية فى

القرن السابع والثامن ، فإذا العروبة تزدهر ، وإذا الثقافة تنتشر ، وإذا العلوم العربية والإسلامية يرتفع لواؤها ، وتثبت قواعدها ، كأحسن ما نجده في أقطار المشرق العربي . . .

ولا شك أن من المسائل التاريخية التي تفتقر إلى إيضاح ، أن هذا الإقليم من شمال إفريقية ظل بمعزل عن سيل الحضارة برغم مجاورته للرومان. إلى أن أظله الفتح العربي . فأصبح من الأقطار الممتازة بنتائجها العقلي والفني . وأبدى في ذلك تفوقاً وامتيازاً ، وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الإسلامية في مدن مثل القيروان ، وفي مسجد القرويين في فاس . وبطريقة غير مباشرة نال مصر أيضاً حظ من هذا النشاط بتأسيس الجامع الأزهر .

وهذا الانتعاش الثقافي في العهد العربي دون ما سبقه من العهود ربما كان من أسبابه قرابة في السلالات أو نوع من القرابة الروحية . إن الكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية في جزيرة العرب وما يليها من الأقطار ، كثيراً ما يشير بعضهم إلى أن البربر من سكان إفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب^(١).

ولئن كان من الصعب أن ندرك صلة النسب القديمة بين العرب القدماء والبربر ، إنه ليس من الصعب أن نتابع الأستاذ جرينبرج فيما ذهب إليه من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها إلى أصل واحد . وقد سماها المجموعة الأفروآسيوية^(٢). ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شيء من القرابة الروحية بين العرب وسكان إفريقية، كان له الفضل في استجابة سكان إفريقية الشمالية للمؤثرات العربية والإسلامية .

ولن نكون أيضاً مسرفين إذا ذهبنا إلى أن سيل الهجرة من جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده لم يكن ضعيفاً ولا نادراً ، بل كان قوياً دائماً ومتصلاً على

(١) راجع مثلاً صبح الأعشى الجزء الأول ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٢) مقال جرينبرج في كتاب الثقافات الإفريقية African Cultures طبع جامعة شيكاغو ١٩٥٩ وهو يعد من أقدر علماء اللغات في العصر الحاضر .

مدى القرون . ونستطيع في ضوء هذه الحقيقة أن نصصح ما ذهب إليه الأستاذ سلجمان من أن معظم سكان شمال إفريقية (باستثناء ليبيا) من البربر المستعربين ، وأن العنصر العربي فيهم قليل .

وهو يستثنى ليبيا لأن الطبيعة الصحراوية أكثر ملائمة للعرب البدو . . وهو هنا يخطئ خطأ مزدوجاً لأن من العرب من عرف الزراعة والاستقرار ، ومن البربر من عاش عيش البداوة والرعى . . .

ولا شك على كل حال أن ليبيا بلد عربي ، ومعظم سكانه ينتمون إلى قبيلة « أولاد علي » وهو في هذا يعد امتداداً لما نجده في الجانب المصري من ليبيا ، حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التي تمتد بطونها غرباً إلى نهاية طرابلس . . وفي وسط هذا البحر الخضم من العروبة ، قد نجد بعض « الجزر » ذات الثقافة البربرية ، فنجد في واحة سيوة في مصر ، وفي واحة أوجلا وغيرها في ليبيا بقية من السكان الذين لا تزال لهم لغات أو لهجات بربرية .

وإذا انتقلنا من ليبيا إلى تونس وجدنا قطعاً يمتاز بثقافته العربية ، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا في الأطراف الشمالية الغربية ، ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجة على اثنين في المائة من سكان البلاد كلها . . والكتاب عن تونس يرددون كثيراً ما حدث من هجرة بني هلال في العصور الوسطى . إذ وفدوا بجمعهم من جزيرة العرب بإيعاز من الفاطميين ، ووجهوا نحو تونس لغزوها . ومن الجائز أن هؤلاء الهلالية قد خربوا ودمروا كثيراً . ولكننا نشك في أنهم زادوا في عروبة تونس . ويكون من الخطأ الزعم بأن سكان تونس من البربر ، وأنهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالي . إن « الزحف » العربي سابق للهلاليين بقرون عديدة . ولا تعدو الإغارات الهلالية أن تكون عدواناً من عصابات من البدو على بلاد عربية مستقرة . وإن نجم عن هذا العدوان اضطراب في الحياة الاجتماعية .

إذا مضينا غرباً نحو الجزائر انتقلنا إلى أقطار تزيد فيها نسبة المتكلمين باللغة

البربرية إلى نحو ستة في المائة ، وأكثرهم في الجهات الجبلية المنعزلة . . .
وجمهورية الجزائر اليوم تعد من أكبر الوحدات الإفريقية مساحة . هي
والسودان والكنجو . . والكلام هنا على الجزء الشمالى منها أما الجزء الجنوبى ،
فأكثره واقع فى الصحراء ، وسكانه القليلون سنتناولهم بالكلام فيما بعد .

وفى نهاية الاتجاه الغربى مملكة المغرب المطلة على البحر المتوسط والمحيط
الأطلسى . وهنا نجد نسبة المتكلمين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ فى المائة
أما ما جاء فى كتاب سلجمان عن أجناس إفريقية^(١) من أن ثلثى سكان المغرب
يتكلمون لهجات بربرية ، فإنه ضرب من الوهم . وسبب ارتفاع نسبة
المتكلمين بالبربرية فى المغرب ، وجود أقاليم جبلية عالية وهى جبال الأطلس
الشهيرة التى تشتمل على مساحات واسعة منعزلة . فمن المعقول ألا تسهم هذه
الجهات فى حركة التطور السكانى للبلاد . وكان الاستعمار الفرنسى حريصاً على
التفرقة بين العرب والبربر . تبعاً للأساليب الاستعمارية البالية فى كل مكان .
وكان أكبر المعادين لهذه السياسة هم قبائل البربر أنفسهم . وكثيراً ما كان
يسأل الرجل من البربر ، فيرد على السائل إنه عربى صميم . . وليس هنالك
من ناحية الصفات الطبيعية فروق يتميز بها الواحد عن الآخر . وكلاهما
معتنق للإسلام . وقد تساوى الفريقان فى مكافحة الاستعمار والمستعمرين .
وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الفرق بين الحاميين والساميين ، ليس مما يمكن
استبانته وكان الكلام عندئذ عن الحاميين فى إفريقية الشرقية . فكذلك الحال
فى الحاميين الشماليين وعرب المغرب . . لا يستطيع المرء من الصفات
الطبيعية أن يستبين أحدهما عن الآخر .

وعلى الرغم من أن الحاميين فى شرق إفريقية يمتون بصلة النسب إلى
البربر أو الحاميين الشماليين ، ومع أنه يحق لنا أن نتوقع تشابهاً فى الملامح

(١) طبعة أكسفورد عام ١٩٥٧ ص ١١٨ بقول المؤلف :

In Morocco about two thirds of the people are Berber-speaking, compaired with one third in Algeria.

(وكلا التقديرين خاطئ)

الأساسية للفريقين ، غير أنه لا بد لنا أن تحسب للبيئة حسابها ، ونأخذ بعين الاعتبار الموقع الجغرافي لكل منهما . إن هذا الموقع بالنسبة للحاميين الشرقيين يجعلهم في شبه عزلة إلا بالنسبة لأقاربهم العرب في الجزيرة العربية ، شرقاً ، وبعض القبائل الزنجية في الجنوب .

أما أهمية الموقع بالنسبة للبربر ، فإنه إقليم بعيد عن العزلة ، ملاصق لأوروبا عند جبل طارق ، مما يساعد على الاتصال — كما حدث في عصور التاريخ وما قبل التاريخ — بشبه جزيرة إيبيريا وما وراءها ، والبحر المتوسط يختلف عن البحر الأحمر ، بأنه طريق مزدحم ، يعج بالحركة البشرية ، ويرتاده القرصان والمغبرون . وهؤلاء قد يجيئون من شواطئ سوريا أو الأناضول أو بلاد اليونان أو غيرها من الشواطئ الشمالية . . . وفي الجنوب جهات صحراوية كانت يوماً ما أكثر سكاناً ، وبعض سكانها نرح دون شك نحو الشمال . كذلك لم يكن المؤثر الزنجي منعزلاً ، سواء جلبه الجلابون ، أو جاء مجنداً في جيش يقوده بعض القادة من سكان منطقة السفانا . هذا بقطع النظر عن أن شمال إفريقية كله كان يوماً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

وهكذا ينتظر أن تكون هنالك مظاهر متعددة للصفات الطبيعية ، نلخصها فيما يلي :

١ — أول ظاهرة يتحدث عنها الكتاب عن سكان المغرب وجود عناصر تمتاز بالشقرة ، ألوانها بيضاء ناصعة ، لا يغشاها سوى السمرة الخفيفة التي تتولد من التعرض لأشعة الشمس ، وإلى جانب لون البشرة الناصع ، قد تكون العيون تمتاز بلون خفيف رمادي أو أخضر أو أزرق . وقد يكون الشعر أشقر أو أصهب أو بنياً فاتحاً أو داكناً . . هذه الصفات من خصائص ما نسميه الآن « الجنس الشمالى » . وهو الآن منتشر حول البحر البلطى في اسكندناوه وشمال ألمانيا وحول بحر الشمال ، وبلاد الصقالية الشماليين ، كما أنه موجود في روسيا ، والشعر هنا تغلب فيه الصهوبة لا الشقرة .

هذا هو التوزيع الحالى للجنس النردى (الشمالى) بقطع النظر عن هاجروا من أوروبا إلى أمريكا وسائر جهات العالم الجديد .

فن أين جاءت هذه الصفات « الشمالية » إلى الأقطار المغربية ؟

لقد قيل فى تفسير وجود هذه الصفات أن بيئة الجبال فى المغرب ، جعلت الإقليم فى برودة الأقطار الشمالية ، فتولدت الصفات المتشابهة فى كلا الحالين لتشابه الإقليمين ؛ وهذا رأى - وإن كان صدوره فى أواخر القرن الماضى من أستاذ محترم ، لكن الجميع ينكرونه ، ويحكمون ببطلانه . . . ومن الحق أن نستبعد هذا رأى ، وإلا لحق لنا أن نتوقع الصفات النردية فى جميع الأقطار الجبلية وفى هضبة التبت وأثيوبيا . . .

كذلك استبعد رأى بأن هذه الشقرة ترجع إلى إغارة الوندال Vandal فى القرن الخامس ، وهم شعب جرمانى فيه شقرة بلا شك . . . أغار من ايبيريا على شمال إفريقية وأقام حكومة فترة من الزمن .

وكذلك نستبعد رأى الذى يتوهم أن الشقرة فى شمال إفريقية ترجع لتجارة الرقيق الأبيض ، وإلى القرصنة فى سواحل البحر المتوسط - وقد اشتهرت هذه السواحل بأعمال القرصنة فترة من الزمن - والاستيلاء على السفن وما بها من بضائع وسبى .

إن هذه الأسباب الأخيرة ينفىها أن ظاهرة الشقرة قد سجلها المصريون فى صور رسموها لليبيين ، وجعلوهم ذوى بشرة بيضاء وعيون خضراء وشعر أشقر ، وليس من الضرورى أن يكون كل المغيرين مما تتوافر فيهم هذه الصفات ، ولكن الرسام المصرى يسجل المظاهر الغربية . ويعنى بإبرازها .

وهذه الرسوم تضطرننا لأن نقرر أن وجود عناصر شمالية فى ليبيا أمر قديم يرجع إلى ما قبل القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وهذه الجماعات كانت تغير على الجهات الغربية من دلتا نهر النيل ، فهم يزحفون برأ ، ومعهم قطعانهم ودوابهم . . . مما يدل على أنهم وافدون من أوطان فى شمال إفريقية .

والتعليل الوحيد لوجود عناصر شمالية في الأقطار المغربية هو أن هؤلاء نرحوا من جهات خارجية - أوربية على الأرجح - ونزلوا ديار المغرب واتخذوا لهم أوطاناً فيها .

وهؤلاء « الشماليون » لا يمثلون إلا عنصراً واحداً من العناصر . وهم يوجدون بوجه خاص في الجزائر في جبال الشاوية ، وفي إقليم « القبائل » الجبلي إلى الغرب من مدينة الجزائر . ونجدهم أيضاً في المغرب في جبال « الريف » الواقع في شمال المغرب ، ويوصفون بأن قامتهم فوق المتوسط ، وأن البشرة بيضاء ، ولعلها أكثر بياضاً مما نجده في السواحل الشمالية للبحر المتوسط . أما العيون فربما كان ٢٠ أو ٣٠ في المائة من السكان يمتازون بعيون ذات لون رمادي أو أخضر خفيف أو أزرق . أما الشعر الأشقر فلا يوجد في أكثر من ١٠٪ ، وربما كانت هذه العناصر الشمالية قد تعدلت صفاتها بالاختلاط الزوجي على مدى القرون .

وقد تكررت هجرة هذه العناصر غرب دلتا النيل ، ولعل ما نشاهده من هذه الصفات في بعض جهات مثل حوش عيسى ونحوها ، يرجع إلى هذه الهجرات .

٢ - الشكل السائد في الأقطار المغربية ، مستطيل الرأس متوسط القامة ، يشبه العنصر السائد في مصر . ولكن لون البشرة أقل سمرة . والشعر مموج . والأنف ضيق بارز نوعاً في كثير من الأحيان .

وسكان الواحات لا يختلفون كثيراً عن سائر السكان ، سوى أنهم أكثر سمرة ، وربما زادت فيهم نسبة الصفات الناتجة عن تجارة الرقيق ، أو جلبهم من إفريقية لكي يشتغلوا بالزراعة (حراتين) .

وفي جزر جربة ، في خليج قابس في جمهورية تونس يمتاز السكان برءوس عريضة حيث تصل النسبة الرأسية إلى ٨٢ والقامة متوسطة والنسبة الأنفية أعلى مما نجده لدى عامة السكان ، والرأس عال والقذال مستطيل . وهذه

الخصائص تشابه صفات السلالة « الأرمنية » أو سلالة غرب آسيا . ووجودها على شاطئ تونس يماثل المواقع الساحلية في جزر مالطة وغيرها التي توجد فيها بقايا هذه السلالة.. التي يدعونها أحياناً سلالة الباحثين عن المعادن Prospectors وفي الجهات الجنوبية المغربية مما يلي مدينة مراكش تظهر صفات مولدة من اختلاط بالسلالات الإفريقية .

وإلى جانب هذا كله يوجد أعداد غير قليلة من أتباع الدين اليهودي . وإن كان مظهرهم لا يختلف كثيراً عن الصفات المنتشرة في المغرب ، غير أن التزامهم الحياة الخاصة بهم ، وتزاورهم فيما بينهم ، جعل منهم طائفة خاصة . وكثير منهم من سلالة اليهود الذين عاشوا من قبل آمين في كنف دولة الإسلام في الأندلس والأقطار المغربية ، وفي الأزمنة الحديثة جاءتهم إضافات من جهات أخرى .

هذه خلاصة موجزة لحالة السكان من حيث الصفات الطبيعية . ومن الناحية الاجتماعية لا يزال الاعتماد الأكبر على الزراعة في الأجزاء الشمالية من ليبيا ، وبخاصة في الواحات والجبل الأخضر في إقليم طرابلس . . ولا تزال حرفة الرعي لها شأنها إذا اقتربنا من الصحراء وتربية الضأن تلقى عناية فائقة وناجحة في المغرب والجزائر بخاصة . وفي سائر جهات شمال إفريقيا بعامة . . ويترتب على وفرة الجلود براءة في الصناعات الجلدية ، التي اشتهرت بها الأقطار المغربية .

وفي ختام هذا الفصل لا بد من الإشارة إلى ظاهرة خاصة في مملكة المغرب وهي أن على شاطئ البحر المتوسط نجد بلدين أغلب سكانهما من الأسبان وهما بلدة سبتة على بوغاز جبل طارق ومكلا بالقرب من الحدود الشرقية للمغرب . وسكان سبتة نحو ٧٣,٠٠٠ نسمة ، وملا سكانها يقربون من ٨٠,٠٠٠ ، تسعة أعشارهم جميعاً من الكاثوليك الأسبان ، وعشرة في المائة موزعة بين المسلمين وبعض اليهود .

الفصل السابع عشر

سكان الصحراء

إذا ذكرت كلمة الصحراء انصرف الذهن دائماً إلى الصحراء الكبرى ،
التي تحتل الجزء الأكبر من إفريقية شمال خط ١٥° من العروض الشمالية ؛
حتى أن الأوربيين لا يدعونها إلا بكلمة واحدة وهي الصحراء Le Sahara
وإطلاق كلمة عربية على هذه البضعة الملايين من الأميال المحدبة يوهم بقوة
العروبة في هذه الأقاليم الفسيحة ، مع أن توغل العرب في أعماق الصحراء
قليل (وسكانها على الإطلاق قليلون) . وإنما أخذ الاسم العربي نقلاً عن
العرب الذين يسكنون الجهات العامرة المطلة على البحر المتوسط ، وبديهي
أن يشير سكانها إلى الجهات الجنوبية باسم الصحراء .

إن الصحراء يحيط بها من الشمال إطار من الأقطار العامرة ، التي يزداد
مطرها كلما اتجهت من الشرق إلى الغرب . . وهذه مزدحمة بالسكان ،
أما الصحراء فسكانها مبعثرون ، فيهم العرب ، وأكثرهم من البربر . وفي
الجهات الشمالية من الصحراء واحات تحتلها مدن مثل غرداية في إقليم مزاب ،
الذي يصيبه شيء من المطر ، وآباره كثيرة ، ومياها قريبة المنال . . كذلك
ربما وجدنا في الصحراء كتلاً جبلية ، يساعد ارتفاعها على إسقاط قليل من
المطر ، فينبت العشب ، الذي تجدد فيه الدواب قوتها وينمو النخيل الذي يساعد
ثمره على حياة الناس .

كانت هذه الصحراء الكبرى إلى وقت قريب من « الممتلكات » الفرنسية
فقد استطاعت فرنسا وقت التكالب على القارة الإفريقية في أواخر القرن

التاسع عشر ، وبعد أن استولت على الجزائر وبسطت « حمايتها » على تونس واستولت على نصيب طيب من سواحل خليج غينا في الجنوب ، وابتدع الاستعمار النظرية القائلة بأن من يملك الشاطئ يملك ما وراء الشاطئ ، استطاعت فرنسا أن تطبق هذه النظرية بحيث يمتد نفوذها إلى ما بين شواطئ البحر المتوسط ، وسواحل غينيا ، ولئن كان هذا الإقليم الواسع أكثره صحراء مجربة ، فإنه على كل حال يشعر من ينظر إلى الخريطة بضخامة الأرض التي تسيطر عليها فرنسا ، وتبسط عليها نفوذها ، وتستأثر بنجرها إذا كان فيها خير ولكن النهضة الاستقلالية الحديثة تناولت الصحراء فيما تناولت من الأقطار الإفريقية . فأصبحت الصحراء موزعة بين طائفة من الدول الجديدة : لكل منها نصيب من هذه الأقطار القليلة الماء والمرعى . . .

وبقطع النظر عن الجمهورية العربية المتحدة ، التي لها نصيب من الصحراء يدعى باسم صحراء ليبيا ، نرى أن المملكة الليبية لها نصيب عظيم من الصحراء يشمل القطر الجنوبي من برقة ، وإلى غربه إقليم فزان . يلي ذلك جمهورية الجزائر . فقد نالت من الصحراء نصيباً كبيراً بسبب امتداد أراضيها جنوباً إلى ما بعد خط العرض العشرين . واستطاعت الجزائر بهذا الامتداد أن تصبح إحدى الدول الثلاث الأكبر مساحة في القارة الإفريقية (السودان والكونغو والجزائر) .

أما المملكة المغربية ، فإنها تمس الصحراء مساً خفيفاً . . وجبالها العالية وفرت لها الماء والمرعى . والمطر الغزير . ولكن إلى جنوب المغرب إقليم يدعى « الصحراء الأسبانية » قليل السكان وقليل الخير ، وأسبانيا تعتبره مجرد نقطة عسكرية ، وبديهي أنه ليست هناك مصلحة عسكرية ، في تلك الجهات . وقد جاء في بعض المحلات حديثاً أن أسبانيا تفكر جدياً في التخلي عن الصحراء الأسبانية وإقليم إفني للمملكة المغربية^(١) ، لعل هذا أن ينسبها وجود بلدين

(١) جاء هذا الكلام في مجلة Foreign Affairs الأمريكية في عدد أبريل سنة ١٩٦٥ =

أسبانييتين على الساحل المغربي من البحر المتوسط ، كما أشرنا لذلك في الفصل السابق .

فالجزء الشمالى من الصحراء داخل أكثره فى مملكة ليبيا وجمهورية الجزائر ، والصحراء الأسبانية والجزء الجنوبى من الصحراء فى حدود السودان الشمالية الغربية وجمهورية تشاد وجمهورية النيجر ، والجزء الشمالى من جمهورية مالى وموريتانيا .

ونلاحظ أن الجزء الشمالى يستند إلى أقطار مطلة على البحر المتوسط ، والجزء الجنوبى يستند إلى أقاليم السفانا ذات المراعى الغنية . . ومع ذلك فبعض سكان الصحراء يتصل بالشمال والجنوب فى آن واحد ، ويسرون القوافل للتجارة عبر الصحراء .

* * *

وعلى الرغم من أن سكان الصحراء جماعات قليلة العدد ، فإن بعضهم اكتسب شهرة بعباداته وأسلوب معيشته . مما يبرر الحديث عنه بشئ من الوضوح .

والجماعات المستقرة فى صميم الصحراء هم سكان الواحات الشمالية فى إقليم مزاب وهؤلاء المستقرون استطاعوا أن يبنوا عاصمة لهم فى مدينة غرداية ، ومن حولها مدن أخرى . ويتألف السكان من عناصر مختلفة . ولكن الذين يطلق عليهم اسم المزابيين ، والذين لهم الفضل الأكبر فى تعمير الإقليم هم عبارة عن طائفة من الخوارج الإباضية هاجرت من البصرة فى القرن الثامن ، فلما بلغت هذا القطر المغربى - إلى الجنوب من جبال الأطلس فى الجزائر ، وجدت الناس فى جدل دينى عنيف ، حول بعض المذاهب النصرانية - فلم يجد الإباضيون صعوبة (على حد كلام الأستاذ برجمس Briggs) فى تحويل

= وإفنى Ifni عبارة عن موضع صغير على الساحل فى الجنوب الغربى من المغرب ، ولا يتجاوز سكانه البدو والحضر أربعين ألفاً . أما الصحراء الأسبانية إلى جنوب المغرب فلا يزيد سكانها على ٣٠,٠٠٠ معظمهم من البدو المور Moor .

السكان جميعاً - وأكثرهم من البربر - إلى الإسلام مع اعتناق المبادئ الإباحية المشددة . ولما كانت هذه المبادئ مما لا يروق لأولى الأمر في البلاد الشمالية ، فإن الإباحيين اختاروا أرض مزاب واتخذوها وطناً لهم ، حتى يكونوا معزول عن الاضطرابات التي قد تحل في الجهات الشمالية ، وليتقوا بعزلتهم أي نوع من أنواع الاضطهاد .

والمزاييون يتكلمون العربية والبربرية ، ويشغلون بالتجارة ، وأصبحت عاصمتهم سوقاً لسكان الصحراء وسكان الشمال . وربما وجدنا في مدن الجزائر الشمالية عدداً غير قليل من المزاييين ، لهم دكاكينهم الخاصة للبيع والشراء . ولكنهم لا يستقرون نهائياً في الشمال . بل يعودون إلى مزاب من آن لآن .

وفي الإقليم عدد كبير من الواحات الصالحة لزراعة البساتين . ولكن الذين يقومون بالعمل الزراعي جماعات يطلق عليهم اسم الحراثين ، وفي جميع أرجاء الصحراء تستخدم كلمة الحرث بمعنى الزراعة . وهؤلاء الحراثون يبدوون كأنهم خلاسيون ، لاختلاطهم ببعض العناصر الزنجية ، وهم سمر البشرة ، طوال الرأس ، والشعر مجعد جداً ، ولكن التقاطيع ، مثل شكل الأنف والشفيتين ، أقرب إلى ملامح القوقازيين . وهم عادة يشتغلون بالزراعة لحساب صاحب المزرعة ، الذي يوفر لهم البذور والمياه والأدوات الزراعية ، على أن يأخذوا نظير عملهم « خمس » المحصول . ولكن نظراً لأن صاحب المزرعة لا يعيش فيها ولا يزورها إلا نادراً ، فإن نصيب الحراثين يصل عادة إلى نحو الربع أو الثلث . . وحالتهم بوجه عام حسنة .

وهناك جماعات أخرى نزلت في إقليم مزاب . منها جماعة عربية تدعى مضابح ، وأخرى تدعى بني مرزوق . وقد جاءوا أول الأمر لتقديم مساعدات عسكرية ، واتخذوا مساكنهم في ظاهر المدن . وعلى مضي الزمن اندمجوا في السكان الأصليين . . وفي هذا ما يؤكد مرة أخرى أن السكان في إقليم مزاب خليط من العرب والبربر . ومنهم جماعة تدعى المخادمة ،

ولا يعرف متى نزلوا الإقليم . وهم في الأرجح أيضاً عرب مختلطون بالدم البربرى . وجدوا الفرصة سانحة لتأدية الأعمال التى ينفر منها سائر العرب والتجار . فأخذوا يكتسبون رزقهم بالعمل الجاد ، ولذلك أطلقوا عليهم اسم « المخادمة » وهم لا يختلفون كثيراً في مظهرهم الطبيعى عن سائر السكان .

إلى جانب هذه الجماعات توجد طائفة من اليهود ، لا تكاد تختلف في صفاتها الطبيعية عن الجماعات التى تعيش حولها . وإن كان هناك اختلاف في السحنة أو الملامح فإنه راجع في الأكثر إلى التزامهم الزواج مع أنفسهم ، فيزوج الرجل ابنة عمه . وأحياناً ابنة أخيه . . وأكثر ما يحترفونه صناعة المعادن ، والحلى ، والنجارة ، ويكادون يحتكرونها . ويصنعون الأثاث أيضاً ، كما أنهم بالطبع يشتغلون بالتسليف والربا ، وتستخدمهم السلطة في جمع الضرائب والعوائد ؛ ويحترفون أيضاً بيع الخمر . أى أنهم يقومون بالأعمال التى يأنف المسلمون أن يمارسوها ويرى برجس أن هؤلاء اليهود من أهل البلاد الأصليين ، وترجع هجرتهم إلى الجزائر إلى هجرة الفونيقين في القرن الثامن قبل الميلاد . ويتكلم هؤلاء اللغة العربية فيما بينهم . وإن كانت الدعاية الصهيونية حاولت إفسادهم .

* * *

إذا تركنا منطقة مزاب Mzab ، وأخذنا نتعمق في الصحراء ، ألفينا أمامنا نظاماً للحياة لا يكاد يختلف من مجتمع إلى آخر . وهذا النظام السائد يستند إلى البداوة . والانتقال من مكان إلى آخر . مع وجود منازل ثابتة يعود إليها البدو بعد النجعة الطويلة . ويعتمد البدو على الإبل في رحلاتهم الطويلة ، أياً كان القصد منها . وإن كانت لهم خيل فإنها للزينة والرياضة ونحو ذلك من أغراض . وكذلك يعتمدون على الضأن والماعز لغذائهم^(١) . . .

(١) Tribes of the Sahara by L.C. Briggs, (1960), p. 91

ولكل جماعة من رعاة الإبل هؤلاء نظامها الخاص ، وطبقاتها . وأسلوبها في الحياة . ولو أن أعمالهم متشابهة إلى درجة بعيدة . فكثير منهم يمتلك واحات أو شبه واحات يمكن أن تزرع ، فيستخدمون الحراثين لذلك . وبعضهم يستخدم الإبل في النقل والتجارة أو حماية القوافل . . أو الإغارة عليها . . وقد كانت الإغارة عند أكثرهم جزءاً لا يتجزأ من الحياة البدوية . وقد تغير الجماعة على أحياء من قبيلتها ، ولكنها في الأغلب تتجه للإغارة على قبيلة أخرى وقد يذهبون بعيداً في غاراتهم . . وقد يقطعون في الغارة الضخمة مئات من الأميال بين الذهب والإياب ويتمون هذه العملية في بضعة أشهر :

وتنقسم الغارات الصحراوية إلى قسمين : القصيرة المدى ، والبعيدة المدى ففي الحالة الأولى يكفي اتفاق بضعة أشخاص ، يترصدون قافلة آتية من بعيد ، ويمعنون في التخفي ، ثم ينقضون على القافلة مفاجئين . فلا يلبثون في بضع دقائق أن يجمعوا غنيمة تحتوي على سلاح ومتاجر ودواب ، ثم يفرون هاربين . ومثل هذه الغارات الصغيرة هي من صنع أفراد وليست من النشاط النظامي للقبيلة .

أما الغارة البعيدة المدى ، فإن لها مكاناً في نظام الحياة عند القبائل البدوية ذات القوة والجبروت . وهذه الغارات قد يبلغ عدد المشتركين فيها الخمسين ، ويتوقف عنصر النجاح فيها على المفاجأة التامة ، وعلى السرعة وتنظيم العمل بحيث يتم جمع الغنيمة والهرب بها بمنتهى السرعة . بحيث يتعذر أو يستحيل اللحاق بالمغربين . ولذلك يرسم المغيرون خططهم للإغارة على حالات قد تبعد عن خيامهم بنحو ٤٠٠ ميل ، ويسبرون نحو غايتهم في الطرق الوعرة ، التي لا يكاد يطررها أحد . فإذا اقتربوا من منازل العدو اختفوا عن الأنظار تماماً ، واستراحوا قليلاً ، وأخذوا يرسلون عيونهم ليتعرفوا حالة القطعان ومنتجعاتها ، حتى إذا آنسوا وجود قطيع كبير ، منعزل عن سائر الإبل . بادروا بالانقضاض عليه عند الصباح الباكر . واندفعوا بكل سرعة نحو ديارهم ، مصطحبين معهم الرعاة الذين كانوا يحرسون القطيع المنهوب ، حتى لا يسرعوا بتنبيه القبيلة .

مثل هذه الغارات كانت جزءاً لا يتجزأ من أعمال سكان الصحراء ،
يمارسها الجميع سواء أكانوا من العرب مثل الشاعبة ، أم المور ، أم من
البربر مثل الطوارق أو التيدا . وقد قلت هذه الغارات أو أصبحت نادرة
جداً ، بسبب سيطرة الدول الحديثة ، ووجود موارد جديدة للحياة . فقد
اختطت الطرق وسارت فيها قوافل السيارات ، وجد نشاط جديد في استنباط
البترول ، في جنوب الجزائر ، وفي ليبيا ، وفي هذا كله ما يفتح مجال العمل
وأبواب الرزق أمام كثير من البدو . وإن كان هذا لا يمنع وجود بعض
المجتمعات الصحراوية المحافظة على تقاليدها ، ولكن النواحي العدوانية في هذه
التقاليد قد تضاءلت كثيراً ولا يتسع المجال هنا للتحدث بالتفصيل عن كل
قبيلة من قبائل الصحراء .. ونكتفى بأن نختم كلامنا بالإلمام بذكر قبيلة الطوارق

الطوارق :

إذا ذكرت الصحراء لم يتبادر إلى الأذهان شيء كما يتبادر إليها ذكر
الطوارق ، فقد ألف الناس التحدث عنها ، حتى كأن الصحراء لا تشتمل
على قوم آخرين ، وهذا يشبه ما ذكره ابن خلدون عن شعب صنهاجة (أجداد
الطوارق) إذ يقول^(١) : « إن هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهو أكثر
أهل الغرب لهذا العهد وما بعده ، لا يكاد قطر من الأقطار يخلو من بطن
من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من
أول البربر . . . وذكر آخرون من مؤرخي البربر أن بطونهم تنتهي إلى سبعين
بطناً ، وذكر ابن الكلبي والطبري أن بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر »

هذا ما قاله ابن خلدون عن الأصول الضخمة لشعب صنهاجة أجداد
الطوارق . ثم تحدثنا بعد ذلك عن « الطبقة الثانية » منهم وسماهم صنهاجة الملمثين
الذين يلبسون اللثام على النحو الذي سنشرحه فيما بعد . ويقول ابن خلدون
عنهم :

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٦ ص ١٥٤ (طبع القاهرة) .

« هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون ، الموطنون بالقفر ، وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ؛ أبعادوا في المحلات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها ، فأصحروا عن الأرياف ، ووجدوا بها المراد ، وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا منها بالبان الأنعام ولحومها ، انتبازاً عن العمران ، واستثناساً بالانفراد ، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر ، فزاولوا ريف الحبشة (!) جواراً وصاروا ما بين بلاد البربر والسودان . واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم » (١).

هذا وصف دقيق لأجداد الطوارق في عهدهم الأول . وفيه زعم صريح بأن صنهاجة آثروا الصحراء على العمران . وهذا قول يسترعى الانتباه . فليس من عادة الشعوب ذات العزة والمنعة أن تؤثر الصحراء وتجلو عن الريف . . . وربما كان الأرجح أن يقال إن صنهاجة كانوا في أوطان كثيرة النبات والمرعى والمزارع والبساتين ، وسط ما يسمى الآن الصحراء ، التي لم تكن بعد قد تسرب إليها الجذب والجفاف . . وابن خلدون يعترف أن وجودهم في أوطانهم هذه يرجع إلى دهور قبل الفتح الإسلامي لا يعرف أولها . ومن المعروف أن الصحراء في هذه « الدهور » القديمة كان الماء والمرعى فيها متوافراً . فلما أخذ الجذب يمتد إليها انكمشت أوطان السكان ، وانتشروا في أرجاء الصحراء حتى وصلوا إلى إقليم السفانا جنوباً . (بلاد السودان كما يسميها ابن خلدون) .

أما أن صنهاجة أجداد الطوارق فما لا شك فيه ، فهم وحدهم من دون الناس الذين اتخذ رجالهم اللثام شعاراً .

والذين يتحدثون عن الطوارق اليوم يذكرون أن لسانهم فرع من اللغة البربرية الصنهاجية (٢) . فشعب الطوارق اليوم بشقيه الصحراوي والسوداني ، هما بقية الشعب الصنهاجي العظيم ، الذي كان له على الأرجح شأن في تاريخه

(١) ابن خلدون نفس المرجع ص ١٨١ .

(٢) Briggs نفس المرجع ص ١٢٥ .

الأول . وحسبنا دليلاً على ذلك أن الطوارق هم الوحيدون — دون جميع البربر — الذين لهم كتابة خاصة بهم ورثوها عن أجدادهم ويكتبون بها لغتهم . وتسمى اللغة تماهق Tamaheq والكتابة تفناغ Tifinagh .

على أن أحداً لا يذكر شعب صنهاجة اليوم ، بل الكلام كله على الطوارق ولا بد لنا أنه نستنتج أن الطوارق شعبة من صنهاجة ذات التاريخ المجيد .

* * *

إن الطوارق اليوم موزعون في أنحاء مختلفة من الصحراء ، يستوطنون أوطاناً متباعدة بعضها عن بعض ، وهذه الأوطان ما هي إلا البقية الباقية من أوطان أوسع وأعظم . . . ولعل التفسير الصحيح لتوزيع الطوارق في الوقت الحاضر ، أنهم حينما أخذ الجذب سبيله إلى الجهات الصحراوية . أخذت بطون تنزح إلى الجنوب ، ملتجئين إلى إقليم السفانا بالقرب من تمبكتو ، وما يليها شرقاً ، وهي جهات تقع اليوم في جمهورية مالي .

وعلى مضي الزمن استقر هؤلاء الطوارق « الجنوبيون » كما يسمون ، في هذه الأوطان الجديدة ، وانصرفوا إلى اقتناء البقر ، وقل اقتناؤهم للإبل ، وأخذ الكثير منهم يشغل بالزراعة . ولا يزالون على حالهم هذه إلى اليوم . وهؤلاء قد يصل عددهم إلى ربع مليون من الأنفس .

أما الذين آثروا البقاء في الشمال ، فإنهم تفرقوا والتجأت كل فرقة إلى منطقة من مناطق الصحراء الجبلية ، لأن بيئة الجبال أتاحَت للإقليم أن يحتفظ ببعض المطر ، إلى جانب ما يشتمل عليه من العيون والآبار .

فأصبح الطوارق الذين لا يزالون يسكنون الصحراء ثلاث شعب :

١ — تاسيلن — آجر (بتعطيش الجيم) Tissili-n-Ajjer

٢ — سكان جبال آهجر (الحجر) Ahaggar

٣ — وأدرارن إفوجاس Adrar-n-Ifogas

وهؤلاء الشماليون الثلاثة ، مجتمعين ، لا يزيد عددهم على ١٢,٠٠٠ ،
والشعبتان الأولى والثانية تقعان في الجنوب والجنوب الشرقي من جمهورية
الجزائر . . . والثالثة تقع في أقصى الشمال الشرقي من جمهورية مالي . . . وكل
شعبة من هذه الشعب مستقلة عن أخواتها . ولا تعمل متحدة ولا مشاركة في
أى مجهود . وربما كان الأهمجّر أكثر عدداً من الشعبين الآخرين ، وأكثر
احتفاظاً بالصفات الأساسية للطوارق ، وأقل اختلاطاً بعناصر أجنبية .

من ناحية الصفات الجسدية يوصف الطوارق بأنهم أطول قامة عن سائر
سكان الصحراء ولهم قامة نحيلة ولكنها مفتولة متينة « كأن عضلاتهم أسلاكاً
من الصلب » برغم ما يبدو من النحول في الصدر والكتفين ، والأطراف .

والبشرة بيضاء في الأجزاء غير المعرضة للشمس والضوء . . . والوجه
بيضى الشكل أو في شكل يقرب من المثلث عريض في أعلاه ، ثم يضيق
تدرجياً إلى الذقن : والأنف دقيق مستقيم أو بارز بانحناء يسير إلى أعلى .
والشعر أسود عادة ، ومن النادر أن تكون هنالك عيون صافية . ولو أن هذا
يحدث أحياناً . وقد يوجد أفراد يمتازون بالصهوبه وزرقة العينين ، ولكنهم
قليلون جداً .

ينقسم الطوارق — كما ذكرنا آنفاً — إلى ثلاث شعب : وكل شعبة تتألف
من الناحية الاجتماعية من ثلاث طبقات : السادة أو النبلاء : والموالى والعبيد .
هذه هي الطبقات التي يتألف منها المجتمع . ويكون فيه مقام الفرد تابعاً للعشيرة
التي ينتمي إليها . ولذلك يتحدث الطوارق عن العشائر النبيلة ، وعشائر الموالى
لذلك كانت الأقسام التي تنقسم إليها كل شعبة : هي القبائل ، ثم
العشائر ، ثم العماثر ، ثم الحصص . وعلى رأس الشعبة كلها رئيس أهم قبيلة
فيها . ويدعى أمينوكال Amenokal . وهو قلما يستبد بالحكم ، بل يشاور
الجماعة من طبقة النبلاء في كل ما يحزب من أمر .

وطبقة الموالى دون مرتبة النبلاء من الناحية الاجتماعية ، ولكنها تتمتع

بالحقوق الفردية ، وإن كانت لا تسمو إلى مرتبة النبلاء : . وعلى الموالى أن يقدموا بعض خراج الأرض إلى زعيم قبيلتهم أو إلى الأمينوكال .

والموالى يدينون للنبلاء بالاحترام والولاء ، ولكنهم فيما عدا ذلك أحرار : أما العبيد ، فأكثرهم جلب من الجنوب في أزمنة سابقة ، وهذا لا يحدث كثيراً الآن ولكن نسل العبيد السابقين ، يعدون أيضاً من العبيد ، ويؤدون جميع أعمال الخدمة المنزلية . . للأسر النبيلة ، التي يعنى رجالها بالتجارة وبرعى الإبل ، والإغارة وحراسة القوافل ونحو ذلك . والطوارق اليوم مسالمون ، على الرغم من كل ما اشتهر عنهم فيما مضى ، والعمران والتقدم كفيلا أن يجعلهم قادرين على الإسهام في بناء الوطن الجديد .

إن المقام لا يتسع لأن نطيل الكلام عن الطوارق ، وحسبنا أن نختم الحديث عنهم بالإشارة إلى « اللثام » الذى انفرد به الطوارق دون جميع الشعوب في جميع الأقطار : والذى يستعمله الرجال دون النساء . هذا اللثام يدعى عند الطوارق تجلموست Teguelmoust وهو عبارة عن شال يشبه شال العمامة ، ولعله أكبر نوعاً ، يلف حول الرأس والوجه ، تاركاً فتحة صغيرة بمحاذاة العينين ، لا يرفعه الرجل ولا يحركه إلا عند تناول طعامه . وفى تلك اللحظة يستر فيه بيده ، وبديهي أن لبس « اللثام » قديم ، ويرجع إلى ما قبل زمان ابن خلدون والبكرى وغيرهما من الكتاب العرب . ولم يحاول أحد منهم أن يشير إلى الأسباب التى حملت الطوارق على وضع هذا اللثام .

ولا يدري أحد متى ولا أين فكر الطوارق أو أجدادهم الصنهاجيون ، فى اتخاذ هذه السنة وفرض اللثام على الرجال دون النساء . إذ ليس فى الصحراء ولا غير الصحراء شعب خطر له مثل هذا الخاطر ، كما أنه ليس من السهل أن ندرك كيف فرض شيء كهذا على الرجال دون النساء . إن نساء الطوارق سافرات دائماً ، ويتمتعن بمكان ممتاز فى المجتمع ، وباحترام وتقدير منقطع النظير : ولكنهن لا يضعن لثاماً :

والكتاب العرب لم يحاول واحد منهم أن يتساءل عن هذا اللثام ، ما سببه وما فائدته . . كأنهم لم يجدوا في وجوده غرابة . أما في الأزمنة الحديثة . فقد حاول كثير من الكتاب الأجانب بحث الموضوع واستقصاءه ، فلم يحظوا من الطوارق أنفسهم بأى تفسير سوى « أنه هكذا يجب أن يكون » . أو « إنه ليس بمعقول أن يكشف الرجل عن وجهه » أو « إنه ليست هنالك أسباب خاصة من حرارة الجو أو التراب أو نحو ذلك ، بل إن الشيء الطبيعي أن يلبس الرجل اللثام » . . . الخ . الخ .

وقد تعرض الأستاذ Briggs في فصل طويل في كتابه عن سكان الصحراء^(١) ؛ لهذا الموضوع وانتهى إلى أنه بالرغم من إنكار الطوارق ، لا بد أن تكون طبيعة البيئة الصحراوية هي التي فرضت هذه العادة . ولم تفرض على المرأة ، لأنها تعيش عادة في حفظ وصون من تقلبات الجو والمنغصات الصحراوية :

• • •

إلى جانب الطوارق ، هناك جماعات صحراوية تحسن الإشارة إليها ، وأكثرها تعيش في بيئة مشابهة لبيئة الطوارق . ومن أهم هذه الجماعات شعب « تيدا » الذي يسميه بعض الكتاب تيبو Tibbu ، ولكنهم يدعون أنفسهم تيدا Teda . لهم بيئتهم الجبلية في جبال تيبستي Tibesti إلى الجنوب من حدود المملكة الليبية . وهي واقعة الآن في الجزء الشمالى من جمهورية تشاد وكانوا فيما مضى يكثر من الإغارة في النصف الشرقى من الصحراء : ومن المؤكد أنه كانت لهم فيما مضى صلات مع الطوارق ، على الرغم من تبادل الغارات في الأزمنة الحديثة . . ولهم إبل وضأن وماعز . وأشجار ونخل . وفي بيئتهم الجبلية قمم بركانية يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر . كما هي الحال في بيئة طوارق الأهجار :

(١) ص ١٥٢ وما بعدها .

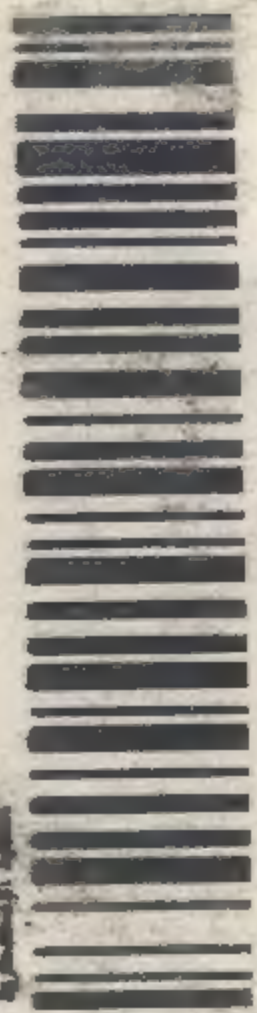
ولكن علاوة على بعض التشابه بين مجتمع التيدا ومجتمع الطوارق :
فهناك فرق كبير في اللغة ، فإن لغة التيدا بعيدة كل البعد عن اللغات البربرية .
كان الجيل القديم من علماء اللغات يصف لغة تيدا بأنها « سودانية » . ولذلك
كانت الخرائط القديمة - بل وبعض الحديثة - تتساهل وتمد انتشار السلالات
الزنجية إلى حدود ليبيا . ولكن الأستاذ جرينبرج العالم الضليع في لغات
إفريقية . قد جعل لغة التيدا لساناً مستقلاً كل الاستقلال عما حوله من اللغات
وليس له نظير في المجموعات الإفريقية الأخرى . ولا عبرة بما يكون قد
تسرب إليه من ألفاظ من بعض الأقطار المجاورة .

وقد نفذ تأثير جبال تبستي إلى السودان ، في الجزء الشمالى من مديرية
دارفور حيث نجد جماعات تتكلم لغة التيدا مثل القرعان والبدايات والزغاوة^(١) .

(١) راجع كتاب السودان الشمالى للمؤلف ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

مطالعہ کوستا اسوامس و شہر گاہ
۵ شایع وقت بھر دہلی انعامی ج ۲۰
شعبہ ۹۰۰۱۱۸ ص ۶۲۱۱

Bibliotheca Alexandrina



0406012

مطالع کوستا اسوماس وشرکاء
۵ شایع وقت بحر طلس الظاهر ع.ع. م.
شيفون ۹۰۰۱۱۸ م.ت ۱۳۴۱

۵۲